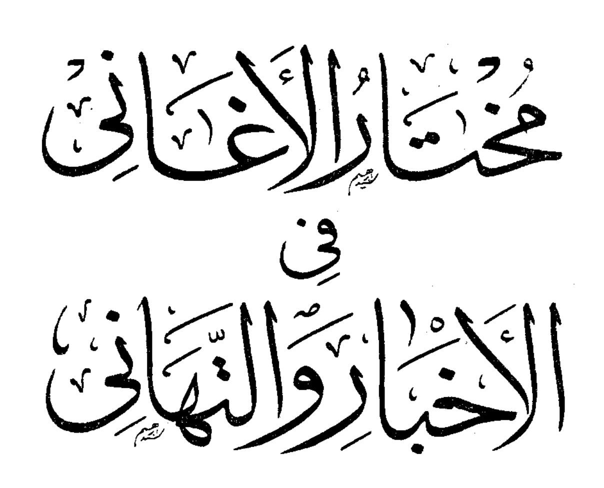
تراثنا



اختيار

ابن منظور محمد بن مكرم

٦٣٠ هـ — ٧١١ هـ

الجزء السابع

تحقيق

عبد العزيز أحمد

الدار المصرية للتأليف والترجمة

خرج هــذا الـكتاب بالتعــاون

مع

معهد المخطوطات العربية بجـامعة الدول العربية

القاهرة

١٣٨٦هـ — ١٩٦٦م

طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه

ج٠ع٠م٠

حرف الميم

مغيرة الأقيشر[1]

هو المغيرةُ بنُ عبدِ الله بن مُعْرِض بنِ عمرو بن مُعرض بنِ أسد بن خُزَيْمة ابن مدركة بن إلياس بن مضر . وكنيته أبو مُعْرِض ، والأُقَيْشِرُ لَقَبٌ لُقِّبَ به ، لأنه كان أحمرَ الوجه أقْشَر[2] ، ومن شِعْرِه الدالّ على كُنْيَته قوله :

فإنّ أبا مُعْرِضٍ إذ حَسَا ... من الخمر[3] كأسًا على المِنْبَرِ

خَطيبٌ لبيبٌ أبو مُعْرِضٍ ... فإنْ لِيمَ فى الخمرِ لم يَصْبِرِ

وعُمِّرَ عُمرًا طويلا ، وكان أقْعَد[4] بنى أسد نسبا ، وما أخْلَقَه بأن يكون وُلِد فى الجاهلية ، ونشأ فى الإسلام ، لأن سِماكَ بْنَ مَخْرَمَةَ الأسدىَّ صاحبَ مسجدِ سِماكٍ بالكوفةِ بناه فى أيام عمر ، وكان عثمانيّا ، وأهلُ تلك المَحِلّةِ إلى اليوم كذلك . وعَلِىّ بن أبى طالبٍ لم يُصَلِّ فيه ، وأهل الكوفةِ إلى اليوم يَجْتَنِبونه . ويقال إن الذى بناه سِماكُ بن حُمَيْد بن بلْث بن عوف بن عمرو بن مُعْرِض بن أسد ، وقد قال الأُقيشر فى المسجد شعرا ، وهو أكبرُ مسجد لِبَنِى أَسَد ، وهو فى خِطَّة بنى نصر بن قُعَيْن :

---

(١) الأغانى : ١١ : ٢٥١ دار الكتب تجريد ١٢٩٧ .

(٢) الأقشر : الشديد الحمرة . ـ الأبرص .

(٣) الراح (أغانى ـ تجريد) .

(٤) يقال هو قعيد النسب وأقعده : قريب الآباء من الجد الأكبر (قاموس) .

عَجِبَتْ[١] دودانُ من مَسْجِدنا ... وبه يَعْرِفُهم كلُّ أحَـدْ
لو هَدَمْنا غُـدْوَةً بُنْيـانه ... لانمَحَتْ أسماؤُهم طولَ الأبدْ
اسمه[٢] فيهم وهم جـيرانُه ... واسْمُه الدَّهْرَ لعمرِو بنِ أسدْ
كلما صَـلَّوْا قَسَمْنا أَجْرَه ... فلنا النِّصْفُ على كلِّ جَسَدْ[٣]

فحلفت بنو دودان ليَضْرِبُنّه . فأتاهم فقال : قد قلتُ بيتاً مَحَوْتُ به ما كنتُ قلت . قالوا : وما هو يا فاسق ؟ قال : قلت :

وبنـو دُودانَ حيٌّ سـادةٌ ... حَلَّ بيتُ المجـدِ فيهمْ والعَدَدْ

فتركوه .

وكان الأقيشر كوفيًّا خليعاً ماجناً مدمناً شُرْبَ الخمرِ ، وكان يكْرَه هذا اللَّقَبَ . قال المدائنى : مر الأقيشرُ يريدُ الحِيرَةَ ، فاجتاز على مجلس لبنى عَبْس . فناداه أحدهم يا أُقَيْشِر ، فزجره الأشياخ ، ومضى الأقيشرُ ثم عاد إليـه ومعه رجل ، وقد قال له : قف معى فإذا أنشدتُ بيتـاً فَقُلْ لى : ولِمَ ذلك ؟ ثم انْصَرِفْ وخُذْ هذين الدرهمين . فقال له : أنا أصيرُ معك يا أبا مُعْرِض إلى حيثُ شئت ولا [أرزؤك][٤] شيئاً . قال : فافعلْ . فأقبلَ معه حتى أتى مجلس القوم فوقفَ عليهم ثم تأمَّلهم ، وقد عرف الشابَّ فأقبل عليه وقال :

أتَدْعونِى الأُقَيْشِرَ ذلك اسمى ... وأدْعوكَ ابنَ مُطفِئَةِ السِّراجِ

فقال له الرجل : ولم ذاك ؟ قال :

تُناجى خِدْنَها فى الليلِ سِرًّا ... وربُّ الناسِ يَعْلَمُ ما تُناجى

فلُقِّبَ ذلك الرجلُ ابنَ مُطفِئة السراج .

---

(١) غضبت (أغانى ــ تجريد) .
(٢) اسمهم فيه (أغانى) .
(٣) أحد (مختار الأغانى) .
(٤) غير واضحة فى الأصل وما بين القوسين عن الأغانى .

وكان الأقيشرُ عِنِّيناً لا يأتى النساء ، وكان كثيراً ما يَصِفُ ضِدّ ذلك من نفسه ، فجلس إليه يوماً رجلٌ من قيس فأنشده الأقيشر :

ولقد أروحُ بمُشْرِفٍ ذى مَيْعَةٍ[1] عَسِر المَكَرّةِ ماؤه يتفَصَّدُ
مَرِحٍ يطيرُ من المَراحِ[2] لُعابُه ويكاد جِلْدُ إهابِه يتَقَدَّدُ[3]

ثم قال للرجل : أتبصرُ الشِّعْرَ ؟ قال : نعم . قال : فماذا وَصَفت ؟ قال : فرَسا ، قال : أفكنتَ لو رأيتَه ترْكَبُه ؟ قال : أىوالله ، وأَثْنِى عِطْفَه ، فكشفَ الأُقَيْشِر عن أَيْره ، وقال : هذا الذى وصفتُه فقُمْ فاركبه ، فوثب الرجلُ عن مجلسه ، وقال : قَبّحَك الله من جليس سائِرَ اليوم .

وكان الأُقيشر لا يسأل أحداً أكثرَ من خمسةِ دراهمَ ؛ يجعلُ دِرهمين للشرابِ ودرهما للطعام ودرهمين فى كِراء بَغْل إلى الحيرة . وكان له جارٌ يُكْنَى أبا المضاء له بَغْل يكريه منه فيركَبُه إلى الحِيرة فينزلُ عند الخَمّارِ ويربطه بَسَرْجِه ولِجامه — فيقال: إنه أعطاه ثمنَه فى الكِراء — ويجلسُ يشربُ حتى يُمْسِى ثم يركَبُه وينصرف . فأتَى يوما من الأيام بيتَ الخمَّار الذى كان يأتيه فلم يُصادِفْه فجعل ينتظِرُه ، ودخلت الدارَ امرأةٌ عِباديَّةٌ فقال لها : ما فعل فلان ؟ قالت : مضى فى حاجته وأنا أُمُّه فما تريد ؟ فقال : نبيذاً قالت : بكم ؟ قال : بدِرْهمين . قالت : هَلُمَّ دِرهميك وانتظِرْنى . قال : لا بل أكونُ معك . قالت : أنت وذلك ، ومضت وتبِعها فأدخلته داراً لها بابان وخرجت من أَحَدِها وترَكَتْه . فلما طال جلوسُه خرج إليه بعضُ أهلِ الدار وقالوا : ما الذى يجلسك ؟ فأخبرَهم . فقالوا : تلك المرأةُ مُحتالة ، يقال لها أم حُنَيْنٍ

---

(١) رَوى : ذى شعرة وذى كرة (أغانى) .
(٢) المراح : النشاط .
(٣) وفى الأغانى : وتكاد جلدته به تتقدد .

من العِباديِّين . فعلم أنه قد خُدِع وانصرف إلى خَمَّارِه فأخبره بالقصة وقال : أَنْسِئْـنِى اليومَ واسْقِـنِى ففعل . وأنشأ الأقيشر يقول :

لم يُغَرَّرْ[1] بذاتِ خُفٍّ سِوانا ... بعـد أمِّ[2] العِبـادِ أمِّ حُنَيْنِ

وعدَتْنا بدِرْهَمين طـلاءً[3] ... أو طلاء مُعَجَّلًا غـيرَ دَيْنِ

ثم أَلْوَتْ بالدرهمين جميعاً ... يالقَوْمى لضيعةِ الدِّرْهمين

عاهدتْ زوجَهـا وقد قال إنِّ ... سوف أغدُو لحاجتى ولِدَيْـنى

فدعتَ كالِحصانِ أبيضَ جَلْداً ... وافِرَ الأيْرِ مُرْسَل الُخصْيَتَيْن

قال ما أجْرُ ذا هُدِيتِ فقالت ... سوف أُعْطيك أجْرَه مرَّتَيْنِ

فابدأ الآن بالسِّفاحِ فلمـــا ... سافَحتْه أرختْه بالأُخْرَيْنِ

تَلَّهَا[4] للجبينِ ثم امْتَطاها ... عَالِمُ الأيْرِ أفْحَجُ الحالِبَيْن

بينما ذاكَ منهما وهى تَحْوِى ... ظهـره بالبنانِ والمِعْصَمَيْن

جاءها زوجُها وقد شَامَ فيها ... ذاانتصابٍ[5] مُوَثَّقَ الأَخْدَعَيْنِ

فتأَسَّى وقال : ويْـلٌ طويلٌ ... لحنينٍ من عارِ أمِّ حُنينِ

فجاء حُنينٌ الخَمَّارُ وقال : يا هـذا ما أردتَ إلا هِجائى وهجاءَ أمِّى . قال : أخَذتْ منى دِرهمين ولم تعطنى شرابا . قال : لا والله ما تَعْرِفُك أمى ، ولا أخذتْ منك شيئا ، فانظر إلى أمى فإن كانت هى صاحبَتَك غَرِمْتُ لك الدِّرهمين . قال : لا ، [والله] ما أعرفُ غيرَ أمِّ حُنين . فإن كانت أمَّك فإياها أعْـنِى ، وإن كانت

---

(١) لا تغرن ذات (تجريد) .

(٢) أخت العباد (أغانى ــ تجريد) .

(٣) نبيذا (أغانى ــ تجريد) .

(٤) تلها : ألقاها على وجهها ــ وأفحج الحالبين : متباعد ما بينهما .

(٥) شيم منها . . ذو انتصاب (تجريد) .

أمّ حنينٍ أُخْرى. فإياها أعنى . فقال: إذًا لا يُفرِّقُ الناسُ بينهما ، فقال: ما علىّ إذًا !!
أترَى يضيعُ الدرهمان عَلَىَّ ! فقال له : هلم إذًا أَغْرمهما لك وأَقِمْ ما تحتاجُ إليـه ،
لا بارك الله لك ! ففعل .

قال رجلٌ من بنى أسد : سمعت عَمّةَ الأقيشرِ تقول للأُقيشر يوماً : اتّقِ اللّهَ
وقُمْ فَصَلِّ ، فقال : لا أُصَلِّى . فأكثرتْ عليه ، فقال : أبْرَمْتِـنِى فاختارى خصلةً
من خصلتين : إما أن أُصَلِّىَ ولا أَتَطَهَّر أو أتطهرَ ولا أُصَلِّى . قالت : قبحك الله !
إن لم يكن غيرُ هذا فصلِّ بغير وضوء .

كان قيسُ بنُ محمدِ بن الأشعث تَنَسَّكَ وكان ضريرا فأتاه الأقيشرُ فسأله ،
فأمرَ قهرمانَهُ أن يُعطيه ثلاثمائةِ دِرهم ، فقال : لا أريدها جملةً ولـكن مر القهرمانَ
أن يُعطينى فى كل يوم ثلاثةَ دراهم حتى تَنْفَدَ ، ففعل ، فـكان يأخذها دِرهما للطعام
ودرهما لشرابه ودرهما لدابة تَحْمِله إلى بيتِ الخمارين . فلما نَفِدَتْ الدراهمُ أتاه فسأله
فأعطاه ، ففعل بها مثل ذلك . وأتاه الثالثة فأعطاه ففعل مثلَ ذلك . فأتاه الرابعةَ
فقال له قيس : لا أبا لك ! كأنك قد جعلتَ هذا خراجا علينا . فانصرَف وهو يقول:

ألم تر قيْسَ الا كْمَهَ ابنَ محمـــد يقول ولا تلقاه للخيرِ يفعَلُ
رأيْتُكَ أعمى العينِ والقلبِ مُمْسِكاً وما خيرُ أعمى العينِ والقلبِ يَبْخَلُ
ولو صمَّ تمت لعنةُ اللهِ كُلُّها عليه وما فيه من الشرِّ أفضلُ

فقال قيس : لو نجا أحدٌ من الأقيشر لنجوتُ منه.

اختصم قوم بالـكوفة فى أبى بكر وعمر وعثمان وعلىّ [رضوان الله عليهم][1] .
فقالوا : نجعلُ بيننا أولَ من يَطْلُـع علينا . فطلع الأقيشرُ عليهم وهو سكران ،
فقال بعضهم لبعض : انظروا من حَـكَمُنا . فقالوا : يا أبا مُعْرِض قد حكّمْناك . قال :
فبماذا ؟ فأخبروه . فـكث ساعةً . ثم أنشأ يقول :

(١) غير واضحة فى الأصل وما أثبتناه عن الأغانى .

إذا صَلَّيتُ خَمْسًا كلَّ يومٍ ... فإن الله يَغْفِرُ لى فُسوقِ

ولم أُشْرِكْ بربِ الناسِ شَيْئا ... فقد أمسكتُ بالحبلِ الوثيق

فهذا الحقُّ ليس به خَفاءٌ ... فدَعْنِى من بُنَيَّاتِ الطريق

تزوجَ الأقيشرُ ابنةَ عمٍّ له يقال لها الرَّباب ، على أربعةِ آلاف درهم ، ويقال : على عشرة آلاف درهم ، فأتى قَوْمَه فسأَلَهم فلم يُعطوه شيئاً فأتى ابنَ رأْسِ البَغْلِ ، وهو دهقان للصِّين ، وكان مَجُوسِيًّا فسأله فأعطاه الصَّداق كاملًا فقال الأقيشر :

كفانِى المجوسىُّ مَهْرَ الرَّبابِ ... فدًى للمجوسىِّ خالِى وعمْ

شهدتُ بأنك رَطْبُ اللسانِ[1] ... وأن أباكَ الجوادُ الخِضَمْ

وأنك سيدُ أهـلِ الجحيمِ ... إذا ما تَرَدَّيت فيمن ظَلَمْ

تجاوِرُ هامانَ[2] فى قَعْرِها ... وفرعونَ والمُكْتَنى بالحَكَمْ

فقال له المجوسىُّ : ويحك ! سألتَ قومَك فلم يُعطوك شيئا ، وجئتنى فأعطيْتُك ، فجَزَيتَنى هذا القولَ : ولم أُفلِتْ من شَرِّك ! قال : أَوَ ما تَرْضى أن جعلتُك مع الملوكِ وقرينَ أبي جَهْل ! . وجاء إلى عكرمةَ بن رِبْعىٍّ التميمى فسأله فلم يعطه فقال فيه :

سألت ربيعـــةَ مَنْ شَرُّها ... أباً ثم أمًّا فقالوا لِمَهْ

فقلت لأعْلَمَ مَنْ شَرُّكم ... وأجعلَ بالسبِّ فيكم[3] سِمَهْ

فقالوا لعكرمةَ المُخْزِياتُ ... وماذا يرَى الناسُ فى عِكْرِمَهْ

فإن يك عبـــداً زكا مالُه ... فما غيرُ ذا فيه من مَكْرُمَهْ

مر الأُقَيْشرُ ببنى رُؤاسٍ وقد أُقيمَت الصلاةُ فدخل فصلَّى معهم وهو سكرانُ فضحكوا منه فقال :

---

(١) رطب المشاش (أغانى) .

(٢) قارون (أغانى) .

(٣ فيه (أغانى) ١١ / ٢٦٦ .

أُصَلِّى حيثُ تُدْرِكُنى صلاتى ... وليس البِرُّ وَسْط بنى رُؤاسِ
قُبَيِّلَةٌ هُمُ أذنابُ قيْسٍ ... إذا ذُكِرُوا وما ذَنَبٌ كراسِ
تَرَدَّى اللؤمُ ثم أقام فيهم ... وألْقَى بالكلاكلِ والمَرَاسِى

كان الأقيشرُ يأتى الحيرةَ ، فلما دخل شهرُ رمضان منعهُ ابنُ عمه أُسيدُ من الخروج إليها والشُّرْبِ . فلَقِيَه صاحبٌ له ، وقد شَحَبَ لونُه وهَزُلَ فقال : مالى أراك مُتغيرا يا أبا مُعْرِض فقال :

أمّا ترانى قد هَلَكْتُ فإنما ... رمضانُ أهلكنى ودينُ أَسيدِ
هذا يُصَرِّدنى(١) ولستُ بشاربٍ ... وأخٌ يُؤَرِّقُنى مع التصريدِ

شَرِبَ الأقيشرُ حتى سَكِرَ فسقط وبَدَتْ عورتُه فنظرت إليه امرأةٌ وضحكت منه وأقبلتْ تلومه وتقول : يا شيخ ألا تَسْتحى أن تبلُغَ بنفسك هذه الحالَ، فأنشدها :

تقولُ يا شيخ أَلَا تَسْتَحِى ... من شُرْبِكَ الخمرَ على المَكْبَرِ
فقلت لو باكرتِ مَشْمُولَةً ... صهباءَ مِثْلَ الفرسِ الأشقرِ
رُحْتِ وفى رِجْلَيْكِ عُقَّالَةٌ ... وقد بدا هَنْكِ مِنَ المِئْزَرِ

شرب الأقيشرُ فى خَمَّارَة حتى أنفدَ ماله ، ثم شرب بثيابه حتى غلقت ، فلم يبق عليه شىء ، وجلس فى تبنٍ إلى جانب البيتِ إلى حَلْقة مُسْتَدْفِئا ، فمر عليه رجل ينشد ضَالَّةً . فقال : اللهم ارْدُدْ عليْه واحْفَظْ علينا . فقال له الخمار : سَخِنَتْ عينُك ، أى شَىْءٍ يحفظُ عليك ؟ قال : هذا التبن ألّا تأخذه لِعَلَفِ حمارك [فأموت من البرد] فضحك الخمارُ ورد عليه ثيابَه وقال : اذهب فاطلبْ ما تشربُ به ولا تجئْنى بثيابِك فإنى لا أَسْتَرْهِنُها أبداً بعد هذا .

مرّ مسكين الدارى بالأقيشر فقال له : هل لك يا أقيشر فى المهاجاة ؟ فقال له الأقيشر :

(١) صرد الرجل : سقاه دون الرى ، أى إطفاء الغليل .

فلا أَســداً أَسُبُّ ولا تَميماً   وكَيْفَ يجوز سَبُّ الأَكْرَمِين
ولـكنَّ التقارضَ[١] حلَّ بيني   وبينَك يابن مُضْرِطة العَجِين

فصاح الصبيانُ به : يامسكينُ يابنَ مضرطةِ العجين ، فهرب منهم .

أُتِي عكرمةُ بن ربعى وهو عَلَى شُرْطة بشر بن مروان برجل جُعْفِيٍّ شارب فقال له الجعفى :

أعِكْرِمَ دعنى اليـوم لا تَسْلُبَنَّنِى   ولا تُلْحِقَنْ بى خِزْيةً لا أُطيقها
وعَـفٌّ على ذَنْـبِى بحِلْمك إننى   طليقُك تجزى كل نفس طليقها
لك الله لا تؤتَى بى الدهرَ شاربا   ولوجَفَّ من صَحْبِي الغداةَ حُلوقُها

فخلى سبيله ، فقال الأقيشر من أبيات :

أعكرمَ أحْلَلْتَ الخمورَ لأَهْلِهـا   إذا حلموا والحِلمُ خيرٌ من الجَهْل
أَحَلَّ لنـا ماء [الـكروم أميرُنا   فصرنا] سكارى والمراجل قد تَغْلِى
فلا تشربوا [إلا الخمور فإننى][٢]   رأيتُ أَخا الصهباء أعرفُ بالفضلِ

فبلغ الخبرُ بشرَ بن مروان فقال لعكرمة : أكان الجعفىُّ سكران ؟ فقال : والله ما فَتَّشْتُه فلقد علمت أنه شاربٌ ، ولا أدرى ما شَرِبَ ولا كيف كانت حاله . فقال له بشر : إياك وتعطيلَ الحدودِ ، ماظَهَرَتْ ، وإياك والتفتيشَ والتجسُّسَ ؛ فإنه لا يحلُّ لك وادْرَأ الحدودَ بالشبهات ، ولا تَأْخُذْكَ فى اللهِ لومةُ لائم ؛ فإنه لا يَنْفَعُك من الله نافعٌ ولا يُنْجيكَ منه أحد .

قال عبد الملك بن مروان للأُقيشر : أنْشِدْنى أبياتك فى الخمر فأنْشَده :

تريك القَذَى من دونِه وهْىَ دونه   لوَجْهِ أخيها فى الإناء قُطوبُ

---

(١) ولـكن التيمى حال (أغانى ١١ : ٢٥٤) .

(٢) مابين الأقواس غير واضح بالأصل وهو عن الأغانى.

كُمَيْتٌ إذا سُحَّتْ[١] وفى الكأس وَردةٌ ... لها فى عظام الشاربين دبيبُ

فقال له : يا أبا مُعْرِض أَجَدْتَ وصفها . [وأظن أنك][٢] شربتها فقال : يا أمير المؤمنين إنه لَتَرِيبُنى منك مَعْرِفَتُك بها .

قدم رجل من بنى سَلولٍ على قُتيبةَ بن مُسْلِم بكتابِ المُعَلَّى بن عمرو المُحَارِبىّ عاملِ قتيبةَ على الرَّىّ ، وكان قدامةُ بنُ جعدة بنِ هُبَيْرة المخزومِىُّ بالباب فرأى الرسولَ فدخل قدامةُ على قُتيبةَ وكان صديقا له فقال : بِبابك ألأمُ العرَب ، سلولِىٌّ رسولُ مُحارِبىٍّ إلى عامِلِىّ . فتبسم قتيبة تبسُّما فيه غيظ . وكان قدامةُ يُتّهم بشُرْبِ الخمر ، وكان الأقيشرُ ينادمه . فقال قتيبةُ : ادعوا لى مرداس بن جُذام الأَسَدِىّ ، فأتاه فقال له : أنشِدْنى ما للأقيشر فى قدامة بنِ جُعْدة وهما بالحيرة . فأنشده :

رُبَّ ندمانٍ كريمٍ ماجدٍ ... سيِّدِ الجدَّيْن من فَرْعَىْ مُضَرْ
قَدْ سَقَيْتُ الخمرَ حتى هَرَّها ... لم يُخالِطْ صَفْوَها منه كَدَرْ
قلت قم صلِّ فصلَّى قاعداً ... تَتَغَشَّاه سَمَادِيرُ السَّكَرْ
قَرَنَ الظُّهْرَ مع العصرِ كما ... تُقْرَنُ الحِقَّةُ[٣] بالحِقِّ الذَّكَرْ
تركَ الطُورَ[٤] فلم يَقْرَأْها ... وقرا الكَوْثَرَ من بينِ السُّوَرْ

قال : فتغير وَجهُ قدامةَ وخَجِل . فقال له قتيبة : هذه بتِلْك ، والبادى أظلم .

لما خَرَجَ ابن الأشعث خرجَ معه مطر بن ناجية وبنو تميمٍ فاستعمل مطراً على

---

(١) فضت (تجريد) .
(٢) مابين القوسين عن التجريد .
(٣) الحق من الإبل الطاعن فى الرابعة للذكر والأنثى، سمى بذلك لاستحقاقه أن يحمل عليه وينتفع به .
(٤) الفجر (أغانى) .

ناحيةٍ من النواحى ، فلما دخلها خطَبَ على المنبرِ فانـكَسر من تحتِه وسقط عنه فقال الأقيشرُ فى تلك :

أبنى تَميمٍ مالِمنْبَرِ مُلْـكِـكُمْ لا يَسْتَقِرُّ وَعودُه يَتمَرْمَرُ[(١)]

إن المنابِرَ أنْـكَرَتْ أسْتَاهَـكُم فادعوا خُزَيْمَـةَ يَسْتَقِرُّ المِنْبَرُ

كان الأقيشرُ امتدح عبدَ اللهِ بنَ إسحاقَ بن طَلْحة بن عبد الله فلم يُعْطِه شيئا فهجاه ، وعاود ذلك ومدح أخاهزكريا، فقال عبدُالله بن إسحاق لغلمانه: ألا تريحوننى منه . فجمعوا بعراً وقصباً [بظَهْرِ الـكوفَةِ] ، وأقبلَ الأقيشرُ من الحيرة سكران [على] بغل أبى المضاء فأنزلوه عن البغل [وأخذوا] الأقيشرَ [فشدّوه][(٢)] رباطا ووضعوه وألهبوا النار فى القصب والبعر وجعلت الريح تَسْفَع وجهـه وجسمه بتلك النار فأصبح ميتا ولم يُدْرَ من قتَلَه . وقيل : أن بنى أسد ادعَوْا على عبد الله بن إسحاق قَتْلَه فافتدَى منهم بدِيَته .

(١) ما يستقر قراره يتمرمر (أغانى) .

(٢) ما بين الأقواس غير واضح فى الأصل وهو عن الأغانى .

محمد بن الحارث(1)

هو محمدُ بن الحارثِ بن بُسْخُنَّر ، كنيته أبو جعفر ، وهم من موالِي المنصورِ قال : أحسبه ولاءَ خدمةٍ لا ولاء عِتْق ، وأصلُهم من الرَّى من أولاد المرازِبَة وقيل : من أولاد بِهْرام جوبين .

وكان أبوه رفيعَ القدْرِ عند السلطان من وجوه قواده ، وولَّاه الهادى ، ويقال : الرشيدُ ، ولَّاه الحربَ والخراجَ بكُوَرِ الأهوازِ . وُلد بالحيرة ، كان يغنى بالمِعْزَفَةِ ، وكانت تُحْمَلُ معه إلى دار الخليفةِ ، فمرّ غلامُه بها يوما فقال قومٌ كانوا على الطريق : مع هذا الغلام مَصْيدةُ الفارِ . فقال بعضهم : لا هذه مِعْزَفَةُ محمدِ بنِ الحارث . فحلف يومئذ بالطلاقِ والعتاقِ ألّا يُغنِّى بمعزفة أبداً أَنَفَةً أن تُشَبَّهَ آلةٌ يُغَنَّى بها بِمَصيدة الفارِ . وكان من أحسنِ خَلْقِ الله أداءً وسرعةَ أخذٍ للغناء . وكان لأبيه الحارث جوارٍ مستحسناتٌ يُجِدْنَ فى غنائِهن حتى أن مُخَارِقاً غَنَّى يوما للمأمونِ فالْتاثَ غناؤه وأتى بصَوْتِه مُضْطَرِبا فقال إسحقُ للمأمون : يا أمير المؤمنين . إن مخارقاً قد أعْجَبه صوتُه وساء أداؤه فى غنائه ، فمره أن يُلازِمَ جوارِىَ الحارث بن بُسْخُنَّر يعود إلى ما تريد .

قال علىُّ بن يحيي المنجِّم : كنت يوما فى منزلى ، فجاءنى محمدُ بن الحارث مُسلِّما وعائداً من مرض ، فسألتُه أن يُقيم عندى ، ودعوتُ بما حَضَر فأكلنا وشربْنا فغنّانا محمد هذا الصوت :

أمِنْ ذِكْرِ خَوْلٍ عينُك اليومَ تدمَعُ ... وقلبُك مشغول بخولةَ مُولَعَ
فقلتُ كذاكِ الدهرُ يا خولَ فاعلمى ... يُفرِّقُ بين الناسِ طورًا ويجمعُ

---

(1) الأغانى ١٠ : فى مواطن متفرقة .

قال عليّ بن يحيي : فقلتُ له : قد رَددت هذا القولَ مرارا ، وإن لك فى هذا الصوتِ مَغنًى ؛ لأنك كررته من غير أن يَقْترحه أحد عليك . فقال : نعم ، هذا صوتى على جاريةٍ من القِيانِ كنت أُحِبُّها فأخذته منها ، فقلت : فلم لا تواصلها ؟ فقال :

لو لم أَنِكْها دام حُبِّى لها ... لكنَّنى نِكتُ فلا نِكْتُ

قال : فأجبتُه فقلت :

أكثرتَ من نَيْكِهاوالنيكُ مَفْسَدَةٌ ... فارفُقْ بنفسِك إن الرفقَ محمودُ

قال محمد بن الحارث : كنت بالدير ، وكان رجلٌ من أهلها يَخْدمنى فيُكرِمُنى ويذكرُ قديمنا ويَترَحَّم على أبى ، فقال لى رجل من أهل الناحية : أتعرف شُكْرَ هذا لأبيك ؟ قلت : لا ، قال : إن أباه حدثنى وكان يُعْرفُ بابن بانة أن أباك الحارثَ اجتازَ بهم يريد الأهوازَ ، فتلقاه بدجلة العوراء وأهدى له صُقورًا وبواشقَ صائدة فقال له الْحَق بى إلى الأهواز ففعل ، فقال له يوما : إنى نظرتُ فى أعمالِ الأهواز فلم أجد شيئا منها يُرْتَفَقُ به مما قدرتُ عليه أن أَبِرّكَ به وقد سامنى التجارُ بالأرْزِ الأهوازىِّ وقدجعلته لك بالسعر الذى بَذَلوه وسيأتوننىفأعلِمُهم بذلك ، فيستخلصونه منك بربح . وصار القومُ إليه فأعلمهم فجاءوا فخلَّصُوه منه بأربعين ألفَ دينارٍ فصرتُ إليه فأعلمته فقال لى : أرضيتَ بذلك ؟ فقلت : نعم . قال : فانصرف . ولما قَفَل الحارث من الأهواز مر بالمدائن فلقيه الحسينُ بنُ مُحْرِزٍ المغنى فغناه :

قد عَلِمُ الله علا عرشه ... أنى إلى الحارثِ مشتاقُ

فقال له : دعنى من شَوْقِك إلىّ وسلنى حاجة ، فإنى مُبادِرٌ . فقال له : علىَّ دينٌ مائةُ ألفِ دِرهمٍ فقال : هى علىّ وأَمَرَ له بها .

وكانت لمحمدِ بن الحارث عند المأمونِ منزلةٌ ، وكان أحسنَ خَلْق الله شمائل ،

وكان رفيع الهمة ، روى محمد بن الحارث عن أبيه قال : قال لى الرشيدُ : أنا على أنْ أتغدّى عندك فى غدٍ ، فضاق علىّ من الأرض العريضُ ، فجئت إلى عبد الملك ابن صالح فقلت له : قد وَقعْتُ فى بَلِيَّة . قال : وما هى ؟ قلت : زعم الرشيد أن يتغدى عنـــدى غدًا . قال : فاذهب فتفرغ للقلايا ولا تَحْفِل بسوى ذلك . قال : ففعلْتُ ، فلما جاءنى قال : دعْنا من تَخْليطك هلم إلى القلايا . قال : فجئت بها فقال : ضَعْ يدك على رَأْسى واحْلِفْ أتَصْدُقُنى ، فوضعت يدى على رأسه وحلفت . فقال : قُلْ لى : من أشارَ عليك بهذا ؟ فقلت : عبدُ الملكِ بنُ صالح ، فقال : أما والله لو كان طوابٍ [بالعشرة آلاف ألف التى عليه لما فرغ للفضول][1] .

قال محمد بن الحارث بسْخُنَّر : كان جعفر بن يحيى [قد نالنا منه شيء فى أيامه ، قال أبى : فكتبت إليه فى ذلك ، فوَقَّعَ إلىّ : إذا جاء العذر الواضحُ لم يكن لسوء الظن مجازٌ لأحد إلا لمن أراد التجنى][1] .

ومن شِعْرِ محمد بن الحارث :

ومن ظَنَّ أن التِيهَ من فَضْلِ قُدْرَةٍ ... فإنى رأيتُ التيهَ من صِغَرِ القَدْرِ
ولو كان ذا عِزٍ ونَفْسٍ أبيَّــةٍ ... لغضَّ الغِنَى منـــه وعزَّ على الفقْرِ
رأى نفسه لا تَسْتَقِلُّ بحقهـــا ... فتاهَ لنَقْصِ النَّفْسِ أو قِلَةِ الشُكْرِ

كان إسحق بن إبراهيم الموصلى قد دعا المأمون ، فصار إليــه ومعه المعتصمُ وعبــدُ الله بنُ طاهرٍ وسائرُ جُلسائه فلما جلس المأمونَ على شرابه وغـنّى مُغنوه وبلغت النَّوْبَـةُ إلى محمد بن الحارثِ ، وقد استحكَمَ طربُ المأمون ، اندفَع محمدُ ابنُ الحارث يغنى :

لو كان حَوْلِى بنـــو أميـــة لم ... تَنْطِقْ رجال أراهمُ نَطَقُـــوا

فغضب المأمون ودارتْ عيناه فى رأسه ، وكان لا يكاد يَغْضب فإذا غَضب بلغ

---

(١) ما بين الأقواس غير واضح بالأصل وهو عن الأغانى .

غايةَ الغضَب . ثم التفت إليه وقال : تُغنِّيني فى وقتِ سروري وساعةِ طرَبِي بشِعْرٍ تمدح فيه أعدائى وأنتَ موَالِيَّ وربيبُ نِعمتى، ادْعُو إلىَّ أحمد بن هشام، وكان صاحب حَرَسِه ، وكان المأمون لا يمضى إلى موضع إلا ومعه صاحبُ شُرْطَته وحَرَسِه وكان أحمدُ بن هشام قاعداً فى حرَّاقةَ على بابٍ [ليحيي فى دجلة](١) فدخل حتى مثل بين يديه فقال : يا أحمد خُذْه إليك فاضرب عُنقَه الساعةَ [ولا تُراجِعنى فيه] ، فمدإليه فوضَع يده فى عُنقه وانتَسَفَه من الأرض ، ومرّ به مبادراً لينفذ أمْرَه فيــه . وكان عبد الله بن طاهر قد قام [ليحدث وضوءا ولم يتهيأ ليحيي] [كلام] المأمون فيــه [لماراى] من شِدَّةِ غضَبه وما دخل [على قلبه] من هيبته فبادر إلى عبدِ الله بن طاهر [فأخبره الخبر] وقال : إن يُهَيَّأْ مثل هذا فى منزلى فى يوم نحرى وسرورى كان [سمة على أهلى] وهذا أحمد فسله أن يتوقف وتبادرَ إلى أمير المؤمنين . [فتسأله العفوَ] عنــه فقال عبد الله بن طاهر لأحمد : توَقَّفْ [وصار حتى قام بينَ يدى] المأمون وهو على غضَبِه فأمَره بالجلوس فأبى وأمره ثانية فأبى فقال : يا أميرَ المؤمنين نِعَمُك علىَّ جارية ومِنَنُك عندى وعند أهلى عظيمة ، وهذا يوم شرَّفْتَ فيه ابنَ عمى إسحاق بزيارته ورفعتَ بذلك من قدْره وأعليتَ من ذكره ، وقد كان من هذا الجاهلِ ما كان ، أَوَ فِى سَعَةِ حِلْم أميرِ المؤمنين وكريمِ عَفْوه ما يعودُ عليه بفضْله [والتطول] بصَفْحِه ، ولا يُخْرِجُه الأمرُ إلى ما أَخْرَجَه سائله من الأمر بقتله وهذا شئٌ إن يهيأ فى منزل خادمه كان سُبَّةً عليه وعاراً علينا إلى آخرِ الدَّهْر ، هذا إلى حُرْمة محمد بن الحارثِ وخِدْمَته وعُبوديته ، وأن ما تَهَيَّأ له فبسوء الاتفاق ، لا بالتَّعَمُّد ، فإنْ رأى أميرُ المؤمنين أن يعود بحِلْمِه ويراجعَ ما عوَّدَ الله خدَمَه منه من العفوِ والإقالةِ فعل . فقال: قد فعلت وأمرَ بردِّه إلى المجلس فجاء حتى وقف بين يديه وهو لا يأمُره بالجلوس ثم أذن له ، وقال : إياك ومعاودةَ ما كان منك وعاد إلى لهوه وشربه .

---

(١) ما بين الأقواس عن الأغانى وهو غير واضح بالأصل .

معن بن أوس [1]

هو معنُ بنُ أوس بن نَصْر بن زيادة [2] بن أسْحَم ، وقيل : زِيادة بن أسْعَد ابن أسْحَم بن رَبيعة بن عَدِيّ بن ثَعْلَبة بن ذُؤَيْب بن عَدّاء [3] بن عثمان بن مُزَيْنة ابن أُدّ بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار . نسبوا إلى مُزَيْنَة وهي امرأة عَمْرو ، وهي مُزَيْنَة بنتُ كَلْبِ بن وَبْرة ، تزوَّجها عَمْرو بنُ أُدّ بنِ طابخة ، فولدت له عثمانَ وأَوْساً فغلبت أمُّهما على نسبهما ، فعلى هـذا القول عُدّاء هو عَدّاء بنُ عثمانَ ابنِ عَمْرو بن أد بن طابخة .

ومَعْنٌ شاعرٌ مُجيد فحلٌ مخضرمٌ جاهليٌّ إسلاميٌّ ، وكان مئناثا ، ومدح جماعةً من أصحاب سيدنا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ووَفَد على عمرَ بنِ الخطّابِ ، رضي الله عنه ، مستعيناً به على بَعْضِ أَمْرِه ، وخاطَبَه بقصيدته التي أولها :

تَأَوَّبَهُ طيفٌ بذات الجراثمِ ... فنَام رَفيقاه وليس بنـائمِ

وعُمِّر بعد ذلك إلى أيام الفِتْنَة بين عبدِ الله بن الزُّبَـيْر ومروانَ بنِ الحـكم . وكان معنٌ يُحْسِنُ صُحْبَةَ بناتِه وتَرْبِيَتَهُنَّ ، فوُلِدَ لبعض عَشيرته بِنْتٌ فـكَرِهها وأظْهَرَ جزعا من ذلك فقال معن :

رأيتُ رِجالا يكرهون بَناتِهم ... وفيهن لا تُـكْذَبْ نساءٌ صوالحُ

وفيهنّ والأيامُ تَعْـثُرُ بالفتى ... نوادِبُ لا يَمْـلَلْنَهُ ونوائحُ

مر عُبَيْدُ اللهِ بنُ عباس بمعن بن أوس المزنيّ وقد كُفَّ بَصَرُه فقال له :

---

(١) أغاني ١٢ / ٥٤ تجريد ج ١ ق ٢ : ١٣٦١ ــ مهذب ٢ : ١٢٣ .
(٢) زياد (أغاني) .
(٣) ابن عبد أغاني الدار ١٢ / ٥٤

يا معنُ ، كيف حالُك ؟ قال : ضَعُف بصرى ، وكَثُرَ عيالى ، وغلبنى الدَّيْنُ قال : وكم دَيْنُك ؟ قال : عشرةُ آلافِ دِرْهَم ، فبعث بها إليه ثم مرَّ به من الغد فقال له : كيف أصبحت يا مَعْن فقال :

أَخَذْتُ بِعَيْنِ المـالِ حتى نَهِكْتُه وبالدَّيْنِ حتى ما أكادُ أُدانُ
وحتى سأَلْتُ القرضَ عندَ ذوى الغِنَى فَرَدَّ فلانٌ حاجتى وفلانُ

فقال عبيدُ الله : اللهُ المستعانُ ، إنّا بعثنا إليك بالأمس لقمة فما لُكْتَها حتى انْتُزِعَتْ من يدك ، فأىُّ شىء للأهلِ والقرابةِ والجيرانِ وبعث إليه بعشرةِ آلافِ دِرْهَمٍ أخرى ، فقال معن يمدحه :

وإنك فَرْعٌ من قريشٍ وإنَّما تَمجُّ الندى منها البحورُ الفوارعُ
ثَوَوْا قادةً للناس بطحاء مكة لهم وسِقَايَاتُ الحجيجِ الدوافعُ
فلما دُعُوا للموت لم تَبْكِ منهم على حادثِ الدَّهْرِ العيونُ الدوامعُ

قدم معنُ بنُ أوس البصرةَ فقعد يُنشِدُ فى المِرْبَدِ ، فوقف عليه الفَرَزْدَق فقال : يا معن : من الذى يقول :

لَعَمْرُكَ ما مزينةُ رَهْط عمروٍ بأخْفَافِ يَطَأْنَ ولا سَنَامِ

فقال له معن يا فرزدق من الذى يقول :

لعمرك ما تميمٌ أَهْـلُ فَلْجٍ بأردافِ الملوكِ ولا كرامِ

فقال له الفرزدق : حَسْبُك ، فإنما جَرَّبْتُكَ فقال : قد جَرَّبْتَ ، وأنت أَعْلَم ، فانصرفَ وتَرَكَه .

قال عبدُ الملك بن مَرْوانَ يوما وعنده عِدَّةٌ من أهل بَيْتِه وَوَلَدِه: لِيَقُلْ كلُّ واحدٍ أحسنَ شِعْرٍ سَمِعَ بـه ، فذكروا لامرئِ القَيْسِ والأَعْشى وطَرَفَةَ فأكثروا ، حتى أتَوْا على محاسنِ ما قالوا ، فقال عبد الملك: أشْعَرُهم الذى يقول :

وذِي رَحِمٍ قلَّمْتُ أظفارَ ضِغْنِهِ بحِلْمِيَ عنه وهو لَيْسُ له حِلْمُ
إذا سُمْتُه وصلَ القرابة سامنى قَطِيعتَها تلك السفاهةُ والظلمُ
وأسْعَى لكى أبْنِي ويهدمُ صالحى وليس الذى يَبْنِي كمَنَ شأنُه الهَدْمُ
يحاول رَغْمِي لا يحاولُ غَيْرَه وكالموت عندى أن ينالَ له رَغْمُ[1]
فما زِلتُ فى لِينٍ له و تَعطُّفٍ عليه كما تحنو على الولد الأُمُّ
لأَسْتَلَّ منه الضِّغْنَ حتى سَلَلْتُهُ وإن كان ذا ضِغْنٍ يَضيقُ به الحِلْمُ

قالوا : ومن قائلها ؟ قال : معن بن أوس المزنى .

قال الأصمعى : دخلتُ خضراءَ رَوْح فإذا برجل من ولده على فاحِشَةٍ يُؤتى ، فقلت له : قَبحَكَ الله هذا موضعٌ كان أبوك يَضْرِبُ فيه الأعناقَ ويُعْطِى اللُّهَى وأنت تَفْعَلُ فيه كلَّ ما أرى ، فالتفت إلىَّ من غير أن يزول عن الفاحشة وقال :

ورِثْنَا المجدَ عن آباءِ صِدْقٍ أسأنا فى ديارِهُمُ الصَّنيعا
إذا الحسبُ الرفيعُ تواكَلَتْه بناةُ السَّوْء أَوْشَك أَنْ يضيعا

والشعرُ لمعن بن أوس .

---

(١) أن يمر به الرغم (مهذب) ـ أن يحل به (أمالى ٢ : ١٠٣) .

مُحمدُ بن أُمَيّة[1]

هو محمدُ بنُ أُمَيَّة بن أبي أُمَيّة . كان شاعراً ظريفاً ، كان ينادمَ إبراهيمَ بنَ المَهْدِيِّ ، وربما كَتَب بين يديه ، وقيل : يكتُب على بيتِ المالِ ، وكان إليه خَتْمُ الكتبِ بحَضْرَتِه ، وكان حسنَ الخطِّ والبيانِ ، وكان يأْنَسُ به لأدَبِه وفَضْلِه ومكانِه من ولائه ، وزامَله في أربع حجَّاتٍ حَجَّها في رَواحِه ورُجوعه .

قال محمدُ بن أُمَيَّة : كنت جالساً بين يَدَيْ إبراهيمَ بنِ المهدى ، فدخل أبو العتاهيةِ ، وقد تَنَسَّك ولَبِسَ الصوفَ وتركَ قولَ الشعر ، فرفعه إبراهيمُ وسُرَّ به وأَقبلَ عليه بوجهه . فقال له أبو العتاهية : أيها الأمير ، بلغنى خَبَرُ فَتًى ، في ناحيتك ، ومن مواليك ، يعرفُ بابن أُمَيَّةَ يقول الشعر ، وأُنْشِدْتُ له شعراً فأعجبنى . فما فعل ؟ فضحك إبراهيمُ وقال : لعلَّه أقربُ الحاضرين مجلساً منك ، فالتفت إلىَّ وقال : أنت هو ؟ فديتُك ، فخجلتُ وقلت ! أنا محمدُ بن أُمَيَّة ، فديْتك . وأما الشِّعْرُ فإنما أنا شابٌّ أعبث بالبيتين والثلاثةِ كما يعبثُ الشباب. فقال لى : فدَيْتُك ، ذلك واللهِ زمانُ الشِّعْرِ وإبَّانُه ، وما قيل فيه فهو غُرَرُه وعُيونُه ، وما زال يُنَشِّطُنى ويُؤْنِسُنى حتى أَنِسْتُ بحديثه ، ثم قال لإبراهيمَ بنِ المهدى : إن رأى الأميرُ أن يأمُرَه بإنشادى ما حَضَر من شِعْرِه ، فقال : بحياتى أَنْشِدْه فأنشدتُه :

رُبَّ وَعْدٍ مِنْكِ لا أنساه لى ... أَوْجَبَ الشكرَ وإنْ لم تفعلِ
أقطعُ الدَّهْرَ بوعدٍ حَسَنٍ ... فأُجَلِّى كُرْبَةً ما تَنْجَلِى
كلَّما أَمَّلْتُ يوماً صالحاً ... عَرَضَ المقدورُ لى فى أَمَلِى
وأرى الأيامَ لا تُدْنِى الذى ... أَرْتَجِى منكِ وتُدْنِى أَجَلِى

---

(١) أغانى والدار ١٢ / ١٤٥ . التجريد جـ ١ ق ٢ : ١٣٨٦ .

فبكا أبو العتاهيةِ حتى جَرَتْ دموعُه على لِحْيَتِه وجعل يُرَدِّدُ البيتَ الأخيرَ ويبكى حتى خرج من الباب .

سمع أبو العتاهية يوماً مخارقاً يغنى :

أُحِبُّكِ حُبًّا لو يُفَضُّ(١) يسيره ... على الخلقِ مات الخلقُ من شِدَّةِ الحبِّ

وأعلمُ أنِّى بعد ذاك مُقَصِّرٌ ... لأنَّكِ فى أعلى المراتبِ من قَلْبِى

فطرِبَ ثم قال : يا أبا المُهَنَّأ من يقولُ هذا ؟ قال : فتًى من الكُتَّاب يَخْدمُ الأميرَ إبراهيمَ بنَ المَهْدِىّ قال : تَعْنى محمدَ بنَ أُميَّة؟ قال : نعم . قال : أحسن والله ، مازال يأتى بالشىء المليح .

قال الحسينُ بن الضحاك : دخلتُ أنا ومحمدُ بنُ أمية منزلَ بعض النَّخاسين بالرقَّةِ أيام الرشيد ، وعنده جاريةٌ تُغَنِّى ، فوقع نَظَرُها على محمدٍ ووقع نظرُه عليها ، فقال : يا جاريةُ أتغنين هذا الصوتَ وقال لنفسه :

خَبِّرينى من الرسولُ إليكِ ... واجْعَليهِ من لا يَنِمُّ عليكِ

وأشيرى إلىّ مَنْ هُوَ باللحـ ... ـظِ ليَخْفَى على الذين لَدَيْكِ

وأقِلِّى المزاحَ فى المجلسِ اليو ... مَ فإن المزاحَ بين يديك

فقالت : ماأَعْرِفُه وأشارَتْ إلى خادم كان على رأسِها واقفا فَمكثَا زماناً ، والخادمُ الأسودُ الرسولُ بينَهُما .

لَقِى محمدُ بنُ أُميَّة مسلمَ بن الوليد الأنصارِىَّ ، وهو يمشى . وطَوِيلَتُه مع بعض رُواتِه فسلَّمَ ، ثم قال له : قد حَضَرَنى شىء فقال له مسلم : هاتِه فقال على أنه مزاحٌ لا يُغْضَبُ منه . قال : هاته . ولو أنه شَتْم فقال :

من رأى فيما رأى(٢) رَجُلًا ... تِيهُهُ أَرْبَى على جِدَتِهْ

---

(١) يفض : يفرق .

(٢) فيما خلا (أغانى) .

يتباهى راجلا وله شاكِرِىٌّ فى قُلَنْسِيتِه

فسكت عنه ولم يُجِبْه وافترقا . وكان لمحمد بِرْذَونٌ يركبه فنفق ، فلقيه مسلمٌ وهو راجلٌ فقال له : ما فَعَل بِرْذَونُك ؟ قال : نفق . قال : الحمد لله يُجازيك[1] على ما كان منك . ثم قال :

قل لابنِ مىٍّ لا تكن جازعا لن يرجعَ البرذونُ بالليتِ

طَامَنَ أحشاءك فِقْدانُهُ وكنتَ فيه عالِيَ الصوْتِ

وكنت لا تنزلُ عن ظهره ولو من الُحشّ[2] إلى البيْتِ

ما مات من حتْفٍ ولكنه مات من الشوقِ إلى الموتِ

اصطبح إبراهيمُ بن المهدىِّ يوما وعنده جماعةٌ منهم عَمْرو الغزّال . وكان إبراهيمُ ابنُ المهدى يستثقله فاندفع عمرو الغزّالُ يغنى فى شعر محمدِ بنِ أمية :

ما تمّ لى يومُ سرورٍ بمن أهواهُ مُذْ كنتُ إلى الليل

أغبط ما كنتُ بما نِلْتُه منه أتتنى الرسلُ بالويل

لا والذى يَعْلَمُ كلّ الذى أقولُه ذى العِزِّ والطَّوْلِ

ما رُمْتُ مذ كنتُ لكم سَخْطَةً بالغيبِ فى فِعْلٍ ولا قَوْلِ

فنظر إليه إبراهيم فتطيَّرَ منه ووَضَعَ القدحَ من يده . وقال : أعوذ بالله من شرِّ ما قُلْت ، فوالله ما سكَتَ ، ونحن نتلافى إبراهيمَ حتى دخل حاجبُه يعدو ، فقال : ما الخبر ؟ قال : خرج الساعةَ مسرورٌ من دارِ أميرِ المؤمنين ، ودخل على جعفر ابن يحيى وأَخَذَ رأسَه وقَبَض على أبيه وإخوتِه وأهْلِه . فقال إبراهيم : إنا لله وإنا إليه راجعون ، يا غلام ارْفَعْ ما بين أيدينا . وتفرّقْنا فما رأيت عَمْرًا بعدها فى داره .

---

(١) فنجازيك إذا . . (أغانى) .

(٢) الحش : مثلثة الحاء : البستان ، النخل المجتمع .

المتوكل الليثى[1]

هو المتوكلُ بن عبدِ اللهِ بنِ نَهْشل بن مُسَافع بن وَهْب بن عمرو بن لَقيط ابن يَعْمَر بن عوف بن عامر بن لَيْث بنِ بَكْر بنِ عَبْدِ مناةَ بن كنانةَ بن خُزَيْمة ابن مُدْرِكةَ بن إلياس بن مضر بن نزار . وكنيتُه أبو جَهْمَة .

من شعراءِ الإسلامِ من الكُوفةِ عاصر معاوية ويزيد ومدَحهما واجتمع هو والأخطلُ وناشَدَه لما قَدِمَ الأخطلُ الكوفةَ . فقال له المتوكل : أنْشِدْنى أيها الرجلُ، فوالله لا تُنْشِدُنى قصيدةً إلا أَنْشَدْتُك مثلَها أو أشْعَر منها ، من شِعْرِى. قال : ومن أنت ؟ قال : المتوكل . قال: أنشِدْنى أنتَ ، وَيْحَك ! فأنْشَدَه من قصائد :

للغانيـــاتِ بذى المجازِ رسومُ ... فببطْنِ مكةَ عَهْدُهُن قديمُ
فبمَنْحَرِ البُدْنِ المُقلَّدِ من مِنًى ... حِلَلٌ[2] تلوحُ كأنهن نُجومُ
لا تَنْهَ عن خُلُقٍ وتأتى مِثْلَه ... عارٌ عليك إذا فعلتَ عظيمُ
والهمُّ إن لم تُمْضِه لسبيله ... داءٌ تَضَمَّنَه الضلوعُ مقيمُ

فقال له الأخطلُ : يا متوكلُ لو نَبَحَتِ الخمرُ فى جَوْفِك كنتَ أشعرَ الناس .

أتى المتوكلُ إلى عكرمةَ بن رِبْعِىٍّ الذى يقال له الفَيَّاض . فامْتَدَحه فحَرَمَه ، فقيل له : جاءك شاعرُ العربِ فحَرَمْتَه ! فقال : ما عرفْتُه . وأرسل إليه أربعةَ آلافِ درهم . فأبى أن يَقْبَلها وقال: حَرَمَنى على رءوسِ الناسِ ويبعثُ إلىَّ سرا.

ثم رَمِدَ المتوكلُ رَمَدًا شديدا بالحِيرَةِ، فأتاه[3] رجلٌ فقال: هل لك فى المُداوةِ ؟ قال : افعَلْ ، فذَرَّه فهو ذاتَ يومٍ مذرورُ العين مُسْتَلْقٍ على ظهره ، يفكر فى هجاء

(١) تجريد : جـ ١ ت ٢ : ١٣٨٨ أغانى الدار ١٢ / ١٥٩ المهذب ٦/٤٤ .
(٢) الحلل جمع حلة بكسر الحاء : وهى الجماعة من بيوت القوم .
(٣) فمر به قس منهم (أغانى) ١١ : ٤٠ .

عِكْرِمَةَ ولا يَطَّرِدُ له القول فى معناه إذ أتاه غلامُه فقال : بالباب امرأةٌ تدعوك فمسح عَينيه ثم خَرَج إليها فسَفَرَتْ عن وَجْهِها فإذا هى الشمسُ حُسْنًا فقال لها : ما اسمك ؟ فقالت أُمَيَّة . فقال : ممن أنت؟ فلم تُخْبِرْه . فقال : ما حاجتُكِ ؟ قالت : بلغنى أنك شاعرٌ فأحببت أن تَنْسُبَ بى فى شِعْرك فكَرَّرَ طرفَه فى وجهِها مُصعِّدًا ومصوِّبا ثم تلثّمَتْ و تَوَلَّتْ عنه فاطَّرَدَ له القولُ الذى استَصْعَبَ عليه فى هجاء عِكْرمة وافتتحه بالنسيب فقال :

أجدَّ اليومَ جيرتُك احتمالا ... وحثَّ حُداتُهم بِهِمُ الجمالا

وفى الأظعان آنِسَةٌ لَعُوبٌ ... ترى قَتْلِى بغير دمٍ حلالا

أُمَيَّة يوم دَيْرِ القُسّ ضَنَّتْ ... علينا أن تُنَوِّلنــا نوالا

لها بَشرٌ نَقِيُّ اللونِ صافٍ ... ومَتْنٌ حُطَّ فاعتَدَل اعتدالا

إذا تَمْشِى [تأَوَّدَ جانباها] ... وكاد الخصرُ ينخزلُ انخزالا

تنوء بها روادِفُهــا إذا [ما ... وشاحاها على المَتْنَين][1] حالا

[وقال فيها يهجو عكرمة][2] :

أقِلْنِى يابن رِبْعِىٍّ ثنــائى ... وهبها مِدْحَةً ذهبت ضلالا

وهبها مِدْحَةً لم تُغْنِ شيئا ... وقَوْلا عاد أكثرُهُ وَبالا

أعكرِمَ كنتُ كالمُبْتَاعِ دارًا ... أبَى بيْعَ النــدامةِ فاستقالا

بنو شيبانَ أكرمُ آلِ بَــكْرٍ ... وأمتَنُهم إذا عَقَدُوا حبالا

رجالٌ أُعطِيتْ أحــلامَ عادٍ ... إذا نَطَقُوا وأيديَها الطِّوالا

وتيمُ الله حَىٌّ حَىُّ صِدقٍ ... ولــكن الرَّحَى تعلو الثِّفالا[3]

---

(١) ما بين الأقواس غير واضح فى الأصل وهو عن الأغانى والتجريد .

(٢) ما بين القوسين زيادة عن الأغانى .

(٣) الثفال : جلد يبسط تحت الرحا .

المغيرة بن حبناء[1]

هو المغيرةُ بنُ حبناء بن عمرو بنِ رَبيعة بن أَسيد بن عَبْد عَوْفِ بن ربيعةَ ابن عامرِ بن رَبيعة بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم . وهو شاعر إسلامىٌّ من شعراء الدولةِ الأمويّـة . وأبوه حَبْناء بن عمرو شاعر ، واسمُه جُبَيْر وحبناء لقبٌ غَلَب عليه ، ولقب بذلك لِحَبَنٍ[2] كان أصابه . وأخوه صخرٌ شاعرٌ وكان يهاجيه ، وكان زيادٌ الأعجمُ يهاجيه ، وبينهما مناقضاتٌ وكانا مُتكافئين فى الهجاء ، كلٌّ منهما مُنْتَصِفٌ من صاحبه .

قدم المغيرةُ بنُ حبناء على طلحةَ الطَلَحاتِ الخزاعِىِّ ثم المُلَيْحِى أحد بنى مُلَيْحٍ فأنشده من أبيات :

لقد كنتُ أسمَى فى هواكَ وأبتَغِى	رضاكَ وأرجو منك ما لستُ لاقيا
وأبذُلُ نفسى فى مواطنَ غيرُها	أحبُّ وأعصى فى هواكَ الأَدانيـا
حِفاظاً وتمْسيكا لمـا كان بيننـا	لِتَجْزِيَنى مالا إخالُك جازيا
رأيتك ما تنفكُّ منك رَغيبَـةٌ	تُقَصِّر دونى أو تحلُّ ورائيـا
أرانى إذا استمطرت منكَ رَغيبةً	لتُمْطِرَنى عادتْ عجَاجا وسافيـا[3]
وأدليتُ دَلْوى فى دلاءٍ كثيرة	فأُبْنَ مِلاءً غير دَلوى كما هيـا
ولست بلاقٍ ذا حِفاظٍ ونَجْدَة	من القوم حُراً بالخسيسةِ راضيـا
فإن تدنُ منى تَدْنُ منك مودَّتى	وإن تنأَ عنى تُلفِنى عنك نابيـا

---

(١) أغانى الدار١٣/٨٤، تجريد حـ١ق٢:١٤٦٤، مهذب ٥:١٠٨، الشعر والشعراء ٢٤٠

(٢) الحبن : ورم فى البطن .

(٣) العجاج : الغبار ـ والسافى ، الريح التى تحمل التراب .

فلما أنشده هـذا الشعرَ قال : أما كُنَّا أعطيناك شيئاً ؟ قال : لا . قال : فأمر طلحةُ خازِنَه فأخرجَ دُرْجاً فيه حِجارةُ ياقوتٍ فقال : اختر حَجَرَيْن من هذه الأحجار أو أربعين ألفَ درهم . فقال : ما كنت لأختار حجارةً على أربعين ألفَ دِرهم . فأمر له بالمال ، فلما قبضه سأله حجراً من أولئك ، فوهبه له ، فباعه بعشرين ألفَ دِرْهم ، ثم مدحه فقال :

أرى الناسَ قد مَلُّوا العطاء ولا أرَى ... بَنِي خَلَف إلا رِواءَ المَــوارد
إذا نَفعوا عادوا لمن يَنْفعونه ... وكائِنْ ترى من نافع غير عائد
إذا ما انجلتْ عنهم غمامة[1] غَمْرَةٍ ... من الموت أجلت عن كرامٍ مَذاود[2]
تسود غطاريفَ المــلوكِ ملوكُهم ... وماجدُهم يعــلو على كلِّ ماجدِ

لما هَزَم المهلبُ بنُ أبي صُفْرَةَ قَطَرِيَّ بنَ الفُجاءةِ بسابورَ جلسَ للناس فدخل إليه وُجوه الناسِ يُهنئونه ، وقامت الخطباء فأثنَتْ عليه ، والشعراء مدحته وقام المغيرةُ ابنُ حبناء فأنشد :

حالَ الشَّجا دونَ طَعْمِ العيشِ والسَّهَرُ ... واعتادَ عَيْنَكَ من إدمانِها الدِّرَرُ[3]
واستَحْقَبَتْكَ أمورٌ كنتَ تَكْرَهُها ... لو كان ينفعُ منها النأْيُ والحَذَرُ
وفى المواردِ للأقوامِ تَهْلُكة ... إذا الموارِدُ لم يُعْلَم لهـا صَدَرُ
ليس العزيزُ بمن تُغْشَى مَحارِمُه ... ولا الـكريمُ بمن يُجْفَى ويُحْتَقَرُ

منها :

أمْسَى العبـادُ بِشَرٍ لا غياثَ لهم ... إلّا المُهَلَّبُ بعـــدَ اللهِ والمَطَرُ
كلاهما طيبٌ تُرجى نوافِلُه ... مبـاركٌ سَيْبُه يُرْجى ويُنتظرُ

---

(١) فى رواية : عماية .

(٢) جمع مذود وهو الدفاع عن العشيرة .

(٣) الدرر بالكسر جمع درة وهى كثرة اللبن ، يريد بذلك انسكاب الدموع بغزارة .

لا يَجْمُدانِ عليهم عند جهدِهِمُ ... كلاهما نافعٌ فيهم إذا افتقدُوا
هذا يَجود[١] ويَحمى عن ذِمارِهِم ... وذا تَعيشُ بـه الأنعامُ والشَّجَرُ
واستسلمَ الناسُ إذ حَلَّ العدوُّ بهم ... فـلا رَبيعتُهم تُرْجى ولا مُضَر
وأنت رَأْسٌ لأهل الدين مُنْتَخَبٌ ... والرأسُ فيه يكون السمعُ والبصرُ
إن المهلبَ فى الأيـــامِ فَضَّلَه ... على منازلِ أقـوامٍ إذا ذُكِروا
حزمٌ وجـــودٌ وأيامٌ له سَلَفَتْ ... فيها يُعَدُّ جسيمُ الأمرِ والخَطَرُ
ماضٍ على الهولِ لا ينفكُّ مُرْتَحِلًا ... أسباب معضلةٍ يعيـا بها البَشَرُ
سهلُ الخلائق يعفو عنـد قُدْرَتِه ... منه الحياءُ وفى أخلاقه الخَفَرُ
شهابُ حَرْبٍ إذا حَلَّتْ بساحتِه ... يُخزِى به الله أقواما إذا غدروا
تَزِيدهُ الحربُ والأهوالُ إن حَضَرَتْ ... حَزما وعَزما ويجلو وجْهَه السَّفَرُ
ما إن يزالُ عـلى أرجاء مُظْلِمَةٍ ... لولا يُكَفْـكِفها عن مِصْرِهم دَمَروا[٢]
سهلٌ إليهمْ حليمٌ عن مَجاهلهم ... كـأنما بَيْنَهُم عثمانُ أو عُمَرُ
كهفٌ يلوذون من ذُلِّ الحياة بـه ... إذا تَـكَنَّفَهم من هـولِها ضَرَرُ
أَمْنٌ لخـائفهم فيضٌ لسائلهم ... تنتابُ نائِلَهُ البادون والحَضَرُ

فلما أتى على آخِرِها قال المهلب : هذا واللهِ الشِّعْرُ ، لا ما نَتَعَلَّل به منذ اليوم — وأمر له بعشرةِ آلافِ دِرْهم وفرسٍ جـوادٍ ، وزاد فى عطائه خَمسمائةِ دِرْهم . وكان السببُ فى التهاجى بـين زيادٍ الأعجم والمغيرة أنهما اجتمعا عند المُهَلَّبِ وكعباً الأشْقَرِيّ ، وقد امتدحوه ، فأمَرَ لهم بجوائزَ وفضَّل زياداً عليهم ، ووهب له غلاماً فصيحاً يُنْشِدُ شِعْره ، لأن زيادا كان ألْكَن لا يُفْصِح ، وكان راوِيتُه يُنْشِدُ عنه .

---

(١) يذود (مهذب) ٥ : ١٠٩ .
(٢) دمروا : هلـكوا .

وكان زياد إذا أنشَد بين يدى المهلب استجاد شعرَه وعابَ لسانَه فقال له : يا زياد لم لا يكون لك غلامٌ يُنشِد [بين يديك](١) فتَجَمّلَ بلسانه شِعْرَكَ ؟ فقال : إنه تَعرَّفَ على غلام فصيح وبودى لوجدت بذلك ، وكان عند المهلب غلامٌ فصيح ، فأمر له به وقال : احتفظ بهذا الغلام فقد [آثرتك] به ، وأمرَ له بجائزة سَنية إكراما له [لأنه استجاد] شعره على [غيره] وكان [قبل ذلك] راويته يُنشِدُ عنه ويجعل له سهْما ويتكلفُ مؤونَتَه ، فلما كان فى تلك الدفعة لم يكن معه فاستوهب منه الغلام فوهبه له فصعب ذلك عليهم فابتدر له المغيرة من بينهم فقال للمهلب : ما السبب فى تفضيل الأمير زياداً علينا ؟ فوالله ما يغنى غناءنا فى الحرب ولا هو بأفضلنا شعرا ولا بأصدقنا وداً ، ولا أشرفنا أبا ولا أفصحنا لسانا ، ولقد مدحت الأمير بقصيدة تفضل على قصيدته فى سائر المعانى ، [وإن أَحبَّ الأميرُ أن يجمع بين الكلامين فعل] فقال : والله ما جهلت شيئا مما قلت ، وإن الأمر فيكم عندى لمتساو ، ولكنّ زيادا يكرم لِسِنِّه وشعره وموضعه من قومه وكلكم كذلك عندى وما فضلته بما يُنفَس به وأنا أعوضكم بعد هذا بما يزيد على هذا. فقال المغيرة : إنما تكلمت بما تكلمت ضنًّا منى بموضعى عند الأمير ، ولأن أعلم ما فى نفسه ، وإذا كان ذلك رأيه فىَّ فما أبالى بشىء ، وانصرف فبلغ ذلك زيادا فقال : يا قوم رأيتم إلى المغيرة كيف نفس علىَّ موضعى من الأمير وحسدنى عليه ، أتراه ظن نفسه مثلى عند الأمير ؟ أو ترى الأمير [أَخْطَأَ] فى تقدمتى وأصاب المغيرة ؟ فبلغ المغيرةَ ذلك فقال : أما أنا فقد أبنت [بتهيئتى الشعر] أنى أفضل منه وسألته أن يوافقنى على ذلك فرأيته قد عرف ماقلت ، وبلَّغنى ماأردت منه ، وأما زياد فإن أحب أن يعرف موضعه منى [فليركب ماشاء من] الشعر حتى أجيبه ويعرف الناس فضلى من فضله فلما بلغ ذلك زيادا قال: سيعلم المغيرة كيف حاله إذا أفضحه هجائى وقال :

---

(١) ما بين الأقواس عن الأغانى .

أرى كلَّ قومٍ ينسلُ اللؤمُ عندهم ... ولؤمُ بنى حبناءَ ليس بناسلِ
يشبُّ مع المولود مثلَ شَبابه ... وتلقاه مولوداً بأيدى القوابلِ
وترضعه من ثَدْى أمٍّ لئيمةٍ ... ويُخْلق من ماء امرئٍ غيرِ طائلِ (١)
تعالوا فعدُّوا فى الزمان الذى مضى ... فكلُّ أناسٍ مجدهُم فى الأوائلِ
لكم بفَعَالٍ يعرفُ الناس فَضْلَه ... إذا ذكر الأملاء(٢) عند الفضائل
فغازيكمُ فى الجيش ألأَمُ من غزا ... وقافِلُكم فى الناس ألأمُ قافلِ (٣)
وما أنتمُ من مالكٍ غيرَ أنَّكُمْ ... كمغرورةٍ بالبَوِّ فى ظلٍّ باطلِ
بنو مالك زُهْرُ الوجوه وأنتم ... تبيَّن ضَاحِى لُؤْمِكم فى الجحافلِ

يُعَرِّض ببرص كان بالمغيرة بنِ حبناء ، وكان زيادٌ قد عَيَّر المغيرةَ فى مجلس المُهَلَّبِ بالبَرَص ، فقال له المغيرة : إن عِتاقَ الخيلِ لا تَشينُها الأوضاح . ولا تُعَيَّرُ بالغُرَرِ والحُجولِ . وقد قال صاحبنا بَلْعاءُ بن قيس لرجلٍ عَيَّره بالبرص : إنما أنا سيفُ الله جَلاه واسْتَلّه على أعدائه ، فهل تُغْنِي يا بن العجماء غِنَائى أو تقومُ مقامى ؟

وقال المغيرة يجيب زياداً :

أزيادُ إنّك والذى أنا عَبْدُه ... ما دُونَ آدمَ من أبٍ لك يُعْلَمُ
فالْحَقْ بأرضك يا زيادُ ولا تَرُمْ ... مالا تُطيقُ فأنت عِلْجٌ أعْجَمُ
أظننتَ لُؤْمَك يا زيادُ يَسُدُّه ... قوسٌ سَتَرْتَ بها قَفاك وأسْهُمُ
عِلْجٌ تَعَمَّمَ ثم رَاقَ بقَوْسِه (٤) ... والعِلْجُ تَعْرِفُه إذا يتعمم

---

(١) يقال: ما هو بطائل، للخسيس الدون .
(٢) الأملاء ، جمع ملأ وهم الأشراف .
(٣) القافل : الراجع .
(٤) راق بقوسه : ظن أنه راق بها أى زاد فضلا .

أَلْقِ المصابةَ يا زيادُ فإنما ... أَخزاكَ ربى إذ غَدَوْتَ تَرَنَّمُ
واعلم بأنك لست مِنىِّ ناجيا ... إلا وأنت بِبَظْرِ أُمِّك مُلْجَمُ
تهجو الكرامَ وأنت الْأَمُ من مشى ... حَسَباً وأنت العِلْجُ حين تكلّمُ
ولقد سألتُ بنى نزارٍ كلِّهم ... والعالمين من الكهولِ فأقسموا
بالله مالَكَ فى مَعَدٍّ كلها ... حَسَبٌ وأنك يا زياد مُؤَذَّمُ

فأجابه زياد وجرت بينهما مناقضات .

كان المغيرةُ يوماً يأكل مع المُفَضَّل بن المُهَلّب فقال المفضل :

فلم أر مثلَ الحَنْظَلِىِّ ولَوْنه ... أكيلَ كرامٍ أو جليس أميرِ

فرفع المغيرةُ يده وقال وقام غاضباً :

لا تحسبَنَّ بياضا فىَّ مَنْقَصَةً ... إن اللهاميمَ فى ألوانها بَلَق

وبلغ المهلبَ ما جرى بينهما فتناولَ المُفَضَّل بلسانه وشتَمه ، وقال : أردت أن يَتَمَضَّغَ أعراضَنا ، ما حملك على أن أَسْمَعْتَه ما كَرِه بعد مواكلتك إياه ؟ أما إن كنتَ تعافُه فاجْتَنِبْه أو لم تُؤْذِه ، ثم بعثَ إليه بعشرة آلاف درهم واستَصْفَحه عن المفضلِ . واعتذر إليه عنه ، فقبل رِفْده وعُذْرَه ، وانقطع بعد ذلك عن مؤاكلة أحدٍ منهم .

وقال زياد يهجو المغيرة بن حبناء :

عجبتُ لأبيضِ الخُصْيَين عَبْدٍ ... كأنَّ عجانَه الشِّعرى العَبورُ

فقيل له : يا أبا أمامة لقد شرَّفْتَه إذ تقول : كأن عجانَه الشِّعْرى العبورُ ورفعت منه فقال . سأزيدُه شرفاً ورِفْعَةً ثم قال :

لا يبرحُ الدهرَ منهم خارئٌ أبداً ... إلا حَسِبْتَ على باب استِه القَمرا

وتقاولا يوماً فى مجلس المهلب فقال المغيرة لزياد :

أقولُ له وأنكر بعضَ شأنِى ... أَلَمْ تعرفْ رقابَ بنى تميمِ

فقال له زياد :

بـلى وعرفتهن مُقَصِّراتٍ جِباهُ مَذَلَّةٍ وسِبالُ لُومِ

وكانت ربيعةُ تقولُ لزيادٍ الأعجمِ : يا زياد ، أنت لسانُنا فاذْبُب عن أعراضنا بشعرك ، فإن سيوفَنا معك ولن نُسْلِمَك ولن نَخْذُلك فبلغ ذلك ابنَ حَبْناء فقال :

يقولون ذبِّبْ يا زيادُ ولم يكنْ ليُوقِظَ فى الحرب المُلِمَّةِ نائما

ولو أنهم جاءوا به ذا حَفيظة فيمنَعَهم أو ماجدًا أو مُراغما

ولكنهم جاءوا بأقْلَفَ قد مضت له حِجَجٌ سبعون يُصْبِحُ رازِما[1]

لئيما ذَميما أعْجَمِيًّا لسانُه إذا نال دَنًّا لَمْ يبالِ المكارما

وما خلت عبد القيس إلا نفاية إذا ذَكَر الناسُ العُلا والعظائما

إذا كنتَ للعَبْدِيِّ جارا فلا تزَلْ على حَذَرٍ منه إذا كان طاعما

أناسا يعدون الفساءَ لجارِهم إذا شَبِعوا عدّ الجُباة الدراهما

من الفَسْو يقضون الحقوقَ عليهم ويُعْطون مَولاهم إذا كان غارِما

لهم زَجَلٌ فيه إذا ما تجاوبوا سمعتَ زفيرا فيهمُ وهَماهِما[2]

لعمرك ما نَجَّى ابنَ زوران إذ عوى ربيعة منى يوم ذلك سالما

أظَن الخبيثُ ابنُ الخبيثين أننى أُسَلِّم عِرْضِى أو أخافَ المقاوما

لعمرك ما تهدى ربيعة للحجا إذا جعلوا يستصرخون الأعاجما

فجاءت عبد القيس إلى المغيرة وقالوا: يا هذا ما لنَا ولك تعُمُّنا بالهجاء لأَنْ نبَحَك منا كلب قد تَبَرَّأْنا إليك منه ، فإن هجاك فاهْجُه وخَلِّ عنا ودَعْنا وأنت وصاحبُك أعلم فليس منَّا له عليك ناصرٌ. فقالوا: يا هذا نحن نسأَلك أن تعفينا من الذى أنتما فيه فقال المغيرة :

---

(١) يقال : رزم رزوما : إذا سقط من الإعياء ولم يتحرك فهو رازم .

(٢) الهماهم: تردد الزئير فى الصدر .

لعمرُك إنى لابنِ زورانَ إذْ غوَى ... لَمُحْتَقِرٌ فى عودة الود زاهد

وما لك أصلٌ يا زيادُ تَعُدُّه ... وما لك فى الأرض العريضةِ والدُ

ألم ترَ عبدَ القيس منك تبرَّأتْ ... فلاقيتَ ما لم يلقَ فى الناس واحدُ

وما طاش سَهْمى عنك يوم تَبرَّأتْ ... لُكَيْزُ بنُ أفصى منك والجندُ حاشدُ

وما أنت بالمنسوب فى آلِ عامرٍ ... ولا ولَدَتْك المحصناتُ الأماجدُ

ولكن غذاك المشركون وزاحَمَتْ ... قفاك وخَدَّيْك البظور العوارد

ولم أر مثلى يا زياد بِعِرضِه ... وعرضك يَسْتَبّان والسيفُ شاهد

ولو أننى [غشيتك] السيف لم يُقَلْ ... إذا مِتَّ إلا مات علجٌ معاهِدُ

[ولما امتلأتْ يَدُ] المغيرةِ بنِ حنباء من جوائز المهلب عاد إلى أهْلِه ، وكان أخوه ، صخرُ بن حبناء ، أصْغَرَ منه ، فكان يأخُذُ على يدِه وينهاه عن الأمْرِ ، ولا يزال يعتِبُ عليه فى الشيء بَعْدَ الشيء فقال فيه صخر :

رأيتكَ لما نلتَ مالا وعَضَّنا ... زمانٌ نرى فى حَدِّ أنيابه شغبا

تَجَنَّى علىَّ الدهرَ إنى مُذْنِبٌ ... فأمْسِكْ ولا تجعلْ غناك لنا ذَنْبا

فقال المغيرة يجيبه :

لحى اللهُ أنْـآنا عن الضيف بالقِرَى ... وأقْصَرَنا عن عِرْضِ والده ذَبَّا

وأجدرنا أن يدْخَلَ البيتَ باستِه ... إذا القُفُّ[2] دَلَّى من مخارِمه رَكبا

وكانت أختُ المغيرةِ تشكو إليه أخاها صخرًا أنه أسْرَعَ فى مالها وأتْلَفَه وأنها مَنَعَتْه شيئا يسيرا بَقِىَ لها فَضَرَبها فقال المغيرة :

ألا مَن مبلغٌ صَخْرَ بنَ ليلى ... فإنى قد أتانى من نثاكا[3]

---

(١) ما بين القوسين عن الأغانى .

(٢) القف : بالضم ما غلظ من الأرض وارتفع — والمخارم جمع مخرم وهو الطريق فى الجبل .

(٣) النثا : ما أخبرت به عن الرجل من حسن أو سيء والمراد هنا الشر.

رسالة ناصحٍ لك مُسْتَجيبٍ ... إذا لم تَرْعَ ذِمَّتَه رعاكا
وَصُولٌ لو يراكَ وأنت رَهْنٌ ... تبـاعُ بماله يوما فَداكا
يَرَى خيرا إذا ما نلتَ خَـيْرا ... ويَشْجَى فى الأمور بما شَجَاكا
فإن تَكُ لا ترى أسماءَ أُخْتًا ... فلا تَرَيَنَّنِى أبداً أخاكا
وإن تَعْنُف بهـا أو لا تَصِلْها ... فإن لِأُمِّهـا ولداً سِـواكا
يَبَرُّ ويستجيبُ إذا دَعَتْـه ... وإن عاصَيْتَه فيهـا عَصاكا
وكنت أرى بهـا شَرَفا وفَضْلا ... على بعض الرجال وفَوْقَ ذاكا
جَزانى اللهُ منك وقد جَزانى ... ومِنِّى فى معاتبِنـا جزاكا
واعْقَبَ(١) أصدقَ الخصمين قولا ... ووَلَّى اللؤمَ أولانا بذاكا
فلا واللهِ لو لم تَعْصِ أمرى ... لكنتَ بمعزِلٍ عمـا نَهاكا

فأجابه أخوه صخر :

أتانى عن مغـيرةَ زُورُ قَوْلٍ ... تَعَمَّدَه فقلتُ له كذاكا
يَعُمُّ به بَنِى ليـلى جميعـا ... فَوَلِّ هِجاءَهم رجـلًا سِواكا
فإن تك قد قطعتَ الوصل منى ... فهذا حين أَخْلَفَنِى مُناكا
تُمَنِّينى إذا ما غبتَ عنى ... وتُخْلِفُنى مُنَاى إذا أراكا
وتُولِينى ملامةَ أهـلِ بيتى ... ولا تُعْطِى الأقاربَ غَـيْرَ ذاكا
فإن تك أُخْتُنا عَتِبتْ علينـا ... فَلِمْ(٢) تَصْرِمْ لِظِنَّتِها أخاكا
فإنَّ لهـا إذا عَتِبتْ علينـا ... رضاها صابِرين لهـا بذاكا
وإن تك قد عَتِبْتَ علىَّ جهلا ... فلا والله لا أَبْغِى رِضاكا

(١) وأعتب (مهذب الأغانى) : ١١٣ .
(٢) فلا تصرم (أغانى) .

فقــد أعلنتُ قولك إذْ أتانى ... فأعْلِنْ من مَقالِى ما أتاكا
سَيُغْنِى عنك صَخْرًا ربُّ صَخْرٍ ... كما أغنـاك عن صَخْرٍ غِناكا
ويُغْنِينى الذى أغنـاك عَنِّى ... ويكفِينى الإلٰهُ كما كَفاكا
ألم ترَنِى أجودُ لكم بمـالى ... وأرْمِى بالنـواقِرِ من رماكا
وأنى لا أقُود إليك حَـرْبا ... ولا أعْصِيك إنْ رَجُلٌ عَصاكا
ولكنى وراءك شَمَّرِىٌّ ... أحامِى قَدْ عَلِمْتَ على حِماكا
وأدْفَعُ ألْسُنَ الأعداء عنكم ... ويَمْنِينى العـدوُّ إذا عناكا
وقد كانَتْ قريبة ذاتَ حَقٍّ ... عليك فلم تُطـالِعْها بذاكا
رأيتُ الخَيْرَ يقْصُرُ منك دونى ... وتبلغنى القوارصُ من أذاكا

وكان المغيرة أبْرَصَ وأخـوه صخرٌ أعْوَر وأخوهما الآخر مَجْذوم وكان بأبيه حَبَنٌ(١) فلُقِّبَ حَبْناء . فقال زيادٌ الأعجمُ : ياقوم ، رأيتم من أكمل ما أكمله المغيرة ابن حَبناء هو أبْرَصُ وأخوه أعْوَرُ وأخوه مَجْذوم وأبوه بـه حَبَن فلُقِّب حبناء ، وهو لئيم فى نفسه فمن يعرفون أكمل هو وأهله ما أكمل المغيرة فقالوا : يا زياد ، لقد رميت برام ما أخطأت منه شيئا فهل قلت فى ذلك شيئا ؟ قال : أى والله وأنشد :

إنّ حبناءَ كان يُدْعى جبـيراً ... فدَعَوْهُ من لُؤْمِـه حبناءَ
ولد العورُ منـه والبرصُ والجـذْ ... مَى وذو الـداءِ يُنْتِجُ الأدواءَ

فيقال : إن هذه الأبياتَ آخر ما تهاجيا به ، لأن المغيرةَ لما بلغه ذلك قال : ما ذنبُنا فيما ذَكَر ! هـذه أدواء ابتلانا الله بها ، ليست هى أشياء اكتسبْناها فيـكونَ علينا عارُها وإنما يُعيَّرُ المرء بما يَـكْتَسِبُه ، وأرجو أن يَجْمَع الله تعالى عليه هـذه الأدواءَ كلها ، فبلغَ ذلك زيادا من قوله ولم يُجِبْه المغـيرةُ فأمْسَك زيادٌ وتَـكَافَّا .

(١) الحبن محركة : داء فى البطن يعظم منه ويرم، الاستسقاء .

قال الأصمعيُّ : لم يقل أحدٌ فى تفضيل أخٍ على أخيه وهما لأَبٍ وأمٍّ مثل قول المغيرة لأخيه :

أبوكَ أبى وأنت أَخى ولـكن تفاضَلَتِ الطبائعُ والظروفُ
وأمك حين تُنْسَبُ أمُّ صِدْق ولـكنَّ ابنَها طبعٌ سخيفُ

وكان عبدُ الملك إذا نظر إلى أخيه معاوية ، وكان ضعيفا يتمثل بهذين البيتين .

نظر الحجاجُ إلى يزيدَ بنِ المهلب يَخْطُرُ فى مِشْيته فقال : لعن اللهُ المغيرةَ بن حبناء حيث يقول :

جميـلُ المُحَيّا بَخْتَرِىٌّ إذا مَشَى وفى الدِّرْع ضَخْمُ المنكبين شِناقُ[1]

فالتفت إليه يزيد فقال : يقول فيها :

شديدُ القُوَى من أهْلِ بيتٍ إذا وَهَى من الـدِّينِ فَتْقٌ حُمِّلوا فأَطاقوا
مراجيحُ فى اللَّأْواءِ إن نَزَلَتْ بهم ميامينُ قد قادُوا الجيوشَ وساقوا

ولما قُتِل المغيرةُ بنُ حبناءَ جعل وهو يجودُ بنفسه يأخذ من دَمِه ويكتبُ على صدره أنا المغيرة بن حبناء ثم مات .

(١) الشناق : الطويل .

منصور النمرى (١)

هو منصورُ بنُ الزبرقانِ بن سَلَمة ، وقيل منصورُ بن سَلَمة بن الزبرقانِ بن شَريكِ بن مُطْعِمِ الكَبْشِ الرَّخَم بنِ مالك بن سَعْد بن عامر الضَّحْيان بن سَعد بن الخزرج بن تَيْم اللهِ بن النَّمر بن قاسط ، وإنما سُمِّى عامرٌ الضَّحيان لأنه كان سَيِّداً فى قومه ، وكان حاكِمَهم وكان يَجْلِسُ لهم إذا أضْحى النهارُ فسمى الضَّحْيَانَ ، وسُمِّىَ جَدُّ منصورٍ مطعمَ الكَبْشِ الرَّخَم لأنه أطْعَمَ ناسا نَزَلوا به ونَحَر لهم ، ثم رفع رأسه فإذا هو برَخَمٍ يَحُمْنَ حول أضيافِه فأمر بأن يُذْبَح لهم كَبْشٌ ويُرْمَى بين أيديهم فذُبِحَ الكبشُ وسُلِخَ ونُظِّفَ [ورُمى به بين أيديهم فنزل] الرخم [فمزقته وأكلته] فسمى مطعم الكبشِ الرَّخَم . وفى ذلك يقول أبو نُمَيْجَةَ النَّمَرىّ يمدح رجلا منهم :

أبوكَ زعيمُ بنى قاسطٍ ... وخالُك ذو الكَبْشِ يُقْرِى الرَّخَمْ

ومنصورٌ شاعرٌ من شعراء الدولةِ العباسيةِ من أهل الجزيرةِ وهو تلميذُ كُلثومِ بن عمرو العَتَّابى وراويَتُه ، وعنه أخَذَ ومن بحره اسْتَقَى وبمذهبه تَشَبَّه ، ووصَفَه العتابىُّ للفضل بنِ يحيى بن خالد وقرظه عنده حتى اسْتَقْدمه من الجزيرة ، ووصله بالرشيد ، وتهاجَرا بعد ذلك ، وعمل كلٌّ واحدٍ منهما على هَلاكِ صاحبه ، وكان منصور قد عَرَفَ مَذْهَبَ الرشيدِ فى الشعرِ ورغْبَتَه فى أن يَصِلَ مَدْحَه بنفْىِ الإمامة عن آل أبى طالبٍ والطعنِ عَلَيْهم ، وعَرَف أنَّه ما يُقدِّم مروانَ بنَ أبى حفصة إلا لسبب ذلك ، فنحا نَحْوه لكنه لم يُصَرِّح بالهجاء ، وحامَ ولم يَقَعْ ،

---

(١) أغانى ساسى ١٢ : ١٦ ـ تجريد ج ١ ق ٢ : ١٤٨١ . الدار ١٣ / ١٤١ .

لأنه كان يَتَشَيَّعُ . وكان مروانُ بن أبى حفصة شديدَ العداوةِ لآل أبى طالب ، وكان ينطق على نبّةٍ قوية يَعْضدها طلبُ الدنيا فلا يُبْقِى ولا يَذر .

ولما وصَفَه البرامكةُ للرشيد : أحبَّ أن يسمع كلامَه فأمرهم بإقدامِه ، فقدم ونزل عليهم ، فقالوا له : إنا قد ذكرناك لأمير المؤمنين ، وقد أحبَّ أن يراك ويسمعَ شِعْركَ فانظر كيف تكون ، فقال : إن الله تعالى قد مَنَّ بكم عَلَيَّ ورفع ذكرى بكم ، وقد ذكرتمونى عند أمير المؤمنين [بحال أنا] أجتهد فى الإقامة بها ، والمعينُ على ذلك هو الله عز وجل ، ثم أمرهُم الرشيدُ بإحضاره وصادف دخولُه إليه يوم نَوبةِ مروانَ ابن أبى حفصة فسلَّم على الرشيد ودعَا فأحْسَنَ فحسَدَه مراونُ على ما سمع من بيانه ، وكان مروان يقول قبل قدومه : هذا شامِىّ وأنا حِجازىٌّ نَجْدِىٌّ وبَيْن الحجازى والشامِىِّ فَرْقٌ أفتراه يكون أشعرَ منى ، ودخَلَه من ذلك ما يدخل مِثْلُه من الغَمِّ والحسَدِ لما سمع ثناءه وعلم أن [وراء ذلك] فصاحة [فاستقر] فى نفسه [جودة] شعره فحزن لذلك واستنشد الرشيد منصورا فأنشده :

أَميرَ المؤمنين إليك خُضنـا ... غمارَ الهَوْلِ من بلد شَطيرِ
بِخُوص كالأهلةِ خافقاتٍ ... تلينُ على السُّرَى وعلى الهَجيرِ
حَمَلْن إليـك آمالًا ثِقالًا ... ومثل الصَّخْرَةِ الدُّرُّ النثيرُ
فقد وقَفَ المديحُ بمنتهـاه ... وغايتِه وصار إلى المصيرِ
إلى مَنْ لا يشيرُ إلى سواه ... إذا ذُكر النَّدى كفُّ المشيرِ

فقال مروان وقد سَمِعه يُنْشِدُ : وددتُ والله أنه أخَذَ جائزتى وسَكَتَ ثم مرَّ منصورٌ فى قصيدَتِه إلى أن ذَكَر يحيى بنَ عبدِ الله بن حسن فيها فقال :

يُذَلِّلُ من رقـابِ بنى عَلِيٍّ ... ومَنّ ليس بالمنِّ الصَّغيرِ
مَنَنْتَ على ابنِ عبدِ الله يحيى ... وكان من الحُتوفِ على شَفيرِ

---

(١) ما بين الأقواس عن الأغانى .

قال مروان: فما بَرِحْتُ حتى أمرنى الرشيدُ أن أُنْشِده وكان يَتَبَسَّم فى وقت ما [كان] يُنشِده النَّمَرِىّ وينظر إلىّ فأنشدته قصيدتى التى أقول فيها :

موسى وهارونُ هما اللذان في كُتُبِ الأخبارِ يُوجدانِ

مِنْ وَلَدِ المَهْدِىِّ مَهْدِيّان قد أطلق المَهْدِىُّ لى لسانى

وشَدَّ أزرى ما به حَبَانى من اللُّجَيْنِ ومن العِقْيانِ

قال : والله ماعاج النمرىُّ بذلك ولا احْتَفَل به ، فأومأ إلىّ الرشيد أن زِدْه فأنشدته قصيدتى التى أقول فيها :

خلُّوا الطريق لمعشرٍ عاداتُهم حَطْمُ المناكبِ يومَ كل زحامِ

وارْضَوا بما قَسَمَ الإلهُ لكم به ودعوا وراثة كل أَصْيَدَ سامِ

أنَّى يكون وليس ذاك بكائنٍ لبَنِى البناتِ وراثةُ الأعمام

قال : فوالله ما عاج بشىء منها ، وغلب على الرشيد وخرجت الجائزتان فأعطى مروانَ مائةَ ألفٍ وأعطى النمرىَّ سبعين ألفا ، وقيل له : أنت مريد فى بنى على .

ولقد خلص النمرى إلى شىءٍ ليس عليه فيه شىءٌ وهو قوله :

فإن شكروا فقد أَنْعَمْتَ فيهم وإلا فالندامةُ للكفور

وإن قالوا بنو بنت[1] فحق وردوا ما يناسب للذكور

وما لِبَنِى بناتٍ من تُراثٍ مع الأعمام فى وَرَقِ الزَّبور

وكان مروان يَتَأَسَّفُ على هذا المعنى ألا يكونَ سبقه إليه.

وكان الرشيد يحتمل أن يُمْدَح بما مُدِح به الأنبياء ولا ينكرُ ذلك ولا يردُّه حتى دخل عليه نفرٌ من الشعراء فيهم رجلٌ من ولدِ زُهَيْرِ بن أبى سُلمى فأفرط فى مدحه حتى قال :

* فكأنه بَعْدَ الرسولِ رسولُ *

---

(١) فى الأصل (ابن ابنته) وما أثبتناه عن الأغانى .

فغضب هارونُ وقال له : ويلك اِنْسَ هذا السرفَ الذى يضع ولا يرفع ، ويلك أتظنُّ أن هذا يعجبنى ، أو أُحِبُّه ، لا والله لقد جهلتَ وما علمتَ ، قد رفع الله منازلَ الأنبياء على منازل الخلفاء ولم يَنْتَفِع أحدٌ بهارون يَوْمَه وقال : لا تعطوه شيئا فصرفه ولم يُعْطِه شيئا ، وأنشده منصورُ النمرىُّ قصيدةً مدحه بها وهجا آل على، عليهم السلام، وثَلَبَهُم فضجر هارونُ ضجرًا شديدا وقال: يا ابن اللخناء أتظنُّ أنك تَتَقَرَّبُ إلىَّ بهجائك أقواما أبوهم أبى ، ونَسَبُهم نَسَبى ، وأصلهم أصْلِى وفَرْعُهُم فرعى ، وأنا منهم وهُمْ منِّى ، فقال : ما شَهِدْنا إلا بما عَلِمْنا ، فازداد غَضَبُه وأمَرَ مسرورًا فَوَجَأَ عُنُقَه وأُخْرِجَ ثم دخلَ عليه يوما بعد ذلك فأنشده :

بنو حَسَنٍ ورَهْطُ بنى حُسَيْنٍ ... عليكم بالسَّدادِ من الأمورِ
فقد ذقتم قِراع بَنِى أبيكم ... غداةَ الرَّوْعِ بالبيضِ الذُّكورِ
أحين شَفَوْكُمُ من كلِّ وِترٍ ... وضَمُّوكُمْ إلى كَنَفٍ وثيرِ
وجادَتْكُمْ على ظمأٍ شديدٍ ... سماءٌ من نوالهم الغزيرِ
فما كان العقوقُ لهم جزاءً ... بفعلهم وإدراكُ الثُّؤورِ
وإنك حين تُبْلِغُهم أذاةً ... وإن ظَلَموا لمحزونُ الضميرِ

فقال له: صدقت وإلا فعَلَىَّ وعَلَىَّ ، إنى [لذلك الأذى الحالِّ بهم لكاره][1] وإنما أفعله إذا خشيت على نفسى منهم، وأمر له بثلاثين ألف درهم.

قال مروانُ بنُ أبى حفصة: خرجنا مع الرشيدِ إلى بلادالروم فنالته شِدَّةٌ شديدةٌ، وظَفِرَ وقد كاد أن يَعْطَبَ ، لولا الله عَزَّ وجل ، ثم يَزِيد بن مَزْيَد فقال لى وللنمرى أنشدا فأنشَدْته قولى :

طَرَقَتْكَ زائرةً فحىِّ خيالَها ... بيضاء تَخْلِطُ بالجمالِ دَلالَها

(١) ما بين القوسين عن الأغانى .

ووصفْتَ الأسرى من الرجال وكيف أسْلَمُوا نساءَهم ، والظفرَ الذى رَزَقه فقال: عدُّوا قصيدتَه فكانت مائةَ بيتٍ ، فأمر لى بمائةِ ألفِ دِرْهم ، ثم قال للنَّمَرِىّ: كيف رأيت فرَسِى فإنى أنكرْتُه ، فقال النمرى :

مُضِرٌّ[1] على فَأْسِ اللجامِ كأنه ... إذا اشتبكَتْ أيدى الجيادِ يطيرُ

فأقسم لا ينسى لك اللهُ أجْرَهـا ... إذا قُسمَتْ بين العبادِ أجورُ

قال النمرى : ثم قلت فى نفسى : ما يمنعنى من إذْكارِه بالجائزة فقلت :

إذا الغيثُ أكْدَى واقشَعَرَّتْ نجُومُه ... فغيثُ أميرِ المؤمنين مَطِيرُ

وما حلَّ هارونُ الخليفةُ بلدةً ... فأخلفها غَيْثٌ وكاد يضيرُ

فقال : أذْكَرْتَنِى ورأيتُه متهللا لذلك ، وألحقَنِى بمروانَ بنِ أبى حَفْصَةَ وأمَر لِى بمائةِ ألفِ دِرهم .

كان محمدُ الراويةُ المُلَقَّبُ بالبيدقِ قصيراً ولذلك لُقِّبَ بالبَيْدَقِ ، وكان يُنْشِدُ هارونَ أشعارَ المُحْدَثِينَ وكان أحسنَ خَلْقِ اللهِ إنشاداً ، وأحسَنَهم طَبْعاً وأخفَّهم روحاً وكان إنشادُه يُطرِبُ كما يُطرِبُ الغناء . قال : دخلت على الرشيد وعنده الفضلُ ابنُ الربيع ويزيدُ بن مَزْيَد، وبين يديه خوانٌ لطيفٌ وعليه جرمادح ورُغُفُ سَمِيذٍ ودجاجتان فقال : أنشدنى ، فأنشدته قصيدة النَّمَرِىّ العينية فلما بلغت إلى قوله :

أىُّ امْرِئٍ بات من هارونَ فى سَخَطٍ ... فليس بالصلوات الخمسِ ينتفعُ

إن المكارمَ والمعروفَ أوْدِيةٌ ... أحلَّكَ اللهُ منهـا حيث تتَّسـعُ

إذا رفَعْتَ امـرأً فاللهُ رافِعُه ... ومن وَضَعْتَ من الأقوام يَتَّضِعُ

نفسى فـداؤك والأبطالُ مُعْلَمَةٌ ... يومَ الوغى والمنايا بينها[2] قرعُ

إن أخْلَفَ الغيثُ لم تُخْلِفْ مخايلُه ... أو ضـاق أمْرٌ ذكرناه فيتَّسعُ

---

(١) المضر : السيء الخلق الغضبان — وفأس اللجام : الحديدة المعترضة فى فم الفرس .

(٢) صابها فزع (أغانى ١٢ : ١٩) .

قال: فرَمى بالخوانِ من بين يدَيْه ، وصاح : هذا والله أطيبُ من كلِّ طعام وكل شيء ، وبعث إلى النَّمَرِىّ بسبعةِ آلافِ دينار ، فلما وصلت إليه، قلت له : أنا كنت السببَ فى إيصالها إليك لأنه أَمرنى أن أنشده ، ولم يَذْكُرْ لى أحداً ، فأنشدت لك خيرَ ما أَعْلم . فأعطاك ما قد عَلِمْتُ ، َفحَقّى يحتاج أن يكون فى هذا مُوَفَّرا ، فرأيته قد قَصَّرَ فيما يَجِبُ عليه ، ثم شخص إلى رأس العين ، فأغاظنى وأَغْضَبنى فأنشدتُ للرشيد قوله :

شاءٍ(١) من الناسِ راتِعٌ هاملْ   يُعَلِّلونَ النفوسَ بالباطـــلْ

فلما بلغت قوْلَهُ :

إلا مساعيرَ يَغْضَبون لهـــا   بِسَلَّةِ البيضِ والقنـــا الذَّابل

فقال الرشيد : أراه يُحَرِّضُ علىّ ابعثوا إليه من يجىء برأسِه فكلَّمه فيه الفضل ابنُ الربيعِ فلم يُغْنِ كلامُه شيئا ، وتوجه الرسولُ فوافاه فى اليوم الذى مات فيه ، ودفن ، فلما عرف الرشيدُ ذلك قال : الحمد لله الذى لم يُجْرِ قتله على يدى ومات حَتْفَ أَنْفِه .

قال منصور بن جَهْوَر : سألت العَتَّابىَّ عن سببِ غضبِ الرشيد عليه، فقال لى: استقبلتُ منصوراً النمرىَّ يوما من الأيام فرأيتُه واجما كئيبا ، فقلت : ما خبرك ؟ فقال : تركتُ امرأتى تُطْلَق وقد عَسُر عليها وِلادُها ، وهى يَدِى ورِجْلِى وقَيِّمَةُ أَمْرِى وأمرِ منزلى فقلت له : فلم لا تكتُب على فَرْجِها هارون الرشيد ، فقال : ليكون ماذا ؟ قلت : لتَلِدَ على المكانِ قال : وكيف ذلك ؟ قلت : لقولك :

إن أَخْلَفَ الغيثُ لم تُخْلِفُ مخايلُه   أو ضاقَ أمرٌ ذكرناه فيَتَّسِعُ

فقال لى : والله يا كَشْخَانُ لئن تَخَلَّصَتِ امرأتى لأذكُرَنَّ هذا القولَ للرشيد ولأطرِفَنّه فقلت له : ويلك أحقٌّ تقول ؟ فقال : مزحت معك . فلما ولدت امرأتُه

(١) فى رواية الأغانى : ساد وهى فى التجريد : شاء .

دخل إلى الرشيد يوما فصادف منه ما أحَبَّ من حُلْوِ تَوْجيهه فقال له : إنى أُطْرِفُ أميرَ المؤمنين بطريفة إنْ أَمَّنَنِى بوائقها قال : هاتِها ، وأنت آمِن ، فأعاد عليه ما دار بينى وبينه ، فغضب الرشيدُ من هذا وطلبنى ، فاستترت عند الفضل بن الربيع ، وقلت له : اللهَ اللهَ يا سيدى فى أمْرِى ، فإن هذا رجلٌ سَعَى على دَمِى ، وإن لم تَنْظُر لى هَلَكْت . قال : اسكتْ فأنا أتلطَّف لك إن سألَنى ولم يزَلْ يَسْتَلُّ ما فى قلبه حتى أذن لى فظهرت ، فلما دخلتُ عليه قال : قد بلغنى ما قلتَ للنمرى ، فاعتذرتُ إليه ، وقلت له : يا أميرَ المؤمنين المعذرةَ إلى الله وإليك ، فوالله ما أراد منصورٌ إلا تَلَفِى لحنة فى نفسه علىّ ، وأمير المؤمنينُ أَوْلى من أَقال ، ووالله ما حَمَلَه على الكَذِبِ علىّ إلا وقوفى على مَيْلِهِ إلى آلِ أبى طالب ، فإن أراد أميرُ المؤمنين أن أُنْشِدَه شِعْرَه فعلتُ . قال : أنشدنى فأنشدته :

شَاءٌ من الناس راتع هامِــلْ   يعللون النفوسَ بالباطلْ

حتى بلغت قوله :

إلا مساعيرُ يَغضبون لهـــا   بِسَلّة البيضِ والقنا الذابِلْ

فغضب الرشيد غضباً شديداً ، وقال للفضل : أَحْضِره الساعةَ فبعث الفضلُ فى ذلك فوجده قد تُوفى فأمر بنبشِه وإحراقِه ، فلم يزل الفضل يتلطف به حتى كَفَّ عن ذلك .

وقيل : إن هذه القصيدةَ العينية لمنصورِ بن بَجرة بن منصورِ بن صليل بن أشيم ابن الحجار بن قيس بن قطن بن سعد بن عامر بن الضحيان بن سعد بن الخزرج ، فلما سمعها منصورٌ النمرىُّ استحسنها فاستَوْهبها منه فوَهَبها له ، وكان منصورُ بن بَجْرَةَ هذا موسراً لا يَتصَدَّى لمديح أَحَد ، ولا يَفِدَ إلى أَحَد ، وكان هارون قد جرَّدَ السيف فى رَبيعةَ ، فوجَّه منصورٌ النمرىُّ هذه القصيدةَ للرشيد ، وكان رجلا تَقْتَحِمُه العينُ وتزدَرِيه جداً لدمامته ، فأمر الرشيدُ لما عُرِضَتْ عليه بإحضارِ قائلِها ،

فلما وصل منصورٌ إليه عرَّفه الحاجبُ أنه لما قرأها اختارها على جميع شِعرْ الشعراءِ وأمرَ بإدخالِه فلما قرُبَ من الفضلِ بن الربيع ازدراه لدمامةِ خَلْقِه ، وكان قصيرا أحمرَ أزرقَ أعمشَ نحيفا فرَدَّه . قال منصور : فمر بى ذاتَ يوم يزيدُ بنُ مَزْيَد ، فصحت به ، يا أبا خالِد أنا رجلٌ من عشيرَتِك وقد لَحِقَنِى ضَيْم وقد عُذْتُ بك ، فوَقَفَ فعرَّفتُه خبرى وسألتُه أن يَذْكُرَنى ففعل ، فلما دخلت على الرشيد أنشدته:

* أتسْلو وقد بان الشبابُ المُزايلُ *

فقال لى : غداً إن شاء اللهُ أرفعُ السيفَ عن ربيعة ، فقلت له : يا أميرَ المؤمنين إن يوْمَ الشَّرِّ لطويل ، فقال : صدقت ، وجرّد بريدا ركض ، فما جاء العصر من الغد حتى رُفِعَ السيفُ عن ربيعة بنصيبين وما يليها .

قال منصورٌ النمرى : دخلتُ على الرشيدِ يوما ، ولم أكن أعددت له مديحا فوجدتُه نشيطا طيِّبَ النفسِ فرمتُ شيئا فلم أجد ، ونظر إلىّ مستنطقا فقلت :

إذا اعْتاصَ المديحُ عليك فامْدَح أميرَ المؤمنين تَجِدْ مقـالا
وعُذْ بِفِنائِه واجْنَحْ إليـه تَنَلْ عُرْفا ولم تذللْ سـؤالا
فِناءٌ ما تزالُ بـه رِكابٌ وضَعْنَ مدائحـا وحَمَلْن مالا

فقال : واللهِ لئن قصَّرْتَ القول لقد أَطَلْتَ المعنى ، ووَصَلَه بصلةٍ سَنِيَّة .

مسعدة بن البختري[1]

هو مَسْعَدَةُ بن البختري بن المُغيرة بن أبي صُفْرَة بن أخي المُهَلَّبِ بنِ أبي صُفْرَة ، كان يشبب بنائلةَ بنتِ عُمَرَ بنِ يزيدَ الأسيدي ، أحد بني أسيد بن عمرو ابن تميم ، وكان أبوها شريفا ، وكان على شُرَطِ العِراق من قِبل الحجاج ، وأمُّ نائلةَ هذه عاتكةُ بنتُ الفُرات بنِ معاوية البكّائيّ ، وأم عاتكةَ المُلاءَةُ بنت زُرارة بن أَوْفَى الجُرَشِيَّة وكان أبوها فقيها مُحَدِّثاً من التابعين . قال محمد بن سلام : ما أعْلمُ امرأةً شُبِّبَ بها وبأمِّها وجَدَّتِها غيرَ نائلة وأمّها. فأما نائلة ففيها يقول مَسْعَدة :

قولا لنائِلَ ما تَقْضين في رجلٍ ... يهْوَى هواكِ وما جَنَّبْتِهِ اجْتَنَبا

يُمْسِي معي جَسَدِي والقلبُ عندكُمُ ... فمَنْ يَميشُ إذا ما قَلْبُه ذهبا

وأما عاتكة فإن يزيدَ بنَ المُهَلَّبِ كان زَوْجها ، فقتل عنها يوم العَقْر وفيها يقول الفرزدق :

إذا ما المَزْونيات أصبحن حُسَّراً ... وبَكَّيْن أشلاءً على غير نائل[2]

فكم طالب بنت المُلاءَةِ إنها ... تُذَكِّرُ ريعانَ الشباب المُزايلِ

وأما المُلاءَةُ أمُّها ففيها يقول الفرزدق أيضا :

كم للملاءَةِ من طَيْفٍ يؤرِّقني ... إذا تَجَرْثَمَ هذا الليلُ واعْتَكَرا

خرجت عاتكةُ بِنْتُ الملاءة إلى بعضِ بَوادِي البصرةِ ، فلقيتْ بدويا معه نِحْيَاً سَمْنٍ فقالت له : يا بَدَوِيُّ أتبيعُ هذا السمنَ ؟ قال : نعَمْ قالتْ : أرِنِي ففتحَ نِحْياً فنظرتْ إلى ما فيه ثم ناولَتْهُ إياه . ثم فتَحَتْ الآخَرَ وناولَتْه إياه ، فلما شَغَلَتْ

---

(١) أغاني الدار ١٣ / ٢٧٠ ـ مذهب ٣ / ١٥٢ .

(٢) الحسر : الكاشفات الوجوه والاشلاء : الأعضاء وقد عنى بها القتلى .

يداه أمرَتْ جوارِيها فجعلنَ يَرْكُلْن في استِه وجعلتْ تنادِي : يالثارات ذاتِ النِّحْيَيْنِ ، تعني مافعله خواتُ بن جُبَيْر، لما فعل بالمرأة مافعل ، وضربت العربُ بها المثل ، فقالوا : أَشْغَلُ من ذات النِّحْيَيْن . فأرادت عاتكةُ أن هذا لم يفعَلْه أحدٌ من النساء برَجُلٍ كما فعَلَهُ الرجلُ بالمرأةِ غيرها ، وأنها أدركت للنساء ثأْرَهُن من الرجال بما فعَلَتْه .

لَقِيَت الملاءةُ بنتُ زُرارةَ عُمَرَ بن أبي رَبيعةَ بمكَّةَ ، وحوله جماعةٌ يُنْشِدُهم فقالت لجاريةٍ لها : من هذا ؟ فقالت : عُمَرُ بنُ أبي ربيعة . قالت : المُتَنَقِّلُ بِغَزَلِهِ من ذات وُدٍّ إلى أُخْرى ، والذى لا يَدومُ على وَصْلٍ ولا لِقَوْلِه فَرْعٌ ولا أَصْل ؟ أما والله لو كنتُ كبعض من يُواصِلُ لما رضيتُ منه بما يَرْضَيْن ، وما رأيت أدْنى من نساءِ أهلِ الحجاز ، ولا أَقَرَّ منهن بِخَسْف ، والله لَأَمَةٌ من إمائنا آنفُ منهن ، فبلغ ذلك عُمَرَ عنها فراسلها وراسلته ، فقال من أبيات :

* حَيِّ المنازلَ قد عَمِرْنَ خَرابا *

منها :

دَارُ التي قالتْ غداةَ لَقِيتُها	عند الجمارِ فما عَيِيتُ جوابا
هذا الذى باعَ الصديقَ بِغَيْرِه	ويُريدُ أن أرضى بذاك ثوابا
قلتُ اسمعي منى المقالَ ومن يُطِعْ	بصديقهِ المتملقَ الكذَّابا
إن كنتِ حاولتِ العتابَ لتَعْلَمِي	ما عندنا فلقدْ أطلتِ عتابا
أو كان ذلك للبعاد فإنه	يكفيكِ ضَرْبُك دُونَنَا الجِلْبابا
وأرى بوَجْهِك شَرْقَ نورٍ بيّنٍ	وبوَجْهِ غيرِك طَخْيَةً وضَبابا[1]

(١) الطخية : الظلام .

مُطيع بن إياس[1]

هو من بنى الدِّيل بن بَكرِ بن عبد مَناة بن كِنانة، وقيل: من بنى لَيْث بن بكر. والدِّيلُ وليثٌ أخوان لأبٍ وأمٍ.

أمهما أمُّ خارجةَ، واسمُها عَمْرَةُ بنت سَعْد بن عبد الله بن قُراد بن ثعلبة ابن معاوية بن زيْد بن الغَوث بن أنْمارِ بن أَراش بن عَمْرو بن الغَوْثِ بن نَبَت بن مالك ابن زَيْد بن كهلان بن سبأ بن يَشْجُب بن يَعْرب بن قحطان. وهى التى يضرب بها المثلُ فيقال: أسرعُ من نكاح أمِّ خارجةَ، وقد ولدت فى عِدَّة بطونٍ من العَرَب، حتى لو قال قائل: إنه لا يكاد يَتَخَلَّصُ من ولادتها كبيرُ أَحَدٍ منهم لكان مقاربا.

فمِمّن ولدت الدِّيلُ وليثٌ والحارثُ وبنو بكر بن عبد مناة بن كنانة، وغاضرةُ ابنُ مالك بن ثعلبة بن دُودانَ بن أسد بن خُزَيْمة، والعنبرُ وأسيدُ والهجيمُ بنو عمرو ابن تميم، وخارجةُ بْن يَشْكر وبه كانت تُكْنَى، وسعدُ بن عمرو بن ربيعةَ ابن حارثة بن مُزَيقيا وهو أبو المُصْطَلِق، وكان قد بلغ من سُرْعَةِ نكاحها أن الخاطبَ يأتيها فيقول: لها خِطْبٌ، فتقول: نِكْح.

وزعموا أن بعض أزواجها طَلَّقها، فرَحَل بها ابنٌ لها عن حَيِّهِ إلى حَيِّها فلقيها راكبٌ فلما تبينته قالت لابنها: هذا خاطبٌ لى لا شك فيه، أفتراه يُعجِلُنى إن أنزل عن بعيرى، فجعل ابنها يسُبُّها.

ولم يُوجدُ نسبُ مطيعٍ متصلا إلى كنانةَ فى رواية أحد، وقيل: إن أبا قرعةَ الكنانىَّ جدُّه فلا نعلم أهُوَ جدُّه الأدنى فنصِلُ نَسَبُه به أم هو بعيد منه، وأبو قرعة

---

(١) أغانى ١٢ : ٧٥ تجريد ق ٢ جـ ١ ١٥١٩. مهذب ٦ : ٧٤، تاريخ بغداد ١٣/٢٢٥ أغانى الدار ١٣ / ٢٧٤.

هو سَلْمى بنُ نَوْفل بن معاوية بن عُرْوةَ بنِ صَخْر بن يَعْمر بن نفاثةَ بن عدىّ ابن الدِّيل بن بكرِ بن عبدِ مناةَ . وكان سَلْمَى بن نَوْفل جوادا ، وفيه يقول الشاعر :

يُسوَّدُ أقــوامٌ وليسوا بسادةٍ … بل السيِّدُ الميمونُ سلمى بن نَوْفَلِ

كان أبو قرعةَ سَلْمَى بينه وبين ابنِ الزُّبَـيْر قبل أن يَلِىَ مُقَارَضَةٌ ، فدخلَ سَلْمَى وابنُ الزبيرِ يخطبُ الناسَ ، وكان منه وَجلاً ، فرماه ابنُ الزبير ببَصَرِهِ حتى انصرف[1] ، فلما انصرف من المجلس دعا حَرَسِيًّا قال له : امْضِ إلى موضع كذا فادْعُ لى سَلْمى بن نَوْفلٍ ، فأتاه به ، فقال له ابن الزبير : إيهاً أيُّها الضب ، قال: إنى لست بضَبٍّ ولـكن الضب بالضَّمْرِ من صَخْرٍ . قال : إيهاً أيُّها الذِّيخ[2] ، قال إن أحدًا لم يَبْلُغ سِنِّى وسِنَّك إلا دُعِىَ ذِيخا . قال : إنك لهاهُنا يا عاضَّ بَظْرَ أمِّه قال : أُعيذُكَ بالله أن يتَحدَّثَ العربُ أن الشيطان نطقَ على فيك بما تَنْطِقُ به الأمة الفُسْلة[3] وايمُ الله ما هاهنا ، وأدار يَدَه على المجلس ، أحدٌ إلا وقد كانت أمُّه كذلك .

وكان إياسُ ابن أبى مُسْلِمٍ أبو مُطيعٍ شاعرا ، وكان قد وَفَد إلى نَصْرِ بن سَيّار بخراسان فقال فيه :

إذا ما نِعالى من خراسانَ أقْبلت … وجاوَزْت منها مَخْرما ثم مَخْرما

ذكرت الذى أَوْلَيْتَـنِى ونَشَرْتَه … فإن شِئْتَ فاجْعلنى لشكرك سُلَّما

ومطيع بن إياسٍ شاعرٌ من مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية ، وليس من فحول الشعراء فى تلك الأيام ، ولـكنه كان ظريفا ماجنا خليعا حُلْوَ العِشْرة مليحَ النادرةِ مُتَّهما فى دينه بالزَّندقةِ .

كنيته أبو سَلْمَى ، ومولدُه ومنشؤه بالـكوفة ، وأبوه من أهل فلسطينَ الذين أمدَّ بهم عبدُ الملك بنُ مروان الحجاجَ بنَ يوسف فى قتاله ابن الزُّبَـيْر وابنَ الأشعثِ

(١) جلس (الأغانى) ١٢ : ٧٦ .
(٢) الذيخ : الذئب الجرىء ، ذكر الضباع : الـكثير الشعر .
(٣) الفسل : من لا مروءة له .

فأقام بالكوفة وتزوج بها ، فولد له مُطيعٌ ، وكان منقطعا إلى الوليــد بن يزيدَ ابن عبدِ الملك ، ومتصرفا بَعْدَهُ فى دَوْلَتِهم ومع أوليائهم وعُمَّالِهم ، لا يَكْسِدُ عند أَحَدٍ منهم ، وانقطع فى الدولة العباسية إلى جعفرِ بن أبى جعفرٍ المنصور ، فكان معه حتى مات .

سُئِل رجلٌ كان يصحب مُطيعَ بنَ إياس عن مُطيع ، فقال: لا ترد أن تسألنى عنه قيل : ولِمَ ؟ قال : ما السؤالُ عن رجل كان إذا حَضَرَكَ مَلَكَك وإذا غاب عنك شَاقَك وإذا عُرِفْتَ بصُحْبَتِه فَضَحكَ .

وكان مطيعُ بن إياسٍ ويحيى بنُ زياد الحارثىُّ وحمَّادُ الراويةُ وابنُ المُقَفَّعِ ووالبةُ ابن الُحباب يتنادمون ولا يفترقون ولا يَسْتَأْثِرُ أحدُهم على صاحبه بمالٍ ولا ملكٍ ، وكانوا جميعا يُرْمَونَ بالزندقة .

وكان مطيعُ بن إياس مأبونا فدخل عليه قَوْمُه فلاموه على فِعْله ، وقالوا له : أنت فى أدبك وشَرَفِك وسؤددِك ترمى بهذه الفاحشةِ القَذِرةِ ، فلو أقْصَرْتَ عنها . فقال : جَرِّبوه أنتم ثم دَعُوه إن كنتم صادقين ، فانصرفوا عنه ، وقالوا : قبح اللهُ فِعْلكَ وعُذْرَك وما استقبَلْتَنَا به .

قال مطيعُ بن إياس: قال لى حماد عجرد يوما : هل لك أن أُرِيَكَ خُشَّةَ صديقتى وهى المعروفة بظَبيةِ الوادى ؟ قلت : نعم . قال: إنك إن قعَدْتَ معها وخَبَّثْتَ طَرْفَكَ فى النظر أفْسَدْتَها علىّ ، فقلت : لا والله لا أتكلمُ بكلمةٍ تسوءك ولأسُرَّنَّك، فمضى وقال : والله إن خالفْتَ ما قلتَ لأخرِجَنَّك قال : قلت : إن خالفتُ إلى ما تَكْرَه فاصنع بى ما أحْبَبْتَ . قال : فأدْخَلَنِى على أظْرَفِ خلق الله وأحْسَنِهم وَجْها ، فلما رأيتُها لم أتمالَكْ وأخذنى الزَّمَع[1] وفطن لى فقال: اسكنْ يا ابن الزانية ، فسَكَنْتُ

---

(١) الزمع : رعدة تعترى الإنسان إذا هم بالأمر .

قليلا فلحظتْني ولَحَظْتُها لحظةً أخرى ، فغضب ووضع قَلَنْسِيَتَه عن رأسِه وكانت صَلْعَتُه حمراءَ كأنها استُ قِرْد ، فلما وضعها وجدتُ للكلام موضعا فقلت :

فَوَارِ السَّوْأَةَ السوْآ ءَ يا حمَّادُ عن خُشَّه
عن الأُتْرُجَّةِ الغضَّـ ـةِ والتُّفاحةِ الهَشَّه

فالتفت إلىّ وقال : فعلتها يا ابنَ الزانية ، فقالت له : أحْسَنَ والله ، وما بلغ صفتَك بعد فما تريد منه ؟ فقال لها : يا زانية . فقالت له : الزانية أمُّك وثاوَرَتْه[1] وثاوَرَها فشقَّتْ قميصَه وبصقَتْ فى وجهه وقالت له : ما تُصادِقُك وتَدَعُ مثلَ هـذا إلا زانية وخَرَجْنا وقد لقى كلَّ بلاء . وقال لى : ألم أقلْ لك إنك ستفْسِد علىّ مجلسى، فأمسكتُ عن جوابه وجعل يهجونى ويَسُبُّنى ويشكونى إلى أصحابنا ، فقالوا لى : اهْجُه ودعنا وإياه فقلت :

ألا يا ظبيــةَ الوادى وذاتَ الجســـدِ الرادِ[2]
وزينَ المِصْرِ والدارِ وزينَ الحىِّ والنـادى
وذاتَ المبسمِ العَـذْب وذات الميسَمِ البادى
أما باللهِ تَسْتَحْيِيـــ ـنَ من خُلَّة حَمَّادِ
فحمادُ فـتًى ليس بذى عِـزٍّ فتنْقادى
ولا مالٍ ولا طُرَفٍ ولا حَــظٍّ لمُرْتادِ
فتــوبى واتــقى اللهَ وبُتِّى حَبْلَ عجرادِ[3]
فقد مُيِّزْتِ بالحسن عن الخلْقِ بإفرادِ
وهذا البينُ قد حُمَّ فجودى منك بالزّادِ

(١) ثاوره مثاورة : واثبه .
(٢) الراد : مسهل الرأد وهو الرخص اللين .
(٣) فى الأغانى: جراد وفسرها جلاء آنية الصفر.

وأخـذ أصحابُنا رقاعاً وكتبوا الأبياتَ فيها ، وألقَوْها فى الطريق ، فلما رآها وقرأها قال : يا أولادَ الزنا فعلَها ابنُ الزانية وساعَدْتموه علىّ وغـنَّى فيها حكمُ الوادى فلم يَبْق فى الـكوفة سَقَّاءٌ ولا طحانٌ ولا مُـكارٍ إلا غـنَّى فيها ثم غِبْتُ مُدَّةً وقدمتُ فأتانى فما سَلَّمَ علىّ حتى قال :

أما بالله تَسْتحيين من خُلة حمّاد

قتلْتَـنِى قتَـلَكَ الله ، والله ما كَـلَّمَتْـنِى حتى الساعة ، فقلت: اللهم أَدِمْ هَجْرَها له وسوءَ رأيها عليه وآسِفْهُ[1] عليها وأَغْرِه بها، فشتمنى ساعةً ثم قلتُ له : قم بنا حتى أُرِيكَ أُخْتِى، وكان لمطيع بن إياس صديقةٌ يسميها أُخْتِى وتسميه أَخِى وهى مغنية ، [قال مطيع : فمضينا] فلما خَرَجَت إلينا دعوتُ قَيِّمَةً لها ، فأسررت إليها فى أن تُصْلِح لنا طعاما وشرابا ، وعرفتها أن الذى معى حَمّاد ، فضحكت ثم أخذت صاحبتى فى الغناء وقد عَرَفَته فـكان أولَ صوتٍ غنّت :

أما بالله تستحيين من خُلَّةِ حمّادِ

فقال لها : يا زانية ، وأقبل علىّ فقال لى : وأنت يا زانى يا ابنَ الزانيـة ، أَسرَرْتَ هذا إلى قيّمتَها . فقلت : لا والله ، فقال : كذبتَ وشاتَمَتْه صاحبتى ساعةً وقامت فدخلتْ ، وجعل يَتَغَيَّظ علىّ . فقلت : أنت ترى أنى أَمَرْتُها أن تغنى بما غَنَّت ؟ قال : نعم ، أنا أرى ذلك وأظنُّه ظنا ، لا والله ولـكنى أَتيقَّنُه ، فحلفت له بالطلاق على بطلانِ ظَنِّه ، فقال : وكيف هذا ؟ فقلت : أراد أن يُفسِد هذا المجلسَ من أفسد ذلك المجلسَ فقال : قد فعل وانصرفنا .

قال يحيى بنُ زيادٍ الحارثىّ لمطيع بن إياس : انطلقْ بنا إلى فلانةَ صديقتى ، فإن بينى وبينها مغاضبةً لتُصْلِح بيننا . وبئس المُصْلِحُ والله أنت ، فدخلنا عليها

---

(١) آسفه : أغضبه، وفى التنزيل (فلما آسفونا انتقمنا منهم) .

فأقبلا يتعاتبان ، ومطيع ساكت ، حتى إذا أكثر قال يحيى لمطيع : ما يُسْكِتُك أسْكَتَ الله نأْمَتَك[١] فقال لها مطيع :

أنت مُعْتَلَّةٌ عليه وما زا ل مُهِيناً لنَفْسِه فى رضاكِ

فأعْجِبَ يحيى وهَشَّ له فقال مطيع :

فدَعيه وواصلى ابنَ إياسٍ جُعِلَتْ نَفْسُه الغداة فِداكِ

فقام يحيى إليه بوسادة فى البيت فما زال يَجْلِدُ بها رأسَه ويقول : ألهذا جئتُ بك يا ابن الزانية ! ومطيع يُغَوِّث[٢] ، والجاريةُ تضحك منهما ثم تركه وقد سَدِر[٣] .

مرض حمادُ عَجْرد فعاده أصدقاؤه جميعا إلا مطيعَ بنَ إياس وكان خاصا به فكتب إليه حماد :

كفاكَ عيادتى من كان يرجو ثوابَ الله فى صِلةِ المريض

فإن تُحْدِثْ لك الأيام سُقْماً يحول جَرِيضه[٤] دون القريضِ

يكُنْ طولُ التأوُّهِ منك عندى بمنزلةِ الطنينِ من البعوضِ

قدم مطيعُ بن إياس من سفره فقدِم بالرغائبِ فاجتمع هو وحمادُ عجرد بصديقته ظبيةِ الوادى وكان عجرد على عزم الخروجِ مع محمدِ بن العباسِ إلى البَصْرةِ ، وكان مطيعٌ قد أعطى صاحبتَه من طرائف ما أفاد ، فلما جلسوا يشربون غنت ظبيةُ الوادى :

أظنّ خليلى غدوةً سيسيرُ وربِّى على أن لا يسيرَ قديرُ

---

(١) النأمة : الصوت .

(٢) يغوث : يقول : يا غوثاه .

(٣) سدر : تحير — وفى رواية: ندر أى مات إعياء .

(٤) الجريض : الغصة ، وابتلاع الريق على هم — وحال الجريض دون القريض مثل يضرب للأمر يعوق دونه عائق .

فما فرغت من الصوت حتى غنت صاحبةُ مطيع :

ما أبالِي إذا النــوى قَرَّبَتْهمْ ودنَوْنَا من حَلّ يوما[1] وسارا

فجعل مطيع يضحك وحماد يشتمهما .

مر مطيع بن إياس بيحيي بنِ زياد وحمادٍ الراوية ، وهما يتحدثان ، فقال لهما : فيم أنتما ؟ فقالا : فى قذف المُحْصَنات . قال : أَوَ فى الأرضِ مُحْصَنَة فتقذِفانِها .

كان المنصورُ يريد أن يأخذَ البيعةَ للمهدى ، وكان ابنُه جعفرُ يعترضُ عليه فى ذلك فأمر بإحضار الناسِ فحضروا وتكلمتِ الخطباء وقالت الشعراء فأكثروا فى وصفِ المهدىِّ وفضائله ، ثم قال مطيعُ بنُ إياس للمنصور : يا أمير المؤمنين حدثنا فلانٌ عن فلانٍ أنّ النبى ، صلى الله عليه وسلم ، قال : المهدىُّ منا ، محمدُ بنُ عبد الله ، وأمُّه من غَيرِنا ، يملؤها عدلاً كما ملئت جَوْراً ، وهذا العباسُ أخوك يشهدُ على ذلك ، وأقبل على العباس فقال : أنشدُك الله هل سمعْتَ هذا ؟ فقال : نعم مخافةً من المنصور ، فأمر [المنصور] الناس بالبيعة للمهدى ولما انفضّ المجلس[2] [قال العباس لمن يأنس به] : أرأيتم[2] هـذا الزنديقَ لم يَرْضَ أن يكذبَ على الله ، عز وجل ، وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم ، حتى استَشْهَدَنى على كَذِبه ، فشهدت له خوفا ، وشهد كل من حضر على كَذِبى ، وبلغ الخبرُ جعفرَ بن أبى جعفر ، وكان مطيعٌ منقطعا إليـه يَخْدمه . فجفاه وطرَدَه عن خدمته ، وكان جعفرٌ ماجناً ، فلما بلغه قول مطيع هذا غاظه وشَقَّتْ عليه البيعةُ لمحمدٍ المهدِىِّ فأخرج ذَكَره ثم قال : إن كان أخى محمد هو المهدى فهذا هو القائمُ من آلِ محمد .

---

(١) منهم (أغانى) .

(٢) فى الأغانى : [وكان العباس بن محمد لم يأنس به قال : أرأيتم . ج ١٢ : ١٨] وفى الأصل : قال العباس : لم يأنس به أرأيتم . وما أثبتناه عن التجريد .

وكان المنصورُ قد كَرِهَ صحبة مطيع بن إياسٍ لجعفرٍ ابْنِه وخَشِىَ أن يُفْسِده فدَعَا بمطيعٍ وقال له : قد عزمتَ أن تُفْسِدَ ابنى عَلَىَّ وتُعَلِّمَه الزندقةَ ، فقال : أعيذك بالله يا أميرَ المؤمنين ، أتظنُّ بى هـذا ، والله ما يسمعُ منى إلا ما إذا وعاه جَمَّلهُ وزَيَّنه ونَبَّله . فقال : ما أرى ذلك ولا يَسْمَعُ منك إلا ما يضرُّه ويَغرُّه فلما رأى مطيعٌ إلحاحَه فى أمره قال له : أتؤَمِّنُنى من غَضَبك حتى أصدُقَك ؟ قال : أنت آمن . قال : أى مُسْتَصْلَحٍ فيه وأيَّةُ نهاية [لم يَبْلُغْها] فى الفساد والهلاك! قال : وَيْـلَك بأى شيء؟ قال : يزعمُ أنه يعشقُ امرأةً من الجنِّ وهو مجتهدٌ فى خِطْبَتِها ، وقد جمع أصحابَ العزائم عليها ، وهم يُغرونه ويَعِدونه بها ويمنُّونه ، فوالله ما فيه فضل لأن يسمع غير ذلك من جِدٍّ ولا هَزْل ولا كُفرٍ ولا إيمان . فقال له المنصور : ويلك أتدرى ما تقول ؟ قال : الحقَّ أقولُ فسَلْ عن ذلك ، فقال : عد إلى صُحْبَتِه واجتهد أن تُزيلَه عن هذا الأمر ولا تُعْلِمْه أنى عَلِمت بذلك .

ولما زاد بجعفرٍ ولعُه بهذه الجارية التى ذكَرَ أنه يتعشَّقُها من الجن أصابه صَرَعٌ فـكان يُصْرَعُ فى اليوم مراتٍ بين يدَىْ أبيه ، والربيع واقف ، فيقول له : ياربيعُ هذه قُدْرَةُ الله تعالى ، ولم يزل كذلك حتى مات فحَزِنَ عليه المنصورُ حُزْنا شديداً ومَشَى مع جنازته فلما دُفِنَ وسُوِّىَ قَبْرُه قال للربيع : أنشدْنِى قولَ مطيع فى مَرْثِيةِ يحيى بنِ زياد :

يا أَهْلِىَ ابكُوا لقَلْبِى القَرِحِ	وللدموع الذوارفِ السُّفُحِ
راحوا بيَحْيى ولو تُطاوِعُنى الـ	أقـدارُ لم يبتـكر ولم يَرُحِ
ياخير من يَحْسُن البكاءُ له الـ	يومَ ومن كان أمسِ للمِدَحِ
أعقبْتَ حُزْنا من السُرورِ كما	أدلتَ مكروهنا من الفرح[1]

---

(١) هذا الشطر واضح بالأصل وما أثبتناه عن التجريد .

قال على بن القاسم : كنت آلفُ مطيعَ بنَ إياس ، وكان جارى ، فَمَنَّفَنِى فى عشرته جماعةٌ من إخوانى وقالوا لى : إنه زنديقٌ فأخبرتُه بذلك . فقال : هل سمعتَ منى شيئًا أو رأيتَ شيئًا يدلُّ على ذلك ؟ أو هل وجدتنى أُخِلّ بالفرائض من صلاةٍ أو صوم ؟ فقلت : والله ما أتّهِمُك ، ولكنى أخْبَرتُك بما قالوا ، واستحييتُ منه ، فعجّلَ علىّ السُّكْرُ ذاتَ يوم فى منزله فنمتُ عنده ومُطِرْنا فى جوفِ الليل ، وهو معى ، فصاح بى مرتين أو ثلاثا . فعلمت أنه يريد أن يَصْطَبِح ، فكَسِلْتُ أنْ أُجيبَه ، فلما تيقن أنى نائم جعل يردد على نفسه بيتا قاله وهو :

أصبحتُ جَمَّ بلابلِ الصَّدْرِ دهراً أُزَجِّيه إلى دَهْرِ (١)

فقلت فى نفسى : هذا يَعْمَلُ شعرا فى فنٍّ من الفنونِ فأضاف إليه بيتا ثانيا وهو :

إن بُحْتُ طُلَّ دمى وإن تركت وَقَدَتْ علىّ توقُّد الجمر

فقلت فى نفسى : ظفرتُ بمطيع فتنحنحت ، فقال لى : أما ترى هذا المطرَ وطيبَه ، اقعدْ بنا حتى نشربَ فاغتنمتُ ذلك فلما شَرِبْنا قلت له : زعمت أنك زنديقٌ قال : وما الذى صحّحَ عندكَ ذلك ؟ قلت : قولك :

إن بُحْتُ طُلَّ دمى وإن تركت وقَدَتْ علىّ تَوَقُّدَ الجمْرِ

فقال : كيف حَفِظْتَ البيتين وما حفظتَ الثالثَ ؟ فقلت : ما سمعت منك ثالثا ، قال : بل قلت ثالثا ، قلت : فما هو ؟ قال :

مما جناه عَلَى أبى حسنٍ عُمَر وصاحبُه أبو بكرِ

وكان علىّ بن القاسم متشيّعاً فأكبّ على رأسِ مطيعٍ ورِجْليه يُقبّلُها ويقول : جزاكَ الله يا أبا سَلْمى خيرا .

---

(١) وفى رواية : عصرا أكاته إلى عصر . والجم : الكثير — والبلابل : وساوس الصدر وشدة الهموم .

أُتِيَ الرشيدُ ببنتِ مطيعِ بن إياس في الزنادقة ، فاعترفت بذلك ، وقالت : هذا دِينٌ علَّمَنيه أبي وتابَتْ منه فقَبِلَ توبتَها وردَّها إلى أهلها .

كان مطيع كثيرَ العبَثِ فوقفَ على أبي العُمَيْرِ رجلٌ من أصحاب المُعَلَّى الخادم فعبثَ به وقال :

ألا أبْلغ لديك أبا العُمَيْرِ ... أراني الله في استِك نصفَ أَيْرِ

فقال له أبو العُمَيْر : يا أبا سَلْمى لو جُدْتَ بالأير كلِّه لأحَدٍ لَجُدْتَ به لي لما بيننا من الصداقة ، ولكنك لحُبِّكَ له لا تريده كلَّه إلا لك فأفحمه ، ولم يعاود العبَثَ به لأن مطيعاً كان يرمى بالأُبْنَة .

كان مطيع بن إياس نازلا بكَرْخ بغداد ، وكان يحيي بنُ زياد نازلا في عَسْكَرِ المهدى فقدم بغداد رجلٌ يقال له الفَهْمِي ، مُغَنٍّ مُحْسِنٌ ، فدعاه مطيع وجماعةٌ من أصحابه وكتب إلى يحيي بنِ زياد يدعوه :

عندنا الفَهْمِيُّ مسرو ... رٌ وزَمَّارٌ مجيدُ

ومَعاذٌ وعِياذٌ ... وعُمَيْرٌ وسعيدُ

وندامَى يعملون الـ ... قَلْزَ والقلزُ[1] شديدُ

بعضهم ريحانُ بَعْضٍ ... فهم مِسْكٌ وعودُ

فلما قرأ الرقعة سار إليهم فأتَمَّ يومه معهم وبلغت الأبياتُ المهديَّ فضحك منها وقال : تنايَكَ القومُ وربِّ الكعبة .

سقَطَ لمطيع بن إياس حائطٌ فقال له بعض أصحابه : احْمَدِ اللهَ على السلامة ، فقال : احمَدِ اللهَ أنت إذ لم ترُعْك هَدَّتُه ولم يُصِبْك غبارُه ولم تغرَم أجرةَ بنائه .

---

(١) القلز : نوع من الشراب .

وفد مطيع بن إياس على جرير بن يزيد بن خالد بن عبد الله القَسْرِيّ وقد مدحه بقصيدته :

أمِنْ آل ليلى عَزَمْتَ البكورا ولم تَلْقَ ليلى فتَشْفِى الضميرا
وقد كنتَ دهرك فيما خَلَا لِلَيْلَى وجاراتِ ليلى زَءُورَا
ليالِىَ أنتَ بهـا مُعْجَبٌ تَهيمُ إليها وتَعْصِى الأميرا
وإذ هى حَوْراءُ شِبْهُ الغزا لِ تُبْصر فى الطرفِ منها فتُورا
تقول ابنَتِى إذ رَأَتْ حالَتِى وقَرّبتُ للبين عَنْسا وكُورا
إلى من أَراكَ وَقَتْكَ الحتو فَ نَفْسِى تَجَشَّمْتَ هذا المَسِيرا
فقلتُ إلى البَجَلِىِّ الذى يَفُكُّ العُناةَ ويُغنِى الفقيرا
أخى العُرْفِ أَشْبَه عند النَّدَى وحَمْلِ المِئِينَ أَباه جَدِيرا
عَشِيرَ الندى ليس يَرْضَى النَّدَى يدَ الدهرِ بعد جَرِيرٍ عَشِيرا
إذا اسْتَكْثَر المُجْتَدون القليـ لَ للمُعْتَفِين اسْتَقَلَّ الكثيرا
إذا أعسر الخير فى المُجْتَديـ ن كان لديه عَتِيداً يَسيرا
وليس بمانع ذى حاجَةٍ ولا خاذلٍ مَن أَتَى مُسْتَجيرا
إلى ابنِ يزيدَ أبى خالدٍ أخى العُرْف أَعْمَلْتها عَيْسَجورا[1]
لآتى فواضِلَ من كَفِّه فصادفت مِنه نوالا غزيرا
فإن يكن الشُّكْرُ حُسْنَ الثنا ءِ بالعُرْفِ مِنِّى تَجِدْنى شكورا
بصيراً بما يَسْتَلِذُّ الروا ةُ من مُحْكَمِ الشعرِ حتى يَسيرا

فلما بلغ يزيدَ خبرُ قدومه دعا به ليلا ، ولم يعلم به أحد ، ثم قال له : قد عرفتُ خبرَ قدومك وإنى متعجل لك جائزتك ساعتك هذه ، وإذا حضرتَ غدًا فإنى

---

(١) العيسجور : الناقة السريعة القوية .

سأخاطبك مخاطبة فيها جفاء وأزوِّدُك نفقةَ طريقك وأصرفُك لئلا يبلغ أبا جعفر خَبَرِى فيُهْلِكَنى، وأمر له بمائتى دينار وصَرَفَه، فلما أصبحَ أتاه فاستأذنه فى الإنشاد، فقال له: ياهذا لقد رميت بأملك غيرَ مَرْمى، وفى أى شيء أنا حتى ينتجعَنى الشعراء لقد أسأت إلىَّ لأنى لاأستطيع تبليغَك مَحَابَّك[1] ولا آمن سخطك وذَمَّك. فقال له: تسمعُ ماقلتُ؟ فإنى أقبلُ مَيْسُورَك وأبسطَ عُذْرَك، فاستمع منه كالمتكلفِ المُتَكَرِّه فلما فرغ قال لغلامه: كَمْ مبلغُ ما بَقِىَ من نفقتك؟ قال: ثلاثمائة درهم. قال: أَعطِه مائةَ درهم لنَفَقَته فى طريقه ومائةَ درهمٍ ينصرفُ بها إلى أهْلِه واحتبسْ مائةَ درهمٍ لنفقتنا، ففعل الغلام، فانصرف عنه مطيع شاكرا ولم يَعْرِف أبو جعفر خَبَرَه.

سكر مطيع بن إياس ليلةً فعَرْبَدَ على يحيى بن زياد عَرْبَدَةً قبيحة وقال له وقد حَلَف بالطلاق:

لا تَحْلِفَنْ بطلاقِ من | أَمْسَتْ حوافِرُها رَقيقه
مهلاً فقـــد عَلِمَ الأنا | مُ بأنها كانت صَدِيقه

فهجَره يحيي وحَلَفَ ألا يـكلِّمَه أبدا، وكانا لا يفترقان فى فرح ولا حُزْن ولا شِدَّةٍ ولا رخاء فتجافيا وتقاطعا مدة فـكتب إليه مطيع بن إياس:

إن تَصِلْنى فمثلك اليوم يُرْجَى | عَفْوُه الذنبَ عن أخيه ووَصْلُه
ولئن كنتَ قد هَمَمْت بهجرِى | للذى قـــد فعَلْتُ إنىَ أَهْلُه
وأحقُّ الرجال أن يَغْفِرَ الذنـــ | ـبَ لإخــــوانه الموفَّرُ عَقْلُه
الـكريمُ الذى له الحسبُ الثا | قِبُ فى قومه ومن طاب أَصْلُه
ولئن كنتَ لا تصاحبُ إلا | صاحباً لا يزِلّ ما عاش فِعْلُه
لا تَجِدْه وإن جَهِدْتَ وإنى | بالذى لا يكادُ يوجدُ مِثْلُه

---

(١) محابك: ما تحبه وتتمناه.

إنما صاحبي الذي يَغفِرُ الذنـ ـبَ ويـكفيه من أخيه أقَلُّه
الذي يحفظُ القديمَ من العهـ ـدِ وإن زَلَّ صاحبٌ قلَّ عَذْلُه
ورعَى ما مضى من العهْدِ منه حين يُودِي بذى الجهالةِ جَهْلُه
ليس من يُظْهِرُ المودةَ إفكًا وإذا قال خالَفَ القـولَ فِعْلُه
وصْلُه للصديق يوما فإن طا لَ فيوْمان ثم يَنْبَتُّ حبلُه

فصالحه يحيي وعاد إلى عِشْرته .

قال الوليد بنُ يزيد لمطيع بن إياس : أى [الأشياء][1] أطيب عندك ؟ قال : صهباء صافيةٌ تمزُجُها غانيةٌ بماء غادية. قال : صدقت .

دخل سراعة بن الزندبور على مطيع بن إياس ويحيي بن زياد وهم يشربون وعندهم قينة تغنيهم فسقوه أقداحا وهو على الريق فاشتد ذلك عليه فقال مطيع للمغنية : غنى سُرَاعَةَ . فقالت : أى شيء تختار؟ فقال غنى :

خليـلىَّ[2] داويتما ظاهرًا فمن ذا يُداوِى جوًى باطنا

شعر عمرو بن سعيد بن عمرو بن زيد بن [نُفَيل القرشي العدوى] ففطن مطيع لمعناه فقال : أ بِكَ أكْـل ؟ فقال : نعم ، فقدم إليه طعاما فأكل ثم شرب معهم .

كان مطيع بن إياس يهْوَى جوهَرَ جاريةَ بَرْبَرٍ وله فيها مقاطيع عدة، فأتاها يوما فاحتجبتْ عنه فسأل عن خبَرِها فعرف أن فتًى من أهل الـكوفه يقال له الصحَّاف يهواها وهو مُختَلٍ معها فقال :

نَاكَ واللهِ جَوْهَرَ الصحَّافُ وعليها قميصُهـا الأفوافُ[3]
شامَ فيها أيرًا له ذا ضـلوعٍ لم يَشِنْه ضعفٌ ولا إخْطافُ

---

(١) غير ظاهرة فى الأصل وهذه عن الأغانى .

(٢) طبيبى (أغانى) .

(٣) الأفواف : الرقيق .

جَدّ دَفْعًا فيها فقالتْ ترَفَّق ... ما كذا يا فَـتى تُنَاكُ الظّرافُ

زَعَمُوها قالَتْ وقد غابَ فيها ... قائمًا فى قيامـــه اسْتِحْصَاف

وَهْوَ فِى جارَةٍ اسْتِهِا يَتَلَظَّى ... فلهـــا شهوة له والتهـــاف

بعضَ هذا مهلا ترفق قليـــلا ... ما كذا يا فتى تناك الظراف

وبلغ المهدى قوله فيها :

أمـــا والله يا جَوْهَرْ ... لقد فُقْتِ على الجوهَرْ

فلا والله ما المهد ... ىُّ أَوْلَى منكِ بالمِنْـبَرْ

فإن شئتِ ففى كَفَّيْـــ ... كِ خلعُ ابنِ أبى جعفرْ

فقال المهدى : اللهم العَنْهما جميعا ، ويْحَـكُم اجمعوا بين هَذَين قبل أن تَخْلَعَنا هذه القَحْبَة ، وجعل يضحك من قول مطيع .

كان لمطيع بن إياس مُعاملٌ من تجار الـكوفة فطالتْ صحبتُه إياه وعِشْرَتُهُ حتى شربَ النبيذ وعاشر تلك الطّبَـقَة وأفسدوا دِينهُ فـكان إذا شرب عَمِلَ ما يعملون ، وقال كما يقولون ، وإذا صحا تَهَيَّب ذلك وعافَه فمرّ يوما بمطيع بن إياس ، وهو جالس على باب دارِه فقال : من أين أقبلت ؟ قال : شيعتُ صديقا لى يحجّ ورجعتُ كما ترى مَيِّتا من ألم الحرِّ والجوع والعطش ، فدعا مُطيعٌ غلامَه فقال : أى شيء عندك ؟ فقال : عندى من الفواكه كذا ، ومن البوارِد كذا ، ومن الطعام الحار كذا ، ومن الأشربة كذا ، ومن الثلج كذا ، ومن الرياحينِ كذا، وقد فرغ الطعامُ . وغيبت الفواكهُ وجُهِّزَ المجلسُ فقال له: كيف ترى هذا قال: والله عيشُ أهل الجنة قال : أنت الشريكُ فيه ، ولـكن على شريطة إن وَفَيْتَ بها وإلا فانْصرف قال: وما هى ؟ قال : أن تشتمَ الملائـكةَ ، فنفر التاجرُ ، وقال : قبـــح الله عِشْرَتـكم ، وقد فَضحْتمونى وهتكتمونى، ومضى فلم يَبْعُدْ حتى لقيه حمادُ عَجْرد فقال : ما لى أراك

نافرًا جَزِعا ، فحدَّثه حديثَه فقال له : أساء مطيعٌ ، قَبَحه الله ، وأخطأ ، وعندى والله ضِعْفُ ذلك . فهل لك فيه ؟ فقال : إنى والله إليه فى أشد فاقةٍ ، فقال: أنت الشريكُ فيه ولكن على شَريطة إن وَفيْتَ بها وإلا فانْصَرِفْ قال : وماهى ؟ قال : أن تَشْتِمَ الأنبياءَ فإنهم تعبَّدونا بكلِّ أمرٍ متعِب ولا ذَنْبَ الملائكة [فنشتمهم] فنفر التاجرُ وقال : أنت أيضا ؟ قبحك الله . والله لا أَدْخل . ومضى فاجتاز بيحيى بْن زياد الحارِثِىّ فقال : مالى أراك مرتاعا ؟ فحدَّثه بقِصَّته فقال : قَبَحَهما الله ، لقد كَلَّفاك شَطَطا وأنت تعلم أنَّ مروءتى فوق مُروءَتِهما ، وعندى أضعافُ ما عندهما ، وأنت الشريكُ فيه على خَصْلةٍ تنفعُك ولا تَضُرُّك وهى خلافُ ما كلفاك من الكُفْرِ . قال : وما هى ؟ قال : تُصَلِّى ركعتين تطيلُ ركوعَهُما وسجودَهُما وتصليهما وتجلسُ فنأخُذُ فى شأننا ، فضجر التاجرُ وتأفَّفَ وقال : هذا شرٌّ من ذاك ، أنا تَعِبٌ ومَيِّتٌ تكلِّفُنى صلاةً طويلةً فى غَيْرِ بِرّ ولا طاعةٍ يكون ثمنُها أكل سُحْتٍ وشُرْب خَمْرٍ وعِشْرَةَ فَجَرَة وسماع مغنياتٍ وسَبَّهُ وسَبَّهُما ومضى مُغْضَبا ، فبعث خَلْفَه غلاما له فردَّه كَرِها . فقال : انزل الآنَ ولا تُصَلِّ اليوم البَتَّة فشتَمه ، وقال : ولا هذا ، فقال : انزلْ كيفَ شِئْتَ وأنتَ ثقيلٌ غيرُ مساعد ، فنزل عنده ودعا يحيي مطيعاً وحماداً فعبثا بالتاجر ساعةً وشاتماه ثم أكلوا وشربوا وصلَّى التاجر الظهرَ والعصرَ فلما دبت الكأس فيهم ، قال مطيع : أيُّما أحبُّ إليك تَشْتِمُ الملائكةَ أو تَنْصرف؟ فشتمهم ، وقال له حماد : أيما أحبُّ تشتمُ الأنبياءَ أو تَنْصرف ؟ فشتَمَهم ، فقال له يحيي : أيما أحبُّ إليك تصلى الركعتين أو تَنْصرف ؟ فقام فصلَّى الركعتين وجَلَس فقالوا له : أيما أحبُّ إليك تَتْرُك باقى صلاةِ يَوْمِك أو تنصرف ؟ قال : بل أترُكُها، يا بنى الزوانى ، ولا أنصَرِف وعمل كلٌّ واحد منهم به ما أراده منه .

رُفِعَ الخبرُ إلى المنصور أن مطيعَ بنَ إياس زنديقٌ ، وأنه يلازم ابنَه جعفرا وجماعَةً من أهلِ بيته ، ويوشك أن يُفسِد أَديانَهم ويُنْسَبُوا إلى مذهبه ، فقال له

المهدى : أنا به عارفٌ ، أما الزندقةُ فليس من أهْلِها ولكنه خبيثُ الدينِ فاسقُ مُسْتَحِلٌّ للمحارم ، قال : فأَحْضِرْه وانْهَهُ عن صُحْبَةِ جعفر وسائر أهله ، فأحضره المهديُّ وقال له : ياخبيثُ يا فاسقُ أفسدْتَ أخى ومَنْ بصحبتِه من أهلى ، والله لقد بلغنى أنهم يتقارعون عليك ، ولا يتمُّ لهم سرورٌ إلا بك ، وقد غرَرْتَهم وشهَرْتَهم فى الناس ، ولولا أنى شَهِدْتُ لك عند أميرِ المؤمنين بالبراءة مما نُسِبْتَ إليه من الزندقة لقد كان يضربُ عُنُقَك ، ياربيع اضرِبْه مائتى سَوْط واحبسه ، قال : ولِمَ ياسيدى؟ قال: لأنك سِكِّيرٌ خِمِّير قدأفسدت أهلى كلَّهم بصُحبتك. فقال له: إن أَذِنْتَ وسمعتَ احتَجَجْت ، قال : قل . قال : إنما أنا امرؤ شاعر وسوقِى إنما تَنْفُقُ عند الملوك وقد كَسَدَتْ عندكم ، وأنا فى أيامكم [مطَّرَح] وقد رضيتُ فيها مع سَعتها للناس جميعا بالأكلِ على مائدةِ أخيك لا يتبع ذلك عِشرة وأصفيتُه شُكرى وشِعْرى فإن كان ذلك عائبا عندك تُبْتُ منه فأطرقَ المهدى ساعةً ، ثم رفع رأسه وقال : رُفِع إلىّ صاحبُ الخبرِ أيضا أنك تَتَماجنُ على السُّؤَّالِ وتضحكُ منهم .
قال : لا والله ما ذلك من فِعْلى ولا خُلُقِى ولاجرَى منى إلا مرَّةً واحدةً : فإن سائلا أعْمَى اعترضَنى على الجسرِ ، وأنا على بغلتى فظَنَّنى من الُجندِ فرفع عصاه فى وجهى ، وقال : اللهم سَخِّر الخليفةَ لأن يُعْطِىَ الجندَ أرزاقَهم فيشتروا من التجارِ الأمتعةَ فيربحَ التجارُ عليهم فتكثَر أموالُهم فيجبُ فيها الزكاةُ عليهم فيتصَدَّقوا علىّ منها فنَفِرْت بغلتى من صياحِه ورفعه للعصا فى وَجْهى حتى كدت أسقطَ فى الماء فقلت له : يا هذا ما رأيت أكثر فضولا منك، سَلِ اللهَ أن يرزُقَك ولا تجعل بينك وبينه هذه الحوالاتِ والوسطاءَ كلَّها فلا يحتاج إليها ، فإن هذه المسائل فضولٌ فضحك الناس منه فرفعَ هذا علىّ فى الخبر ، فضحكَ المهديُّ وقال : خَلُّوه ولا يُضْرَبْ ولا يُحبَسْ ، انطلقْ فقال له : أأدخل عليك لِمَوْجدةٍ وأخرجُ عن رِضًى وتَبْرأ ساحتى من مُعْضِلةٍ وأنصرفُ بلا جائزة ؟ قال : ولا يجوز هذا ،

أعطوه مائتي دينار ، ولا تُعلِموا بها أميرَ المؤمنين فتجدد عنده ذُنوبه ، وكان المهديُّ يَشْكر له قيامَه في الخطباء ووضْعَه الحديثَ له في أنه المهديُّ فقال له : اخرجْ عن بغدادَ ودَعْ صحبةَ جعفرٍ حتى يَنْساكَ أميرُ المؤمنين ، ثم عُدْ إليّ فقال : أين أقْصِد ؟ فقال : أنا أكتبُ لك إلى سليمانَ بنِ عليّ يُولّيك عملا ويُحْسِنُ إليك. قال : رضيتُ . فكتب له ، ووفد على سليمانَ بكتاب المهدى فولاه الصَّدَقَةَ بالبَصْرة ، وكان عليها داودُ بنُ أبي هند ، فعزله به .

كان مالكُ بنُ أبي سعد عمُّ جارِ الشِّطْرِنْجيّ جميلَ الوجهِ حسن الجسمِ وكان يعاشر مطيعَ بنَ إياسٍ وحمادَ عجرد ويشربُ معهما ثم فسد مابينهم فقال حماد يهجوه :

أتوبُ إلى الله من مالكٍ ... صَديقاومن صُحْبَتي مالكا

فإن كنتُ صاحبْتُهُ مرةً ... فقد تُبْتُ ياربِّ من ذلكا

وأنشدها مطيعا فقال له مطيع : سخنت عينك أهكذا يُهجى! قال : فكيف ؟ قال : قل :

نَظْرَةٌ ما نَظَرْتُها ... يوم أبصرتُ مالكا

في ثيابٍ مُعَصْفَرا ... تٍ على الوَجْهِ بارِكا

تَرَكَتْنِي أَلُوطُ مِنْ ... بَعْدِ ما كنتُ ناسكا

نَظْرَةٌ ما نَظَرْتُها ... أَوْرَدَتْنِي المَهالكا

دخل صديقٌ لمطيعِ بن إياسٍ فرأى تَحْتَه غلاما ينيكه مطيع وفوق مطيع غلام ينيكه وهو كأنه في تخت فقال له : ماهذا يا أبا سلمى فقال : هذه اللذّةُ المضاعفة .

كان مطيعُ بن إياس منقطعا إلى جعفرِ بن المنصورِ فطالت صحبته له بغير فائدة ، فاجتمع يوما هو وحمادُ عَجْرد ويحيى بنُ زياد فتذاكروا أيام بني أمية وكثرةَ

ما أفادوا منها وحسنَ مملكتهم وطيبَ دارِهم بالشام ، وما هم فيه ببغداد من القَحْط في أيام المنصور ، وشدّةِ الحر ، وخشونةِ العيش ، وشكوى الفقر فأكثروا فقال مطيع :

حَبَّذا عيشُنا الذى زال عنا   حبَّذا ذاك حينَ لا حَبَّذا ذَا
أينَ هذا من ذاك سَقْياً لهذا   ك ولسْنَا نقولُ سَقْياً لهذا
زاد هذا الزمانُ عُسرًا وشرًّا   عندنا إذ أَحَلَّنا بغداذا
بلدة تُمْطِرُ التراب على النا   سِ كما تُمْطِرُ السماء الرذاذا
خَرِبَتْ عاجلًا وأَخْرَبَ ذو العَرْ   شِ بأعمال أهلها كَلْوَاذا

عاتب المهدىُّ مطيع بنَ إياس فى شىء بلغه عنه ، فقال : يا أميرَ المؤمنين إن كان ما بلَغك عنى حقًّا فما تُغنِى المعاذيرُ ، وإن كان باطلا فما تَضُرُّ الأباطيلُ، فقبل عُذْرَه وقال : فإنَّا ندَعُك ولا نَكْشِفُك .

كان مطيعُ بن إياس عاقًّا بأبيه شديدَ البُغْضِ له ، وكان يَهْجوه فأقبلَ يوما من بُعْد ، ومطيعٌ يشربُ مع إخوانٍ له فلما رآه مطيعُ قال :

هـذا إياسٌ مقبلا   جاءت به إحدى الهَنَاتْ
هـوّز فُوه وأنفُه   كَلَمُونُ[1] فى إحدى الصفات
وكأنَّ سَعْفَصَ بَطْنُه   والثَّغْرُ شِينُ قريشاتْ[2]
لما رأيْتُكَ آتيا   أيقنتُ أنك شَرُّ آتْ

مدح مطيع بن إياس مَعْن بن زائدة بقصيدته التى أولها :

أهْلًا وسهلا بسيِّد العربِ   ذى الغُرَرِ الواضحاتِ والنجبِ
فَتَى نِزارٍ وكَهْلِها وأخى الـ   جودِ حَوَى غايتَيْهِ من كَثَبِ

---

(١) كلمن بتشديد النون (أغانى).

(٢) البيتان فيهما إشارة إلى الأبجدية (أبجد ـ هوز ـ حطى ـ كلمن ـ سعفص ـ قرشت).

فلما فرغ منها قال له مَعْنٌ : إن شِئْتَ مدحناك كما مَدَحْتَنا ، وإن شئتَ أثبناك ، فاسْتَحْيا مطيعٌ من اختيارِ الثوابِ على المديحِ ، وكَرِهَ اختيارَ المديحِ وهو محتاجٌ إلى الثواب ، فأنشأ يقول :

ثناءٌ مِنْ أمــيرٍ خَيْرُ كَسْبٍ لصاحبِ مَغْنَمٍ وأخى ثَراءِ
ولـكن الزمانَ بَرَا عِظامى وما مِثْلُ الدراهمِ من دواءِ

فضحك معنٌ حتى استَلْقى وقال : لقــد لَطُفْتَ حتى خَلَصْتَ منها ، صدقتَ ، لعمرى ما مثلُ الدراهمِ من دواءِ ، وأمر له بثلاثين ألفَ دِرهم ، وخلع عليه وحَمَلَه .

كان لمطيع بنِ إياس صديقٌ من العربِ يجالسُه فضَرَط ذات يوم وهــو عنده فاستحيا وغابَ عنه مدّة ، وعَرفَ مطيع سببَ انقطاعه فـكتب إليه :

أظهرتَ منك لنا هَجْراً ومَقْلِيةً وغِبْتَ عنا ثَلاثاً لَسْتَ تَغْشانا
هوِّنْ عليك فمافى الناسِ ذوإبلٍ إلا وأَيْنُقُه يشْرُدْن أحيانا

اجتمع يحيِ بنُ زياد ومطيعُ بن إياس وأصحابُهم فشربوا أياما تباعاً ، فقال لهم يحيى ، ليلة من الليالى وهم سكارى : ويْحَــكم ما صَلَّيْنا منذ ثلاثةِ أيام فقوموا بنا حتى نُصَلِّىَ فقالوا : نعم، فقام مطيع فأذّن ، وقال: مَنْ يَتقَدّم ؟ فتدافعوا ذلك . فقال مطيع للمغنّيةِ: تَقَدَّمِى فصَلِّى بنا ، فتقدمت تُصَلِّى بهم عليها غُلالَةُ رقيقةٌ مُطَيَّبَةٌ بلا سراويل ، فلما سجدت بان فَرْجها فوثب مطيعٌ وهى ساجدةٌ فـكشف عنه و قَبَّله وقطع صلاته وقال :

ولـما بَدَا فَرْجُها جاثما كرأسِ حَليقٍ ولم يَعْتَمِدْ
سَجَدْتُ إليــه و قَبَّلْتُهُ كما يفعلُ الساجدُ المُجْتَهِدُ

فقطعوا صلاتَهم وعادوا إلى شُرْبِهم .

كتبَ المهديُّ إلى أبيه ؛ أبي جعفرٍ المنصورِ أن يُوَجّه إليه بابْنِه موسى الهادى ، فحمله إليه ، فلما قَدِمَ عليه قامت الخطباء تهنِّئُه والشعراء تمدحه وأكثروا حتى آذَوْه فقام مطيعُ بن إياس فقال :

أحمد اللهَ إلهَ الخلـ ق رَبَّ العـالمينا
الذى جاء بموسى سالِماً فى سالمينـا
الأمير ابن الأمير ابـ نِ أميرِ المؤمنينـا

فقال المهدى : لا حاجةَ لنا إلى قولٍ بعد ما قاله مُطيعٌ فأمسَكَ الناسُ ووَصَله .

كان بالـكوفةِ رجلٌ يقال له أبو الأصْبَغ وله قِيانٌ ، وكان له ابنٌ حَسَنُ الصورةِ مضيء الوجهِ يقال له الأصْبَغ ، لم يكن فى الـكوفة أحسنُ وجها منه . وكان يحيى ابنُ زياد ومطيعُ بن إياس وحمادُ عجرد وضُرباؤهم يَألَفُونه ويَغْشونه[1] ويُطْرِفونه وكلهم يعشقُ ابنَه أصْبَغاً حتى كان يومُ نَوْروز ، وعزم أبو الأصْبَغِ على أنْ يَصْطَبِحَ مع يحيى بنِ زياد ، وكان يحيى قد أهْدى له من الليل جِداءً وفاكهةً وشراباً فقال أبو الأصْبَغ لجواريه : إن يحيى بنَ زياد يزورنا اليومَ ، فأعْدِدْن له ما يَصْلُح لمثلِه ووَجَّهَ بغلمانِه فى حوائجه ، وبعث بابنـه أصْبَغ إلى يحيى يَدْعُوه ويسألُه التعجيلَ فلما جاءه استأذنَ له الغلامُ فقال يحيى : قُلْ له : يَدْخُل ، وتَنَحَّ أنت وأغْلِق البابَ ، ولا تَدَعْه يخرجْ إلا بإذنى ، ففعل الغلام ، ودخل الأصْبَغُ فأدّى رسالةَ أبيه فلما فرغ راودَه يحيى عن نفسه فامتنع ، فثاوره يحيى وعارَكه حتى صَرَعه ثم رام حَلّ تِـكَّتِه فلم يَقْدِر عليها فقَطَعها وفَعَـلَ به ، فلما فرغ أخرج من تحت مُصَلّاه أربعين دينارا فأعطاه إياها فأخذها ، وقال له يحيى : امْضِ فإنى بالأثرِ فخرجَ أَصْبَغُ ثم جاء مطيعٌ فرآه يتبخترُ ويتطيّبُ ويتزيّنُ فقال له : كيف أصبحت ؟ فلم يُجِبْه وشَمَخَ بأنفه

---

(١) يعشقونه (أغانى) .

وقطّب حاجبيه وتَفَخَّم فقال له مطيع : ويحك مالك ؟ أَنزَلَ عليك الوَحْى فأومأ برأسه لا . فقال : أَ كَلَّمَتْكَ الملائكةُ ؟ فأومأ برأسه لا . فقال : بويع لك بالخلافة ؟ فأومأ لا فقال : فما خَبَرُكَ ؟ كأنك قد نِكْتَ أَصْبَغ . قال : أى والله الساعةَ نِكْتُهُ، وأنا فى دعوةِ أبيه اليومَ ، فقال مطيع : فامرأته طالق إن فارَقتُك أو أُقبِّل أَيْرَكَ فأبداه له يحيي فقبّله ، ثم قال : كيف قَدَرْتَ عليه ؟ فحكا له يحيي القصة وقام فمضى إلى منزل أبى الأصْبَغ فتبِعَه مطيع ، فقال له : ما تصنعُ معى والرجلُ لم يَدْعُكَ وإنما يريدُ الخَلْوَةَ معى . فقال : أُشَيِّعُكَ إلى بابه ، ونتحدثُ، فدخل يحيي وردَّ البابَ فى وجه مطيع ، فصبر ساعة ، ثم دقّ الباب واستأذن ، فخرج إليه الرسولُ وقال : يقول لك: أنا اليوم على شغل لا أتفرَّغُ لك معه فاعذرنى ، قال : فابعَثْ إلىَّ بدواةٍ وقرطاسٍ فبعث إليه فكتب إلى أبى الأَصْبَغ :

يا أبا الأَصْبَغِ لا زلتَ على ... كلِّ حال ناعمـا مُتَّبَعَا
لا تُصَيِّرَنِّىَ فى الوُدِّ كمن ... قطع التِّكَّةَ قَطْعا شَنِعا
وأتى ما يَشْتَهى لم يُثْنِه ... خيفةٌ أو حَقُّ وُدٍّ ضُيِّعَا
لو ترى الأصبغَ مُلْقًى تحته ... مُسْتَكينا خَجِلًا قد خَضَعا
وله دَفْعٌ عليه عَجِلٌ ... شَبِقٌ شاءَكَ[1] ما قد صَنَعا
فادْعُ بالأَصْبَغِ واعْلَمْ حالَه ... سترى أمراً قبيحا شَنِعا

فقال أبو الأَصْبَغ ليحيي : فَعَلْتَها يابن الزانية ، قال : لا والله فضَرَب بيده إلى تِكَّةِ ابنه فرآها مقطوعةً ، وأيقنَ يحيي بالفضيحة ، فتلكأ الغلامُ فقال له يحيي: قد كان الذى كان وسَمَّى بى مطيعٌ ابنُ الزانية إليك ، وهذا ابنى وهو والله أفْرَه من ابنِك ، وأنا عربى ابنُ عَربية ، وأنت نَبَطِىٌّ ابن نبطية فافعل بابنِى عَشْرَ مرات،

---

(١) شاءك : حزنك .

مكان المرة الواحدة ، التى فعلتُ بابنك ، فتكونُ قد رَبِحْتَ الدنانيرَ وبالواحد عشرة فضحك وضَحِكَ الجوارى وسَكَنَ غضبُ أبى الأَصْبَغ ، وقال لابنه : هات الدنانيرَ يابنَ الفاعلة ، فرمى بها إليه وقام خَجِلًا ، وقال يحيى : والله لا دَخَلَ مطيعٌ الساعى ، ابنُ الزانية ، فقال أبو الأَصْبَغ وجواريه : والله لَيَدْخُلَنَّ فقد نَصَحَنَا وغَشَشْتَنَا فأُدْخِلَ وجَلَسَ يشربُ معهم ويحيى يَشْتُمه بكلِّ لسانٍ وهو يضحك .

جاء رجلٌ إلى مطيع بنِ إياس فقال له : قد جئتُك خاطبا . فقال : لمن ؟ قال : لمَوَدَّتِك . فقال له : قد أنكحْتُكَها وجعلْتُ الصَّداقَ ألا تقبلَ فِيَّ قولَ قائل .

قال مطيعُ بنُ إياس : كانت لى بالرَّىّ جاريةٌ أيام مُقامِى بها مع سَلْم بن قُتَيْبَة فكُنْتُ أتستَّر بها، وكنت أتعشَّقُ امرأة من بناتِ الدَّهاقينِ ، كنت نازلا إلى جَنْبها فى دارِها ، فلما خرجنا إلى المنصور اضطررتُ لأن أبيعَ الجاريةَ فبِعْتُها ، وبَقيتْ فى نفسى علاقةٌ من المرأة التى كنتُ أهواها فلما نزلنا عَقَبَةَ حُلوان جلست مُسْتَنِدًا إلى إحدى النَّخْلَتَيْن اللتين على العَقَبَةِ وقلت :

أَسْعِدانى يا نَخْلَتَىْ حلوانِ	وارْثِيا لى من رَيْبِ هذا الزمان
واعلما أنّ رَيْبَه لم يزل يفـ	ـرُقُ بين الأُلَّافِ والجيرانِ
ولعَمْرِى لو ذُقْتما ألم الفرْ	قَةِ أبكاكما الذى أبكانى
أَسْعِدانى وأَيْقِنا أن نَحْساً	سوف يأتيكما فتفترِقانِ
كم رَمَتْنى صروفُ هذى الليالى	بفراقِ الأحبابِ والخِلَّان
غير أنى لَمْ تَلْقَ نفْسِى كما لا	قيتُ من فُرْقَة ابْنَةِ الدِّهقانِ
جارة لى بالرَّىِّ تُذهِبُ همِّى	ويُسَلِّى دُنُوُّها أحزانى
فجعتْنى الأيامُ أغبطَ ما كنـ	ـتُ بصَدْعٍ للبَيْنِ غيرِ مُدانى
وبرَغْمِى أنْ أصبحتْ لاتراها الـ	ـعينُ منى وأصبحتْ لا ترانى

إن تـكن ودّعتْ فقدتركت بى | لَهَباً فى الضمير ليس بـوانِ
كحريق الضّرام فى قصب الغا | بِ زفته[1] رِيحان مُختلفانِ

فقال لى سَلْم بن قتيبة: ويلك فيمن هذا أفى جاريتك؟ فاستحييت أن أصدقه فقلت: نعم، فـكتب من وَقْتِه إلى نائبه أن يَبْتاعها لى، فلم ألبث أن وَرَدَ كتابُـه إنّى وَجَدْتها، قد تداولها الرجالُ وقد بَلَغَتْ خمسةَ آلاف دِرْهم فإن أَمَرْتَ أن أشتريها فَعَلْتُ، فأخبرنى بذلك سَلْم وقال: أيهما أحبُّ إليك هى أم خمسة آلاف درهم؟ فقلت: أمّا إذا كانت قد تَداوَلها الرجال فقد عَزَفَتْ نفسى عنها، فأمر لى بخمسةِ آلاف درهم، ولا والله ما كان فى نفسى منها شيء، ولو كنت أُحِبُّها لم أبالِ بمن تداوَلَها من الرجالِ ولو نا كها أهل مِـنًى كلهم.

ذكر الجاحظُ أن مُطيعاً ذَكَرَ عن هـذه التى قال فيها هذا الشعر أنها كانت تستَلْقِى على ظَهْرِها فيشخصُ كَتِفاها وما كَمتاها فيُدَحْرَجُ تحتَها الرُّمانُ فينفذ إلى الجانب الآخر.

ولما خرجَ الرشيد إلى طُوس هاج بِه الدَّمُ فى حلوانَ فأشارَ عليـه الطبيبُ بأَكْلِ جُمّارٍ فأحضر دِهْقَانَ حُلوانَ وطلب منه جُمّارا فأعلمه أن بلدهم ليس ببلد نَخْلٍ ولـكن على العَقَبَةِ بحلوانَ نَخْلَتانِ فأمر بقَطْعِ إحداها فقُطِعَتْ وأُتِىَ الرشيدُ بجُمّارِها، فأكل منها وراحَ[2]، فلما انتهى إلى العقبةِ نظر إلى إحدى النّخْلَتَيْن مقطوعةً والأخرى قائمةً وإذا على القائمة مكتوب:

أسْعِدانى يا نخلَتَىْ حـلوانِ | وارْثيا لى من رَيْب هذا الزمانِ
أسعدانى وأَيْقنا أن نَحْساً | ســوف يأتيـكما فتفترقانِ

(١) زفته: طردته واستخفته.

(٢) راح: ارتاح ونشط.

فاغتمَّ الرشيدُ وقال : يَعِزّ عليّ أن أكون نَحْسَكُما ، ولو كنت سمعتُ بهذا الشعر ما قطعتُ النخلةَ ولو قتَلَنِي الدمُ .

وقيل : إن المهديَّ لما خرج وصار إلى العقبةِ استطاب المَوْضِعَ فتغدَّى ودعا بحسنةَ فقال لها : أما ترَيْن طيبَ هذا المَوْضِعِ ، غنني بحياتى حتَّى أشربَ ها هنا أقْداحاً فأخَذَتْ مِحَكَّةً كانت فى يده وأوقعَتْ على مِخَدَّة وغنَّتْ لعُمَرَ بن أبى ربيعة :

أيا نَخْلَتَيْ وادى بُوانَة حَبّذا ‏ ‏ ‏ إذا نام حُرّاسُ النخيلِ جَناكُما

فطيبُكما أرْبَى على النخلِ بَهْجَةً ‏ ‏ ‏ وزاد على طول القِنِيِّ قناكما[1]

فقال: أحسنتِ ، ولقد كنتُ هَمَمْتُ بقطع هاتين النخلتين يعنى نَخْلَتَيْ حلوانَ فمنعنى عن ذلك هذا الصوتُ فقالت له حسنة : أعيذُك بالله يا أميرَ المؤمنين أن تكون النحسَ المُفَرِّقَ بينهما. فقال لها : وما ذاك ؟ فأنشدته أبياتَ مُطيعٍ فلما بَلَغَتْ إلى قوله :

أسعدانى وأَيْقِنا أن نَحْساً ‏ ‏ ‏ سوف يأتيكما فتفترقان

قال : أحْسنتِ والله إذ نبَّهْتِنِي على هذا ، والله لا أقطعُهما أبداً ، ولأوَكِّلَنَّ بهما من يَحْفَظُهما ويَسْقِيهما أبدا ما حَيِيت ، ثم أمر بأن يُفْعَلَ ذلك فلم يَزَلْ فى حياته على ما رَسَمَه حتى مات .

وقيل: إن المهدى قال : [قد أكثر][2] الشعراء فى ذكر نخلتى حلوان ولقد هَمَمْتُ أن أقطعهما فبلغ قوله [المنصور فكتب إليه][2] : بلغنى أنك هَمَمْتَ بقطعِ نخلَتَيْ حلوانَ ، ولا فائدة لك فى قَطْعهما ولا ضررَ عليك فى بقائهما ، وأنا أعيذُك بالله أن تكونَ النحسَ الذى يلقاها فيُفرِّقَ بينهما .

---

(١) رواية الأغانى (وزاد على طول الفناء فنا كما) .

(٢) ما بين الأقواس عن الأغانى وهو غير واضح بالأصل .

وكان المنصورُ لما اجتاز بِنَخْلَتَىْ حلوانَ رأى إحداها على الطريق وهى تُضيِّقه وتزدَحِمُ الأثقالُ عليها فأمر بقطعِها فأُنْشِدَ قولَ مطيع فقال : والله لا كنتُ أنا ذلك النَّحْسَ الذى يُفرِّقُ ما بينهما ، وانصرفَ وتركهما .

ومما قيل فى نَخْلَتَىْ حلوانَ من الشعر قولُ حماد عجرد :

جَعَلَ اللهُ سِدْرَتَىْ قَصْرِ شِيرِيـ ـنَ فداءً لنخلتَىْ حلوانِ

جئتُ مُسْتَسْعِداً فلم يُسعدانى ومطيعُ بَكَتْ له النخلتانِ

ومما أنشده جحظة ووكيع فى نخلتى حلوان لبعض الشعراء :

أيها العاذلانِ لا تَعْذِلانِى ودَعانِى من المَلامِ دَعانى

وابكيا لى فإننِى مُسْتَحِقٌّ منكما بالبكاءِ أن تُسْعِدانى

إننى مِنْكما بذلك أَوْلَى من مُطيعٍ بنَخْلَتَىْ حُلوانِ

فهُما تجهلانِ ما كان يَشْكو من هَواهُ وأنْتُما تَعْلمان

وقال فيهما أحمد بن إبراهيم من قصيدة :

وكذاك الزمانُ ليسَ وإن أَلَّفَ يَبْقى عليه مؤتلفان

سلبت كفه الغَرِىَّ أخاه ثم ثَنَّى بنَخْلَتَىْ حلوانِ

فكأَنَّ الغَرِىَّ مذكان فرداً وكأن لم تُجاور النخلتان

جلس مطيعُ بن إياسٍ فى مَرَضِه فى قبةٍ خضراءَ على فُرُشٍ خُضْرٍ فقال له الطبيب : أىّ شىء تشتهى اليوم ؟ قال : أشتهى ألا أموت . فمات فى عِلّته تلك وذلك بعد ثلاثةِ أشْهُرٍ من خِلافةِ موسى الهادى .

محمد بن كناسة[1]

هو محمدُ بنُ كُناسة واسمُ كُناسَة عبدُ الله بنُ عبدِ الأَعْلى بنِ عبيد الله ابن خليفة بن زُهير بن فَضْلَة بن أُنيف بن مازن بن صَهْبان ، واسمُ صهبان كَعْبُ ابن ذُؤَيْبة[2] بن أسامة بن نصر بن قُعَيْن بن الحارث بن ثَعْلَبة بن دُودانَ بن أسد ابن خُزَيْمة ، كنيتهُ أبو يحيى ، شاعرٌ من شعراء الدولة العباسية ، كوفيُّ المَوْلِد والمنشأ ، وقد حُمِل عنه شيءٌ من الحديث ، وكان إبراهيم بنُ أَدْهَمَ الزاهدُ خالَه ، وكان امرأً صالحا لا يتَصَدّى لمدحٍ ولا لهجاء ، وكانت له جاريةٌ شاعرةٌ مغنية ، يقال لها دنانيرُ ، وكان أهل الأدبِ وذوو المروءةِ يَقْصِدُونها للمذاكرة والمساجلةِ في الشعر .

قال مصعبٌ الزُّبَيْرِيّ: قلت لمحمد بن كنانة الأسدى، ونحن بباب أمير المؤمنين: أأنتَ الذى تقولُ فى إبراهيم بنِ أَدْهَم العابدِ رحمه الله :

رأيتُك لا يُغنيك ما دونَه الغِنَى ... وقد كان يُغنِى دون ذاك ابنَ أَدْهما

وكان يرى الدنيا صَغيرًا عظيمُها ... وكان لِحَقِّ اللهِ فيها مُعَظِّما

وأكثر ما تلقاه فى القَومِ[3] صامتا ... فإن قال بذَّ القائلين وأَحْكَما

فقال محمد بن كناسة : نعم ، أناقِلْتُها ، وقد تركت أجْوَدها. فقلت: وماأجْوَدُها؟ فقال :

أهان الهوى حتى تَجَنَّبه الهوى ... كما اجْتَنَبَ الجانى الدَّمَ الطالبَ الدَّما

(١) أغانى الدار ١٣ / ٣٣٧، تجريد ق ٢ جـ ١ـ١٥٣١ .

(٢) فى الأغانى دويبة .

(٣) فى الأصل: فى اليوم.

وتمام هذه الأبيات وهى مما رثى بها خالَه :

وللحلم سلطانٌ على الجهل عِنْدَه فما يستطيعُ الجهلُ أن يترَمْرَما
يُرَى مُسْتكيناخاضعا متواضعاً وليثاً إذا لاقى الكتيبةَ ضَيْغَما
علىالجدَثِالغرْبىِّ من آل وائلٍ سلامٌ وبِرٌّ ما أبرَّ وأكْرَما

قال ابنُ كناسة : كنت أتحدثُ بالحديثِ فلو لم يَجدْ سامِعُه إلا القطنَ الذى على وَجْه أمِّه فى القبرِ لتغلغَلَ إليه حتى يَسْتَخْرِجَه ويُهْديه إلىَّ . وأنا اليوم أتحدث بذلك الحديث فما أفرُغُ منه حتى أُهَيِّئَ له عذرًا .

سُئِلَ محمدُ بن كُناسة عن قول الشاعر :

إذا الجوزاءُ أرْدَفَتِ الثُّرَيّا ظننتَ بآل فاطمةَ الظنونا

قال : يقول : إذا صارت الجوزاء فى المواضع التى تُرى فيها الثُّرَيّا بالغداةِ خِفْتُ تَفَرُّق الحىِّ من مَجْمَعِهم والثريَّا تطلُع بعد ذلك فى أول القَيْظ .

رأى رجلٌ محمدَ بنُ كناسة يحمل بيده بَطْنَ شاة فقال: هاتِه أحْمِلْه عنك. فقال : لا ، ثم قال :

لا ينقصُ الكاملَ من كمالِه ما جرَّ من نَفْعٍ إلى عِيالِه

قال على بن عثمان الكلابىُّ: جئت يوما إلى منزل محمد بن كُناسةَ فلم أجده ووجدتُ دنانيرَ جاريته جالسةً ، فقالت لى : ما لك مَحزونا يا أبا الحُسَيْن فقلت : رجعت من دفْنِ أخ لى من قريشٍ فسكَتَت ساعة ثم قالت :

بكيتَ على أخ لك من قريشٍ فأبْكانا بكاؤُك يا علىُّ
فماتَ وما خَبَرْناهُ ولكن طهارةُ صَحْبِه الخبرُ الجلىُّ

أمْلَق محمدُ بن كُناسة فلامَه قومُه فى القعودِ عن السلطانِ وانتجاعِ الأشراف والتصدِّى للملوك بأدَبِه وشَرَفِه وعِلْمِه، فقال لهم مُجيبا عن ذلك :

يُؤَنِّبُنِى أن صُنْتُ عِرْضى عصابةٌ لها بين أطنابِ اللئامِ بصيصُ

يقولون لو غَمَّضْتَ لازددتَ رفعةً   فقلت لهم إنى إذًا لحريصُ
أتَـكْلِمُ وَجْهِى لا أبا لأبيكم   مطامعُ عنها للكريم مَحيصُ
معاشى دُوَيْنَ القوتِ والعرضُ وافرٌ   وبطنىَ من جدوى الملوكِ خميصُ
أَعَزُّ وأزكى من ثراء يَمُنُّهُ   عليك لئيم ما حييت أصوصُ
سأَلقى المنايا لم أُخالِط دَناءةً   ولم تَسر بى فى المخزيات قَلوصُ

قال إسحقُ بن إبراهيم المَوْصِلِىُّ : أنشدنى محمد بن كناسة لنفسه :

فىَّ انقباضٌ وحِشْمَةٌ فإذا   صادفتُ أهلَ الوفاء والكرمِ
أرسلتُ نفسى على سَجِيَّتِها   وقلت ما قلتُ غيرَ مُحْتَشِمِ

فقلت لابن كناسة : وددتُ أنه نَقَص من عمرى سنتان وأنى سَبَقْتُك إلى هذين البيتين فقلتهما .

ولمحمد بن كناسة:

ومن عَجَبِ الدنيا تيَقُّنُك البِلى   وأنك فيها للبقاء مُريدُ
وإنْ مِنْ بنى الأيامِ إلا عنده   من الدَّهرِ ذنبٌ طارفٌ وتليدُ
إذا اعتادت النفسُ الرضاعَ من الهوَى   فإن فطامَ النَّفْسِ عَنْه شَديدُ

قال محمدُ بن كُناسة : أتيتُ امرأةً من بَنِى أَوْدٍ تَكْحَلُ عينى من رَمَدٍ كان أصابنى فَكَحَلَتْنِى ثم قالت لى : اضطجع قليلا حتى يَدُورَ الدواءُ فى عَيْنِك فاضطجعت ثم تمثلت قول الشاعر :

أمُخْتَرِمى ريبُ المنونِ ولم أَزُرْ   طبيبَ بنى أَوْدٍ على النأى زينبا

فضحكتْ ثم قالت : أتَدْرِى فيمن قيل هذا الشعر ؟ فقلت : لا. فقالت : فىَّ ، واللهِ قيل وأنا زينبُ التى عناها ، وأنا طبيبُ أَودٍ ، أفتدْرى من الشاعر الذى قال؟ قلت : لا. قالت : عَمُّك أبو سماك الأسدى .

كان لمحمدِ بنِ كُناسة صديقٌ يقال له أبو الشعثاء ، عفيفُ مزاحٍ ، وكان يزوره ويسمع غناء جاريته دنانيرَ ويُعَرِّضُ له بأنَّه يَهواها فقالت دنانير فيه :

لأبى الشَّعْثاءِ حُبٌّ باطنٌ   ليس فيه تُهْمَةٌ للمُتَّهَمْ
يا فؤادى فازْدَجِرْ عنه ويا   عَبث الُحبّ به فاقْعد وقُمْ
زارنى منه كلامٌ صائبٌ   ووسيلاتُ المحبين الكَلِمْ
صائدٌ يأمنه غِزْلانُه   مثلَ ما تأمَنُ غزلانُ الحَرَمْ
صَلِّ إن أحببتَ أن تُعطَى المُنَى   يا أبا الشعثاءِ لله وَصُمْ
ثم ميعادُك يوم الحشر فى   جَنَّةِ الخُلْدِ إنِ اللهُ رَحِمْ
حيث ألقاك غلاما يافعا   ناشِئاً قد كَمُلَتْ فيك النِّعَمْ

وماتت دنانيرُ فقال سيدُها محمدُ بن كُناسة يرثيها :

الحمد لله لا شريكَ لَهُ   ياليتَ ما كان مِنْكِ لم يَكُنِ
إن يكن القولُ قَلَّ فيك فما   أفْحَمنِى غيرُ شِدَّةِ الحَزَنِ

ومما رواه محمدُ بن كُناسةَ عن الأعمشِ عن شَقيقِ بن سَلَمة عن أبى موسى الأشعرِىِّ قال : قلت: يارسول الله إن الرجلَ يحب القَوْمَ ولما يَلْحَقْ بهم قال : « المرء مع مَنْ أَحَبَّ » .

مُحمدُ بنُ يسيرٍ[1] الرياشيّ

يقال : إنه مولى لبنى رِياش الذين منهم العباسُ بن الفَرَجِ الرِّياشى الإخبارىُّ الأديبُ ، ويقال : إنه منهم صَليبةً ، وبنو رياش يذكرون أنهم من خَثْعم ، ولهم بالبصرة خُطَّةٌ ، وهم معروفون بها ، ومحمد بن يَسير هذا شاعرٌ ظريفٌ من الشعراء المحدثين لم يفارقِ البصرةَ ولا ورد على خليفةٍ ولا شريفٍ مُنْتَجِعا بشعره ولا تجاوز بلدَه وصحبة طبقته ، وكان ماجنا خبيثا هجَّاء ، وكان من بخلاء الناس .

قال عَلِىُّ بن القاسمِ بنِ على بن سليمان طارِمة: بَعَثَ إلىّ محمدُ بن أيوبَ بن سليمان ابن جعفر ، وهو يتولى البصرةَ . حينئذ ، فى ليلة صبيحتُها يومُ سَبت فدخلت إليه ، وقد بقى من الليل ثُلُثُه أو أكثرُ ، فقلت له : أَنِمْتَ فانتبهتَ أو لم تَنَمْ بَعْد ؟ قال : قد قضيتُ حاجتى من النوم ، وأريد أن أصطبح وأبتدى الساعةَ فى الشُّرب وأَصِلَ ليلتى بيومى مُحتجباً عن الناسِ ، وعندى محمدُ بن رَباح ، وقد وجهتُ إلى إبراهيم ابنِ رِياش وحضرتَ أنت ، فمن ترى أن يكون خامِسَنا ؟ قلت : محمدُ بن يَسير . فقال : ما عدوتَ ما فى نفسى . فقال لابن رَباح: اكتُبْ إلى محمدِ بن يسير بيتين تدعوه فيهما . وتصف له طيبَ هذا الغَيْمِ والرذاذ . فكتب إليه ابنُ رباح :

---

(١) الأغانى ١٢ / ١٢٤ – تجريد ١٥٣٨ – مهذب ٧ / ١٦٠ .

يسير جاءت فى الأصل وفى الأغانى بالباء الموحدة والشين المعجمة ، ومثلها بشير الخارجى . أما فى الشعر والشعراء وفى التجريد فهى بالياء والسين المهملة ، وفى طبعة الأغانى لدار الكتب كذلك – وجاء فى شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف (ص ٤٠٣) [: ما جاء من شعراء البصرة فهو من محمد بن يسير أول الاسم ياء تحتها نقطتان وبعد ذلك سين غير معجمة . وله أخ يقال له على بن يسير وهو شاعر أيضا .)

يومُ سَبْتٍ وشنبذٌ ورذاذٌ فعلام الجلوسُ يا ابن يسيرِ
قم بنا نأخذ المُدامةَ من كف غزالٍ مُضَمَّخٍ بالعبيرِ

وبعث إليه بالرُّقْعةِ فإذا الغلمانُ قد جاءوا بالجواب ، فقال : بعثتُ بكم لتجيئونى برجل فجئتمونى برُقْعَةٍ ! فقالوا : لم نَلْقه ، وإنما كُتِبَ جوابُها فى منزله ولم تأمُرْنا بالهجوم عليه فنهْجُمَ ، فقرأها فإذا فيها :

أَجِىءُ على شَرْطٍ فإن كنت فاعلا وإلا فإنِّى راجعٌ لا أُناظِرُ
لِيُسْرَجْ لىَ البِرْذَونُ فى حال دُلْجَتِى وأنت بدُلْجاتِى مع الصبح خابرُ
لأقْضِىَ حاجاتى عليه وأَنْثَنِى إليك وحَجَّامٌ إذا جئتُ حاضرُ
فيأخذَ من شَعْرِى ويصلحَ لِحْيتى ومن بَعْدُ حمامٌ وطِيبٌ وجامرُ
ودَسْتيجةٌ من طَيِّب الراح ضَخْمَةٌ يُرَوِّدُنيها طائعا لا يعاسر

فقال محمدُ بنُ أيوب : ما تقول ؟ فقلت : إنك لا تَقْوى على مُطاوَلته ، ولكن اضْمَنْ له ما طلبَ فكتب إليه قد أُعِدّ لك ، وحياتِك ، كلُّ ما طلبتَ فلا تُبْطِئْ فإذا به طَلَعَ علينا وأمر محمدُ بنُ أيوب بإحضارِ المائدة ، فلما أحضرت أمر بمُحَمَّدِ ابن يسير فشُد بحبْلٍ إلى اسطوانةٍ من أساطين المجلسِ ، وجلسنا نأكل إلى جانبه ، فقال : أىُّ شىء يُخَلِّصُنى مما أنا فيه ؟ قلنا : تجيبُ نَفْسَك عما كتبتَ به أقبحَ جواب ، فقال : كُفُّوا عن الأكلِ إذاً ولا تَسْتَبِقُونى فتَشْغَلوا خاطرى ، ففعلنا ذلك وتوقفنا ، فقال :

أيا عجبا من ذا اليسيرىّ إنه له نخوة فى رأيه وتكابرُ
يشارطُ لما زار حتى كأنه مُغَنٍّ مجيدٌ أو غلامٌ مؤاجرُ
فلولا ذِمامٌ كان بينى وبينه لَلَطَّمَ بشار قفاه وياسر

فقال له محمدٌ : حَسْبُك لم نرد هذا كلَّه ، ثم حَلّه وجلس ، وأكل وأتممنا يومنا .

ولمحمد يسيرٍ :

لا أَرَّقَ اللهُ عَيـنَىْ من أرِقْتُ له ... ولا ملا مِثْلَ قلبي قَلْبَـه تَرَحا

يَسُرُّنى سوءُ حالى فى مَسَرَّتِه ... فـكلما ازددتُ سُقْما زادنى فرحا

كان بين محمد بن يَسير وأحمد بن يوسف الـكاتب شر فزحمَه أحمدُ يوماً بحماره تعرضا لـكلامه(١) وعبثا به ، فأخذ ابن يسير بأُذُنِ الحمارِ وقال له : قل لهذا الحمارِ الراكبِ فوقك لا يُؤْذِى الناس ، فضحك أحمد ونزل ، فعانقه وصالحه .

كان عمرو القصافى يَعِين(٢) فى كل شىء يَسْتَحْسِنُه فحضر يوماً مع محمد بن يسير وغيره مجلساً ، وفيه مغنية حَسَنَةُ الوجه شَهْلَةٌ . تُغنى غناء حسناً ، فـكانوا فى أحسن يوم وما برحوا من المجلس حتى عَانَ(٢) عمرو المُغنيةَ فانصرفت محمومَةً شاكيةَ العَيْن فقال محمد بن يسير :

إن عمراً جنى بعَيْنَيْه ذنبـا ... قَلّ منى عليـه فيـه الدعاءُ

عان عَيْناً فعَيْنُـه للتى عا ... نَ فِداً وقلَّ منـه الفِداءُ

شَرُّ عَيْنٍ تصيبُ أحْسَنَ عَيْنٍ ... تحملُ الأرضُ أو تُقِلُّ السماءُ

قال محمدُ بن أبى حَرْب : أنشدنا محمدُ بن يسيرٍ فى مجلس أبى محمد الزاهدِ صاحبِ الفَضِيل بن عياض رحمه الله لنفسه :

ويلٌ لمن لم يَرحَمِ اللهُ ... ومن تـكون النـارُ مثواهُ

واغَفْلَتِا فى كلِّ يوم مَضَى ... يُذَكِّرنى الموتَ وأنسـاهُ

من طال فى الدنيـا به عمرهُ ... وعاشَ فالموتُ قصـاراهُ

كأنه قد قيـل فى مجلس ... قد كنتُ آتيـه وأغشاه

---

(١) لشره (أغانى ١٢ : ١٢٩) .

(٢) عان يعين الرجل : أصابه بالعين .

محمد صار إلى ربه يرحمنا الله وإياه

قال : فأبكى جميعَ من حضر.

قال عليٌّ بن القاسم : كنت مع المعتصم لما غزا فجاءه بعضُ سراياه بخبر غمّه ، فركب من فوره وسار أجدّ سير ، وأنا أسايره ، فسمع منشداً يتمثل فى عسكره :

إن الأمور إذا انسدّت مسالكها فالصبرُ يفتح منها كل ما ارتتجا
لا تيأسَنّ وإن طالت مطالبةٌ إن استعنتَ بصبر أن ترى فرجا

فسر بذلك ، وطابتْ نفسهُ ثم التفت إليّ فقال : يا عليّ أتروى هذا الشعر ؟ قلت : نعم . قال : من يقولُه ؟ قلت : محمدُ بن بشير . فتفاءل باسمه ونسبه وقال : أمرٌ محمودٌ وبشرٌ سريعٌ يعقبُ هذا الأمر ، ثم قال : أنشدنى الأبياتَ فأنشدتُه :

ماذا يكلفك الروحاتِ والدُّلجا البرَّ طوراً وطوراً تركبُ اللُّججا
كم من فتًى قصرتْ فى الرزق خطوتُهُ ألفيتَه بسهامِ الرزقِ قد فلجا
لا تيأسَنّ وإن طالتْ مطالبةٌ إن استعنْت بصبر أن ترى فرجا
إن الأمور إذا اشتدّتْ مخارجُها فالصبرُ يفتح منها كلَّ ما ارتتجا
أخلِق بذى الصبْرِ أن يحظى بحاجتِه ومدْمِنِ القرعِ للأبواب أن يلجا
قدِّر لرجْلِك قبل الخطْو موضعَها فمن علا زلقا عن غِرة زلجا
ولا يغرّنْك صفوٌ أنت شارِبُه فربما كان بالتكديرِ ممْتزِجا

[قال : وهذه الأبياتُ لمحمدِ بن بشير الخارجى ، ذكرها أبو تمامٍ فى الحماسة ، وليس كما ذكر أبو الفرج الأصبهانى أنها لمحمد بن يَسير بالسين المهملة][1] .

كان محمدُ بن يسيرٍ يصف نفسه بالذكاء والحِفظِ والاستغناء عن تدْوِين شىء يسمعه فمن ذلك قوله :

---

(١) رواية الأغانى وسياق الخبر يفيد أنه هو بشير بالشين المعجمة لا بالسين المهملة كما ذكر هنا ١٢ / ١٣٢ .

إذا ما غَدا الطّلابُ للعلم ما لَهُمْ من الحظِّ إلا ما يُدوَّنُ فى الكُتُبِ
غَدَوْتُ بتشميرٍ وَجِــدٍّ عليهم ومِحْبَرَتى أُذْنى ودَفْتَرُها قَلبى

عوتب محمدُ بن يسير على حضوره المجالس بغير ورقٍ ولا محبرةٍ ، وأنه لا يكتب ما يسمعه فقال :

ما دخل الحمَّامَ من عِلْمى فذاك ما فاز به سَهْمى
والعِلْمُ لا ينفعنى جَمْعُــه إذا جرى الوهمُ على فهمى

كان إبراهيمُ بن رياح إذا أَحْزَنه أمر يَقْطعه بمثل قولِ محمد بنِ يسيرٍ :

تُخْطِى النفوسُ مع العِيا نِ وقد تُصيبُ مع المَظِنَّهْ
كم من مضيقٍ فى الفضا ءِ ومَخْرَجٍ بين الأسِنَّهْ

كان محمد بن يسير يعاشرُ بعض الهاشِميِّين ، ثم جفاه الهاشميُّ لملَلٍ كان فيه فكتب إليه ابن يسير :

قد كنتُ منقبضا وأنت بَسَطْتَنى حتى انبسطتُ إليك ثم قبضتنى
أذكرتنى خُلُقَ النفاق وكان لى خلقاً فقد أحسنتَ إذ أَذْكَرْتَنى
لو دام وُدُّك فانبسطتُ إلى امرئٍ فى الودِّ بعدك كنتَ أنتَ غَرَرْتَنى
فهلمّ نجتذبِ التذاكُرَ بيننــا ونعودُ بعدُ كأننــا لم نَفْطِنِ

قال أبو الشبل : كنا عنــد قاسم بن جعفر بن سليمان ذاتَ يوم ، ومعنا محمد بن يسيرٍ ونحن على شرابٍ فأمر أن يُبَخَّرَ ويُطَيَّبَ ، فأقبلت وصيفةٌ له حسنةُ الوجه فجعلت تُبَخِّرنا وتُغَلِّفُنا بالغالية ، فلما غلفتِ ابن يسير وبخَّرَتْه التفت إلىّ وكان إلى جانبى فأنشدنى :

يا باسطا كفَّهُ نحوى يُطَيِّبُنى كفَّاك أطيبُ يا حِبِّى من الطِّيبِ
كفَّاك يُجرِى مكانَ الطيبِ طِيبُهما فلا تَزِدْنى عليها عنــد تطييبى
يا لائمى فى هواها أنتَ لم تَرَها فأنت مُغْرًى بتأنيبى وتعذيبى

انظرْ إلى وجْهِها هل مثلُ صُورَتِه في الناس وجها مُجلًّى غيرَ محجوبِ

فقلت له : اسكت ويلك لا تُصْفَع وتُخْرَج. فقال : والله لو وثقتُ بأن نُصْفَعَ جميعاً لأنشدتُه الأبياتَ ولـكن أخشى أن أُفْرَد بالصفع دُونك .

اجتمع جميفرانُ الموسوس ومحمد بن يسير في بستان فانفرد محمدُ بن يسير ناحيةً لقضاء الحاجة ثم قام عن شيء كثير خَرَجَ فقال جميفران :

قد قلت لابن يسيرٍ لما رَمَى من عِجانِهْ
في الأرض تَل سَمادٍ علا على كُثْبانِهْ
طوبى لصاحب أرضٍ خَرِئْتَ في بُستانِهْ

فجعل ابن يسير يشتمُ جميفران ويقول : أي شيء أردتَ مني يا مجنون ؟ صَيّرتني شُهْرَةً في شِعْرِك .

قال عبدُ الله بن محمد بن يسير : كان أبي مشغوفاً بالنبيذِ مُشتهرًا بالشُّرْبِ وما بات قطُّ إلا وهو سكران ، وما نَبَذ نبيذا قَطُّ وإنما كان يشربه عند إخوانه ويَسْتسقيه منهم ، فأصبح بالبصرة يوما على مطر هائلٍ لا يُمكِنُه الحركةُ معه إلى قريبٍ ولا بعيدٍ وكاد يُجَنُّ لما فَقَدَ النبيذَ ، فكتب إلى أمير البصرة محمدِ بن أيوب ابن جعفر بن سليمان الهاشمي :

كم في عِلاجِ نبيذ التمرِ لي تَعَبٌ الطبْخُ والدَّلْكُ والمصارُ والعَكَرُ
وإن عدلتُ إلى المطبوخ مُعْتَمِدا رأيتَني منه عند الناس أَشْتَهِرُ
نقلُ الدنانِ من الجيرانِ يَفْضَحُني والقدرُ يتركني في القومِ أَعْتَذِرُ
فصرت في البيت أَستَسْقي وأطْلُبُه من الصديق ورُسْلي فيه تَبْتَدِرُ
فمنهم باذلٌ سَمْحٌ بحاجتنا ومنهم كاذبٌ بالزورِ يَعْتَذِرُ
فسَقِّني رِيَّ أيام لتَمْنَعَني عمن سواك وتُغْنيني فقد خَسِروا
إن كان زِقٌّ فَزِقٌّ أو فوافِرَةٌ من الدساتيجِ لا يُزْرِي بها الصِّغَرُ

وإن تـكن حاجتى ليست بحاضرةٍ   وليس فى البيت من آثارها أَثَر

فاستَنْسْق ِ غيرك أو فاذْ كُرْ له خبرى   إن اعتراك حياءٌ منه أو حَصَرُ

ما كان من ذلـكم فليأْتِنى عَجِلا   فإننى واقفٌ بالبـاب أنتظر

ما لى نبيذٌ ولا حُرٌّ فيدْعُوَنى   وقد حمانى من تطفيلىَ المطرُ

فلما قرأها ضحك وبعث إليه بزِقّ نبيذ ومائتى درهم ، وكتب إليه أن اشرب النبيذَ وأنفِق الدراهمَ حتى يمسكَ المطر ويتسع لك التطفيلُ ومتى أعْوَزَك مكانٌ فاجعلنى فَيْئَةً لك والسلام .

محمد بن حازم الباهلى(١)

هو محمدُ بن حازمٍ بن عمرو الباهلىّ، كنيتهُ أبو جعفرٍ من ساكنى بغداد، ومولده ومنشؤهُ البصرة.

شاعر مطبوع من شعراء الدولة العباسية، إلا أنه كان كثير الهجاء فاطَّرِحَ ولم يمدحْ من الخلفاء إلا المأمونَ، ولا اتَّصَل بواحد منهم فيكون له نَبَاهَةُ طبقتِه، وكان ساقط الهِمَّةِ متَقَلِّلا جدا يُرْضيه اليسيرُ ولا يتصدَّى لمدحٍ ولا طلب. فمن شعره:

خُذْ من العيشِ ما كفى ... ومِنَ الدهرِ ما صَفَا
حَسُنَ الغـدرُ فى الأنا ... م كما استُقْبِحَ الوَفَا
صِلْ أخا الوَصْلِ إنه ... ليس بالهجر من خفا
عـيِن من لا يريد وَصْـ ... لَكَ تُبْدِى لك الجفا

قال محمد بن حازمٍ الباهلى: بعثَ إلىَّ فلانٌ الطاهرىُّ وكنت قد أفرطْتُ فى هجوه، بألفِ درهم وثياب فى تَخْت، وقال: أما ما مَضَى فلا سبيل إلى ردِّه ولكن أحبُّ ألا تزيدَ عليه شيئا فبعثتُ إليه بالدراهم والثياب وكتبت إليه:

لا ألبس النعماءَ من رجل ... أُلْبِسْتُه عارًا على الدهر

قال محمد بن حازم: مرَّ بى أحمدُ بنُ سعيدِ بن سالم، وأنا على بابى فلم يُسَلِّم علىَّ سلاما أرضاه فكتبت رقعة واتبعتُه بها وفيها:

وباهِلِىّ من بَنى وائلٍ ... أفادَ مالًا بعد إفلاسِ
قَطَّبَ فى وجهىَ خَوْفَ القِرَى ... تقطيبَ ضِرغامٍ لدى البَاسِ

---

(١) الأغانى ١٢: ١٥١ تجريد ق ٢٠ ج ١ ــ ٣٠٥٥١ ــ طبقات ابن المعتز ٣٠٨. أغانى الدار ١٤/ ٩٢

وأظهرَ التيـــهَ فتاَيهتُهُ   تيهَ امرئٍ لم يَشْقَ بالناس
أَعَرْتُه أعراضَ مُسْتَكبر   فى موكبٍ مرَّ بكَنّاسِ

قال ابن الأعرابى : أحسنُ ما قال المحدثون فى مدح الشباب وذم الشيب قولُ محمدِ بن حازم الباهلى من قصيدة :

لا تُكْذَبَنَّ فمـــا الدنيا بأجمعها   من الشبابِ بيومٍ واحــد بَدَلُ
كفاك بالشَّيْب عَيْبٌ عنــد غانيةٍ   وبالشبابِ شفيعا أيها الرَّجُلُ
بان الشبابُ وولى عنـــك باطِلُه   فليس يحسنُ منك اللهوُ والغزَلُ
أماالغوانى فقد أَعْرَضْنَ عَنْك قِلًى   وكان إعراضُهن الدَّلُّ والخجلُ
ليتَ المنــايا أصابَتْنى بأسْهُمِها   فكن يَبْكين عهدى قبلأَكْتَهِلُ
عهدَ الشبابِ لقد أبقيتَ لى حَزَناً   ما جَدَّ ذِكْرُكَ إلا جَدَّ لى ثُكْلُ
إن الشباب إذا ما حَـــلَّ رائِده   فى مَنْهَلٍ جاء يَقْفُو إثْرَه الأجلُ

كان محمد بن حازم قد امتدح بعض بنى حميد فلم يُثِبْه ، وجعل يُفَتِّشُ شعرَه فيعيبُ فيه الشىءَ بعدَ الشىء وبلغه ذلك فهَجَاه هجاءً كثيرا شَنيعا ، فبعث إليه ابنُ حميد بمال واعتذر إليه وسأله الكفَّ عنه فلم يفعل ورد عليه المال وقال من أبيات :

ياجامعاً مانعاً بخيــلاً   ليس له فى العُلَى نصيبُ
أبِالرُّشَا يستمالُ مِثْـلى   كلَّا ومَنْ عنده الغيوبُ
لا أرتدى حُلَّةً لمــثنٍ   بوجهه من يدى ندوب
وبين جَنْبيه لى كلُومٌ   داميةٌ مالهــا طبيبُ
ما كنتُ فى موضع الهدايا   منك ولا شعبُنا قريبُ
إنِّى وقد نَشَّتِ المكاوِى   عن سِمَةٍ شأنُها عجيب
وسار بالذم فيك شِعْرى   وقيل لى مُحْسِنٌ مُصيبُ
مالُكَ مالُ اليتيمِ عندى   ولا أرى أَكْلَه يطيبُ

حسبك من مُوجزٍ بليغٍ ... يبلغُ ما يبلغُ الخطيب

وبعثه الحسنُ بن سهل فى وِجهة لجبايةِ مالٍ وحربِ قوم من الشّراة فقال فيه محمد بن حازم :

إذا استقلّتْ بك الركابُ ... فحيث لا دَرّتِ السحابُ
زالت سِراعا وزلتَ تجرى ... ببَيْنِك الظبىُ والغرابُ
بحيثُ لا يُرتَجى إيابٌ ... وحيث لا يَبْلغُ الكتابُ
فقَبْلَ معروفك امتنانٌ ... ودونَ ميعادك[1] العذابُ
وخير أخلاقك اللواتى ... يَعافُ أمثالها الكلابُ

فلما توجه خانَ فى المالِ وهَرَب من الحَرْب ، فقال فيه محمد بن حازم أيضا :

تشبَّه بالأسدِ الثّعْلَبُ ... فغادَره مُعنِقا[2] يجنبُ
وحاوَلَ ماليس من طَبْعِه ... فأسْلَمَه النابُ والمِخْلبُ
ولم تغنِ عنه أباطيلُه ... وحاصَ فأحْرَزَهُ المَهْرَب
أيا ابن حميد كفَرْتَ النعيمَ جهْلا ووسوسك المَذْهَبُ
ومَنّتْكَ نفْسُك مالا يكونُ ... وبعضُ المُنى خلّبٌ يَكْذِبُ

قال يحيى بنُ أكثم ، لمحمدِ بن حازمٍ الباهلى : ما نَعيبُ شِعرَكَ إلا أنك لاتطيل فقال :

أبَى لى أن أُطيل الشعر قَصْدِى ... إلى المَعْنى وعِلمِى بالصوابِ
وإيجازى بمُختَصَرٍ قريبٍ ... حذفتُ به الفضولَ من الجوابِ
فأبْعَثُهُنّ أربعةً وخمساً ... مثقفةً بألفاظٍ عِذابِ
خوالدَ ماحدا ليلٌ نهارا ... وما حسن الصبا بأخى الشباب

---

(١) ودون معروفك (أغانى) .

(٢) المعنق : المسرع .

وهن إذا وَسمتَ بهن قوما كأطواق الحمائم فى الرقاب
وهن إذا أقمت مسافراتٌ تهاداها الرواة مع الركاب

كان إسحاق بن أحمد بن نهيك آنسا بمحمد بن حازم الباهلى يدعوه ويعاشره ثم جفاه مدة فكتب إليه يستزيره ويعاتبه عتابا أغضبه وبلغه ذلك فكتب إليه :

ما مستزيرُكَ فى ودّ رآى خَلَلا بموضع الأُنْسِ أهلا منك للغضبِ
قد كنتَ توجبُ لى حقّا وتعرفُ لى قدرا وتحفظُ منى حُرْمَة الأدبِ
ثم انصرفْتَ إلى الأخرى فأحْشمَنى ما كان منك بلا جُرْم ولا سَبَبِ
وإنَّ أدْنَى الذى عِندِى مسامحةٌ فى حاجتى بعدأَنْ أعْذَرْت فى الطَّلَبِ
فاخْتَرْ فعِنْدِىَ مِنْ ثنْتَيْنِ واحدةٌ عُذْرٌ جميلٌ وشكرٌ ليس باللعبِ
فإن تَجُدْ فكما قد كنتَ تفعَلُه وإن أخب فيما قد خُطّ فى الكُتُبِ

كان بالأهواز رجل من التتار يُعرفُ بأبى ذُؤَيْب ، وكان مقصد الشُّعراء وأهلِ الأدبِ ، فقصَدَه محمدُ بنُ حازم ، فدخل عليه ، وعليه ثيابٌ رَثّةٌ ، ولم يُعَرِّفْهُ نفسَه ، فصادفهم يتكلمون فى شىء من معانى الشعرِ ، وأبو ذُؤَيب يتكلمُ مُتَحَقِّقًا بالعلم بذلك ، فسأله محمدُ بنُ حازمٍ عن بيتٍ من شعرِ الطرماحِ فجهِلَه ، ورد عليه جوابا محالا كالمستصغر له وازدراه ، فوثَبَ عن مجلسه مُغْضَبا ، فلما خرج قيل له : ماذا فعلتَ بنفسك وفتحت عليها من الشر ؟ أتدرى بمن تعرضت ؟ قال : ومن ذاك ؟ قالوا : هذا محمدُ بن حازمٍ الباهلىُّ أخبثُ الناس لسانا وأهجاهم ، فوثب إليه حافيا حتى لحقه ، وحلف أنه لم يعْرِفْه واستقاله فأقاله ، وحلف أنه لا يقبلُ له رِفْدا ولا يذكُرُه بسوء مع ذلك أبداً ، وكتب إليه بعد أن افترقا :

أخْطَا وردّ عَلَىَّ غيرَ جوابى وزرَى عَلَىَّ وقال غَيْرَ صواب
وسَكَتُّ عن عجبٍ لذاك فزادنى فيما كرهت بظَنّهِ المُرْتابِ
وقضَى عَلَىَّ بظاهرٍ من كُسْوةٍ لم يدر ما اشتملَتْ عليه ثيابى

من عِفَّةٍ وتَكَرُّمٍ وتَحَمُّلٍ ... وتَجَلُّدٍ لمصيبةٍ وعِقابِ
وإذا الزمانُ جنى عَلَيَّ وجدتَنى ... عُودًا لبعض صفائحِ الأَقْتابِ
ولَئِنْ سأَلْتَ ليُخْبِرَنَّكَ عالمٌ ... أَنِّى بحيثُ أُحِبُّ من آدابِ
وإذا نَبا بِىَ منزلٌ خَلَّيْتُه ... قَفْرًا مَجالَ ثَعالبٍ وذِئابِ
وأكونُ مشتركَ الغِنَى متبَذِّلا ... وإذا افتقرتُ قعدتُ عن أصحابى
[لكنّه رجَعَتْ عليه ندامة ... لمّا نُسِبْتُ وخاف مَضَّ عِتابى](1)
فأقلته لمّا أقرّ بذنبه ... ليس الكريمُ عن الكريم بنابِ

كان أبو إسحقَ مسعودٌ القُطْرُبُّلِى صديقا لمحمدِ بن حازمٍ الباهِلِيِّ فسأله حاجةً فرَدَّه عنها، فغضب محمدٌ وانقطع عنه، فبعث إليه بألفِ درهم وترضاه، فرَدَّها وكتب له:

مُتَّسِعُ الصدرِ مُطيقٌ لما ... يَحارُ فيه الحُوَّلُ القُلَّبُ
راجع بالمُعْتَبِي فأَعْتَبْتُه ... وربما اعتَبَكَ المذنبُ
وإنّ فى الدهر على صَرْفِه ... بين الصديقين لَمُسْتَعْتَبُ
سقْيًا ورعياً لزمانٍ مضى ... عَنِّى وسَهْمُ الشامتِ الأخيبُ
قد جاءنى منك ذو موئل ... فلم أعْرِض له والحرُّ لا يكذبُ
أخْذِىَ مالا منك بعد الذى ... أَوْدَعْتَنِيه مركبٌ يَصْعبُ
أَبَيْتُ أن أشربَ عند الرضا ... والسُّخْطِ إلا مَشْرباً يَعْذبُ
أعزنى اليأس وأغْنَى فما ... أرجو سوى الله ولا أرهبُ
قارونُ عندى فى الغِنَى مُعْدِمٌ ... وهِمَّتِى ما فَوْقَها مَذْهَبُ
فأىّ هاتَيْنِ ترانى لها ... أصْبو إلى مالكٍ أوْ أَرْغَبُ

---

(١) هذا البيت عن الأغانى (١٢ : ١٥٥) وهو تمهيد لما بعده وبه يتسق الكلام .

قال حمادُ بن يحيي : آخر ما فارقتُ عليه محمدَ بن حازمٍ أنه قال : لم يَبْقَ علىَّ شىء من اللذاتِ إلا بيعُ السنانيرِ، فقلت له : سَخِنَتْ عينك ، أىُّ شىءٍ فى بيع السنانيرِ من اللَّذَّةِ ، قال : أنى يُعْجبنى أن تَجيئنى العجوزُ الرَّعْناء تخاصمنى وتقول : هذا سِنَّوْرِى سُرِقَ منى ، وأخاصمها وأشتمها وتشتمنى وأغيظها ، ثم أنشدنى :

صِلْ خمرةً بخمار وصِلْ خُمارًا بخَمْرِ

وخذ بحظك من ذا زادا إلى حيث تدرى

قال : قلت : إلى أين ويحك ؟ قال : إلى النار يا أحمق .

قال محمدُ بن حازم الباهلى : عَرَضَتْ لى حاجةٌ فى عَسْكر أبى محمد ، الحسن ابنِ سهل ، فأتيته وقد كنت قلت فى السفينةِ شِعْرا ، فلما دخلت على محمد بن سعيد ابن سالم انتسبتُ له فعرَفَنِى ، فقال : ما قلتَ فى الأمير ؟ فقلت : ما قلتُ فيه شيئاً . فقال له رجل كان معى : بَلَى قال أبياتاً وهو فى السفينة ، فسألنى أن أُنْشِدَه فأنْشَدْته قولى :

وقالوا لو مَدَحْتَ فتى كريما فَقُلْتُ وكيف لى بِفَتًى كريمِ

بلوتُ الناسَ مذ خمسين عاما وحَسْبُك بالمُجَرَّب من عليمِ

فما أحدٌ يُعَدُّ ليوم خَيْرٍ ولا أحدٌ يعودُ على حَميمِ

ويُعْجِبُنى الفَتَى وأظنُّ خيراً فأكْشِفُ منه عن رَجُلٍ لئيمِ

تَقَيَّلَ بعضُهم بعضاً فأَضْحَوْا بَنِى أبوين قُدًّا من أديمِ

فطاف الناسُ بالحسنِ بن سهل طوافَهُمُ بزمزمَ والحطيمِ

وقالوا سَيِّدٌ يعطِى جَزيلا ويكشفُ كُرْبَةَ الرجلِ الكظيمِ

فقلت مضى بذَمِّ القوم شِعْرِى وقد يُؤْتَى البَرِىُّ من السَّقيمِ

وما خَبر تُرَجِّمُه ظُنونى بأشْقَى من معاتبةِ الحكيمِ

فجئتُ وللأمور مُبَشِّراتٌ ولن يخفى الأغرُّ من البهيمِ

فإنْ يك ما تَنَشّر عنه حَقًّا ... رجعتُ بأُهْبَة الرجل المُقيم
وإن يكُ غيرَ ذاك جَهِدْتُ ربى ... وزال الشكُّ عن رجُلٍ حَليمِ
وما الآمالُ تَمْطِفُنى عليه ... ولكنَّ الكريمَ أخو الكريمِ

فلما أنشدْتُه هذا الشعرَ قال لى : أبمثلِ هذا تَلقى الأميرَ ؟ والله لو كان نظيرَك ما جازَ لك أن تُخاطِبَه بمثل هذا ، فقلتُ : صدقتَ ، وكذلك قلتُ لك إنى لم أمدَحْه بعد ، ولكنى سأمْدَحُه مدحاً يُشْبِه مِثْلَه قال : فافعل ، وأنزَلَنِى عنده ، ودخل إلى الحسن فأخبره بخَبَرِى وعَجَّبَه من جودةِ البيتِ الأخير فأعْجَبَه ، وأمر بإدخالى إليه بغير مَدْح ، فأُدخلت إليه ، فأمرنى أن أُنْشِدَه هذا الشعرَ فاستعفيته فلم يعفنى وقال : قد قَنِعنا منك هذا القَدْر إذا لم تُدْخِلْنا فى جملةِ من ذَمَمْت ، وأرضيْنَاك بالمكافأةِ الجميلةِ ، فأنشدته إياه فضحك وقال : ويحك ! مالك وللناسِ تَعُمُّهُمْ بالهجاء حَسْبُك الآن من هذا النَّمط ، وأَبْقِ عليهم ، فقلت : قد وَهَبْتُهم للأمير . فقال : قد قبلتُ وأنا أطالبُك بالوفاء مطالبةَ من أُهْدِيَتْ إليه هَدِيةٌ فقَبِلَها وأثاب عليها ، ثم وصلنى فأجْزَل ، وكسانى ، فقلت فى ذلك وأنشدته :

وهبتُ القومَ للحسنِ بن سهلٍ ... فعوَّضَنِى الجزيلَ منَ الثوابِ
وقال دعِ الهجاءَ وقُلْ جميلا ... فإن القَصْدَ أقربُ للصوابِ
فقلت له برِئْتُ إليك منهم ... فلَيْتَهُمُ بمنقطعِ الترابِ
ولولا نعمةُ الحسنِ بن سهلٍ ... علىَّ لسُمْتُهم سوءَ العذابِ
بشعرٍ تَعجَبُ الشعراءُ منه ... يُشَبَّهُ بالهجاءِ وبالعتابِ
أكيدهمُ مكايدةَ الأعادِى ... وأَخْتِلُهُمْ مخاتلةَ الذئابِ
بَلَوْتُ خيارَهم فبلَوْتُ قوماً ... كُهُولُهُمُ أخسُّ من الشبابِ
وما مُسِخُوا كلاباً غيرَ أنِّى ... رأيتُ القومَ أشباهَ الكلابِ

فضحك وقال : ويلك ! الساعةَ ابتدأْتَ بِهجائهم وما أَفْلَتُوا منك بعد .

فقلت : هذه بَقِيَّةٌ طَفَحَتْ على قلبي ، وأنا كافٌّ عنهم ما أبْقَى اللهُ الأمير .

كان محمدُ بن حازمٍ قد تَرَكَ النبيذ ، ونَسَكَ وتَرَكَ الشُّرْبَ ، فدخل يوماً على إبراهيمَ بنِ المهدى ، فحادثه وناشده وأكل معه لما حضر الطعام ، ثم جلسوا للشراب فسأله إبراهيم أن يَشْرَب فأبى وأنشأ يقول :

أبَعْدَ خمسين أَصْبُو · والشيبُ للجَهْلِ حَرْبُ
سِنٌّ وشيبٌ وجَهْلٌ · أمْرٌ لعمرك صَعْبُ
يا ابن الإمامِ فهلّا · أيّامَ عُودِى رَطْبُ
وشَيْبُ رَأْسِى قليلٌ · ومَنْهَلُ الحبِّ عَذْبُ
وإذ سِهامى صِيابٌ · ونَصْلُ سَيْفِى عَضْبُ
وإذْ شِفاهُ الغَوانى · مِنِّى حديثٌ وقُرْبُ
فالآن لما رأى . لى · عواذِلى ما أَحَبُّوا
وأَقْصَرَ الجهلُ مِنِّى · وساعدِ الشَّيْبِ لبُّ
وآنَسَ الرشْدَ مِنِّى · قَومٌ أُعاب وأصبو
آليْتُ أشربُ كَأْساً · ما حَجَّ للهِ رَكْبُ

قصدَ محمدُ بن حازمٍ بعضَ ولَدِ سعيد بنِ سالمٍ ، وقد وَلِىَ عملا فاستَرْفَدَه فمطَلَه وأطال مُدَّتَه ولم يُعْطِه فانصرف عنه وقال :

ألِلدنيا أُعِدُّك يا بنَ عَمِّى · فأَعْلَمَ أم أُعِدّكَ للحسابِ
إلَى كَمْ لا أراكَ تُنيلُ حتى · أَهُزَّك قد بَرِمتَ من العتاب
وما تَنْفَكُّ من جَمْعٍ ووضْعٍ · كأنك لستَ تُوقِنُ بالإيابِ
فشَرُّك عن صديقك غيرُ ناءٍ · وخَيْرُك عند مُنْقَطِعِ الترابِ
أَتَيْتُك زائراً فأتيتُ كَلْباً · فحظِّى من إخائك للكلابِ

فبئسَ أخو العشيرةِ ما عَلِمْنَا   وأخبثُ صاحِباً لأخى اغترابِ
أَيَرْحَلُ عنك ضَيْفُك غير راضٍ   ورحْلُك واسعٌ خصبُ الجنابِ
فقد أصبحت من كَرَمٍ بعيداً   ومن ضِدِّ المكارم فى اللُّبابِ
وبى حاجةٌ لَجداكَ لكن   أَرُدُّكَ عن قَبِيحك للصوابِ

قال يزيد بن محمد المهلبى : كنا عند المتوكل يوماً فأغْضَبَتْهُ قبيحة فخرج إلينا فقال : من يُنْشِدُنى شِعْراً فى مَعْنى غضَبِ قبيحةَ عَلَىَّ وحاجتى إلى أن أخْضَع لها حتى تَرْضى ، فقلت : لقد أحْسَنَ محمدُ بن حازمٍ حيث يقول :

صفحتُ بِرَغْمِى عنك صَفْحَ ضرورةٍ   إليك وفى قلبى ندوبٌ من العَتْبِ
خَضعتُ وما ذَنْبِى إن الُحبَّ عزَّنِى   فأغضيتُ صفحا عن معالجة الُحبِّ
وما زال بى فَقْرٌ إليك مُنازِعٌ   يُذَلِّلُ منى كلَّ ممتنعٍ صَعْبِ
إلى الله أشكو أن وُدِّى مُحَصَّلٌ   وقلبى جميعا عند مُقتسمِ القَلْبِ

قال : أحسنت وحياتى يا يزيد وأمَرَ لى بألفِ دينار وغُنِّىَ فيه بين يديه .

سافر محمدُ بن حازمٍ سَفَرًا فمرَّ بقوم من بنى نُمَيْر فسلّوا[1] بعيرا له عليه ثِقْلُه فقال يَهْجُوهم :

نُمَيْرُ أَجْبنًا حيث يختلف القنا   ولُؤْماً وبُخْلا عند زادٍ ومِزْوَدِ
ومَنْعَ قِرَى الأضيافِ من غير عِلَّةٍ   ولا عدم إلَّا حذارَ التَّعَوُّدِ
وبغياً على الجار القريب إذا دنا   إليكم وسَلَّ[1] الراكب المتفرّد
على أنكم تَرضون بالذُّلِّ صاحبا   وتُعطون من لاحاكُمُ الظلم عن يد
أمَا وأَبى إنّا لنَعْفو وإننا   على ذاك أحياناً نجورُ ونَعْتَدِى

---

(١) سل الشىء = سرقه ، وفى الأغانى (إذا طرا . . وختل الراكب) .

نَـكيدُ العِدَا بالحلم من غير ذِلَّة ونَغْشَى الوغى بالصدق لا بالتَّوَعُّدِ

نَفَى الضيمَ عنا أنفُسٌ مُضَرِيَّـة صراخٌ وطعنُ الباسلِ المتمردِ

وإنا لمن قيس بن عيلان فى الـكُـنَى هى الغايةُ القصوى بعِزٍّ وسؤددِ

ولو أن قوما يَسْلمون من الرَّدَى سَلِمْنا ولـكن المنـايا بمَرْصَدِ

أبى اللهُ أن يَهْدِى نُمَـيْرًا لرُشْدِها ولا يَرْشُدُ الإنسانُ إلا بمُرْشِدِ

مَعْبَدُ اليقطينى[1]

غلامٌ مُوَلَّدٌ من مُوَلَّدِى المدينةِ اشتراه بعضُ ولدِ علىِّ بنِ يَقْطين ، لم يَخْدُمْ أحداً من الخلفاء إلا الرشيدَ ، ومات فى أيامه ، وكان مُنقطعا إلى البرامكة .

قال مَعبدٌ الصغيرُ اليَقْطينى : بينا أنا يوما فى منزلى إذ دقّ بابى ، فخرج غلامى ورَجَع فقال لى : بالباب فتى ظاهرُ المروءةِ يستأذنُ عليك ، فأذنت له ، فدخل علىّ شابٌّ ما رأيتُ أحسنَ وجها منه ، ولا أنظفَ ثوبا ولا أجمل زِيًّا ، وهو دَنِفٌ عليه آثارُ السُّقْم ظاهرةٌ فقال لى : أحاولُ ألْقاكَ منذ مُدَّةٍ ، فلا أجد إلى ذلك سبيلا ، وإن لى حاجةً فقلت : وما هى ؟ فأخرج ثلاثمائةِ دينار فوضعها بين يدَىّ ثم قال : أسألك أن تقبَلها وتَصْنَع فِىَّ بَيْتَيْنِ قُلْتُهما لحناً تُغَنِّينِى به. فقلت: هاتِهما. فأنشدنى:

والله يا طَرْفِىَ الجانى على بَدَنِى لَتُطْفِئَنَّ بدمْعِى لَوْعَةَ الحزَنِ

أو لأبوحَنَّ حتى يحجبوا سَكَنِى فلا أراه ولو أُدْرِجْت فى الكفنِ

فصنعتُ فيه لحنا وغَنَّيْتُه إياه ، فأغمى عليه حتى ظننته قد مات ، ثم أفاق فقال : أَعِدْ فَدَيْتُك فناشَدْتُه اللهَ فى نَفْسِه وقلت : أخشى أن تَموتَ فقال : هيهاتَ أنا أَشْقَى من ذاك . وما زال يَخْضَعُ لى و يَتَضرَّعُ حتى أعدْتُه فصُعِق صَعْقَةً أشَدَّ من الأولى ظننتُ أن نَفْسَهُ فاظت[2] معها ، فلما أفاق رَدَدْتُ عليه الدنانيرَ ووضعتُها بين يديه وقلت : يا هذا خذْ دَنانيرَكَ وانصرف عنى ، فقد قضيتُ حاجتَك وبلغتَ وَطَراً مما أَرَدْتَه ، ولست أحبُّ أن أَشْرَكَ فى دمك فقال : يا هذا لا حاجةَ لى فى الدنانير ، وهذا مِثْلُها لك ، ثم أخرج لى ثلاثمائة دينار أُخرى ، فوضع ذلك بين يدَىّ وقال :

---

(١) أغانى ١٢ : ١٦١ ، أغانى الدار ١٤ / ١١٦ .

(٢) فاظت نفسه أوروحه: مات.

أعد الصوتَ مرةً أخرى ، وحَلٌّ لك دَمِى [وخلاك ذم[١] فشرهَتْ] نفسى إلى الدنانيروقلت : لا والله ولا بعشرةِ أضعافِها إلّا على ثلاثِ شرائطَ . قال : وما هن ؟ قلت : أوّلُهن أن تُقيمَ عندى وتتحرّم بطعامى ، والثانية : أنْ تشربَ أقداحاً من النبيذ تَشُدّ قلبك ويسكنُ مابك ، والثالثة أن تُحَدِّثَنى بقِصَّتِك . قال : أفعل ما تريد . فأخذتُ الدنانيرَ ودعوتُ بطعامٍ فأصاب منه إصابةَ مُعْذِر ، ثم دعوت بالنبيذِ فشرب أقداحا وغَنَّيْتُه بشعرٍ غَيْرِه فى معناه ، وهو يشربُ ويبكى ، ثم قال : الشَّرْطَ أعزّكَ الله . فغنيته صَوْتَه فجعل يبكى أشَدَّ بكاء وينتحبُ ، فلما رأيت مابه قد خَفّ عما كان ورأيتُ النبيذَ قد شَدّ قلبَه كررتُ عليه صَوْتَه مرارا ، ثم قلت له : حدِّثنى حديثَك ، فقال : أنا رجل من أهل المدينةِ خرجتُ مُتَنَزِّهًا فى ظاهرِها وقد سال العقيقُ فى فِتْيَةٍ من أقرانى وإخْوانى فبَصُرْنا بقَيْناتٍ قد خرجن لمِثْلِ ما خرجنا له ، فجلسن حَجْرَةً منا وبصرتُ منهن بفتاة كأنها قضيبٌ قد طَلَّه الندى ينظر بِعَيْنَيْنِ ما ارتَدّطَرْفُهما إلا بروحِ من يلاحِظُها فأطَلْنا وأطَلْنَ حتى تفَرَّق الناسُ وانصرفْنَ وقد أبقت فى قلبى جُرْحاً بطيئاً اندمالُه فعدت إلى منزلى وأنا وَقِيذ[٢] ، وخرجت من الغد إلى العقيق وليس به أحدٌ فلم أر لها ولا لصواحِبها أثَرًا ، وجعلت أتَتَبَّعُها فى طرق المدينة وأسواقها فكأنَّ الأرضَ أضْمَرَتْها فلم أُحِسَّ لها بعينٍ ولا أَثَر فسَقِمْتُ حتى أيِسَ أهلى منى (ودخلت بى ظئرى) فاستعلمَتنى حالى فَضَمِنَتْ لى كتمانَها والسَّعْىَ فيما أُحِبّه منها فأخبرْتُها بقصتى فقالت : لا بأسَ عليك هذه أيامُ الربيع ، وهى سنةُ خِصْبٍ وأنواءٍ ، وليس يبعدُ عنا المطر ، ثم هذا العقيقُ فتخرجُ حينئذ ، وأخرجُ معك ، فإن النسوة سَيَجِئْنَ فإذا جِئْنَ ورأيْتَها اتبعْتُها حتى أعرفَ لك مَوْضِعَها ثم أصلُ بينك وبينها وأسْعَى لك فى تزويجها ، فكأنّ نفسى اطمأنت

(١) غير واضحة فى الأصل وهى عن الأغانى .

(٢) الوقيذ: الشديد المرض المشرف على الموت ـ المحزون القلب كأن الحزن قد كسره وضعفه.

إلى ذلك ووثِقتُ به وسَكَنتُ إليه فقَويتُ وطَمِعتُ وتراجَعَتْ نفسي وجاء مطرٌ بعد ذلك فأسالَ العقيقَ وخرج الناسُ وخرجت مع إخواني إليه ، فجلسنا مَجْلِسَنا الأولَ بعينه فما كُنَّا والنسوةُ إلا كَفَرَسَيْ رِهان فأومأتُ إلى ظِئْرِي فجلسَتْ حَجْرةً بيننا وبينهن، وأقبلتُ على إخواني فقلت: لقد أحسنَ القائل :

رَمَتْنِي بسَهْم أقصدَ القلبَ وانثَنَتْ وقـد غادَرَتْ جرحا به ونُدوبا

فأقبَلَتْ على صواحباتها فقالت : أحسن . والله القائلُ وأحسن من أجابه حيث يقول :

بنا مثلُ ما تشكو فصبرا لعَلَّنَا نرى فَرَجا يُشْفِي السقامَ قريبا

فأمسكتُ عن الجوابِ خوفاً من أن يُرَى مني ما يَفْضَحُني وإياها وعرفتُ ما أرادت ثم تفرّق الناسُ وانصرفنا وتَبِعَتْها ظئري حتى عَرَفَتْ منزلها ، وصارت إليَّ فأخذت بيدي ، ومضينا إليها ، فلم تزل تتلطفُ حتى وَصَلَتْ إليها ، فتلاقينا فتزاورنا على حال مخالصةٍ ومراقبةٍ حتى شاع حديثي وحديثُها ، وظهرَ ما بيني وبينها فحَجَبَها أهلُها وسَدّوا عليها أبوابَها فما زلت أجتهدُ في لقائها فلا أقدر عليه ، وشكوت إلى أبي شِدّة ما نالني وسألته خِطْبَتَها لي فمضى أبي ومشيخةُ أهلي إلى أبيها فخطبوها فقال: لو كان بدأ بهذا قبل أن يَفضَحَها ويُشَهِّرَها أسْعَفْتهُ بما التمس ولكنه قد فَضَحَها فلم أكن لِأُحقّقَ قولَ الناس فيها بتزْويجه إياها، فانصرفتُ على يأسٍ منها ، ومن نفسي . قال معبد : فسألته أن ينزل فخبَّرَني فصارت بيننا عِشرَةٌ ثم جلس جعفرُ بن يحيي للشُرْب فأتيته : فكان أولَ صوت غنيته شعرُ الفتى فشَرِب وطَرِبَ عليه طربا شديدا ، وقال : إن لهذا الصوت حديثا ، فما هو ؟ فحَدَّثْتُه فأمر بإحضارِ الفتى فأُحْضِرَ واستعادَه الحديث فأعادهُ . فقال : هي في ذمتي حتى أزوِّجها لك فطابَتْ نَفْسُه وأقام معنا ليلَتَنا حتى أصْبح ، وغدا جَعْفَرٌ إلى الرشيد فحدّثه الحديثَ فعَجِبَ منه وأمر بإحضارنا جميعا فأُحضِرْنا وغَنَّيْتُه الصوتَ وشَرِبَ عليه وسمع حديثَ

الفتى فأمر من وقته بكتاب إلى عامل الحجاز بإشخاص الرجل وابنَتِه وجميع أهْلِه إلى حَضْرَته ، فلم يمض إلا مسافةُ الطريقِ حتى أُحْضِرَ وأمر الرشيدُ بإيصاله إليه ، فأوصِلَ وخَطَبَ الجاريةَ للفتى ، وأقسم عليه ألا يُخالِفَ أمْرَه فأجابه وزَوَّجَها وحمل الرشيدُ إليه ألفَ دينار لجهازها وألفَ دينارٍ لنفقةِ طَرِيقِهِ وأمر للفتى بألفِ دينار مثلها وأمر جعفر لى بألف دينار والفتى بألف دينار وكان بعد ذلك من ندماء جعفر ابن يحيى .

مُضاضُ الجُرْهُمىُّ (١)

هو مُضاض بن عمرو بن الحارث بن مُضاضِ بن عَمْرو الجُرْهُمِيُّ . كان جَدُّه مُضاض ابن عمرو زَوّجَ ابنتَه رَعْلَة بن إسماعيلَ بنَ إبراهيم ، خليلِ الرحمنِ على نبيّنا وعليهما الصلاة والسلام ، فوَلَدتْ له اثنيْ عشرَ رجلا ، أكبرُهم قيزر[٢] ونابِت ، وكان أبوه إبراهيمُ أَمَرَه بذلك ؛ لأنه لما بنى مكة وأنزَلَها ابنَه إسماعيلَ ، قَدِمَ عليه قَدْمَةً من قَدَماته فسمع كلامَ العرب وقد كانت طائفةٌ من جُرْهُم نزلوا هنالك مع إسماعيلَ ، وسمع ابنُه إسماعيلُ تـكلُّمَهُم فأعجَبَتْه لغتُهم واستحسنها ، فأمر إسماعيلَ أن يتزوجَ إليهم فتزوج بنتَ مُضاض بن عمرو ، وكان سيِّدَهم ووَلِيَ نابتُ بنُ إسماعيل البيتَ بعد أبيه ثم تُوُفِّيَ فوَلِيَ مكانه جدُّه لأُمِّه مُضاض بن عمرو الجرهمى فضَمّ ولَدَ إسماعيل ووَلَدَ نابت بن إسماعيل إليه ، وكانت جُرْهم نزَلَتْ مع مَلِـكِهِم مُضاضٍ بأعلى مكةَ ونزلت قَطوراء مع ملِـكهم السميذع أَجيادِين أسفَل مكة ، وكان هذان البطْنانِ خرجا سَيارةً من اليمن . وكذلك كانوا لا يخرجون إلا مع مَلِكٍ يُمَلِّـكُونه عليهم ، فلما رأوا مكة رأوا بلداً طيباً ؛ ماء وشجراً فنزلوه ، ورضى كلٌ واحد منهما بصاحبه ، ولم يُنازِعه فـكان مضاضٌ يَعْشُر من جاء من أعلاها والسميذع يَعْشُرُ من جاء من أسْفَلِها ، ولا يدخل أحدها على صاحبه فى أمره . ثم إن جُرْهُماً وقطوراءَ بَغَى كلٌّ واحدٍ منهما على صاحبه وتنافسوا فى الملك حتى نشبت الحرب بينهم ، وكانت ولايةُ البيتِ إلى مُضاض دون السَّمَيْذع فسار بعضُهم إلى بعضٍ وخرج مضاضٌ من قُعَيْقِعانَ فى كتيبةٍ بسلاح شاكٍ يتَقَعْقَعُ . فيقال : ما سُمِّيَتْ قُعَيْقِعانُ إلا بذلك . وخرج السميذعُ

(١) أغانى الدار ١٥ / ١٢ تجريد ق ٢ ج ١ : ٩ ١٦٠ .

(٢) قيدر (تجريد) ـ قيذار (أغانى ـ القاموس) .

من شعبِ أجيادين فى الخيلِ الجيادِ والرجال ؛ فيقال : ما سميت أجْيَادِين إلا بذلك ، حتى التقوا بفَاضِح ، فاقتتلوا قتالا شديداً ، فقُتِلَ السميذعُ وفُضِحَتْ قطوراء . ويقال: ما سميتْ فاضحٌ إلا بذلك ، ثم تداعى القومُ إلى الصلح ، فساروا حتى نزلوا المَطابِخَ شعباً بأعلى مكة وهو الذى يقال له الآن شعبُ ابنِ عامر ، فاصطلحوا هناك وسلموا الأمر إلى مُضاض ، فلما اجتمع له أمرُ مكة ، وصار مِلكَها دون السيمذع نحر للناس وطبخ الُجزُرَ ، فأكلوا فسمى ذلك الموضعُ المطابخَ . فيقال : إن هذا أولُ بَغْىٍ كان بمكة ، فقال مُضاضُ بن عمر فى تلك الحروب :

ونحن قَتَلْنا سَيِّدَ الحىِّ عَنْوةً ... فأصبح منها وهو حيرانُ موجَعُ

يعنى أن الحىَّ أصبح حيرانَ مُوجَعا بعد قَتْلِ سيده

وما كان يبغى أن يكون سواؤُنا ... بها مَلِكاً حتى أتانا السميذعُ

فذاقَ وبالًا حين حاول مُلْكَنَا ... وعالج منا غُصَّةً تتجــرّعُ

فنحن عَمَرْنا البيتَ كنا ولاته ... نضارِبُ عنه من أتانا ونَدْفَعُ

وما كان يبغى ذاك فى الناس غيرُنا ... ولم يك حَىٌّ قبلنا فيه يَطْمَعُ

وكنا ملوكاً فى الزمانِ الذى مضى ... وَرِثنْا ملوكا لا تُرام فتوضَعُ

وكان سَيْلٌ قد جاء فدخل البيتَ فانهدم فأعادَتْه جُرْهُم على بناء إبراهيم ، عليه السلام ، بناه لهم رجلٌ منهم يقال له : أبو الَجدَرَة فسمى عامرٌ الجادِرَ وسُمِّىَ بنوه الَجدَرَة ثم استَخَفَّتْ جُرْهم بحقِّ البيت فارتكبوا فيه أمورا عِظاما ، وأحدثوا أحداثاً قبيحة ، وكانت للبيت خِزانةٌ وهى بئرٌ فى بطنِه يُلْقَى فيها الحلىُّ والمتاعُ الذى يُهدى له ، وهو يومئذ لا سَقْفَ عليه فتواعدَ خمسةٌ من جُرْهم أن يسرقوا ما فيه ، فقام على كلِّ زاويةٍ من البيت رجلٌ منهم ، فاقتحم الخامسُ فجعل اللهُ أعلاه أسْفَلَه ، وسقط مُنْكَّساً فهلَكَ ، وفر الأربعةُ الآخرون قالوا : ودخل إسافُ ونائلةُ البيتَ

فَفَجرا فيه فمسخَهُما الله حَجَرَيْن فأخرجا من البيت . وقيل : إنهما لم يَفْجُرا فيه ، ولـكنه قبَّلها في البيت ، وهو أساف بن سُهَيْل ونائلةُ بنتُ عمرو بن ذِئب . وقيل نائلة بنتُ ذِئب ، فأُخْرِجا من الـكَعْبةِ ونُصِبا ليَعْتبرَ بهما من رآهما ويزدجرَ الناسُ عن مثل ماارتـكبا ، ولما غلبتْ خزاعةُ على مكةَ ونُسِيَ حديثُهما دعاهم عمروُ بن لُحَيّ إلى عبادتِهما . وقال للناس : إنهما إنما نُصِبا ها هنا لأن آباءَكم كانوا يَعبدونهما ثُمَّ حولهما قُصَيٌّ بن كلابٍ بعد ذلك ، فجعلهما تجاه الـكعبة ، يذبح عندها عند موضع زمزم ، قالوا : فلما كَثُر بَغْيُ جُرْهم بمكةَ قام فيهم مضاضُ بن عمرو بن الحارثِ بن مُضاض فقال : يا قومُ احذَروا البَغْيَ فإنه لا بقاء لأهلِه ، وقد رأيتم من كان قبلَـكُم من العماليقِ استَخَفُّوا بالحرمِ ولم يُعظِّموه وتنازعوا بينهم ، واختلفوا، حتى سَلَّطَـكُم اللهُ عليهم ، فأَخْرَجْتموهُم [١] فتفرقوا في البلاد ، فلا تَسْتَخفُّوا بحق الحَرَم وحُرْمَةِ بيت الله ، ولا تظلموا من دَخَلَه ومن جاءه مُعَظِّماً حُرُماتِه [أو خائفاً أو رغب في جواره] [٢] فإنـكم إنْ فعَلْتم ذلك تَخوفتُ أن تخرجوا منه خروجَ ذُلٍّ وصغارٍ حتى لا يَقْدِرَ أحدٌ منـكم أن يصلَ إلى الحَرَمِ ولا إلى زيارةِ البيت الذى هو لـكم حِرْزٌ وأَمْنٌ والطير تأمنُ فيه ، فقال له قائل منهم ، يقال له مَجدوع : ما الذى يُخْرِجُنا منه ؟ ألسنا أعزَّ العرب وأ كثرَهم مالا وسلاحاً ؟ فقال له مضاض : إذا جاء الأمرُ بَطَلَ ما تذ كرون ، وقد رأيتم ما صنع اللهُ بالعماليق . قالوا : وكانت العماليقُ بَغَتْ في الحرمِ فسلّط اللهُ عليهم الذَّرَّ [٣] فأخرجهم منه ثم رموا بالجَدْبِ [من خلفهم] [٢] ونعت الغيثُ أمامَهم فجعلوا يطلبونه ولا يَجدونَه ويكونُ أمامهم أبدا فيطلبونه ويساقون بالجَدْبِ من خَلْفِهم حتى ردَّهم الله إلى مساقِطِ رءوسِهم ، ثم أرسل عليهم الطوفانَ قال : والطوفان:

---

(١) واجتحتموهم (أغاني) والاجتياح : الاستئصال والإهلاك .

(٢) غير واضح بالأصل وهو عن الأغاني .

(٣) الذر : صغار النمل .

الموتُ ، قال : فلما رأى مضاضُ بَغْيَهم ومُقامَهم على البَغْى عَمِدَ إلى كنوزِ الكعبةِ وهى غزالانٌ من ذهبٍ وأسيافٌ [قَلَعِية](١) وغيرُها وحَفر لها ليلا فى موضعِ زَمْزَم ودفَنَهَا فيها ، فبينما هم على ذلك إذ سارت القبائلُ من أهلِ مأْرِب ، ومعهم طريفةُ الكاهنةُ حين خافوا سيلَ العَرِمِ ، وعليهم مزيقياء ، وهو عمرُو بنُ عامر ابن ثعلبةَ بن امرئ القيسِ بن مازن بن الأزْد بن الغَوْث بن مالك بن بِنْتِ كَهلانَ ابن سبأ بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قَحْطان ، فقالت لهم طريفة لما قاربوا مكةَ : حَقٌّ ما أقول ، وما عَلَّمَنِى ما أقولُ إلا الحكيمُ المُحَكَّم ربُّ جميعِ النَّسَمِ من عربٍ وعَجَم قالوا لها : ما شأنُك يا طريفة ؟ قالت : خذوا البعيرَ الشَّدْقَمَ(٢) ، نَخضِّبُوه بالدَّم ، تكون لكم أرضُ جرهم ، جيرانِ بيتِه المُحَرَّم ، فلما انتهوا إلى مكةَ ، وأهلها جرهم قد قهروا الناسَ وحازوا ولايةَ البيت على بنى إسماعيل وغَيْرِهم أرسلَ إليهم عَمْرٌو ابنه ثَعْلَبَة فقال لهم : يا قَوْم إنا قد خَرَجْنا من بلادنا ، فلم نَنْزِلْ بلدا إلا أَفْسَحَ أهلُه لنا وتَزَحْزَحوا فنقيم معهم حتى نُرْسِلَ رُوَّادَنا يرتادون لنا بلدا يحملنا ، فأَفْسِحُوا لنا فى بلادِكُم حتى نُقِيمَ قدرَ ما نستريحُ ونرسل رُوَّادَنا إلى الشامِ وإلى الشَّرْقِ فحيث ما بَلَغَنا أنه أَمْثَلُ لَحِقْنا به ، ونرجو أن يكون مُقامنا معكم يَسيرا فأَبَتْ جُرْهُم ذلك إباءً شديدا ، واستكبروا فى أنفسهم ، وقالوا : لا والله ، ما نحب أن ينزلوا معنا فيُضَيِّقُوا علينا مراعِينا ومواردَنا فارحلوا عنا حَيْثُ أحببْتم فلا حاجة لنا بجوارِكم ، فأرْسَل إليهم أنَّه لا بد من المُقامِ بهذا البلد حولا حتى ترجع إلىَّ رُسُلى التى أرسلت ، فإن تركتمونى طَوْعاً نزلتُ وحمِدْتُكم وواسيتُكم فى الماء والمرعى ، وإن أبيتم أقمتُ على كرْهِكم ثم لم ترْبَعوا معى إلا فَضْلا ولم تشربوا إلا رَنَقا ،

---

(١) ما بين القوسين عن الأغانى . والقلعية نسبة إلى القلعة من بلاد الهند تنسب إليها السيوف الجياد .

(٢) الشدقم : الواسع الشدق .

وإن قاتلتمونى قاتَلْتُكم ثم إنْ ظهرتُ عليكم سبيتُ النساءَ وقتلتُ الرجال ، ولم أترك أحدا منكم يَنزِل الحَرَم أبدا ، فأبت جُرْهم أن تتركه طوعا وتعبَّت لقتاله ، فاقتتلوا ثلاثةَ أيام أفرغ عليهم الصبرُ ومُنِعوا النَّصْرَ ثم انهزمت جُرْهم فلم يُفْلِتْ منهم إلا الشريدُ ، وكان مضاضُ بن عمرو قد اعتزل جُرْهم ولم يُعِنْهم فى ذلك، وقال : قد كنت أُحَذِّرُكم هذا وأُحَذِّرُكم منه ، ثم رحل هو وولده وأهل بيته حتى نزلوا قنونا وما حوله ، فبقايا جُرْهم بها إلى اليوم ، وفَنِى الباقون، أفْنَاهم السيفُ فى تلك الحروب ، فلما حازَتْ خزاعةُ مكةَ وصاروا أهْلَها جاءهم بنو إسماعيل ، وقد كانوا اعتزلوا حربَ جُرْهم وخُزاعة ، فلم يدخلوا فى ذلك ، فسألوهم السُّكْنى معهم وحَوْلَهم ، فأَذِنُوا لهم ؛ فلما رأى ذلك مُضاضُ بن عمرو بن الحارث ، وقد كان أصابه من الصَّبابةِ إلى مكةَ أمرٌ عظيم فأرسلَ إلى خزاعةَ يَسْتَأْذِنُها ومَتَّ إليهم برَأْيه ومنعه قومُه عن القتالِ وسُوءِ العِشرةِ فى الحرم ، واعتزالهم الحربَ فأبت خزاعةُ أن تُقِرَّهم ونَفَوْهُم من الحرم كلِّه وقال عمرو بن عامر لقومه : من وجد منكم جُرْهُمِيًّا قد قاربَ الحَرَمَ فدَمُه هَدَر فنزَعَتْ إبلٌ لمُضاض بن عمرو من قَنونا تريد مَكَّةَ ، نخرج فى طَلَبِها حتى وجد أثرَها ، وقد دخلت مكة ، فمضى على الجبالِ من نحو أَجْياد ، حتى ظهر على أبى قُبَيْس يتبصرُ الإبلَ فى بطنِ وادى مَكَّةَ فأبصرَ الإبلَ تُنْحَرُ وتؤكلُ ، ولا سبيلَ له إليها ، يخافُ إنْ هبط الوادى أن يُقْتَل فولى منصرفا إلى أهْله وأنشأ يقول :

كأنْ لم يكنْ بين الحجونِ إلى الصَّفا	أنيسٌ ولم يَسْمُر بمكة سامِرُ
ولم يَتَرَبَّع واسطا فجَنُوبَه	إلى المُنْحَنَى من ذى الأراكةِ حاضرُ
بلى نحن كنا أَهْلَها فأبادَنا	صروفُ الليالى والجدودُ العواثرُ
وأبدَلَنا ربى بها دارَ غُرْبَةٍ	بها الذئبُ يعوى والعدوّ المحاصِرُ
أقول إذا نام الخَلِىّ ولم أَنَمْ	أَذَا العرشِ لا يَبْعُدْ سهيلٌ وعامرُ

فإنْ تَمِـلِ الدنيا علينا بكَلْـكَلٍ ... ويُصْبِح شرٌّ بيننـا وتشاجُرُ

فنحن ولاةُ البيتِ من بعد نَابتٍ ... نَمْشِى به والخيرُ إذ ذاك ظاهرُ

وأنـكح جَدِّى خيرَ شَخْصٍ عَلِمْتُهُ ... فأبناؤه مِنّا ونحن الأباصرُ(١)

فأخْرَجَنا منهـا المليكُ بقُدْرَةٍ ... كذلك يا لَلنَّاسِ تجرى المقادرُ

فصرنَا أحاديثاً وكنا بِغِبْطَةٍ ... كذلك عَضَّتْنا السنونُ العواثرُ

وسَحَّتْ دموعُ العينِ تبـكى لبَلْدَةٍ ... بها حَرَمٌ أمنٌ وفيهـا المشاعرُ

ويا ليتَ شِعْرِى مَنْ بأجيادَ بَعْدَنا ... أقام بمُفْضِى سَيْلِه والظواهرُ

فبطن مِـنًى أَمْسَى كأنْ لم يَـكُنْ به ... مُضَاضٌ ومن حَـيَّي عَدِيٍّ عمائرُ

فهل فَرَجٌ آتٍ بشىءٍ تُحِبُّه ... وهل جَزَعٌ مُنْجيك مما تُحاذِرُ

وقال أيضاً :

يا أيُّها الحىُّ سِيروا إن قَصْرَكُم ... أنْ تُصبحوا ذاتَ يوم لا تَسيرونا

إنَّا كما أنتُمُ كُـنَّا فغَـيَّرَنَا ... دَهْرٌ بِصَرْفٍ كما صِرْنا تَصيرونا

أزْجُو المَطِىَّ وأزجو من أَزِمَّتِها ... قبـلَ المماتِ وقَضُّوا ما تُقَضُّونا

قد مَالَ دَهْرٌ علينا ثم أهْلَـكَنا ... بالبغىِ منا فقد صِرْنا أفانينا

كنا زمانا ملوكَ الناسِ قَبْلَـكُم ... نَأْوِى بلادا حراما كان مَسْـكونا

خرج أبو سَلَمة بنِ عبـدِ الأسد المخزومىّ قبيلَ الإسلام فى نفرٍ من قُريش يريدون اليمنَ فأصابهم عَطَشٌ شديدٌ ببعض الطريق فأمْسَوا على غير الطريق فساروا جميعا فقال لهم أبو سلمة : إنى أَرَى نا قـتِى تنازِعُنى زِمامَها . أفلا أُرْسِلُها وأَتْبَعها قالوا : افعل فأرسلَ ناقتَه ، فأصبحوا على ماء وحاضرٍ فاسْتَقَوا وسَقَوْا ، فإنهم لعلى ذلك إذ أقبل إليهم رجلٌ فقال : مَنِ القوم ؟ فقالوا مِنْ قريش ، فرجع إلى شَجَرةٍ

---

(١) الأصاهر (أغانى) .

أمام الماء فتكلم عندها بشيء ثم رجع إلينا ، فقال : لينطلِقْ معى رجلٌ منكم إلى رجل ندْعوه . قال أبو سلمة : فانطلقت معه فوقف بى تَحْتَ شجرةٍ فإذا وَكْرٌ مُعَلّق ، فصوَّتَ يا أَبَه ، فزَعْزَع[1] شيْخٌ رأسَه فأجابه . فقال: هذا الرجل. فقال لى : مِمَّنْ أنت ؟ قلتُ من قريش . قال : من أيها ؟ قلت : من بنى مخزوم بن يَقْظة . قال : من أيهم ؟ قلت : أنا أبو سَلَمة بنِ عبْدِ الأسد بن هِلال بن عبد الله بن عمرو ابن مخزوم بن يَقظةَ فقال : هيهات ! أنبئك أنا ويقظةَ سِنٌ[2] أتدرى من يقول :

كأنْ لم يكن بين الحَجُونِ إلى الصَّفا ... أنيسٌ ولم يَسْمُرْ بمكّةَ سامرُ

بل نحن كُنّ أهلَها فأبادَنا ... صروفُ الليالى والجدودُ العواثر

قال : فقلت : لا ، قال : أنا صاحِبُها ، أنا عَمْرو بن الحارثِ بن مُضاض الجُرْهُمى أتَدْرِى لم سُمِّىَ أجيادُ أجياداً ؟ قلتُ : لا . قال : جادتْ بالدماء يوم التقَيْنا نحن وقَطوراء ، أتدرِى لم سُمِّىَ قُعَيْقعان ؟ قلت : لا . قال : لتَقَعْقُعِ السلاحِ علينا لما طلعنا [عليهم] منه .

قال إسحاقُ بنُ إبراهيم : قال لى أَبى مُرْ بالدوابِّ تُسْرَجْ سَحَرا حتى نَغْدو إلى ابنِ جامعٍ نَسْتقبِلُه بسُحْرَةٍ[3] لا تأخُذْنا الشّمْسُ ، ففعلنا ذلك ، فجئنا إلى ابنِ جامع فإذا بِهِ مُخْتَضِبٌ وعلى رأسِه ولحيته خِرَقُ الخِضَابِ وإذا له قِدْرٌ يُطبخُ فى الشمس فرَحَّبَ بنا ، وقام إلينا وسَلَّم ودعانا للغداء فغرَفَ لنا من القِدْر التى فى الشمس فنَفِرْتُ[4] وبَشِعْتُ ذلك الطعامَ الذى طبخَ فى الشمسِ ، فأشار إلىَّ أبى أَنْ كُلْ فأكَلْنا فلما غَسَلْنا أيْدِينا نادى ابنُ جامع: يا غلامُ هات شَرابَنا فأُتِى بنبيذٍ

---

(١) زعزع : حرك .

(٢) أى فى سن وعمر واحد .

(٣) السحرة : آخر الليل قبيل الفجر .

(٤) فتقززت (أغانى) .

فى رَكْوةٍ كانت فى الشمس فكَرِهْتُه فأشار إلىّ أبى ألا تَمْتَنع ثم أَتَوْا بقَدَح جيشانىّ[1] ملءِ الكَفَّيْن فصبّ النبيذَ فيه وهو يشوبُه ماء قد أُغْلِى بالنار ثم غنى ابن جامع :

كأنْ لم يكُنْ بين الحجونِ إلى الصفا ... أنيسٌ ولم يَسْمُر بمكة سَامِرُ

بلى نحن كنــا أهلهَا فأبادَنا ... صروفُ الليالى والجدودُ العواثر

ثم غَنّى غيرَ ذلك ، فقال لى أبى : بَشِمْتَ لما رأيتَ من طعام ابنِ جامعٍ وشرابِه وأنا أَعْتِقُ ما أملكُ إن لم يكن شُرْبُ الدمِ مع هذا يَطيبُ ، أسمعت أىْ بُنَىّ غناءً قطُّ أطيبَ من هذا ؟ قلت : لا واللهِ ، ثم خَرَج ابنُ جامع حَتّى نَزَلْنا بباب الرشيدِ ليلا ، واجتمع المغنون فأذِن لهم ، والرشيد خَلْفَ ستارة فغنَّوْا إلى السَّحَر . وأعطَى لكل واحدٍ ألفَ دينار إلّا ابنَ جامعٍ لم يُعطِه شَيْئاً فانصرفوا مُتَوَجِّهين له وعَرضوا عليه جميعا أموالَهم ، فلم يقبل وانصرفوا ، فلما كان فى الليلة القابلة فَعلَ بهم مِثْلَ تلك ولم يُعْطِه شيئا ، فلما كان فى الليلة الثالثة دُعُوا فغنَّوْا ساعة ثم كُشِفَتْ الستارةُ فغنى ابنُ جامع يُعَرّض بحاله فى شعر مُضاض :

تقولُ أَقِمْ فينا فقيرا وما الذى ... ترى فيه لَيْلى أن أقيمَ فقيرا

ذَرِينى أَمُتْ ياليلُ أوأ كسبَ الغنى ... فإنى أرى غَيْرَ الغَنِىّ حقيرا

يُدَفَّعُ فى النادى ويُرْفَض قَوْلُه ... وإن كان بالرأىِ السديدِ جديرا

ويُلزَمُ ما يجنِى سواه وإن يُطِفْ ... بِذَنْبٍ يكنْ منه الصغيرُ كبيرا

فأَعْجَبَ الرشيدَ الشعرُ واللحنُ وأمال رأْسَه نَحْوَه كالمُسْتَدْعِى له ، وغنّاه أيضا لمُضاضٍ :

لئن مصرُ فاتتنى بما كنتُ أبْتغِى ... وأخلفَنِى منها الذى كنتُ آمَلُ

فما كلُّ ما يَخْشَى الفَتى نازلا به ... ولا كُلُّ ما يرجُو الفتى هو نائلُ

---

(١) جيشانى : نسبة إلى جيشان مخلاف باليمن تنسب إليه الأقداح والخمر السود .

فوالله ما فرَّطتُ فى وجْـهِ حيلةٍ ولـكنَّه ما قدَّرَ اللهُ نازلُ
وقد يَسْلَمُ الإنسانُ من حيثُ يتَّقِى ويُؤْتَى الفَتَى من أمْنِه وهو غافلُ

فأمِرُوا بالإنصرافِ فانصرفوا ، فلما بلغ السِّتْر صاح بـه الخادمُ يا قُرَشِيُّ مكانَك . فوقفَ نخرج إليه بِخلَعٍ وسبعةِ آلافِ دينارٍ ، وأُمِرَ إن شاء أن يُقيمَ وإن شاء أن يَنْصرِف .

روى الـكلبيُّ عن أبيه قال : بينا الناسُ فى ليـلةٍ مُقْمِرَةٍ فى المسجدِ الحرامِ إذ بَصُروا بشَخْصٍ قد أقبلَ كأن قامَتَه رُمْحٌ ، فهربوا من بين يديه وهابوه ، فأقبل حتى طاف بالبيت سبعا ثم وقف وتمثل :

كأن لم يَـكُنْ بين الحَجُونِ إلى الصفا أَنيسٌ ولم يَسْمُرْ بمـــكة سامِرُ

فأتاه رجلٌ فوقفَ بعيدا منه وقال : سأَلتك بالله الذى خَلَقَك أَجِنِّىٌّ أَنْتَ أم إنْسِىٌّ ؟ فقال : لا ، بل إنْسِىٌّ أنا امرأةٌ من جُرْهم ، كنا سُكَّانَ هذه الأرضِ وأهلها فأزالنا عنها هذا الزمانُ الذى يُبْلِى كلَّ جديدٍ ويُغَيِّره ، ثم خرجتْ من المسجدِ حتى غابت عنهم ورجعوا إلى مواضعهم .

مالكٌ ومُتَمِّمٌ ابنا نُوَيْرَةَ[1]

هو نويرةُ بنُ جمرة[2] بنِ شدّاد بن عُبَيْد بن ثعلبةَ بن يَرْبوع بن حنظلةَ بن مالكِ ابن زيد مناةَ بن تميم بن أُدّ بن طابخةَ بنِ إلياسِ بن مضرَ بنِ نزارٍ ، وكنيةُ مالكٍ أبو المِغْوار ، وكنيةُ مُتَمِّمٍ أبو نَهْشَل ، وكان يقال لمالك فارسُ ذي الخِمار قيل له ذلك بفرسٍ كان عنده يقالُ له ذو الخمار ، وفيه يقولُ وقَدْ أَحْمَدَه فى بعضِ وقائعه :

جزانى بلائى[3] ذو الخمار وضيعتى ... بما فات أطواء بنىّ الأصاغر

وكان مالك بنُ نويرة شريفاً فارساً شاعراً وكانت فيه خُيلاء ، وكان ذا لمّةٍ كبيرةٍ ، وكان يقال له : الجُفولُ ، وقُتل فى الرِّدَّةِ ، قتله خالدُ بن الوليد بالبِطاحِ فى خلافة أبى بكر الصديق ، رضى الله عنه ، وكان مُقيماً هناك ، فلما تنبأتْ سَجاح اتّبَعَها ثم أَظْهر أَنَّه مسلمٌ ، فضرب خالدٌ عُنُقَه صَبْرا وطَعَنَ عليه فى ذلك جماعةٌ من الصحابة ، منهم عمرُ بن الخطاب ، رضى الله عنه ، وأبو قَتادةَ الأنصارىٌّ ، لأنه تزوج امرأةَ مالكٍ بعده وبنى بها من ليلته . وقد قيل : إنه كان يهواها فى الجاهليةِ فاتُّهِمَ لذلك بأَنَّه قَتَلَه ليتزوجَ بها ، والسبب فى قَتْله أن سيدَنا رسولَ اللهِ ، صلى اللهُ عليه وسلم ، استعمل عُمّاله على بنى تميم ، فكان مالكُ بنُ نويرة عامِلَه على بنى يَربوع ، فلما تنبأت سَجاح بنتُ الحارثِ بن سُوَيْد بن عُقْفان[4] ، وسارت من الجزيرةِ راسَلَتْ مالكَ بنَ نويرة ، ودعته إلى الموادعة فأجابها وثَـنَى[5] الناسَ عن غَزْوها

---

(١) أغانى الدار ١٥/٢٦٨ ـ تجريد ١٦٥٧ .

(٢) فى الأغانى : عمرو وفى جمهرة الأنساب ٢١٢ (نميرة) وفى التجريد : ١٦٥٧: حمزة .

(٣) تقرأ فى الأصل (جرى بى قلاى) .

(٤) غطفان (تجريد) .

(٥) ونهاها عن غزوها (أغانى) ١٤ : ٦٤ .

وحَمَلَها على إحياءِ بنى تميم ، فأجابته وقالت : نَعَم فشأنُك ممن رأيت ، فإنما أنا امرأةٌ من بنى يربوع ، فإن كان مُلكٌ فهو مُلكُكُمْ فلما تزوجهامُسَيْلِمَةُ الكذابُ ودخل بها انصرفَتْ إلى الجزيرةِ فصالَحَتْه على أن يحمل إليها النصفَ من غَلَّاتِ اليمامةِ فارْعَوَى حينئذ مالكُ بن نويرةَ ونَدِم وتحَيَّرَ فى أمرِه فلحق بالبطاحِ ، فلم يبق فى بلاد حَنْظَلَة شيء يُكْرَه إلاما بَقِى من أمْرِ مالك ومن ناسَب إليه بالبطاح ، فهو على حالِه متحيرٌ لايدرى ما يصنعُ ، فلما أراد خالدُ بنُ الوليدالمسيرَ خرج وقد استبْرأَ أسداً وغطفانَ وغنيًّا ، فسار يريدُ البطاحَ وبها مالكٌ وقد تردد عليه أمْرُهوقد تردّدَتِ الأنصارُ على خالد ، وتخلّفَتْ عنه . وقالوا : ما هذا بعهدِ الخليفةِ إلينا ، فقد عهد إلينا إن نَحْنُ فرغنا من البراهِمة واستبْرَأْنا بلادَ القوم أن يكتب إلينا بما نَعْمل ، فقال خالد : إن يكن عَهِد إليكم بهذا فقد عَهِدَ إلىَّ أن أَمْضِيَ ، وأنا الأمير وإلىَّ تنتهى الأخبارُ ، ولو أنه لم يأتِنى له كتابٌ ولا أمْرٌ ، ثم رأيتُ فُرْصةً إن أعْلَمْته بها فاتتنى لم أُعْلِمْه حتى أنْتَهِزَها ، وكذلك لو ابتُلِينا بأمرٍ ليس منه عَهْدٌ إلينا فيه ، لم ندع أن نرى أفضل ما يحضرنا ونعمل به ، وهذا مالكُ بن نُوَيْرَةَ بحيالِنا وأنا قاصدٌ له بمن معى من المهاجرين والتابعين بإحسانٍ ، ولست أُكْرِهُكُمْ ، ومضى خالد ونَدِمت الأنصار وتدابروا وقالوا: إن أصاب خيراً إنه لخيرٌ حُرِمْتُموه وإن أصابَتْهم مصيبةٌ لَيَجْتَنِبَنَّكُمُ الناسُ فأجمعوا اللحاقَ بخالد وجَرَّدوا إليه رسولا ، فأقام عليهم حتى لَحِقوا به ، ثم سار حتى قَدِمَ البطاحَ فلم يَجِدْ به أحداً ، ووجد مالكاً قد فرَّقهم فى أموالهم ، ونهاهم عن الاجتماع ، فبعث السرايا وأمرهم بداعية[1] الإسلام ، وكان فيما أوصاهم به أبو بكر ، رضى الله عنه ، إذا نزلتم فأذِّنوا وأقيموا فإن أذَّنَ القومُ وأقاموا فكُفُّوا عنهم وإن لم يفعلوا فلا شيء إلا الإغارة ثم اقتلوهم كُلَّ قِتْلةٍ إلا الحرقَ ،

---

(١) برعاية الإسلام (أغانى) .

فما سواه ، وإن أجابوكم إلى داعية الإسلام فسالموهم فإن أقرّوا بالزكاة قبلتم منهم ، وإلا فلا شيء إلا الإغارة ولا كلمة ، فجاءته الخيلُ بمالكِ بن نويرة فى نفرٍ معه ، من بنى ثعلبة بن يربوع ، ومن بنى عاصم وعُبَيْد وجعفر ، فاختلفت السَّرِيَّة فيهم ، وفيهم أبو قتادة ، فكان ممن شهِدَ أنهم أَذَّنوا وأقاموا وصلَّوْا وشهد آخرون أنه لم يكن من مصلين فلما اختلفوا فيهم أَمَرَ بحبسهم ، فحبسوا فى ليلة باردة لا يقوم لها شَيْءٌ ، وجعلتْ تزدادُ بَرْداً ، فأَمَرَ خالد فنادى: دافِئُوا أسراكم ، وكان فى لغةِ كنانةَ إذا قالوا: دَثِّروا الرجلَ وأَدْفِئُوه ، فذلك بمعنى اقْتُلوه وفى لغة غيرهم أَدْفِئُوه من الدِّفْءِ فظن القوم أنه أراد القتلَ فقتلوهم ، فَقَتَلَ ضرارُ بن الأزْوَرِ مالِكاً وسمع خالدٌ الواعيةَ فخرج وقد فرغوا منهم ، فقال : إذا أراد الله أمراً أصابَه ، وقد اختلف القومُ فيهم ، فقال أبو قَتادة : هذا عملك فزَبَرَه خالدٌ ، فغضب ومضى حتى أتى أبا بكر ، فغضب عليه أبو بكر حتى كَلَّمه عُمَرُ رضى الله عنهما ، ولم يرض إلا بأن يَرْجِعَ إليه فَرَجع ، فلم يزل معه حتى قَدِمَ المدينةَ وكان خالدٌ قد تزوج أمَّ تميمٍ بنتِ المنهال ، وتركها لِيَنْقَضِيَ طُهْرُها . وكانت العرب تكره النساء فى الحربِ وتعايره ، فقال عمرُ لأبى بكر : إنَّ فى سيف خالد لَرَهَقا ، وحَقّ عليك أن تُقِيدَه به وأكثرَ عليه فى ذلك ، وكان أبو بكر لا يُقِيدُ من عماله ولا وَزَعَته فقال: هِيهِ يا عمرُ تأوَّلَ فأخطأ ، فارفع لسانك عن خالد ، ووَدَى مالكا ، وكتب إلى خالد أن يقدمَ عليه ففعل ، وأخبره خبره فعَذَره وقَبِل منه ، وعَنَّفَه بالتزويج الذى كانت العرب تعيب عليه من ذلك ، وشهد قوم أنهم أَذَّنوا وأَقاموا وصَلَّوْا . وشهد آخرون أنه لم يكن شيء من ذلك ، وقَدِمَ متممٌ أخو مالك ينشدُ أبا بكر دمَ أخيه ، ويطلبُ إليه من سَبْيِهم ، فكتب إليه بِرَدّ السَّبْى ، وألح عليه عمرُ فى خالد ليعزِلَه وقال : إن فى سَيْفه لرَهَقا. فقال : لا ، يا عمر ، لم أكن لأَشيم سيفاً سَلّه الله على الكافرين ، وكان مالكٌ من

أكثر النّاس شَعْرًا ، وكان أهل العسكر قد أَثْفُوا[(١)] القدورَ برءوسهم ، فما منها رأسٌ إلا وصلتْ النار إلى بَشَرَتِه ما خلا رأسَ مالك ، فإن القدرَ نضجت وما نضج رأسه من كثرة الشَّعَرِ وَوَقَى الشعرُ البَشَرَةَ من حَرِّ النارِ أن تبلغَ منه ذلك ، وأنشد متممُ بن نويرة عمرَ بن الخطاب ذكر خمصه يعنى قوله :

لقد كُفِّنَ المنهالُ تحت ثيابه ... فتًى غيرَ مبطانِ العَشِيَّاتِ أَرْوعا

فقال : أكذلك كان يا متمم ؟ فقال : أما ما أعنى فنعم .

وكان ممن شهد لمالك بالإسلام أبو قتادة الأنصاريُّ ، واسمه الحارثُ بن رِبْعِيٍّ أخو بنى سلمة ، وكان قد عاهدَ اللهَ ألا يشهد حَرْبا بعدَها أبدا ، وكان يُحَدِّثُ أنهم لما غَشَوْا القومَ راعُوهم تحت الليل فأخذ القومُ السلاحَ . قال: فقلنا: إنا المسلمون. قالوا : ونحن المسلمون . قلنا : فما بالُ السلاحِ معكم ؟ قلنا : فإن كنتم كما تقولون ، فضَعُوا السلاحَ مَوْضِعَها ، ثم صَلَّيْنا فصلَّوْا، وكان خالدٌ يعتذر فى قتل مالك أنه قال، وهو يراجعه : ما إخالُ صاحبَكم ، يعنى النبيَّ ، صلى الله عليه وسلم ، إلا وقد كان يقول كذا وكذا ، قال : أو ما تَعُدُّه لك صاحبا ؟ ثم قدَّمَه فضرب رقبتَه ورقابَ أصحابِه ، فلما بلغ قتلُهم عمرَ بن الخطاب ، رضى الله عنه ، تكلم فيه عند أبى بكر ، رضى الله عنه ، فأكثر . وقال : عَدُوُّ اللهِ عدا على امرئٍ مسلم فقتَله ، ونزا على امرأتِه . وأقبلَ خالدُ بن الوليد قافلا حتى دخل المسجدِ وعليه قباءٌ له ، وعليه صدأُ الحديدِ مُعْتَجِرًا بعمامة ، وقد غرز فيها أَسْهُمًا ، فلما أن دخل المسجدَ قام إليه عمرُ فانتزع الأسهمَ من رأْسِه فحطَّمَها ، ثم قال : أقتَلْتَ امرأ مُسْلِما ثم نزوت على امرأته !! والله لأَرْجُمَنَّكَ بأحجارك ، ولا يكلمه خالد ، ولا يظنُّ إلَّا أن رأْىَ أبى بكر ، رضى الله عنه ، على مثل رأْيِه فيه ، حتى دخل على أبى بكر فأخبرَه الخبرَ

---

(١) أثف القدر تأثيفا : جعلها على الأثافى ، والأثفية : الحجر توضع عليه القدر .

واعتذرَ إليه فقبل أبو بكر عُذْره وتجاوزَ له عما كان منه فى حربه تلك ، فخرج خالدٌ حين رضى عنه أبو بكر ، وعمر جالس فى المسجد ، فقال : هَلُمَّ إلىّ يا ابن أمٍّ شَمْلَة ، فعرف عمرُ أن أبا بكر رضى عنه ، فلم يكلِّمْه ودخل بيتَه . وقيل : إن الذى قتل مالــكا عبد بن الأزور الأسدى[1] .

قالوا : ولما وَلَّى النبىُّ ، صلى الله عليــه وسلم ، مالــكا صدقاتِ بنى يربوع اضطرب فيها أمرُه لما مات رسولُ الله ، صلى الله عليه وسلم ، وفرّق ما فى يده من إبل الصدَقة ، فــكلّمه الأقرعُ بن حابِسٍ المجاشعى والقعقاعُ بن معبد بن زرارة الدارمى وقالا له : إن لهذا الأمر قائمــا وطالبا فلا تعجل بتَفْرِقَةِ ما فى يديك ، فقال أبياتا منها :

وقلت خُذوا أموالــكم غيرَ خائف ولا نــاظرٌ فيما يجىء من الغــدِ
فإن قام بالأمر المُخَوّف قائم منعنا وقلنا الدينُ دينُ محمـــدِ

ومما قال أيضا :

أرانى الله بالنَّعَمِ المُنَدَّى ببُرْقَةِ رَحْرَحانَ وقد أرانِى
تمشّى يا ابن عَوذة فى تمــيم وصاحبُكَ الأقيرعُ تَلْحيانِ
حميتُ جميعَها بالسيف صَلْتــا ولم يُرْعَشْ يداى ولا بنانِى

فمن يعذرُ مالــكا فى قوله لخالد : أبهذا أمركَ صاحبك ؟ يعنى النبىَّ صلى الله عليه وسلم ، فيقول : إنه أراد القرشيَّة ، ومن يعذر خالدا يقول : إنه قال ذلك انتفاءً من نبوة النبى ، صلى الله عليه وسلم ، ويحتجّ بشعرَيْه المذكورين ، وذكر خالدٌ أن النبى ، صلى الله عليه وسلم ، لما وجهه إلى ابن الجَلَنْدى قال له : يا أبا سليمان إن رأت عيناك مالــكا فلا تُزَايِلْه حتى تقتلَه .

---

(١) وقيل : إن الذى قتله ضرار بن الأزور (أغانى) .

وأحسن ما سُمِعَ من عُذْر خالد قولُ متمم : إن أخاه لم يُسْتَتَشْهد ، وهذا دليل على عذر خالد وكان يقال: إنه لم يُرَ أحسنَ من ساقَيْ أم تميم زوجة مالك التي تزوجها خالد .

صلى متممُ بنُ نويرة مع أبي بكر الصديق ، رضي الله عنه ، الصبحَ ثم أنشده :

نعم القتيـــلُ إذا الرياح تَنَاوَحَتْ ... تحت الإزار قتلتَ يا ابن الأزْوَرِ

أدعَوْتَه بالله ثم قتَلْتَه ... ولقـــد دعاك بذمَّـــةٍ لم تغدرِ[1]

فقال أبو بكر : والله ما دعَوْته ولا قَتَلْتُه فقال :

لا يضمر الفحشاءَ تحت ثيابه ... حلوٌ شمائله عفيفُ المـــئزرِ

ولنعم حشوُ الدرعِ كان وحاسرا ... ولنعم مأوى الطارقِ المتَنَوِّر

ثم بكى حتى سالت عينهُ العوراء ، ثم انخرط على سِيَةِ قَوْسِه متكئا ، يعنى مغْشِيًّا عليه .

صلى عمرُ بن الخطاب ، رضى الله عنه ، يوما الصبحَ فلما انفتَل من صلاته إذا هو برجل قصيرٍ أعورَ مُتَنَكِّباً قوسهُ وبيده هراوةٌ فقال: من هذا ؟ فقيل : متممُ ابن نويرة ، فاستنشده قوله فى أخيه فأنشده :

لعمرِى وما دَهْرِى بتأبينِ مالكٍ ... ولا جزعٌ ممـــا أصاب فأوجعـــا

لقد كفنَ المنهالُ[2] تحت ثيابه ... فتًى غيرَ مبطان العَشِيّاتِ أروعـــا

وكنا كَنَدْمَانَىْ جَذِيمَةَ حِقْبَـــةً ... من الدهر حتى قيل لن يَتَصَدَّعا

فلمـــا تفرَّقْنَا كأنى ومـــالـــكا ... لطول اجتماعٍ لم نَبِتْ ليلةً معـــا

فقال عمر : هذا والله التأبينُ لوددتُ أنى أحسنُ الشِّعْرَ فأرْثِى أخى زَيْدًا بمثل

---

(١) لو هو دعاك بذمة لم يغدر الحماسة) .

(٢) المنهال رجل من بنى يربوع مر على أشلاء مالك بن نويرة فأخذ ثوبا فكفنه فيه ودفنه (من هامش الأصل) .

ما رَثيتَ به أخاك . فقال متمم : لو مات أَخِي على ما مات عليه أخوك ما رَثيتُه
فقال عمر : ما عزّانى أحدٌ عن أخى بمثل ما عزّانى به مُتَمِّم . وكان عمر يقول :
ما هَبّتْ الصّبا من نحو اليمامةِ إلاَّ خُيِّـلَ لى أنى أَشَمّ ريح أخى زيد .

وقيل لمتمم: مابلغَ من وَجْدِك على أخيك ؟ فقال : أُصِبتُ بإحدى عينى فما قطرتْ
منها دمعةٌ عشرين سنة ، فلما قُتِل أخى استهلَّتْ فما ترْقأ .

لما مات عبد الرحمن بنُ أبى بكر حُمِل ودُفِن بمكة ، فوقفتْ عائشةُ رضى الله
عنها على قبره وتمثلت :

وكُنّا كندمانَىْ جذيمةَ حِقْبَةً من الدهر حتى قيلَ لن يتَصَدَّعا

ثم قالت : أما والله لو حَضَرْتُك دفنتُك حيث مِتَّ ولو شَهِدتُك ما زُرْتُك .

قال عمر بن الخطاب لمتمم لما أنشده الأبيات :

* لعمرى وما دهرى بتأبين مالك *

هل كان مالك يحبُّك مثل محبَّتِك إياه ؟ وهل كان مِثْلَك ؟ فقال له : أين أنا منه
وهل أبلغ أنا مالكا !! والله ياأمير المؤمنين لقد أسَرَنى حىٌّ من العرب فشدونى وَثاقاً
بقِدٍّ وألقوْنى بفِنائهم ، فبلغَه خبرى ، فأقبلَ على راحلته حتّى انتهى إلى القوم وهم
جلوس فى ناديهم ، فلما نظر إلىّ أعرض عنى وقَمَدَ إلى القوم ، فعرفت ما أراد ، فوقف
عليهم فسألهم وحادثهم وضاحَكهم وأنشدهم ، فما زال كذلك حتّى ملأهم سرورا ،
وحضر غَدَاؤهم فسألوه النزول ليتغدى معهم ففعل ، ثم نظر إلىّ فقال : إنه لقبيحٌ
بنا أن نأكلَ ورجل مُلْقًى بين أيدينا لا يأكلُ معنا ، وأمسك يَدَه عن الطعام ، فلما
رأى القومُ ذلك نهضوا إلىَّ وصبّوا الماء على قِدّى حتى لان وحَلُّونى ، ثم جاءوا بى
فأجلسونى معهم على الغداء ، فلما أكلنا قال لهم : أما ترون تَحَرُّم[1] هذا بنا وأكله

---

(١) يقال : تحرم بفلان : عاشره ومالحه وتأكدت الحرمة بينهما .

معنا ، إنه لقبيحٌ بكم أن تَرُدوه إلى القِدّ ، خَلُّوْا سبيلي . قال : أفـكان كما وَصَفْته ؟ قال: ما كذبتُ في شيء من صفته إلا أني قلت : خَميصُ البَطْنِ وكان ذا بَطْن .

قال عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، لمتمم : إنـكم أهلُ بيتٍ قد تفانَيْتم ، فلو تزوجت عسى أن تُرْزَقَ ولدًا يكون فيه بَقِيَّةٌ منـكم ، فتزوج امرأةً يقال لها أمُّ خالد بالمدينة فلم تَرْضَ أخلاقَه لشدة حُزْنه على أخيه ، وقِلَّةِ حَفْلِه بها ، فـكانت تُؤْذِيه ، فطلقها وقال :

أقولُ لهندٍ حين لم أَرْضَ فِعْلَها	أهذا دلالُ الحبِّ أم فعلُ فارِكِ[1]
أم الصَّرْم ما تبغي وكُلُّ مفارقٍ	يسيرٌ علينا فَقْدُه بعد مالكِ

بينا طلحة والزبيرُ يسيران بين مكة والمدينة إذْ عَرَضَ لهما أعرابيٌّ فوقفا ليمضي ، فوقف متعجلا ليسبقاه ، فتعجَّل فقالا : ما أثقلك ياأعرابي ، تَعَجَّلْنا لنسبقَك ، فتعجلتَ فوقفنا لتَمْضِي فوَقَفْتَ ! ! فقال : لا إله إلا الله ، يُغني أغدر الناس أغدر أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، هبانى خفت الضلالَ فأحببت أن أهْتَدِي بكما أو خِفْتُ الوحْشَةَ فأحببتُ أن أستأنِس بكما . فقال طلحة : من أنت ؟ فقال : أنا متممُ بنُ نويرة فقال طلحة: واسوءتاه ، لقد مَلِلْنا غيرَ مملولٍ ، هات بعضَ ما ذكرتَ في أخيك ، فطفق يُسْمِعُهُما حتى أصبح ، وكانوا قد خافوا على بَصَرِه من البـكاء فزوجوه أمَّ خالد ، فبينا هو واضعٌ رأسه على فَخِذِها إذْ بكا فقالت : لا إله إلا الله ، ألا تنسى أخاك على حال من الأحوال !! فقال :

أقول لها لما نَهَتْني عن البـكا	أفي مالكٍ تَلْحَيْنَنِي أمَّ خالد
فإن كان إخواني أُصيبوا وأَخْطَأَتْ	بني أمِّكِ اليومَ الحتوف الرواصدِ
فـكلُّ بني أمٍّ سيُمْسُون ليـلةً	ولم يبق من أَعْيانهم غيرُ واحدِ

---

(١) فارك اسم فاعل من فرك بكسر الراء بمعنى كره وأبغض ، وأكثر ما يستعمل في بغضة الزوجين.

المغيرة بن شعبة[1]

هو المغيرةُ بن شُعْبَة بن أبى عامر بن مَسْعود بن مُعَتِّب بن مالك بن كَعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن قَسِيّ ، وهو ثقيف ، كنيته أبو عبد الله ، وكان يُكْنَى أبا عيسى ، فغيرها عُمر بنُ الخطاب رضى الله عنه وكَنَاه أبا عبد الله ، روى زيدُ بنُ أسلم أنَّ رجلا جاء فنادى يستأذنُ لأبى عيسى على أميرِ المؤمنين فقال عمر : أيُّكم أبو عيسى ؟ قال المغيرةُ بن شُعْبة : أنا . فقال له عمر : هل كان لعيسى من أب ! ! ما يَكْفيكم معْشَرَ العربِ أن تكتنوا بأبى عبدِ الله وأبى عبدِ الرحمن ! فقال له رجلٌ من القوم : أشهدُ أن رسولَ الله ، صلى الله عليه وسلم ، كَنَاه بهذا : فقال عمر : إن النبىّ ، صلى الله عليه وسلم ، قد غَفَرَ اللهُ له ما تقدم من ذَنْبِه وما تأخر ، وأنا لا أدْرِى ما يفعلُ بى ، فكناه أبا عبد الله .

وأمُّ المغيرةِ أسماء بنتُ الأفْقَمِ بن أبى عمرو بن ظُوَيْلم بن جُعَيْل بن عمرو بن دُهمان بن نَصْرِ بن معاوية بن بكر بن هوازن . وكان المغيرةُ من دهاةِ العربِ وحَزَمَتِها وذَوِى الرأىِ منها والحِيَلِ الثَّاقِبةِ ، وكان يقال له فى الجاهليةِ والإسلامِ مغيرةُ الرأْى ، وكان يقالُ: ما اخْتَلَج فى صَدْرِ المغيرةِ أمران إلا اختارَ الأحْزَمَ منهما ، وصحب النبىّ ، صلى الله عليه وسلم ، وشهد معه الحُدَيْبية ، وما بعدها ، وبَعَثَه أبو بكر ، رضى الله عنه ، إلى أهل البحر ، وشهد فتح اليمامةِ وفتوحَ الشام ، وكان أعورَ ، أُصيبَتْ عينُه فى يوم اليرموك وشهِدَ القادسيّةَ مع سعدِ بن أبى وقّاص ولما أراد من لَيْلِهِ رُسْتَم[2] لم يجدْ فى العرب أدهى منه ولا أعقل ، فبعث به إليه وكان

---

(١) الأغانى ١٦/٧٩ وفى صفحات متفرقة تجريد ١٦٩٢ ـ الكامل ج ٣/٨ ـ البداية ج ٨ / ٤٨ .

(٢) رستم هومقدم الفرس وكان المغيرةالسفير بين سعد بن أبى وقاص ورستم عندفتح القادسية . (٨/٧ مختار الأغانى)

السفيرَ بينهما حتى وقعت الحرب وهو أول من خَضَبَ بالسواد ، خَرَجَ على الناسِ فيه ، وكان عهدُهم به أبيضَ الشعرِ فعجبوا منه .

وولاه عمرُ رضى الله عنه عِدّةَ ولايات إحداها البَصرة ، فَفَتح وهو واليها مَيْسانَ ودَسْتَ ميسان وغَيْرَها ، وقاتل الفرسَ بالمروعات فهزمهم ونهض [له رجال فى](١) سوق الأهواز فقاتلهم وهزمهم وفتحها وانحاز إلى [نهر تيرى ومَناذر الكبرى](٢) فقابلهم وخرج إلى المشرق مع النعمان بن مُقَرِّن ، وكان على ميسرته ، وكان عمرُ قد عهد إنْ هَلَكَ النعمانُ فالأميرُ حُذَيفَةَ ، وإن هلك حُذَيْفَةُ فالأمير المغيرةُ ابنُ شُعْبَةَ ، ولما فتح نهاوَنْد سار المغيرةُ فى جَيْشٍ إلى همذانَ ففتحها ، وولاه عمرُ بعد ذلك الكوفةَ ، وقُتِلَ عمرُ وهو واليها ، وولاه إياها معاويةُ بنُ أبى سفيان ، وكان عليها إلى أن مات بها . وهو أول من وضَعَ ديوانَ الإعطاء بالبصرة ، ورتَّبَ الناسَ فيه ، فأعطاهم على الديوان ثم صار رَسْماً لهم بعد ذلك يَحْتَذُونه .

قال المغيرة : كنا قوما من العرب متمسكين بديننا نعبد اللات فأرانى لو رأيت قوما قد أسلموا فاتبعتهم فأجْمَع نفرٌ من بنى مالك الوفودَ على المقوقس وأهدوا له هدايا فأجمعتُ الخروجَ معهم ، فاستشرتُ عَمِّى عروةَ بنَ مسعود الثقفىَّ فنهانى ، وقال لى : ليس معك من بَنِى أبيك أحد ، فأبيتُ إلّا الخروج ، فخرجت معهم ، وليس فيهم أحدٌ من الأحلاف غيرى حتى دخَلْنا الإسكندرية وإذا المُقَوْقس فى مجلسٍ مُطِلٍّ على البحر ، فركبتُ قارباً حتى حاذيتُ مَجْلِسَه فنظر إلىَّ فأنكرنى ، وأمر من يسائلُنى : من أنا ؟ وماذا أُريد ؟ فسألنى المأمورُ ، فأخبرتُه من أنا ، وبِأَمْرِنا وبقُدومنا عليه ، فأمرنا أن نَنْزِلَ فى الكنيسةِ وأجْرَى علينا ضيافَتَه ، ثم دعا بنا

(١) غير واضحة بالأصل وهى عن الأغانى .

(٢) غير واضحة فى الأصل وهى عن مراصد الاطلاع وهى صغرى وكبرى وهما بلدان بنواحى خوزستان .

فنظر إلى رأسِ بنى مالك فأدناه إليه وأجلسه معه ، ثم سأله : أكلُّ القومِ من بنى مالك ؟ فقال : نعم إلا رجلًا واحداً من الأحلافِ وعرَّفه إيّاى ، فكنت أهْوَنَ القومِ عليه ، ووضعوا هداياهم بين يَدَيْه فسُرّ بها وأمر بقَبْضِها وأمَرَ لهم بجوائزَ وفَضَّلَ بعضَهم على بعض ، وقصَّر بى فأعطانى شيئا قليلا لا ذِكْرَ له ، وخرجنا فأقبل بنو مالك يَشْترون الهدايا لأهْلِيهم ، وهم مسرورون ، ولم يَعرِضْ أحدٌ منهم علىّ مواساة ، وخرجوا وحَمَلوا معهم خمرا فكانوا يشربون منها ، وأشرب معهم ونفسى تأبى أن تدَعَنِى معهم وقلت: ينصرفون إلى الطائفِ بما أصابوا وما حَبَاهُم به الملك ويخبرون قومى بتقصيره بى وازدرائه[1] إياى . فأجمعتُ على قَتْلِهم فقلت : إنى أجد صداعا[1] فوضعوا شرابهم ودَعَونى فقلت : رأسِى تُصَدِّعُنى ولكنى أجلسُ أسْقِيكم فلم يُنكِروا منى شيئا ، وجلستُ أسقيهم وأشربُ القَدَح بعد القَدَحِ فلما دَبَّت الكأسُ فيهم اشْتَهوا الشراب فجعلت أُصَرِّف لهم وأتْرِعُ الكأسَ حتى أهْمَدَتْهم الكأس فناموا ما يعقِلُون ، فوثبتُ إليهم فقتلتُهم جميعا ، وأخذت جميعَ ما كان معهم وقَدِمْتُ على النبى ، صلى الله عليه وسلم ، فوجدته جالسا فى المسجدِ مع أصحابه وعلىَّ ثيابُ السفر ، فسَلَّمْت بسلامِ الإسلامِ فنظر إلىّ أبو بكر بن أبى قُحافَةَ ، رضى الله عنه ، وكان بى عارفا ، فقال : ابن أَخِى عُروة ، فقلت : نعم ، جئتُ أشهدُ أنْ لا إله إلا اللهُ وأن محمدا رسولُ الله ، فقال النبى، صلى الله عليه وسلم: الحمد لله الذى هداك إلى الإسلام . فقال أبو بكر : أمن مصر أقبلت ؟ قلت : نعم . قال : فما فعلَ المالكيُّون الذين كانوا معك ؟ قلت : كان بينى وبينهم بعضُ ما يكون بين العرب ونحن على دين الشِّرْك فقتلتُهم وأخذت أسْلابَهم وجئت بها إلى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ليُخَمِّسَها ويرى فيها رأيه ؛ فإنما هى غنيمةٌ

---

(١) غير واضحة بالأصل وما أثبتناه عن التجريد .

من المُشْرِكين ، وأنا مسلمٌ مصدِّقٌ بالنبي ، صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : أما إسلامُك فقبِلْتُه ولا نأخذُ من أموالهم شيئا ولا نُخَمِّسُها لأن هذا غَدْرٌ والغدرُ لا خير فيه ، فأخذني ماقَرُبَ وما بَعُد . فقلت : يا رسول الله ، إنما قَتَلْتُهم وأنا على دين قومي ، ثم أسلمتُ حين دخلتُ عليك الساعة ، فقال : إن الإسلام يَجُبُّ ما قَبْله ، وكان قَتَلَ منهم ثلاثة عشرَ إنسانا فبلغ ذلك ثقيفا [(١) بالطائف فتداعوا للقتال ، ثم اصطلحوا على أن يؤدِّيَ عمِّي عروةُ بنُ مسعود ثلاث عشرة ديةً . قال المغيرةُ : وأقمتُ مع رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، حتى اعْتَمَر عُمْرَةَ الحُدَيْبِيَةِ في ذي القعدة من سنة ستٍ من الهجرة ، وكانت أولَ سَفْرة خرجتُ معه فيها ، وكنت أكون مع أبي بكر ، رضي الله عنه ، وألْزَمُ النبي صلى الله عليه وسلم ، فيمن يلزمه ، فبعثَتْ قريش عام الحديبية عُروةَ بن مسعودٍ إلى النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فأتاه يُكَلِّمُه وجعل يَمَسُّ لحيَةَ رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وأنا قائمٌ على رأسه مُقَنَّعٌ بالحديد فقلت لعروة ، وهو يمس لحية رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : اكفُفْ يدك قَبْلَ ألا تعودَ إليك . فقال عروة : يا محمدُ ، من هذا ؟ فما أفَظَّه وأَغْلَظَه !! فقال : هذا ابنُ أخيك المغيرةُ بنُ شعبة . فقال عروةُ : يا عَدُوَّ اللهِ ما غُسِلَتْ عني سَوْءَتُك إلا بالأمس يا غُدَر .

قال المغيرة: أول ما عرفَني العربُ بالحزم والدهاء أني كنتُ في رَكْب من قومي في طريق لنا إلى الحِيرةِ فقالوا لي : قد اشتهَيْنا الخمرَ ، وما معنا إلا درهم زائف ، فقلت : هاتوه وهلموا زِقَّيْن . فقالوا وما يَكْفيك لِدِرْهمٍ زائفٍ زِقٌّ واحد ، فقلت : أعطوني ماطلبتُ وخَلاكم ذَمّ ، ففعلوا وهم يَهْزَءون مني ، فصببتُ في أَحَدِ الزِّقَّيْنِ شيئا من ماء ، ثم جئت إلى خَمّارٍ بالحيرة فقلت كِلْ لي مِلْءَ هذا الزِّقِّ فملأه ،

---

(١) من هنا تبدأ أخبار المغيرة متصلة في الأغاني .

فأخرجت الدرهم الزائفَ فأعطيته فقال لى : وَيْحَك أمجنون أنت ؟ فقلت : مالَكَ ؟ فقال : إن ثمن هذا الزقِّ عشرونُ دِرْهما جيادا ، وهذا دِرْهَمٌ زائف ، فقلت : أنا رجلٌ بَدَوِىٌّ وظننتُ أن هذا يَصْلُحُ فإن صَلَحَ وإلا فَخُذْ شرابَك ، فاكتال منى ما كاله ، وبَقِى فى زقٍّ من الشرابِ بقَدْرِ ما كان فيه من الماء فأفْرَغتُه فى الزقِّ الآخرِ وحملتُهما على ظهرى وخرجتُ فصببتُ فى الزقِّ الآخر ماءً ودخلتُ إلى خمار آخر ، فقلت : إنى أريد منك مِلْءَ هذا الزقِّ خمراً فانْظُر إلى ما معِى منه ، فإن كان عِنْدَكَ مِثْلُه فأعطنى فنظر إليه ، وإنما أردتُ ألا يَسْتريبَ بى إذا رددتُ الْخَمْر عليه ، فلما رآه قال : عندى أجودُ منه ، فقلت : هات . فأخرج لى شرابا ، فاكتلْتُه فى الزِّقّ الذى فيه الماء ، ثم دفعتُ الدرهم الزائف إليه ، فقال لى مثلَ قَوْلِ صاحبه وقلتُ له مثلَ ما قلتُ لصاحبه فأخذ ما كالَ لِى ، وهو يظنُّ أنى خَلَطْتُه بالشرابِ الذى أَرَيْتُه إياه ، وخرجت فجعلتُه مع الخمرِ الأولِ ، ولم أزل أفعلُ ذلك بكل خَمَّارٍ فى الحيرةِ حتى ملأتُ زقىّ الأولَ وبَعْضَ الآخرِ ورجعتُ إلى أصحابى ، فوضعتُ الزِّقَّيْن بين أيديهم ورددْتُ دِرْهَمَهم إليهم ، فقالوا : ويحك !! أىّ شىءٍ صنعتَ ، فحدثتُهم فجعلوا يعجبون ، وشاع لى الذكرُ فى العربِ بالدهاءِ والحَزْم حتى اليوم .

قال المغيرةُ بنُ شعبة : كنت جالساً عند أبى بكر رضى الله عنه إذ عُرِض عليه فَرَسٌ له . فقال له رجل من الأنصار : احمِلْنى عليها ، فقال أبو بكر : لأن أَحْمِلَ عليها غُلاما قد رَكِبَ الخيلَ على عرابه أحبُّ إلىّ من أن أحملك عليها ، فقال له الأنصارى : أنا خيرٌ منك ومن أبيك ، قال المغيرة : فغضبتُ لمَّا قال ذلك لأبى بكر ، فقمت إليه فأخذتُ رأسَه فركبتُه وسَقَطَ على أنفِه وكأنما كان عِدْلَىْ مزادة ، فتوعدنى الأنصارُ أن يَسْتقيدوا منى ، فبلغ ذلك أبا بكر فقال : إنه بَلَغَنى عن رجال زعموا أنى مُقِيدهم من المغيرة ، ووالله لأن أُخْرِجَهم من دارهم أقربُ إلىّ من أن أُقِيدَهم وَزَعَةَ الله الذين يدعون إليه .

ركب المغيرةُ بنُ شعبة إلى هند بنتِ النعمان بن المنذر وهى (١) بِدَير هند متنصِّرةٌ عمياء بنتُ تسعين سنة ، فقالت له : من أنت ؟ قال : أنا المغيرةُ بن شُعْبَة . قالت : أنت عامِلُ هذه المَدَرَة ؟ قال : نعم . قالت : فما حاجتك ؟ قال : جئتُك خاطباً إليك نَفْسَك . فقالت : أما والله لو كنتَ تبغى جمالا أو دُنْيا لزوجناك ، ولكنك أردتَ أن تَجْلِسَ فى موسمٍ من مواسمِ العربِ فتقول : تزوجتُ بنتَ النعمانِ بن المنذر ، وهذا والله لا يكونُ أبدا أو ما يكفيك فخرا أن تكون فى مُلْكِ النعمان وبلاده تُدَبِّرها كما تريد !؟ وبكَتْ فقلت لها : أىُّ العربِ كان أحبَّ إلى أبيك ؟ قالت : ربيعة . قال : فأين كان يَجْعَلُ قَيْساً قالت : بحيث كان يَراهم من طاعَتِه قال : فأين كان يجعل ثقيفاً قالت : رويداً لا تَعْجَل ، بينا أنا ذاتَ يومٍ جالسةٌ فى خِدْرٍ إلى جَنْبِ أبى إذ دخل عليه رجلان ، أحدهما من هوازنَ والآخر من مازن ، كل واحدٍ منهما يقول إن ثقيفاً منا ، فأنشأ أبى يقول :

إن ثقيفا لم يكن هوازنا ... ولم يناسب عامرا ومازنا

* إلا قريبا فانشر المحاسنا *

فخرج المغيرة وهو يقول :

أدركت[ما مَنَّيْتُ نَفْسِىَ] خاليا ... لله دَرُّك يا ابنةَ النعمان

إنِّى لَحَلْفِك بالصليبِ مُصَدِّقٌ ... والصُّلْبُ أصدقُ حلفَةِ الرهبانِ

ولقد رددْتِ على المغيرةِ ذِهْنَه ... إن الملوك [بطيئة] الأذهان

يا هند حَسْبُك قد صَدَقْتِ فأمسكى ... والصدقُ خير مقالةِ الإنسانِ

بينا حسان بن ثابت ذات يوم جالسا بالخيفِ من مِنى وهو يومئذ مكفوفٌ إذ زَفَرَ زفرة وقال :

---

(١) وفى رواية: يومئذ .

(٢) ما بين الأقواس غير واضح بالأصل وهو عن الأغانى .

وكأن حافِرَها بكل خَميلةٍ صاعٌ يَكيلُ به شَحيحٌ مُعْدِمُ
عارى الأشاجع من ثقيفٍ أصْلُه عبــدٌ ويزعُم أنه من يَقْدُمُ

فسممه المغيرةُ بنُ شعبة فبعث إليه بخمسةِ آلاف درهم ، فلما أُتِىَ بهـا قال : من بعث بهذه ؟ قيل : المغيرةُ بن شعبة . فقال : واسَوْأتاه ، وقبلها .

وكان المغيرة قد أَحْصَنَ إلى أن مات ثمانين امرأةً فيهن ثلاثُ بناتٍ لأبى سفيانَ ابنِ حرب ، وفيهن حفصةُ بنتُ أبى وَقَّاص ، وهى أمُّ ابنِه حمزَة بنِ المُغيرة ، وعائشةُ بنتُ جرير بن عبد الله [البجلى] . وقال يوما : تزوجتُ ثلاثا وسبعين امرأةً، منهن سبعون بِكْرا . وكان مِطْلاقاً إذا اجتمع عنــده أربعُ نسوة قال : إنـكن لطويلاتُ الأعناقِ كريماتُ الأخلاقِ ، ولـكنى رجل مِطلاقٌ اعْتَدِدْن . وكان يقول : النساء أربعٌ والرجال أَربعــةٌ ، رجل مُذَكَّرٌ وامرأةٌ مؤنَّثَة فهو قَوَّامٌ عليها ، ورجلٌ مُؤَنَّثٌ وامرأةٌ مُذَكَّرة فهى قَوّامةٌ عليه ، ورجلٌ مُذَكَّرٌ وامرأةٌ مُذَكَّرَةٌ فهما كالوَعْلَيْن ينتطحان ، ورجلٌ مؤنَّثٌ وامرأة مؤنَّثةٌ فهما لا يأتيان بخَـيْرٍ ولا يُفلِحان .

وقيل : إنه قال : نـكحتُ تسعا وتسعين امرأةً فما أمسكتُ امرأة منهن على حُبٍّ بل أمسكها لحسَبِها ولولَدِها ولِـكَذا ولـكَذا ، ولقد وجدتُ اليمانيّةَ كثوب أخذْتَ بجانبه فأتبعَكَ بقيَّتُه ، ووجدتُ الربيعيةَ أمَتَك إن أمَرْتَها أطاعتْك ووجدتُ المُضَريّة قِرْنا إن ساوَرْتَه غلبْتَه أو غَلَبَك .

ورأى المغيرةُ امرأة له تَخَلَّلُ بعد صلاةِ الصُّبْحِ فطلَّقَها ، فقالت : علامَ طَلَّقَنِى ؟ فقيل : رآك تَخَلَّلِين فظَنَّ أنك قد أَكَلْتِ فقالت : أَبْعَدَهُ اللهُ والله ما تَخَلَّلْتُ إلا من فَضْلَةِ سِواكى .

صلى المغيرةُ بن شُعْبَة بالناس فى سنة أربعين ، فى العام الذى مات فيه علىٌّ

ابنُ أبى طالب ، رِضوان الله عليه ، فجعل يوم الأضحى يومَ عرَفة خاف أن يُعزل فسبق ذلك فقال الراجز :

سيرى رويدا وابْتَغِى المُغيرَهْ كلفتُها الإدلاجَ والظهـيره

وكان الجمالُ بالكوفة ينتهى إلى أرْبعةِ نفرٍ ، المغيرةِ بنِ شُعْبة ، وجرير ابن عبد الله ، والأشعثِ ابن قَيْس، وحُجْر بن عدى ، وكلهم كان أعْوَر ، وكان المغيرة والأشعثُ وجريرٌ يوما متوافِقين بالكُناسةِ ، فطلع عليهم أعرابىٌّ فقال المغيرة دَعونى: أُحَرِّكْه فقالوا : لاتفعلْ فإن للأعراب جوابا يُؤْثَر . قال لا بُدَّ ، قالوا : فأنت أعلم ، فقال له : يا أعرابىُّ هل تعرفُ المغيرةَ بنَ شعبة ؟ قال : نعم أعرِفُه أعورَ زانيا فوجَم وتَجَلَّدَ، ثم قال : أتعرف الأشعثَ بن قَيْس ؟ قال : نعم ، ذلك رجلٌ لا يَعزُّ بقومه ، قال : وكيف ذلك ؟ قال: لأنه حائكٌ بنُ حائك قال : فهل تعرفُ جريرَ بن عبد الله ؟ قال : وكيف لا أعرفُ رجلا لولاه ما عرفت عشيرته . فقالوا له : قَبَحَك الله . فإنك شَرُّ جَليس . قالوا : فهل تُحِبُّ أن يُوقَرَ لك بَعيرُك هذا مالا ، وتَموتَ أكرمَ العرب! قال : فمن يُبْلِغُه أهلِى إذاً ؟ فانصرفوا عنه وتركوه .

خرج المغيرةُ بن شعبة ، وهو على الكوفةِ أمير ، ومعهُ الهيثمُ بنُ الأسود النَّخَعِىّ بعد غِبِّ مَطَرٍ ، يسيرُ فى ظَهْر الكوفة ، فلَقِى ابنَ لسانِ الحُمَّرة أحدَ بنى تيم الله بن ثعلبة ، وهو لا يعرف المغيرةَ ، فقال المغيرةُ: من أين أقبلت يا أعرابى ؟ قال : من السماوة. قال: فكيف تركتَ الأرضَ خَلْفَك ؟ قال: عريضةٌ أريضةٌ [1]. قال: فكيف كان المطر ؟ قال : عَفَّى الأثَرَ ومَلأَ الحفَرَ قال : ممن أنت ؟ قال : من بكرِ بن وائل . قال : كيف عِلْمُك بهم ؟ قال : إن جَهِلتُهم لم أعْرِفْ غيْرَهم . قال : فما تقول فى بنى شيبان ؟ قال : سادتُنا وسادةُ غَيْرِنا . قال : فما تقولُ فى بنى ذُهْل ؟ قال :

---

(١) أريضة : معشبة خصبة .

سادةٌ نُوكَى . قال : فما تقول فى قيس بنِ ثَعْلَبة ؟ قال : إن جاوَرْتَهم سَرَقُوكَ وإن ائتمَنْتَهُم خانوكَ . قال : فما تقول فى تَيْمِ اللهِ بنِ ثعلبة ؟ قال : رعاء البقرِ وعَراقيبُ كِلابٍ . قال : فما تقولُ فى بنى يَشْكُر ؟ قال : صَرِيحٌ تَحْسبه مَوْلًى . قال هشام : لأن فى ألوانهم حُمْرَةً . قال : فعِجْل ؟ قال : أحلاسُ الخَيْل . قال : فحنيفةُ ؟ قال : يُطْعمون الطعامَ ويَضْرِبون الهامَ . قال : فعَنَزَة ؟ قال : لا تَلْتقى بها الشفتان لُؤْماً . قال : فَضُبَيْعَة أَضْجَم ؟ قال : جدعاء عقراء . قال : فأخبرْنى عن النساء . قال : النساء أربعٌ ربيعٌ مُرْبِع وجَميعٌ يَجْمَع وشيطانٌ سَمَعْمَع وغلٌّ لا يُخْلَع . قال: فَسِّرْ ، قال: أما الربيعُ المُرْبِعُ فالتى إذا نظرتَ إليها سَرَّتْك ، وإذا أقْسَمتَ عليها أبَرَّتْك ، وأما التى هى جَميعٌ يَجْمَعُ فالمرأةُ يتزوجُها الرجلُ ، ولها نَشَبٌ ، فيجتمع نَشَبُها إلى نَشَبِه ، وأما الشيطان السَّمَعْمَع[1] فالكالحَةُ فى وجهك إذا دَخَلْتَ ، والمولولةُ فى أثرِكَ إذا خرَجْت ، وأما الغلُّ الذى لا يُخْلَع فابنةُ عَمِّك السوداء القصيرة القوهاء الذميمةُ التى قد نَثَرَتْ لك بطنَها ، إن طَلَّقْتَها ضاع وَلَدُك وإن أَمْسَكْتَها فعلى جَدْعِ أَنْفِك . فقال له المغيرةُ : بل أَنْفك . ثم قال له : ماتقولُ فى المغيرةَ بنِ شُعبة ؟ فقال : أعورُ زان . فقال الهَيْثم: فضَّ اللهُ فاكَ ، هذا الأميرُ المغيرة . فقال : إنها كَلِمَةٌ تقال ، فانطلق به المغيرةُ إلى بَيْتِه وعِنْدَه أربعُ نسوةٍ وسبعون أمة ، فقال له : وَيْحَك ، هل يزنى الحرّ وعنده مثلُ هؤلاء ؟ ثم قال لهن المغيرة : ارْمِينَ بحُلِيِّكُنَّ له ، ففعَلْنَ فخرج الأعرابىُّ بملء كسائه ذهبا وفضة .

جاء المغيرةُ بن شُعبة إلى على ، عليه السلام ، فقال له : اكْتُبْ إلى معاوية فوَلِّهِ الشامَ ، ومُرْهُ يأخُذ البيعةَ لك ، فإنك إن لم تَفْعَلْ وأردتَ عَزْلَه حارَبَك .

---

(١) السمعمع : الداهية والخفيف السريع .

فقال على ، عليه السلام : « وما كنتُ مُتَّخِذَ المُضِلِّينَ عَضُدا » ، فانصرف المغيرة وتركه . فلما كان فى الغد جاءه فقال : إنى فكرت فيما أشرتُ عليكَ به بالأمسِ فوجدتُه خطأ ، ووجدتُ رأْيَك أصوب . فقال له علىّ ، عليه السلام : لم يَخْفَ علىّ ما أردتَ قد نصحتنى فى الأولى وغشَشْتَنى فى الثانية ، ولكنى ، والله ، لا آتى أمْرًا أجد فيه فساداً لدينى طَلَباً لصلاح دُنياى ، فانصرف المغيرة .

كان بين المغيرةِ بنِ شُعْبَة وبين مَصْقَلَةَ بنِ هُبَيْرَة الشيبانىّ تَنازُعٌ فضَرَع له المغيرةُ وتواضعَ فى كلامِه حتى طَمِعَ فيه مصقلةُ واستَعْلى عليه وشَتَمه ، فقدمه إلى شُرَيْحٍ ، وهو القاضى يومئذ ، وأقام عليه البينةَ فضرَبَه الحدَّ ، وآلى مصقلةُ الا يقيمَ ببلد فيه المغيرةُ ما دام حيا ، ثم دخل الكوفةَ لما مات المغيرةُ ، فتلقاه قَوْمُه وسَلَّموا عليه ، فلما فرغَ من السلام سأَلَهم عن مقابرِ ثقيفٍ فأرشدوه إليها ، فجَعَلَ قَوْمُه ومواليه يلتقطون الحجارةَ . فقال : ما هذا ؟ فقالوا : ظَنَنَّا أنك تريد أنْ ترجم قَبْرَه . قال : أَلْقُوا ما فى أيديكم فأَلْقَوْه ، وانطلق حتى وقفَ على قبره ، ثم قال : والله لقد كنتَ ما علمت ، نافعا لصديقِك ضارا لعَدُوِّك ، ما مثلُك إلا كما قال مُهَلْهَلٌ فى أخيه كليب :

إنَّ تحت الأحجارِ حزماً وعزماً وخَصيما أَلَدَّ ذا مِعْلاقِ[1]

حَيَّةٌ فى الوِجارِ أَرْبَدُ لا ينْـ ـفَعُ منه السليمَ نَفْثُ الراقى

وكان الذى قاله مصقلةُ للمغيرةِ : واللهِ [إنى] لأعرفُ شَبَهِى فى عروة ابنك فأَشْهَدَ عليه بذلك وجَلَدَه الحدّ .

قال رجلٌ من قُرَيش لعمرَ بنِ الخطابِ رضى الله عنه ، أَلاَ تتزَوَّجُ أمَّ كُلثومٍ ابنةَ أبى بكرٍ الصديق ، رضى الله عنه فتحْفَظه بعد وفاته وتَخْلُفَه فى أهْلِه ، فقال عمرُ ،

---

(١) المعلاق : كثير الخصومة .

بَلَى إنى لأُحِبُّ ذلك ، فاذهبْ إلى عائشةَ واذكُرْ لها ذلك وعُدْ إلىَّ . بجوابها ، فمضى الرسول فأخْبَرَها بما قال عمر فأجابَتْه إلى ذلك وقالت : نَعَمْ حُبًّا وكرامة ، ودخل إليها بعَقِبِ ذلك المغيرةُ بنُ شُعْبَةَ فرآها مَهْمومةً فقال لها : ما لَكِ يا أمَّ المؤمنين ؟ فأخبرتْه برسالةِ عُمَرَ ، وقالت : إن هذه جاريةٌ حديثةُ السِّنِّ وأردتُ لها عيشاً أَلْيَنَ مِنْ عُمَرَ فقال لها : أنا أَكْفِيكِ ، وخَرَج من عندها فدخل إلى عُمَرَ فقال له : بالرِّفاءِ والبنين ، قد بَلَغَنِي ما أتيْتَه من صِلَةِ أبى بكر فى أهْله وخِطْبَتِك أمَّ كلثومٍ : فقال : قد كان ذاك ، قال : إلّا أنك يا أميرَ المؤمنين رجُلٌ شديدُ الخُلُقِ على أهلِك وهذه صَبِيَّةٌ حديثةُ السِّنِّ ، ولا تزال تنكرُ عليها الشيءَ بعدَ الشيء فتضربها فتَصيح : يا أبتاه فيَغُمُّك ذلك وتتألَّمُ له عائشةُ فيَذْكرون أبا بَكْر فيبكون ، فتتجدَّدُ لكم المصيبةُ كلَّ يوم مع قرب عَهْدِها . فقال له متى كنتَ عند عائشةَ واصدُقْنى قال : آنفا ، فقال : أشْهَدُ أنهم كَرِهونى وضَمِنْتَ لهم أن تَصْرِفَنى عما طَلَبْت ، وقد أَعْفَيْتهم ، فعاد إلى عائشةَ فأخْبَرَها الخبرَ وأمْسَكَ عمرُ رضى الله عنه عن مُعاودَتِها .

كان المغيرةُ بنُ شُعْبَةَ يختلفُ إلى امرأةٍ من ثَقيف، يقال لها الرقطاء، فكان يخرجُ إليها وَسَطَ النهارِ من دار الإمارةِ فيَجِدُه أبو بَكْرَة فيقول : أيْنَ يذهبُ الأميرُ ؟ فيقول : آتِى حاجَةً . فيقول له : حاجةُ ما ذا ؟ فيقول : أزورُ آلَ بنى فلان ، فيقول : إن الأميرَ يُزارُ ولا يَزور . وكانت الرقطاء جارةً لأبى بَكْرة فبينا أبو بكرةَ يوما فى غُرْفَتِه مع أَخَوَيْه نافعٍ وزيادٍ ورجلٍ آخر يقال له شِبْلُ بن مَعْبد ، وكانت غرفةُ الرقطاء محاذيةً لغرفةِ أبى بَكْرَة ، فضرب الريحُ بابَ المرأةِ ففَتَحه فنظرَ القوم فإذاهم بالمغيرةِ يَنْكِحها ، فقالوا أبو بكرة : هذه بَلِيَّةٌ ابتُليتُمْ بها فانظروا فنظروا حتى أَثْبَتُوا ، فنزل أبو بَكْرَةَ فجلس حتى خَرَج عليه المغيرةُ من بيت المرأةِ ، فقال له : إنه قد كان من أمْرِك ما قد عَلِمْتَ فاعتزِلْنا ، وذهب ليُصَلِّيَ بالناس الظهرَ ، فمنعه أبو بَكْرَة وقال : لا واللهِ لا تُصَلِّي بنا ، وقد فعلت ما فعلت . فقال الناس : دَعُوه فلْيُصَلِّ فإنه

الأمير ، واكتبوا بذلك إلى عُمر فكتبوا إليه ، فبعث عمرُ بأبى موسى الأشعَرِىّ ، وعزم عليه ألا يَضَعَ كتابَه من يده حتى يَرْحَل المغيرةُ بنُ شعبة ، وأن يَقْدَم القومُ جميعا ؛ المغيرةُ والشهودُ . فقال أبو موسى : أو نترُكه يتجَهَّزَ ثلاثا ، ثم خرج. قال : فصلينا صلاةَ الغَداةِ بظَهْرِ المِرْبَد ، ودخلنا المسجدَ فإذا هم يُصلُّون النساء والرجالُ مُختَلطِين ، فقيلَ للمغيرة : إن أبا موسى فى جانب المَسْجِدِ عليه بُرْنُس . فقال المغيرة : ما جاء زائرا ولا تاجرا ، فدخل عليه ومعه صحيفةٌ فلما رآه قال: الأمير!! فأعطاه أبو موسى الكتابَ ، فلما ذهب يتحركُ عن سريره قال له أبو موسى : مكانَكَ تَجَهَّزْ ثلاثا . وقيل : إن أبا موسى أَمَره أن يَرْحَلَ من وَقْته . فقال له المغيرةُ : قد علمتُ ما وُجِّهْتَ له فألَا تقدَّمْتَ فصليتَ . فقال له أبو موسى : ما أنا وأنت فى هذا الأمرِ إلا سَواء . فقال له المغيرة : إنى أحبُّ أن أقيمَ ثلاثا لأَتجَهَّزَ . فقال : قد عَزَم علَىّ أميرُ المؤمنين ألا أَضَعَ عَهْدِى من يدى إذا قرأتُه حتى أرْحَلَك إليه . قال : إن شئتَ شفَّعْتَنى وأبررتَ قَسَم أميرِ المؤمنين . قال : كيف ذلك ؟ قال : تَرْحَلُنى إلى الظُّهْرِ وتمسكُ الكتابَ فى يدك . قال : فأبْدَرنى أبو موسى مُقْبِلًا ومُدْبِرًا والكتابُ فى يده معلقٌ بخَيْطٍ فتجهزَ المغيرةُ ، وبعث إلى أبى موسى بجاريةٍ وخادم ، الجاريةُ عربيةٌ من سَبْىِ اليمامةِ ، من بنى حَنيفة . وقيل : من مُوَلَّداتِ الطائفِ . وصلى المغيرةُ الظُّهْرَ ، وسار حتى قدمَ على عمر ، رضى الله عنه ، فلما قَدِمَ عليه قال له : قد شُهِدَ عليك بأمرٍ إن كان حَقًّا لَأَنْ تكون مِتَّ قبل ذلك كان خَيْرًا لك . ثم جلس عمرُ ودعا بالمغيرةِ والشهودِ فتقدَّم أبو بكْرَة فقال له : أَرَأَيْتَه بين فَخِذَيْها ؟ قال : نعم ، والله لكأنى أنظر تَشْرِيم جدرى بين فَخِذَيْها ، فقال له المغيرة : لقد أَلْطَفْتَ النظر . فقال له : ألم أَكُ قد أثبتُ ما يُخْزِيكَ اللهُ به ، فقال عمر : لا ، والله حتى تشهد أنك رأيته يَلِجُ فيها كما يَلِجُ المِرْوَدُ فى المُكْحُلَةِ قال : نعم ، أَشْهَدُ على ذلك . فقال : اذْهَبْ مغيرةُ ذهب رُبْعُك ، ثم دعا نافعا

فقال : عَلامَ تَشْهد ؟ قال : على مِثْلِ شهادةِ أبى بَكْرَة . قال : لا ، حتى تَشْهَدَ أنه وَلَجَ فيها وُلوجَ المِرْوَدِ فى المُكْحُلَةِ . قال : نعم حتى بلغ قذذه قال : اذهبْ مغيرةُ ذهب نِصْفُك . ثم دعا الثالثَ فقال : علامَ تَشْهد ؟ فقال : على مثل شهادةِ صاحِبَيّ . فقال علىٌّ بن أبى طالب : اذهب مغيرةُ ذهبَ ثلاثة أرباعك قال : فمكثَ يَبْكِى إلى المهاجرين فبكَوْا وبكَى إلى أمهاتِ المؤمنين حتى بكَيْن معه ، وحتى لا يجالسَ هؤلاء الثلاثةَ أحدٌ من أهلِ المدينة . قال : ثم كتَبَ إلى زيادٍ فقدِمَ على عمرَ فلما علم به جلس له فى المَسْجد ، واجتمع عنده رءوسُ المهاجرين والأنصار ، قال المغيرة : ومعى كلمةٌ قد رَفَعْتُها لأَحْلَمِ القوم ، فلما رآه عمرُ مقبلا قال : إنى لأرى رجلا لن يُخْزِىَ اللهُ على لسانِه رجلا من المهاجرين ، وكان عمر لما شَهِدَ عنده الشاهدُ الأولُ تغيَّرَ لونُه ثم شَهِدَ الآخرُ فانكَسَر لذلك انكساراً شديداً ، ثم جاء رجلٌ شابٌّ يخطرُ بين يديه ، فرفع عمرُ رأْسَه إليه ، فقال له : ما عندك يا سَلْحَ العُقاب . وصاح عليه بها حتى كاد يُغْشَى على بعض الحاضرين . قال المغيرة : فقمتُ إلى زياد فقلت له : لا مخبأ لعطرٍ بعد عَروس يازيادُ ، اذْكُرِ اللهَ واذكُرْ موقفك يومِ القيامة فإن اللهَ وكتابَه ورَسولَه وأميرَ المؤمنين حَقَنوا دمِى إلا أن تَتَجاوَزَ إلى ما لَمْ تَرَ فلا يَحْمِلْك سوءُ منظرٍ رأيْتَه على أن تتجاوَزَه إلى مالم تَره ، فوالله لو كُنْتَ بين بَطْنى وبَطْنِها ما رأيتَ أين سَلَكَ ذَكَرِى منها ، قال : فبرَقَتْ عيناه واحْمَرّ وجهه ، وقال : يا أمير المؤمنين أما أَنْ أُحُقَّ ما حَقَّ القومُ فليس ذلك عندى ، ولكنى رأيت مجلسا قبيحا وسمعتُ نَفَسًا خبيثا وانبهارا ، ورأيتُه مُتَبَطِّنَها . فقال له : أرأيته يُدْخله كالميلِ فى المُكْحُلَةِ قال : لا . وقيل: إن زياداً قال : رأيته رافعا بِرِجْلَيْها ورأيت خصيتيه مترددتين بين فخذيها ، ورأيت حفْزاً شديداً وسَمِعْتُ نَفَساً عاليا . فقال له : أرأيتَه يُدْخِلُه كالميلِ فى المُكْحُلة ؟ قال : لا . فقال عمر :

اللهُ أكبرُ ، قُمْ إليهم فاضرِبْهم الحدّ . فقام إلى أبي بَكْرَة فضربه ثمانين ، وضرب الباقين وأعجبَهُ قولُ زياد ودَرَأَ عن المغيرة الرَّجْمَ . فقال أبو بكرة بعد أن ضُرِبَ فإني أشهد أن المُغيرةَ فعل كذا وكذا . فهَمّ عمرُ بضَرْبِه ، فقال له عليٌّ ، عليه السلام ، إن ضَرَبْتَه رَجَمْتَ صاحِبَك ، ونهاه عن ذلك ، يعني أنه إن ضَرَبَه جعلَ شهادتَه شهادتَيْن فوَجَبَ بذلك الرَّجْمُ على المغيرة . قال : واستتابَ عمر أبا بَكْرَة فقال : إنما تَسْتَتِيبُني لتقبلَ شهادتي . قال : أجل . قال : لا أشهد بين يديك بين اثنين ما بقيتُ في الدنيا . [فلما ضُربوا الحدّ قال المغيرةُ : اللهُ أكبرُ الحمدُ لله الذي أخْزاكم. فقال له عمر: اسكتْ أخزَى الله مكانا رأَوْك فيه . وأقام أبو بَكْرَة على قوله وقال : والله ما أنسى رَقْط فَخِذَيْها وتاب الاثنان فقُبِلَتْ شهادتُهما . وكان أبو بكرة إذا دعى إلى شهادةٍ قال : اطلبْ غيري فإن زيادا قد أفسَدَ عليّ شهادتي ، ولما ضرب أبو بكرة [أمرت] أمه] بشاة فذبحت وجُعِلَ جلدُها على ظَهْرِه . وكان يقال : ما ذاك إلامن ضَرْبٍ شديدٍ ، وهذه التي رُمِيَ بها المغيرةُ هي أمُّ جميل بنت عمر ، وكانت تختلفُ إلى المغيرة في حوائجها فيَقْضِيها لها ، ووافقت عمرَ في المَوْسِم ، والمغيرةُ هناك . فقال له عمر : أتتجاهل عَلَيّ والله ما أظنُّ أبا بكرة كَذَبَ عليك ، وما رأيتُك قطُّ إلا خِفْتُ أن أُرْمَى بحجارةٍ من السماء . وقال عليٌّ عليه السلام : لئن أخذت المغيرة لأتبعنه أحجاره .

وقال حسان بن ثابت يهجو المغيرة :

لو اُن اللؤم يُنْسبُ كان عبدا	قبيحَ الوجه أعورَ من ثَقيفِ
تركتَ الدينَ والإسلامَ لما بدَتْ	لك غُدْوَةً ذاتُ النَّصيفِ
وراجعْتَ الصِّبا ولَزِمْتَ[1] لهوا	من القَيْناتِ والغمز اللطيف

---

(١) وذكرت عهدا . . . والغمز (الأغاني) .

ولما شخص المغيرةُ إلى عمرَ ، رضى الله عنه ، رأى فى طريقه جاريةً فى بنى مرة فأعْجَبَتْه فخطبها إلى أبيها ، فقال له : وأنت على هذه الحال !! فقال له : وما عليك إنْ أَعَفّ فهو الذى تُرِيدُ وإن أَقْتَل تَرِثُنى فزَوَّجه فلما قدم بها على عمر قال : إنك لفارغُ القَلْبِ طويلُ الشَّبَق .

ولما مات المغيرةُ قال جرير بنُ عبدِ الله : استغفروا لأميرِكم هذا ، فإنه كان يُحِبُّ العافِيَة ومات بالكوفةِ سنة خمسين فى خلافةِ معاويةَ وهو ابن سبعين سنة بالكوفةِ وكان رجلا طويلا أعورَ أصْهبَ الشعرِ جداً أَكْثَفَ يفرق رأْسَه قُروناً أربعةً أقلص الشفتين مَهْتُوما ضخم القامةِ عبْل الذراعين بعيدَ ما بين المنْكَبَيْن ، أُصيبَتْ عينُه يومَ اليرموك .

محمدُ بنُ بَشيرٍ الخارجىّ(١)

هو محمدُ بنُ بشيرِ بن عبد الله بن عُقيل بن أسعدَ بن حَبيب بن سِنان بن عَدىّ ابن عوف بن بكر بن يَشْكُر بن عَدوان الخارجى من بنى خارجة بن عدوان بن عمرو [ابن عوف] بن قيس بن عَيلان بن مضر ، ويقال لعَدوان وفهم : ابنا جُدْيلة نُسبا إلى أمهما جدْيلة بنتِ مُرٍّ بن أدّ بن طابخة بن إلياس بن مضر ، وكنية محمد أبو سليمان ، شاعر فصيحٌ حجازى من شعراء الدولة الأُموية ، وكان منقطعا إلى أبى عُبَيْدة بن عبدالله ابن ربيعةَ القرشِي ، أحدِ بنى أسَدِ بن عبد العُزَّى ، وهو جدُّ عبدِ الله بن الحسن ابن الحسين لأمه هند بنتِ أبى عبيدة ، ولدت لعبدالله محمداً وإبراهيمَ وموسَى ، وكانت لمحمدٍ فيه مدائحُ مختارةٌ ومَرَاث ، وهى من عيون شعره وكان يَبْدو فى أكثرِ زمانه ، ويقيم فى بوادى المدينة ، ولا يكاد يَحْضُر مع الناس ، وكان قد قَدِمَ البصرةَ فى طلب ميراثٍ له فَخطَب عائشةَ بنتَ يحيي بن يعمر الخارجية ، من خارجة عَدْوان ، فأبت أن تتزوجه إلا بعد أن يقيمَ معها بالبصرةِ ويتركَ الحجاز ويكون أمْرُها فى الفُرْقةِ إليها ، فأبى أن يفعل ذلك وقال :

أرق الحــزنُ وعاده سُهُدُهْ   لطوارقِ الهمِّ الــتى ترِدُهْ

وذكرتُ من لانتْ له كبدِى   فأبى فليس تلينُ لى كَبِــدُه

ونأى فليس بنــازلٍ بَلَدِى   أبدًا وليس بمُصْلِحى بــلدُهْ

وعرفتُ أن الطــيرَ صادقةٌ   يوم الــكدانة شرَّ ما تعِدُهْ

---

(١) أغانى الدار ١٦ / ١٠٢ تجريد ق ٢ جـ ١ ١٦٩٩ .

وهو فى هامش الأصل يسير وفى التجريد كذلك وقد سبق الكلام عن بشير ويسير فى ترجمة محمد بن يسير الرياشى .

فاصبرْ فإن لـكل ذى أجلٍ ... يوماً يجىء فينقضى عَدَدُه
ماذا تُعاتِبُ من زمانك إنْ ... ظَعَنَ الحبيبُ وشفَّهُ كَمَدُهْ

وخاطب أباها يحي بن يعمر فى ذلك فقال : إنها امرأة بَرْزَةٌ عاقلةٌ لا يُفتات على مِثلِها إلا بأَمْرِها وما عنك من رغبة ، ولـكنها امرأةٌ فى خُلُقِها شِدَّةٌ ولها غَيْرة . وقد بلغنى أن لك زَوْجَتَيْن ، وما أراها تَصْبِرُ على أن تـكون ثالثَتَهما ، فانظر فى أمرك وشاوِرْ فيه ، فإما أن أقَمْتَ بالبصرة معهـا فعَفَتْ لك عن صاحبتيك إذْ لا مجاورةَ بينها وبينهما ولا عِشْرة ، وإن شئتَ مفارقتَهما وأخرجها معك ، فصار إلى رحلهِ مغموما وشاور ابنَ عَمٍّ له يقال له وَرّاد بن عمرو فى ذلك ، فقال له : إن فى يحي بن يَعْمر لرغبةً لثروتِه وكَثْرَةِ ماله ، وما ذكرتَ من جمال ابنتِه ، وما نحب أن تُفارقَ زوجَتَيْك ، وكانت إحداها بنتُ عمه والأخرى من أشْجَع ، فتُقيم معها هذه السنةَ بالبصرة ونمضى نحن ، فإن رغبتَ فيها تَمَسَّـكْتَ بها وأقمتَ بمكانك فذلك ، وإن رغبتَ فى العودِ إلى بلدِك كتبتَ إلينا ، فجئناك حتى تنصرف معنا إلى بلدك ، ففـكرَ ليلته أجمع فى ذلك ، ثم غدا عازما على الرجوع إلى الحجاز ، وقال من أبيات :

لئن أقمتُ بحيثُ الفيضُ من رجب ... حتى أُهِلَّ به من قابلٍ رَجَبا
وراح فى السَّفْرِ وَرّادٌ فهيَّجنى ... إنَّ الغريبَ إذا هَيَّجته طَرِبا
قـد قلتُ أَمْسِ لورّادٍ وصاحبِه ... عُوجَا على الخارجىِّ اليومَ واحتسبا
وأبلغا أمَّ سعـد أن عَانِيها ... أَعْيـا على شفعاءِ الناسِ فاجْتَنَبا
أأبتغِى الحُسْنَ فى أخرى وأتْرُكُها ... فذاك حين تركتُ الدينَ والحَسَبا
هى الظعينةُ لا تُرْمَى بزينتها ... ولا يُفَجِّعُها ابنُ العم ما اصطحبا
فمـا خلوتُ بها يوما فتُعْجِبَنى ... إلا غدا أكثرُ اليومين لى عَجَبا

كان محمد بن بَشيرٍ يتحدثُ إلى امرأة من مُزَيْنة كان قومُها قد جاوروه ، ثم جاء الربيعُ وأخصبتِ بلادُ قومه فارتحلوا فقال محمد بن بشير :

لوْ بَيَّنَتْ لك قبــل يوم ِفِراقها ... أنَّ التفرقَ فى العشيةِ أو غدِ

لشــكوتَ إذ عَلِقَ الفؤادُ بهائمٍ ... عَلق حبايل هــائم لم يعهد

وتَبرَّجَتْ لك فاستبتك بواضحٍ ... صَلْتٍ وأسودَ فى النصيفِ مُعَقَّدِ

بيضاء خالصةُ البياض كأنها ... قَمرٌ توسط لَيْــلَ صيفٍ مُبْردِ

مرسومةٌ بالحسنِ ذاتُ حواسدٍ ... إن الجمــال مَظِنَّةٌ للحُسَّدِ

لم يُطْغها سَرف الشباب ولم تَضِعْ ... عَنها معاهدة النصيح المرشــد

وترى مدامعها تُرَقْرِقُ مقــلةً ... حوراءَ ترغبُ عن سوادِ الأثمدِ

خَودٌ إذا كَثُرَ الــكلام تعوَّذَتْ ... بحمى الحياء وإن تــكلَّمْ تقصدِ

وكأنّ طعمَ سلافــةٍ مشمولةٍ ... تَنْصَبُّ فى أثر السّواكِ الأغيدِ

وُلِدَتْ بأسْعد أنْجُم فَمحلّها ... ومسيرها أبــداً بطَلقِ الأسعدِ

ماذا إذا برزت غــداةَ رحيلها ... م الحسن تحت رقاقِ تلك الأبْرُدِ

فالله يَصْحَبُها ويسقِى دارهــا ... خضل الربابِ سَرَى ولمّا يُرْعَدِ

كان سليمان بن الُحصَين خليلًا للخارجىّ صديقا ، فلما مات جَزِعَ عليه الخارجى وحزن حُزنا شديداً وقال يرثيه :

يا أيها المُتَمَــنِّى أن يكون فــتًى ... مثلَ ابنِ ليلى لقد خَلّى لك السُّبُلَا

إنْ تَرْحَلِ العِيسُ كى تَسْعى مساعيه ... يُشْفِقْ عليك و تَعْمَلْ دون ماعَملا

لو سِرْتَ فى الناس أقصاهم وأقرَبهم ... فى شُقَّةِ الأرضِ حتى تُحْسِرَ الإبلا

تَبْغِى فــتًى فوق ظهر الأرض ماوَجَدوا ... مثــل الذى غيَّبُوا فى بطنها رجُــلا

أُعدُدْ ثلاثَ خصالٍ قد عرفن له ... هل سُبّ من أحد أوسَبَّ أو بَخِلا

لما مات عبدُ العزيز بنُ مروان ونُعِىَ إلى أخيه عبدِ الملك تمثَّل بهذه الأبيات ، فجعل يُرَدِّدها ويبكى ، قال أبو سليمان محمدُ بن بَشير : بينا نحن بالرَّوْحاء فى عامٍ جدبٍ قليلِ الأمطارِ ومعنا سليمانُ بن الُحصَيْنِ وابنُ أخيه ، وإذا بقطارٍ ضخمٍ كثيرِ الثقل يهوى قادمٍ من المدينة حتى نزلوا جانبَ الروحاء الغَرْبىّ ، بيننا وبينهم الوادى ، فإذا هم من الأنصار ، وفيهم سعيدُ بنُ عبد الرحمن بن حسان بن ثابت ، فلبثنا أياما ، ثم أتى لنا سليمان بن الحصين يقول لى أرسلَ إلىّ النساء يَقُلْن أما لكم حاجة فى الحديث ، فقلت لهن : وكيف نصنع برجالكُن ؟ قلن : بلغنا أن لكم صاحبا يُعْرَف بالخارجىّ ؛ صاحبَ صَيْدٍ فإن أتاهم يُحَدِّثهم عن الصيد انطلقوا معه ، وخلَوْتم وتحَدَّثْتم ، قال : فقلت لسليمانَ : بِئْسَ ، لعَمْرُ الله ، ما أردت منى ، أذهبُ إلى قَوْمٍ فأغُرّهم وآثمُ وأتعَبُ وتنالون أنتم حاجتكم دونى ماهذا برأى . قال سليمان: فانظرنى إذاً ابعثْ إلى النساء فأخبرهُنّ بقولك ، فأرسل إليهن وأخْبَرَهُن بما قلت فقُلْنَ [قل له]: احتل لنا عليهم هذه المرّةَ بما قلنا لك ، وعلينا أن نَحتَالَ لك المرةَ الأخرى. قال الخارجىّ : فخرجت حتى أتيتُ القومَ فحدثْتُهم وذكرت لهم الصيد ، فطارتْ إليه أنفُسهم فخرجتُ بهم ، وأخذت لهم شباكا وكلابا وتزَوّدُوا لِثلاث وانطلقتُ أُحَدِّثهم وأُلْهيهم فحدثتهم بالصدْقِ حتى نَفِدَ ، ثم حدثتهم بما يُشْبه الصدق حتى نَفِد ، ثم صرَّحْتُ لهم بمَحْضِ الكذب حتى مضتْ ثلاثٌ ، وجعلت لا أُحَدِّثُهم شيئا إلا قالوا صَدَقْتَ وغبتُ بهم ثلاثا ما علم الله أنا عاينَّا صيداً فقلت من أبيات :

إنِّى لأعجبُ منى كَيْفَ أُفَكِّهُهُم ... أم كيف أَخْدَع قوما مابهم حَمَقُ

أظلُ فى البيدِ أُلْهِيهِمْ وأخبرهم ... أخبارَ قوم وما كانوا وما خُلِقوا

اجتمع محمد بن بَشير والسائبُ بن ذَكوان راويةُ كُثَيِّرٍ بمكةَ فوافقا نِسْوةً من بنى غفَار يتحدَّثْن ، فجلسا إليهن ، وتحدثا معهن ، وبقيت واحدةٌ منهن تُحَدِّث

محمدَ بن بشير وتَسْتَنْشِدُه شِعْره حتى أصبحوا . فقال لهم رجل مرّ بهم: أما تزدجرون عن هذا الشعر وأنتم حُرُم ولا تدَعُون إنشادَه وقَوْلَ الزور فى المسجد ، فقالت له المرأة : كذبتَ لعمرُ الله ، ما قولُ الشعرِ بزُورٍ ولا الحديث حرام على مُحِلٍّ ولا مُحْرِم فانصرف الرجل وقال الخارجى فيها :

أما لكَ أن تزور وأنت خِلْوٌ ... صحيحُ القَلْبِ أُخْتَ بنى غفارِ
فمــا برِحَتْ تُعيرك مقلتيها ... وتُعْطيك المَنيةَ فى اسْتِقــار
وتسهو فى حديثِ القومِ حتى ... تَبَيَّنَ بعضُ أهلك ما تُوارى
فَمِتْ ياقلبُ مالك من دِفاعٍ ... فيُنْجيك الدفاعُ ولا قَرارِ

وفيها يقول :

يا أحسنَ الناسِ ألا أن نائلها ... قِدْمــا لمن يبتغى ميسوره عَسْرُ
وإنما دَلُّها سِحْرٌ لطالبــه ... وإنما قَلْبُهــا للمشتكى حَجَرُ
هل تذكرين كما لم أنسَ عَهْدَكم ... وقد يدومُ لعهد الخِلّةِ الذِّكْرُ
قولى ورَكْبُك قد مالت عمــائمُهم ... وقد سَقَاهُم بكأس السَّكْرةِ السَّفَرُ
يا ليت أنى بأثوابى وراحلتى ... عبدٌ لأهلك هذا العام مُؤْتَجَرُ
وقد أطَلْتِ اعتلالا دون حاجتنا ... بالحجّ أمسى فهذا الحجُّ والنَّفَرُ
تَجْلُو بقادِمَتَىْ ورقاءَ عن بَرَدٍ ... حُمْر المفاغر فى أطرافها أَشَرُ
إنْ هبّتِ الريحُ حَنَّتْ فى وشائحها ... كما يجاذبُ عــودَ القَيْنَــةِ الوَتَرُ
بيضاء تمشو لها الأبصارُ إن بَرَزَتْ ... فى الحج ليلةَ إحدى عَشْرَةَ القمرُ
جنيَّةٌ أولها جِنٌّ يُعَلِّمُها ... رَمْىَ القلوبِ بقوسٍ ما لها وَتَرُ
إن كان ذا قَدَرٌ يعطيك نَافِلَةً ... منا ويَحرِمُنا ما أنْصَفَ القدَرُ

كان الخارجى قد قدم البصرةَ وتزوج بها امرأة من عَدوان موسرةً ، فأقام عندها بالبصرة مدة ، ثم استَوْخَم البصرةَ فطالبها بأن ترْحَل معه إلى الحجاز . فقالت له :

ما أنا بتاركةٍ مالى ولا ضيعتى هاهنا تَذْهَبُ وتَضيع وأمْضِى معك إلى بلد الجَدْب والفَقْرِ والضِّيقِ ، فإما أن أَقَمْتَ هاهنا أو طَلَّقْتَنى فطَلَّقها ، وخرج إلى الحجاز ثم نَدِم وتذكرها فقال من أبيات :

ولقد أردتُ الصبرَ عنك فعاقَنِى ... عَلَقٌ بقَلْبِى من هواكِ قديمُ
يبـقى على حَدَثِ الزمان ورَيْبِـه ... وعلى جَفَائِـكِ إنه لكريم
ذهبت معاهد حُبِّهِنّ على الصِّبَا ... ومع الشباب فبِنَّ وهو مقيمُ
وعَتَبْتِ حين صَحِحْتِ وهْوَ بدائِه ... شتانَ ذاك مُصَحَّح وسقيمُ
طيفٌ لزينبَ ما يزالُ مُؤَرِّقِى ... بعد الهدوِّ فما يكادُ يَرِيمُ
وإذا تعرّضَ فى المنام خيالُهـا ... نكأَ الفؤادَ خيالُها المحلومُ
أجملتِ ذَنْبَكِ ذَنْبَه وظَلَمْتِه ... عنـد التحاكم والمُدِلُّ ظلومُ
ولئن تَجَنَّيْت الذنوب فإنه ... ذو الداءِ يعذرُ والصحيح يَلومُ
وأَدَيْته زمنا فعاذ بحلمه ... إن المحبَّ على الحبيب حليمُ
وزَعَمْتِ أنك تبْخلين وشَفَّه ... شوقٌ إليك وإن بخلتِ أليمُ

كان الخارجى مُنقطعا إلى أبى عُبَيْدةَ بن عبد الله بن ربيعةَ وكان يَكْفيه مؤونَتَه ويُفْضِلُ عليه ويُعْطِيه فى كل سنة ما يكفيه ويُغْنِى عيالَه من البُرِّ والتَّمْرِ وكسوةِ الشتاءِ والصيف ويُقْطِعُه القطعةَ بعد القطعةِ من إبله وغَنَمِه ، وكان منقطعا إليه وإلى زيدَ بن الحسينِ ، وابنه الحسن بن زيد ، وكلهم به بَرٌّ واليه مُحْسِنٌ فمات أبو عبيدة فقال يرثيه وكان ينزل العُرْش[١] والخارجى ينزل الروحاء[٢] :

ألا أيها الناعِى ابن زينبَ غدْوَةً ... نعيت الذى دارتْ عليه الدوائرُ

---

(١) غير واضحة فى الأصل وما أثبتناه عن الأغانى — والعرش قيل : اسم لمكة . وعرش مكة بيوتها (مراصد) .

(٢) الروحاء من الفرع على نحو أربعين ميلا من المدينة (مراصد) .

لعمرى لقد أمْسَى قِرى الضيفِ عاتما ... بذى العرش لما غيبتك المقابرُ
إذا سَوَّفُوا نادوا صَداكَ ودُونَه ... صفيحٌ وخَوَّارٌ من التُّرْبِ مائرُ
ينادون من أَمْسَى تَقَطَّعُ دونه ... من البعدِ أنفاسُ الصدورِ الزوافرُ
فقومى اضْربى عينيْكِ يا هندُ لن تَرَىْ ... أباً مثله تسمو إليه المفاخرُ

وكانت هند هذه ابنتَه عند عبدِ الله بن حسن بن حسن ، ولما مات أبوها جَزِعَت جزعا شديدا ، ووجِدَت وجدا شديد ، فكلم زوْجُها عبدُ الله بن حسن بن حسن محمدَ بنَ بشيرٍ الخارجى ، وسأَلَه أن يَدْخُلَ عليها ويُعَزِّيها عن أبيها ، فدخل معه إليها فلما نظر إليها صاح بأعلى صوته :

فقومى اضربى عينيكِ ياهند لن تَرَىْ ... أباً مثله تَسْمو إليه المفاخرُ
وكنتِ إذا فاخرتِ أسْمَيْت والداً ... يزينُ كما زان اليدين الأساورُ
فإن تُعْوِليه يَشْفِ يوْماً عويلُه ... غليلَك أو يَعْذُرْك بالنوح عاذرُ
ويَحزُنك لَيْلاتٍ طوال وقد مَضَت ... لذى العرش ليلاتٌ تَسُرُّ قصائرُ
فلقّاهُ رَبٌّ يَغْفِرُ الذنب رحمةً ... إذا بُلِيَتْ يومَ الحسابِ السرائرُ

فقامت هِنْد وصَكَّت وجْهَها وعَيْنَيها وصاحت بوَيْلها وحُزْنِها والخارجىُّ معها يَبْكِى حتى لَقِيا جهداً . فقال له عبد الله بن حسن بن حسن : ألهذا دعوتُك وَيْحَك؟! فقال : أظننت أنى أسَلِّيها عن أبى عُبيدة ، والله ما يُسَلِّينى عنه أحدٌ ولا لى عنه ولاعن فقده صبر فكيف يُسَلِّيها عنه من لَيْسَ يَسْلوه .

وكان لمحمدِ بن بَشير أخٌ يقال له بَشّار بن بَشِير ، وكان يجالس أعداءَه ويعاشر من يعلم أنه مباينٌ له فقال له فيه :

كفانِى الذى ضَيَّعْتَ منى وإنما ... يُضِيعُ الحقوقَ ظالما من أَضَاعَها
صَنيعةَ من وَلاكَ سوءَ صنيعةٍ ... وولىّ سِواكَ أمرَها واصطناعها
أَبَى لك كَسْبَ الخيرِ رَأْىُ مُقَصرٍ ... ونفسٌ أضاقَ اللهُ بالخيرِ باعَها

إذا هى حَثَّتْه على الخـــيرِ مَرَّةً ... عصاها وإن هَمَّتْ بشرٍّ أطاعها

فلولا رجال كاشحون يَسُرُّهُم ... أذاك وقُرْبَى لا أحب انقْطاعَها

إذا كان إن زَلَّتْ بك النعلُ زَلَّةً ... عَرَتْكَ خلالٌ لا تطيق ارتجاعها

وإنِّى متى أُحْمِلْ على ذاك أطَّلِع ... إليك عيوباً لا أحبّ اطِّلاعَها

فإن تك أحــــلامٌ تردّ إخاءَنا ... علينا فمن هــــذا يردّ سماعَها

سأنهاك نهيــا مُجْمِلًا وقصائدا ... فواصِحَ تَشْفِى من شؤونٍ صُداعَها

نظر الخارجى إلى نَعْشِ سليمانَ بنِ الُحصَيْن فهتفه :

ألم تَرْوا أن فَـتًى سَيِّداً ... راح عن نَعْشِ بنى مالك

لا أنْفسُ العيشَ لمن بعده ... وأنفسُ الملكَ على الهالك

المهاجر بن خالد بن الوليد[1]

هو المهاجرُ بنُ خالد بن الوليدِ بن المُغيرة بنِ عبدِ الله بن عمرو[2] بن مَخْزُوم ابن يَقْظَةَ ابنِ مُرَّة بن كعب بن لُؤَيّ بن غالب .

كان الوليدُ بن المغيرةِ سَيِّدا من ساداتِ قريش وجَوادا من أجْوادِها ، وكان يُلَقَّبُ بالوحيدِ ، وأمه صَخْرَةُ ، بنتُ الحارث بن عبد الله بن عبد شَمْس ، امرأةٌ من بَجِيلة ، ثم من قَيْسٍ ، ولما مات الوليدُ بن المغيرةِ جعلتْ قُريش وفاته تاريخا ، لإعظامهم إيّاه[3] حتى كان عامُ الفيل فجعلوه تاريخا . وقيل : إنها كانت تُؤَرِّخ بوفاة هشام بن المغيرة تسع سنين إلى أن بَنَوا الكعبةَ فجعلوها تاريخا .

ولخالدِ بنِ الوليدِ من الشهرةِ بصُحْبَةِ رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، والغناء في حروبه المحلُّ المشهورْ ، ولقبه رسولُ الله ، صلى الله عليه وسلم ، سَيْفَ اللهِ ، وهاجر إلى النبي ، صلى الله عليه وسلم ، قبلَ الفتح وبَعْدَ الحُدَيْبِية ، هو وعمرُو ابن العاص وعثمانُ بن طلحة ، فقال النبي ، صلى الله عليه وسلم لما رآهم : رَمَتْكُمْ مكةُ بأفلاذِ كَبِدِها ، وشهد فتحَ مكة مع النبي ، صلى الله عليه وسلم ، وكان أولَ من دَخَلها من مُهاجِرَةِ العَرَب من أسْفلِ مكة ، وشهد يوم مُؤْتَة ، فلما قُتِل زَيدُ بنُ

---

(١) أغاني أميرى ١٥ : ١١ تجريد ق ٢ جـ ١ــ١٧١٦ .

(٢) في الجمهرة : عمر .

(٣) عقب ابن واصل صاحب التجريد على هذا الخبر بقوله : هكذا خطأه أبو الفرج ، وهذا من أعظم الغلط فإنه يقضى أن الوليد بن المغيرة تقدم على الفيل وليس كذلك؛ فإن الوليد أدرك النبي صلى الله عليه وسلم وكان من رءوس الكفار والمشركين المعاندين وفيه نزل قوله تعالى: (ولا تطع كل حلاف مهين) وما أظن أن هذا الخطأ وقع من النساخ ، ولعل الذى أرخت قريش بموته إنما هو أبوه ، التجريد ١٧١٦ .

حارثة وجعفرُ بن أبى طالب وعبدُ الله بن رواحة ، ورأى أن لا طاقةَ للمسلمين بالقوم انحازَ لهم ، وحامى عنهم حتى سَلموا فلقَّبه يومئذ رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، سيفَ الله . وكان خالدٌ يوم حُنَيْن على المُقَدّمة مع رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ومعه بنو سُلَيْم فأصابته جراحاتٌ كثيرةٌ فأتاه رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بعد هزيمةِ المشركين ، فنَفَثَ على جراحِه فاندَمَلَتْ ونهَض . وله آثارٌ فى قتالِ أهل الردّةِ فى أيام أبى بكر الصديق ، رضى الله عنه ، وهو فَتَحُ الحِيرَةِ وبَعَثَ إليه أهلُها عبدَ المسيح بن عمرو بن نُفَيْلة فكلَّمه خالدٌ فقال له : من أين أقبلت ؟ قال : مِنْ ورائى . قال : وأين تريد ؟ قال : أمامى . قال : ابْنُ كَمْ أنت ؟ قال : ابن رجلٍ وامرأةٍ . قال : وأين أقْصَى أثَرِكَ ؟ قال : مُنْتَهى عُمْرِى . قال : أتَعْقِلُ ؟ قال : نعم وأُقِيدُ . قال : ما هذه الحصون ؟ قال : بَنَيْناها نَتَّقِى بها السفيه حتى يَرْدَعَه الحليمُ قال : لأمْرٍ مَّا اختارك قَوْمُك ، ماهذا فى يدك ؟ قال : سمٌّ ساعة . قال : وما تصنعُ به ؟ قال : أردت أن أنظر ما تَرُدُّنى به ، فإن بلغتُ ما فيه صلاحٌ لقومى عُدْتُ إليهم ، وإلا شَرِبْتُه ، فقتلتُ نفسى ولا أرجعُ إلى قومى بما يَكْرَهون . فقال له خالد : أَرِنيه فناولَه إياه فقال : بسم الله الذى لا يضر مع اسْمِه شىءٌ فى الأرض ولا فى السماء ، وهو السميع العليم ، [ثم أكله] فَتَجَلَّتْهُ غَشْيَةٌ ثم أفاق يَمْسَحُ العرقَ عن وَجْهِه ، فرجَع ابن نُفَيْلَةَ إلى قومه فأخبرهم بذلك ، وقال : ما هؤلاء القومُ إلا من الشياطين ، ومالكم بهم من طَاقَةٍ فصالِحوهُمْ على ما يريدون ، ففعلوا وأمَّرَه أبو بكر ، رضى الله عنه ، على جميع الجيوش التى بعث بها إلى الشام لحرب الروم ، وفيهم أبو عبيدةَ بنُ الجرّاح ومُعاذُ بنُ جَبَل فرَضُوا بإمارته .

وكان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قد حَلَقَ رأْسه ذات يوم ، فأخذ خالدٌ شَعْره فجعله فى قَلَنْسُوَةٍ له ، فكان لا يَلْقَى جيشا وهى عليه إلا هَزَمه ، وروى الحديثَ عن النبى ، صلى الله عليه وسلم ، وحَمَلَ عنه ، وقال صلى الله عليه وسلم ،

وقد رأى خالدا متدليا من هَرْشَى[١] : نعم الرجلُ خالدُ بنُ الوليد . ولما مات خالدُ ابنُ الوليد لم تبقَ امرأةٌ من بنى المغيرةِ إلا وضَعَتْ لِمَّتَها على قَبْرِه، يعنى حَلَقَتْ رأسها ووضعت شَعْرَها على قَبْرِه ، وقال عمر : دعُوا نساءَ بنى المُغيرة يبكين أبا سليمان ، ويُرِقْنَ من دموعهن سَجْلا أو سَجْلين ، مالم يكن نَقْعٌ أو لقْلَقَةٌ ، والنقع مدُّ الصوتِ بالنحيبِ واللقلقةُ حركةُ اللسان بالوَلْوَلةِ ونحوها .

وكان خالدُ بن الوليد أشبه الناس بعمرَ بنِ الخطاب ، رضى الله عنه .

لما أراد معاويةُ أن يُظْهِرَ البيعةَ ليزيدَ قال لأهل الشام : إن أمير المؤمنين قد كَبِرَتْ سِنُّهُ ورَقَّ جِلْدُه ودَقَّ عَظْمُه واقترب أجلُه ، ويريد أن يَسْتَخْلِفَ عليكم ، فمن ترون ؟ قالوا : عبدَ الرحمن بنَ خالد بن الوليد ، فسكَتَ وأضْمَرَها ثم دَسَّ ابن أثالٍ الطبيبَ إليه فسَقَاهُ سماًّ فقتله ، وبلغ ابنَ أخيه خالدَ بنَ المهاجر بنِ خالدٍ خَبَرُه وهو بمكة ، وكان أسوأَ الناس رأياً فى عَمِّه ، لأن أباه المهاجرَ كان مع علىٍّ ، عليه السلام ، فى صِفِّين ، وكان عبدُ الرحمن بنُ خالد بن الوليد مع معاويةَ ، وكان خالدُ ابن المهاجر على رأْيِ أبيه هاشمىَّ المذْهَب ، ودخل مع بنى هاشم الشِّعبَ فاضْطَغَنَ ذلك ابنُ الزبير عليه ، فألْقَى عليه زِقَّ خمْرٍ وصَبَّ بعضه على رأسِه وشَنَّع عليه بأنه وَجَدَه ثَمِلًا من الخمر فضربه الحدَّ ، فلما قُتِلَ عمُّه عبدُ الرحمن مَرَّ به عروةُ بن الزبير فقال له : ياخالد أتدَعُ ابنَ أثال يُفْنِى[٢] أوصال عَمِّكَ بالشام وأنت بمكة مُسْبِلٌ إزارَكَ تَجُرُّه وتَخْطِرُ فيه متمايلا ! ! حَمِىَ خالدٌ ودعا مَولاه نافعاً فأعلمه الخبرَ وقال : لابد من قَتْلِ ابنِ أثالٍ الطبيبِ ، وكان نافعٌ جَلْدا شَهْما فخرجا حتى قَدِما دمشق ، وكان ابنُ أثال يُمْسِى عند معاوية ، فجلس له فى مسجدِ دِمشْق إلى أُسطوانةٍ وجلس غلامُه إلى أخرى حتى خرج فقال خالد لنافع : إياكَ أن تَعرِضَ له

(١) هرشى: ثنية فى طريق مكة قريبة من الجحفة ترى من البحر (مراصد) .

(٢) فى الأصل تقرأ (وقد بين) وهى فى الأغانى (يفنى) وفى التجريد (يقىء) .

أنت فإنى أَضْرِبُه ولكن احفظْ ظهرى واكْفِنى من ورائِى فإن رابكَ شىءٌ [تراه] من خلقى يريدنى فشأنك ، فلما حاذاه وثبَ إليه خالدٌ فقتله وثار إليه من كان معه ، فصاح بهم نافع فتفرقوا ، ومضى خالد ونافع وتبعهما من كان معه ، فلما غَشُوهما حملُوا عليهم فتفرقوا ، ودخل خالدٌ ونافعٌ زُقاقا ضيقا فَفَاتَا القومَ ، فبلغ معاويةَ الخبرُ فقال : هذا خالد بن المهاجر اقلبوا الزقاقَ وفَتِّشوه ، فأُتِىَ بخالد ، فقال له : لاجزاكَ الله خيرا من زائرٍ قتلت طبيبى ، قال : قتلتُ المأمورَ وبقى الآمِرُ فقال له : عليكَ لعنَةُ الله أما واللهِ لو كان تَشهَّدَ مَرَّةً واحدةً لقتلتُك به ، أمعك نافع ؟ قال : لا . قال : بلى . والله ما اجترأتَ إلا به ، اطلبوه ، فطُلِبَ فوُجِدَ فجِىء به فضُرِبَ مائة سَوْط ، وحُبِسَ خالدٌ ، وألْزَمَ بنى مخزوم دية ابنِ أثالٍ ، اثنى عَشَرَ ألفَ دِرْهم ، أدخل بيتَ المال ستةَ آلافٍ وأخذ لنفسه ستةَ آلاف ، ولم يزل ذلك يجرى فى دِيَةِ المُعاهَد حتى ولى عمرُ بنُ عبد العزيز فأبْطَلَ ذلك الذى كان يأخُذُه السلطان لنفْسِه وأثبتَ الذى يدخل بيت المال ومما قال خالد فى الحبس :

ما بالُ لَيْلِكَ ليس يُنْـ قِصُ طولَه طولُ النهارِ
لِتَقَاصُرِ الأزمانِ أم غَرِضَ[1] الأسيرُ من الإسارِ

فبلغت أبياتُه معاويةَ فرَقَّ له وأطْلَقَه ، فرجع إلى مكة ، فلقيه عروةُ بنُ الزبير فقال : أما ابنُ أثال فقد قتلْتَه ، وهذا ابن جُرموزٍ يُفْنِى أوصالَ الزبيرِ بالبَصْرَةِ فاقتُلْه إن كنتَ ثائراً ، فشكاه عروة إلى أبى بكرِ بن عبدالرحمن بن الحارث بن هشام ، فأقسم عليه أن يُمْسِكَ عنه ففعل . وهو القائل :

يا صاح ياذا الضامِرِ العَنْسِ[2] والرَّحْلِ ذى الأنساع والحِلْسِ

---

(١) غرض : مل وسئم .

(٢) العنس : الناقة القوية شبهت بالصخرة لصلابتها ـ والأنساع جمع نسع وهو سير عريض طويل تشد به الحقائب أو الرحال ونحوها والحلس : كل ما ولى ظهر الدابة تحت الرحل والقتب والسرج .

معقل بن عيسى[1]

معقلُ بنُ عيسى العِجْلى ، أبو دُلَف فارسٌ شاعرٌ جوادٌ مُغَنٍّ ذكره الجاحظُ مع ذكرِ أخيه أبى دلف وتَقْرِيظِهِ فى المعرفة بالنَّغَمِ وقال : إنه من أحسنِ أهل زمانه ، وأجودِ طبَقَتِه صنعةً إذ سلم له ذلك أخوه مَعْقِلٌ . وإنما أخمَلَ ذِكْرَه ارتفاعُ شأن أخيه إلى أبى دُلَفٍ ، وهو القائل لأخيه أبى دلف فى عَتْبٍ عَتَبه عليه :

أُخَىَّ ما لَكَ ترميــــنى فتقصدنى ... وإن رميتك سهما لم يَجُزْ كبدى

أُخَىَّ ما لَكَ مجبــولا على تِرَتِى ... كأنّ أجسادنا لم تُغذ من جَسَدِ

وهو القائل لمخارق وقد كان زار أبا دلف إلى الجبل ثم رجع إلى العراق :

لعمرى لئِنْ قَرَّتْ بقربك أَعْيُنٌ ... لقَدْ سَخِنَتْ بالبعد عنك عيونُ

فسِرْ أو أَقِمْ وقْفٌ عليك مَوَدَّتِى ... مكانُك من قلبى عليك مصونُ

فما أوحشَ الدنيا إذا كنتَ نازحا ... وما أحسنَ الدنيا بحيثُ تكون

---

(١) أغانى ١٨ : ١٩٤ . هذه الترجمة ناقصة فى الأصل ففيه بياض قدره صفحة ونصف صفحة .

محمد بن صالح[1]

هو محمدُ بن صالح بن عبدِ الله بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على ابن أبى طالب ، عليهم السلام ، كُنْيَتُه أبو عبد الله .

شاعرٌ صالحُ الشعر ، من شعراء أهل بيته المُتَقَدِّمين .

وكان جدُّه موسى بنُ عبد الله أخا محمدٍ وإبراهيمَ ابنى عبدِ الله بن الحسن ابن الحسن الخارجين فى أيام المنصورِ .

أُمُّهم جميعا هندُ بنتُ أبى عبيدةَ ، حَمَلَتْ بموسى بن عبد الله ولها ستُّون سَنَة ولا تحملُ لستِّين إلا قرشيةٌ ولا تحمل لخَمْسين إلا عربيةٌ .

وكان موسى آدمَ شديدَ الأُدْمَة وله تقول أمه هند :

إنّك أَنْ تكونَ جَوْناً أَنْزَعا ... أجدرُ أن تَضُرَّهُم وتَنْفَعا

وتسلكَ العيشَ طريقا مَهْيعا ... فَرْدا من الأصحاب أومتبعا[2]

وكان موسى قد استَتَر بعد قتل إخوتِه زمانا ، ثم ظَفِر به أبو جعفر فضَرَبه بالسوطِ وحَبَسه مدّةً ، ثم عفا عنه وأطلقه ، وكان قد خرج على المتوكلِ مع من بَيَّض فى تلك السنة ، وظفِرَ به أبو الساجِ بجماعةٍ من أهْلِه فأخذَهم وقيدهم ، وقتل بعضهم ، وأخربَ سُوَيْقَة ، وهى منزل للحسنيين من جملة صدقات علىٍّ عليه السلام وعَقَرَ بها نَخْلًا كثيرا ، وحرَقَ منازِلَهم بها ، وأثَّر فيها آثارا قبيحة ، وحمل محمَّد بن صالحٍ فيها[3] حمل إلى سُرَّ من رأى ، فحُبِسَ ثلاثَ سنين ، ثم مدح المتوكل وأنشده الفتحُ

---

(١) أغانى أميرى ١٥ : ٨٨ تجريد ق ٢٠ جـ ١ : ١٧٧٣

(٢) الأغانى (مشيعا) .

(٣) الأغانى (فيمن) .

قصيدته ، بعد أن غنى فى شعره ، فطرب وسأل عن قائله فعرّفه وتلا ذلك إنشاد الفتحِ القصيدةَ ، وأحسنت الجماعة رفده ، فأمر بإطلاقه ، على ألا يبرح من سر من رآى ، وأن يكون عند الفتح حتى يقيم له كفيلا بنفسه أن لا يبرح إلا بإذنه فأقام إلى أن مات بالجدرى والأبيات التى كان قالها فى السجن :

طَرِبَ الفؤادُ وعاودت أحزانه ... وتَشَعَّبَتْ شعبا به أشجانُه[1]

وبدا له من بعدما اندَمَلَ الهوى ... برقٌ تألّق مَوْهِنا لمعَانُه

يبدو كحاشيةِ الرداءِ ودُونَه ... صَعْبُ الذُّرى مُتَمَنِّعٌ أركانُه

فَدَنا لينظُرُ كيف لاح فلم يُطِق ... نظرا إليه وصدَّه سَجّانُه

فالنار ما اشتملتْ عليه ضلوعُه ... والماء ما سَمَحَتْ[2] به أجفانُه

ومنها :

يا قلبُ لا يذهَبْ بحلمك باخلٌ ... بالنَّيلِ باذلُ تافهٍ مَنّانه

يعدُ القضاء وليس يُنْجزُ وعْدَه ... ويكون قبل قضائه ليّانُه

خدلُ الشَّوى حَسَنُ القوام مُخَصَّرٌ ... عَذْب لماه طَيِّبٌ أردانُه

واقنَعْ بما قسم الإلهُ فأَمْرُه ... مالا يزال عن الفتى إتْيانُه

والبؤسُ ماضٍ لايدوم كما مَضَى ... عصرُ النعيمِ وزالَ عنك أوانُه

قال أحمدُ بن أبى طاهر : كنت مع أبى عبـد اللهِ محمد بن صالح فى منزِل بعضِ إخوانه فأقمتُ إلى أن انتصف الليل و [أنا] أرى أنه يبيتُ ، فإذا هو قد قام فتقلَّدَ سيفَه ، وخرج ، فأشفقتُ عليه من خروجه فى ذلك الوقت ، وسألتُه المُقام والمبيتَ وأعلمتُه خَوفى عليه ، فالتفت إلى مبتسما وقال :

إذا ما اشتملتُ السيفَ والليلَ لم أُهَلْ ... بشىء ولم تَقْرَعْ فؤادى القوارعُ

---

(١) وتفرقت فرقا به أشجانه (تجريد ١٧٧٣) .

(٢) سحت (أغانى) .

قال إبراهيم بن المدبِّر: حدثنى محمدُ بن صالح ، وقد زارنى بعد إطلاقه من السجن ، قال لى : إنى أريدُ المقامَ اليومَ عندكَ على خلوةٍ ، لأبثَّك من أمرى شيئا لا يصلحُ أن يسمَعَه غيرُكَ ، فقلت : افعَل ، فصرفتُ من كان بحضرتى وخلوتُ معه ، وأمرتُ بِرَدِّ دابتِه وأخذ ثيابه ، فلما اطمأنّ ، وأكَلْنا واضطجعنا ، قال لى : أُعلِمُك أنى خرجت فى سنةِ كذا وكذا مع أصحابى على القافلةِ الفلانيّة فقاتَلْنا من كان فيها فهزَمْناهم وملَكْنا القافلةَ ، فبينا أنا أحوزُها وأُنيخُ الجمالَ إذ طلعتْ علينا امرأة من العمارية ما رأيتُ قطُّ أحسنَ منها وجهاً ، ولا أحْلَى نُطْقا . فقالت لى : يا فتى إن رأيتَ أن تَدْعُوَ لى بالشريفِ المُتَوَلِّى أمرَ هذا الجيش ، فقلت : قد رأيْتِه وسَمِعَ كلامَك . فقالت : سألتُك باللهِ وبِحَقِّ رسولِه ، صلى الله عليه وسلم ، أنت هو ؟ فقلت : نعم ، وحقِّ الله وحقِّ رسوله أنى لهو . فقالت : أنا حَمْدونَةُ بنتُ عيسى ابن موسى بن أبى خالد الحرّى ، ولأبى مَحَلٌّ من سُلطانه ، ولنا نعمة ، إن كنتَ ممن سمع بها فقد كفاكَ ما سَمِعْت ، وإن كنت ما سمعتَ بها فاسألْ عنها غيرى ، ووالله لا استأثرتُ عليك شيئا أمْلِكُه ، ولك بذلك عهدُ الله وميثاقُه علىّ ، وما أسألك إلا أن تَصُونَنى وتَسْتُرَنى ، وهذه ألفُ دينار معى لنَفَقتى ، خُذْها حلالا ، وهذا حُلىٌّ علىّ من خمسمائةِ دينار فخذه ، وضَمِّنِّى ما شئتَ بعده آخُذْه لك من تجار المدينةِ ومكةَ ومن أهْلِ الموسمِ ، فليس منهم أحد يمنعنى شيئا أطلُبُه ؛ وادفعْ عنى واحْمِنى من أصحابك ومن عارٍ يَلْحَقُنى ، فوقع قولها فى قلبى موْقِعا عظيما ، فقلت : قد وهب الله لك مالَكِ وحُلِيَّكِ وجاهَكِ ووهب لك القافلةَ جميعِ ما فيها ، ثم خرجتُ فناديتُ أصحابى فاجتمعوا فأعلَمْتُهم أنى قد أجرتُ القافلة وأهلَها وخَفَرْتُها وحَمَيْتُها ، ولها ذمة الله ، وذمة رسوله ، وذمّتى ، ومن أخذ منها خيطا أو عِقالا فقد آذنْتُه بحربٍ ، فانصرفتُ وانصرفوا معى ، وتوجَّهَتِ القافلةُ آمنةً سالمة . فلما أُخِذْتُ وحُبِسْتُ بينا أنا ذات يوم فى مَحْبِسى إذ دخل علىّ السجّانُ فقال لى : بالباب امرأتان تزعمان

أنهما من أهْلِك ، وقد حُظِرَ علىّ أن يَدْخُلَ إليك أحدٌ إلا أنهما قد أعطتانى دُمْلُجًا من ذهبٍ على أن أُوَصِّلَهما إليك ، وقد أذنتُ لهما وهما فى الدِّهليز ، فاخرج إليهما إن شئت ، ففكرت فى أمرى وفيمن يجيئنى من هذا البلد ، وأنا به غريب لا أعرف أحداً ، ثم قلت : لعلهما من ولَدِ أبى أو بعض نساء أهْلى فخرجتُ إليهما فإذا بصاحبتى ، فلما رأتنى بَكَتْ لما رَأَتْه من تغيُّرِ حالى وثقلِ حديدى فأقبلتْ عليها الأخرى فقالت : أهو هو ؟ فقالت : أى والله إنه هو ، ثم أقبلَتْ علىّ فقالت : فداك أبى وأمى ، والله لو استطعتُ أن أَقِيَكَ مما أنت فيه بنفسى ومالى وأهلى لفعلت ، وكنتَ بذلك منى حَقيقا ، ووالله لا تركتُ المعاونةَ لك والسعىَ فى حوائجك وخلاصِك بكل حيلة ومالٍ وشفاعةٍ ، وهذه دنانير وطِيبٌ وثيابٌ فاستعن بها على مَوْضِعِك ، ورسولى يأتيك فى كلِّ يوم بما يُصْلِحُك حتى يفرِّجَ الله عنك ، ثم أخرجَتْ إلىّ كسوةً وطيباً ومائتى دينار ، وكان رسولها يأتينى فى كلِّ يومٍ بطعام نظيف ويواصل بِرَّها للسجان فلا يمتنعُ من كل ما أريده حتى مَنَّ الله بخلاصى ، ثم راسلتها وخطبتُها فقالت : أمّا من جهتى فأنا لك مطاوعةٌ متابعةٌ ، والأمر فى ذلك إلى أَبى فأتيتُه فخطبتُها إليه فردَّنى وقال : ما كنت لأُحَقِّقَ عليها ما قد شاع فى الناس عنك من أمْرِها وقد صيَّرْتَها فضيحةً . فقمت مُنَكَّساً مستحيياً وقلت فى ذلك :

رمَوْنِى وإياها بشَنْعاءَ هُمْ بها ... أحَقُّ أدالَ الله منهم فعَجَّلا

بأمْرٍ تركْناهُ وحَقِّ محمدٍ ... عَيانا فإمّا عِفَّةً أو تجملا

فقلتُ له : إن عيسى صنيعةُ أخى ، وهو لى مطيع ، وأنا أكفيك أمْرَه ، فلما كان من غد لقيت عيسى فى منزله ، وقلت له : قد جئتُك فى حاجة ، فقال : مقضيَّة ، ولو كنتَ استعملتَ ما أحِبُّه لأمرتنى فجئتُك ، وكان أسرَّ إلىّ ، فقلت : قد جئتُك خاطبا إليك ابنتَك ، فقال : هى لك أمة ، وأنا لك عبد ، وقد أجبتك . فقلت : إنى خَطَبْتُها على من هو خيرٌ منى أباً وأُمًّا وأشرفُ لك صِهْرًا ومُتَّصَلًا ،

محمد بن صالح العلوى ، فقال : يا سيدى هذا رجلٌ قد لحقنا بسَبَبِه ظِنَّة وقِيلَتْ فينا أقوالٌ ، فقلت : أو ليستْ باطلةً . فقال : بلى والحمد لله ، قلت : فكأنها لم تُقَلْ ومتى وقع النكاحُ زال كلُّ شىءٍ من قولٍ وتشنيعٍ ، ولم أزل أرْفُق به حتى أجاب ، وبعثت إلى محمد بن صالح فأحضرته ، وما برحْتُ حتى زوّجته وسقتُ الصداق عنه .

وقال محمد بن صالح فى ذلك :

خطبتُ إلى عيسى بنِ موسى فردَّنِى ... فللّه والى حُرَّةٍ وعليقُها
لقد ردَّنِى عيسى ويعلمُ أننى ... سليلُ بناتِ المصطفى وعَرِيقُها
وأنّ لنا بعد الولادةِ نَبْعَةً ... نَبِىٌّ الإلهِ صِنْوُها وشقيقُها
فلما أبى بخلا بها وتَعَنُّماً ... وصيرنى ذا خلةٍ لا أُطيقها
تداركنى المرء الذى لم يزَلْ به ... من المكرماتِ رَحْبُها وطليقها
سَمِىُّ خليلِ اللهِ وابن وَلِيِّه ... وحمَّالُ أعباء الوَرَى وطَرِيقُها
وزوّجها والمَنُّ عندى لغيره ... فيابيعة وَفَّتْنِىَ الربحَ سوقُها
ويا نعمةً لابن المُدَبِّر عندنا ... يجدّ على كَرِّ الزمانِ أَنيقها

ولما حملتْ حمدونةُ إليه شُغِفَ بها وكانت امرأة جميلةً عاقلةً ومما قال فيها :

لعَمْرُ حمدونةَ إنّى بها ... لمغرمُ القلبِ طويلُ السقام
مجاوِزٌ للقَدْرِ فى حبها ... مباينٌ فيها لأهلِ الملام
ممكورةُ[1] الساقِ رُدَيْنِيَّةٌ ... مع الشَّوَى الخَدْلِ وحُسْنِ القَوام
زيَّنَها اللهُ وما شانَها ... وأُعطيتْ مُنْيَتَها من تمَام
تلك التى لولا غرامِى بها ... كنتُ بسامَرّا قليلَ المقام

(١) ممكورة الساق: مستديرته ـ وردينية : أى كالردين ، مستوية القامة كالقناة ـ والشوى الأطراف والخدل : الممتلىء .

ومما قاله فى إبراهيم بن المُدَبَّر وكانت بينهما صداقة .

أَتخبرُ عنهم الـدِّمَنُ الدثور وقد يُنْبِى إذا سُئِـلَ الخبيرُ
وكيف تُبَيِّنُ الأنباءَ دارٌ تعاقبها الجنـائبُ[1] والدبور

من مدحها :

فهلَّا فى الذى أولاك عرفاً تسدّى من مقالك ما تسيرُ
ثناءَ غـيرُ مختلقٍ ومدحاً مع الركبان بنجدُ أو يَغورُ
أخٌ واساك فى كَلَبِ الليالى وقد خَذَلَ الأقاربُ والنصيرُ
حفاظاً حين أسْلَمَك الموالى وضنَّ بنفسه الرجلُ الصبورُ
فإن تَشْـكُرْ فقـد أولى جميلاً وإن تَـكْفُرْ فإنك لَلْـكَفُورُ
وما فى آل خاقانَ اعتصامٌ إذا ما عُمِّمَ الخطبُ الـكبيرُ
لئامُ الناسِ إثراءً وفقْراً وأعجزُهم إذا حَمِى القتـيرُ

السبب فى ذكره أهلِ خاقانَ ها هنا أن عبدَ الله بنَ يحيى قصَدَه وتحامل عليه ، وكان يُقوِّى ما يكرهُ ويؤكِّدُ ما يوجِبُ جَبْسَه وكان فيه وفى ولده نَصَبٌ شديد .

وكان محمدُ بن صالح لا يكادُ يفارق سعيدَ بن حُمَيْد ، وكانا يتقارضان الأشعارَ ، وكان محمد بن صالح يجتهدُ فى أن يُؤْذَنَ له فى الرجوع إلى الحجاز فلا يجاب إلى ذلك ، ومات بسُرَّ من رَأَى فقال سعيد بن حميد يرثيه بهذه الأبيات :

بأىِّ يدٍ أسطو على الدهرِ بعد ما أبانَ يدى عَضْبُ الذُّبَابَيْنِ قاضبُ
وهاضَ جناحِى حادثٌ جَلَّ خَطْبُه وسُدَّتْ على الصبرِ الجميلِ المذاهبُ
ومن عادة الأيام أنَّ صروفَها إذا سَرَّ منها جانبٌ ساءَ جانبُ
لعمرى لقـد غالَ التجلدَ أننا فقدْناك فقْدَ الغيثِ والعامُ جادِبُ

---

(١) الجنائب : جمع جنوب وهى الريح التى تهب من الجنـوب ـ وفى رواية الشمائل والدبور ريح تهب من الغرب .

فما أعرفُ الأيامَ إلا ذميمةً ... ولا الدهرَ إلا وهو بالثأرِ طالبُ
ومالى من الإخوانِ إلّا مكاشرٌ ... فوجهٌ له راضٍ ووَجْهٌ مغاضِبُ
فقدتُ خليلا كان للأرض زينةً ... كما زَيَّنَتْ وجهَ السماءِ الكواكبُ
لعمرى لئن كان الرَّدَى بك فاتَنِى ... وكلُّ امرئٍ يوما إلى الله ذاهبُ
لقد أخذَتْ منى النوائبُ حُكْمَها ... فما تركَتْ حقًّا علىّ النوائبُ
ولا ترَكَتْنِى أرهبُ الدهرَ بعده ... لقد كلَّ عنى نابُه والمخالبُ
سقى جَدَثاً أمْسَى الكريمُ ابنُ صالحٍ ... يحلُّ به دانٍ من المُزْنِ ساكبُ
إذا بشّر الروادَ بالغيثِ برْقُه ... مَرَتْه(١) الصَّبا واستحلبته الجنائبُ
فغادر باقى الدهر تأثير صَوْبه ... ربيعا زَهَتْ فيه الربا والمذانبُ

ومما مدح به المتوكل :

أَلِفَ التُّقَى ووَفَى بنَذْرِ الناذرِ ... وأبى الوقوفَ على المَحَلِّ الدائرِ
ولقد تهيجُ له الديارُ صَبابَةً ... حينا وتَكلَفُ بالخليطِ السائرِ
فرأى الهدايةَ أن أنابَ وأنَّه ... قَصرَ المديح على الإمام العاشرِ
يا ابن الخلائفِ والذين بهَدْيِهِمْ ... ظهرَ الوفاء وبان غدرُ الغادرِ
وابنَ الذين حوَوْا تُراثَ محمدٍ ... دون الأقارب بالنصيبِ الوافرِ
نطقَ الكتابُ لكم بذاك مُصَدِّقا ... ومضت به سُنَنُ النبىِّ الطاهرِ
ووصَلْتَ أسبابَ الخلافةِ بالهُدَى ... إذ نِلْتَها وأنمْتَ عينَ الساهرِ
أحييتَ سُنَّةَ من مَضَى فتجدَّدَتْ ... وأَمَتَّ سنةَ ذى الضلالِ الخاسرِ
فافْخَر بنفسِك أو بجدِّك مُعْلِناً ... أوْدَعْ فقدْ جاوزتَ فَخْرَ الفاخرِ
ماللمكارم غيركم من أوَّلٍ ... بعدَ النبىِّ ومالها من آخرِ

---

(١) يقال : مرت الريح السحاب : استدرته .

إنى دعوتُك فاستجَبْتَ لدعوتى ... والموتُ منى رِقيدَ شِبْرِ الشابرِ
وانْتَشْتَنى[1] من قعرِ مُوردِةِ الرَّدَى ... مَنًّا ولم تسمعْ مقالةَ زاجرِ
وفككتَ أَسْرِى والبلاء مُؤَكَّلٌ ... وجبرتَ كسراً ما لَه من جابرِ
وعطفْتَ بالرَّحِمِ التى ترجو بها ... قُرْبَ المَحَلِّ من المليكِ القادرِ
وأنا أعوذُ بفضْلِ حِلْمِك[2] أن أُرَى ... عَرَضًا ببابك للمُلِمِّ الفاقرِ
أو أن أُضَيَّعَ بعد ما أَنْقَذْتَنى ... من رَيْبِ مهلكةٍ وجَدٍّ عاثرِ
ولقد مننتَ فكنتَ غيرَ مُكدِّرٍ ... ولقد نهضتَ بنا نهوض الشاكر

(١) انتاشه انتياشة : أخرجه . انتاشنى فلان من التهلكة : أنقذنى .
(٢) عفوك (أغانى ١٥ / ٩٤ .

محمد أبو الشيص (١)

محمدُ بن رزينِ بنِ سليمانَ بن تميمِ بن نهشلِ ، وقيل ابن نُهَيْش بن خَراش ابن خالد بن عَبْدبن دِعْبل بن أَنَس بن خُزَيْمة بن سَلامانَ بن أَسْلم بن أَقْصَى بن حارثةَ ابن عمرو مُزَيْقِيا ، وأبو الشيص لقبٌ غلبَ عليه ، وكنيتُه أبو جعفر ، وهم عمُّ دِعْبل ابن عليّ بن رزين ، وأبو الشيص من شعراء عَصْرِه ، متوسطُ المَحَلِّ فيهم ، غيرُ نبيهِ الذكرِ لوقوعِه فى أيام مُسْلِم بنِ الوليد وأشْجَعَ وأبى نواس ، فخَمُلَ ، وانقطعَ إلى عقبةَ بنِ جعفرِ بن الأشعثِ الخزاعيِّ ، وكان أميرًا بالرَّقَّةِ فمدحه بأكثرِ شِعْرِه فأغناه عن غيره ، ولأبى الشيصِ ابنٌ يقال له عبدُ الله شاعرٌ أيضا صالحُ الشعر ، وكان مُنْقَطِعاً إلى محمد بن طالب . وعَمِيَ أبو الشيص فى آخر عمره ، ورثا عَيْنَيْه قبل ذَهابِهما وبعد ذهابِهما .

حكى عبدُ الله بن المُعْتَزّ أن أبا خالد العامرىّ قال له : من أَخْبَرَكَ أن فى الدنيا أشْعَرَ من أبى الشيص فكَذِّبْه ، فوالله لكان الشعرُ عليه أهونَ من شُرْبِ الماءِ على العشطان ، وكان من أوصفِ الناسِ للشرابِ وأمدَحِهم للملوك . وهذا إسرافٌ شديدٌ ، ولكن ليس هو بساقطٍ فى شعره ، ولما أنْشَدَ عقبةَ بن جعفر قصيدتَه التى مَدَحَه بها أمَرَ بأن تُعَدَّ وأعطاه لكل بيت ألفَ دِرْهم وأولها :

لا تُنكرِى صَدِّى ولا إعْراضِى   ليس المُقِلُّ عن الزمانِ بِراضِ

قال محمدُ بن القاسم بن مهرويه : أنشدتُ إبراهيمَ بن المدبّر أبياتَ أبى يعقوب الخُرَيْمِى التى يرثى بها عَيْنيه يقول فيها :

إذا ما مات بَعْضُك فابْكِ بَعْضًا   فإنَّ البعضَ من بعضٍ قريبُ

(١) الأغانى أميرى ١٥ : ١٠٨ .

فأنشدنى لأبى الشِّيص يرثى عينيه :

يا نفسُ بكّى بأدْمعٍ هُتُنٍ ... ووا كفٍ كالجمان فى سَنَنِ

على دليلى وقائدى ويدى ... ونورِ وجهى وسائِس البدنِ

أبكِى عليها بها مخافةَ أن ... يَقْرِنَنِى والظلامَ فى قَرْنِ

قال دعبلٌ : لقِيتِ امرأةٌ أبا الشِّيص فقالت : له يا أبا الشيص عَمِيتَ ! ! فقال : قَبحَكِ الله دَعَوْتِنى باللَّقب وعَيَّرْتنى بالضَّرَرِ .

اجتمع مسلمُ بن الوليد وأبو نواس وأبو الشيص ودعبلٌ فى مجلس ، فقالوا : لِيُنْشِدْ كلٌّ واحدٍ منكم أجودَ ما قاله من الشعر ، فاندفع رجلٌ كان معهم فقال : اسمعوا منى أُخبِرْكُم بما ينشدُ كلٌّ واحدٍ منكم قبل أن تنشدوا، فقالوا: هات ، فقال لمُسْلِم : كأنى بك يا أبا الوليد قد أنْشَدْت :

إذا ما عَلَتْ منا ذؤابةُ واحدٍ ... وإن كان ذا حلم دَعَتْه إلى الجَهْلِ

هل العيشُ إلا أن تروح مع الصِّبا ... وتغدو صريعَ الكأسِ والأعينِ النُّجْلِ

وبهذا البيت لُقِّبَ صريعَ الغوانِى لَقَّبَهُ به الرشيدُ، فقال له مسلم : صدقْتَ ثم أقبلَ عَلَى أبى نواس فقال له : كأنى بك يا أبا على قد أنْشدْتَ :

لا تَبْكِ ليلى ولا تَطْرَبْ إلى هِندِ ... واشربْ على الوَرْدِ من حَمْراءَ كالوردِ

تَسْقِيكَ من عَيْنِها خمرًا ومن يَدِها ... خمرًا فما لك من سُكْرَيْن من بُدِّ

[لى سَكْرَتَان وللندْمان واحدة[1] ... شَئٌ] خصصت به من بينهم وَحْدِى

فقال له : صدقتَ ، ثم أقبل على أبى الشيص فقال : وأنت يا أبا جعفر كأنى بك قد أنْشَدْت :

لا تنكرى صَدِّى ولا إعراضِى ... ليس المُقِلّ عن الزمان براضِ

(١) ما بين القوسين غير واضح بالأصل وما أثبتناه عن ديوان أبى نواس .

فقال : لا ! ما هذا أردتُ أن أُنْشِدَ ، ولا هذا بأجودِ شَيْءٍ قُلْتُ . قالوا: فأَنْشِدْنا ما بَدَا لك فأنشد :

وقَفَ الهوى بى حَيْثُ أنت فليس لى مُتَأَخَّرٌ عنـه ولا مُتَقَدَّمُ
أجدُ الملامةَ فى هواكَ لذيذةً حُبًّا لذكرك فلْيَلُمْنِى اللُّوَّمُ
أشبهت أعدائِى فصِرْتُ أُحِبُّهُمْ إذ كان حَظِّى منك حَظِّىَ منهمُ
وأَهَنْتَـنِى فأهنتُ نَفْسِى جاهدًا[1] ما مَنْ يَهُون عليك مِمّن يكْرَمُ

فقال له أبو نواس: أحسنتْ والله وجَوَّدْت ، وحياتك لأسرِقَنَّ هذا المعْنى منك لأَغْلِبَنَّك عليه . فيشتهرَ ما أقول ، ويموت ما تقول ، فسرق قوله :

وقف الهوى بى حيث أنت فليس لى متأخرٌ عنه ولا مُتَقَدَّمُ

فقال فى الخصيب :

فما جازَه جودٌ ولا حَـلَّ دُونَه ولـكن يصيرُ الجودُ حيث يَصيرُ

فسار بيتُ أبى نواس وسَقَط بيتُ أبى الشيص .

وقيل : إن أبا نواس قال لأبى الشيص ، وقد اجتمعوا : أنشِدْنى قصيدتَك الضادية المُخْزِية فما خطر على بالى قط قولك :

* ليس المُقِـلُّ عن الزمان براضِ *

إلا استحسنته وأخزيتك ، فإن الأعشى كان إذا قال قصيدةً عرضها على بِنْتِه ، وقد كان ثقَّفَ ابنتَه وعلَّمها ما بلغت به استحقاق التحكيم والاختيارِ لجيدِ الـكلام، ثم يقول لها: عِدِّى المخزيات فتعدّ قوله :

أغرُّ أروعُ يَسْتَسْقِى الغمـامُ بـه لو قارعَ الناس عن أحسابهم قرَعا

وما أشبَهَها من شعره ، فقال أبو الشيص : لا أُنْشِدُكَ الضاديَّـةَ فإنها ليستْ عندى عِقْدَ دُرٍّ مُفَصّل ولـكنى أكاثِرُ بغيرها ثم أنشد :

---

(١) صاغرا (أغانى) ١٥ : ١١٠ .

* وقف الهوى بى حيث أنت *

الأبيات فقال له أبو نواس : قد أردتُ صَرْفَكَ عنها فأبيت أنْ تخلّى عن سَلَبِك أو تُدْرَكَ فى هربك قال : بل أقول فى طَلَبِى ، وكيف رأيت هذا الطرازَ فقلت : أرى نَمَطا خُسْرُوانِيًّا ومَذْهَبًا حسنا فكيف تركت [قوله] :

فى رداءٍ من الصفيحِ صقيلٍ وقميصٍ من الحديدِ مُذالِ

قال : تركته كما يترك مختار الدرّتَيْن إحداهما بما سَبَقَ فى خاطرِه وزيّنَ فى ناظره :

قيل لأبى نواس : من أشعر طبقات المحدثين ؟ فقال : الذى يقول :

يطوفُ علينا بها أحْوَرُ يداه من الكأسِ مخضوبتان

والشعر لأبى الشيص .

كانت لأبى الشيص جاريةٌ سوداء اسمها تِبْر ، وكان يَعْشَقُها وفيها يقول :

لم تُنْصِفِى يا سَمِيَّةَ الذهبِ تتلفُ رُوحى وأنتِ فى لَعِبِ

يا بنْتَ عمِّ المسكِ الذَّكِىِّ ومن لولاكِ لم يُتَّخَذْ ولم يَطِبِ

ناسَبَكِ المسكُ فى السوادِ وفى الرِّ يحِ فأكْرِمْ بذاك من نَسَبِ

كان أبو الشيصِ عند عُقْبَةَ بنِ جعفر بن الأشعث الخُزاعى يَشْرَبُ ، فلما ثَمِلَ نام عنده ، ثم انتبه فى بعضِ الليلِ فذهبَ يَدِبّ إلى خادمٍ له فوجأه بسكين ، فقال له : ويحك قَتَلْتَنِى والله ، وما أحبُّ أن أفتَضِحَ أنّى قُتِلْتُ فى مثل هذا ولا تُفْتَضَح أنت أيضا بى ، ولكن خُذْ دَسْتَجةً(١) فاكْسِرْها ولوِّثْها بدَمِى واجعلْ زُجاجَها فى الجُرْحِ ، فإذا سُئِلْتَ عن خَبَرِى فقل(٢) : إنى سَقَطْتُ فى سُكْرِى على الدَّسْتَجَةِ فانكسرَتْ ، فقَتَلَتْنِى .

---

(١) الدستجة : الإناء الكبير من الزجاج .

(٢) فى الأصل : فقلت .

ومات أبو الشيص فى ساعَته ، وفعل الخادمُ ما أوصاه به ، ودفن أبو الشيص وجزع عقبةُ عليـه جزَعا شديداً . فلما كان بعد أيامٍ سَـكِرَ الخادمُ فصدقَ عُقْبَةَ عن خَبَرِه ، وأنه هو قتَلَه فلم يُلْبِثْه أن قام إليه بسَيْفِه فضربَهُ حتى مات .

دخل أبو الشيص على أبى دُلَفٍ ، وهو يلاعب خادما له بالشِّطْرِنْج فقال له : يا أبا الشيص سَل هـــذا الخادمَ أن يَحُـلّ أَزْرار قيصِه . فقال : الأميرُ أَعَزَّه الله أحقُّ بمَسْألتِه فقال : قد سأَلْتُه فزعم أنه يخافُ العَيْنَ على صَدْرِه ، فقل فيه شيئا فقال :

وشادِنٍ كالبَدْرِ يَجْلُو الدجى فى الفرق منه المِسْكُ مَذْرُورُ
يحاذِرُ العينَ على صَدْرِه فالجيبُ منـه الدَّهْرَ مزرورُ

فقال أبو دلف : وحياتِى أحسنتَ وأَمَر له بخمسةِ آلافِ دِرْهم ، فقال له الخادم : يا سيدى قد أحسنَ والله كما قُلْتَ ولـكنك أَنْتَ ما أَحْسَنْتَ ، فضحك وأمر له بخمسة آلاف درهم أخرى .

المقنَّعُ الكِنْدِيُّ(1)

هو محمدُ بن ظفر بن عُمَيْر بن أبى شَمِر بن فِرْعانَ بن قَيْس بن الأسودِ بن عبدالله ابن الحارث الوَلَّادَةُ ، سُمِّيَ بذلك لكثرةِ وَلَدِه ، ابنِ عمرو بن معاوية بن الحارث الأكبر بن معاوية بن ثور بن مرتبع بن معاوية بن كِنْدَة بن عُفَيْر بن عَدِيّ بن الحارثِ بن مُرّة بن أُدَدَ بن زَيْد بن يَشْجب بن عريب بن زيد بن كَهْلان بن سَبأ ابن يشجب ابن يَعْرُب بن قَحْطان ، والمُقَنَّع لقبٌ غلب عليه لأنه كان أجملَ الناسِ وجها وأمدّهم قامةً وأكملَهُم خَلْقاً . وكان إذا أسْفَرَ اللثامَ عن وَجْهه لَقِعَ أى : أصابَتْه العين ، فيَمْرَضُ فكان لا يَمْشِى إلا مُقَنَّعاً ، وهو شاعر مُقِلٌّ من شعراء الدولة الأموية ، وكان له شرفٌ ومحلٌّ كبيرٌ ومروءةٌ وسؤددٌ فى عشيرتِه ، وكان عُمَيْرٌ جدُّه سيدَ كِنْدة ، وكان عَمُّه عمروٌ ابن أبى شمر ينازِعُ أباه الرياسةَ ويساجِلُه فيها ، فيَقْصُرُ عنه ، ونشأ محمدُ المُقَنَّع وكان متخرِّقا فى عطاياه ، سَمْحَ اليدِ بماله ، لا يَرُدُّ سائلا عن شيء حتى أتلَفَ ما خَلَّفه له أبوه من مال ، فاستعلاه بنو عَمِّه عَمْرو بنِ أبى شَمِر بأموالِهم وجاهِهم ، وهَوِىَ بِنْتَ عَمِّه عمروٍ فخطبها إلى إخوتِها ، فردوه وعَيَّروه بتخَرُّقِه وفقرِه وما عليه من الدَّيْنِ فقال :

وإن الذى بينى وبين بنى أبى ... وبينَ بنى عَمِّى لمختلفٌ جِدّا

فما أحملُ الحقدَ القديمَ عليهمُ ... وليس رئيسُ القوم من يَحْمِلُ الحقدا

وليسوا إلى نَصْرِى سِراعاً وإن هُم ... دَعَوْنى إلى نَصْرٍ أتيتُهُم شَدّا

إذا أكَلُوا لَحْمِى وفَرْتُ لُحُومَهُمْ ... وإن هَدَمُوا مَجْدِى بنيتُ لهم مَجْدا

يعاتِبُنى فى الدَّيْنِ قَوْمِى وإنما ... ديونِىَ فى أشياءَ تُكْسِبُهم رُشْداً

---

(1) الأغانى (أميرى) ١٥ : ١٥٧ .

كان عبدُ الملكِ بنُ مروان أولَ خليفةٍ ظهر منه البُخْلُ فقال يوما : أيُّ الشعراءِ أشْعَرُ ؟ فقال له كُثَيِّرُ بن هراسة ؟ يُعَرِّضُ ببخله : أشْعَرُهم المقنعُ الكِنْديُّ حيث يقول :

إنى أُحَرِّضُ أهلَ البخلِ كلهم ... لو كان ينفعُ أهلَ البُخْلِ تحريضى

ما قلَّ مالِيَ إلا زادنِي كَرَما ... حتى يكونَ برزقِ الله تعْويضى

والمالُ يرفع من لولا دَراهِمُه ... أمسى يُقلِّبُ فينا طَرْفَ مَخْفوضِ

لن تَخرج البيضُ عفواًمن أكُفِّهِمُ ... إلا على وَجَلٍ منهم وتَمْريضِ

كأنها من جلودِ الباخلين بها ... عند النوائب تُحْذَى بالمقاريضِ

فقال عبد الملك ، وقد عرف ما أراد : الله عزَّ وجلَّ أصدق حيث قال : والذين إذا أنْفَقُوا لم يُسْرِفُوا ولم يَقْتُروا .

مالك بن أسماء[1]

هو مالكُ بنُ أسماءَ بنِ خارجَةَ بن حِصْن بن حُذَيْفة بن بَدْر الفزاريُّ، ولاه الحجاجُ أصبهانَ بعد أن تزوجَ أختَه هِنْدا وحبسه فى خيانة ظهرت عليه ثم خَلّاه بعد ذلك وطالت أيامُه بأصبهان فظهرتْ عليه خيانةٌ أخرى [فحبسه][2] وناله بكل مكروه .

اختلف الحجاجُ وهندٌ بنتُ أسماء فى حديث ، فبعث إلى مالكِ بن أسماء من السجن فسأله عن الحديث فحَدَّثَه ، ثم أقبل على هِنْدٍ فقال : قومى لأَخِيك . فقالت : لا أقوم إليه وأنت ساخط عليه ، فأقبل الحجاجُ عليه فقال : إنك والله ما علمتُ لَلْخائنُ أمانتَه اللئيمُ حَسَبُه ، الزانى فَرْجُه . فقال : إن أذن الأميرتكلَّمْتُ . قال: قل. قال: أماقولُك الزانى فَرْجُه فوالله لأنا عندالله أحْقَر ، وفى عَيْن الأمير أصْغَر من أن يجبَ علىّ لله حد فلا يُقيمُه ، وأما قولك : اللئيمُ حَسَبُه ، فوالله لو عَلِمَ الأمير مكانَ رجلٍ أشرفَ منى لصاهرَه . وأما قولُه الخائن فوالله لقد ولَّانِى الأميرُ فوَفَّرْتُ فأخذنى بما أَخَذَنى فبِعْتُ ما كان وراءَ ظَهْرِى ، ولو ملكتُ الدنيا بأسْرِها لافتديتُ بها من مثلِ هذا الكلام ، قال : فنهض الحجاج وقال : شأنكِ يا هندُ بأخيك ، قال مالك : فوثبت هندٌ إلىّ فأكبت علىَّ ودعَتْ بالجوارى فنزَعْنَ عنى حديدى ، وأمرتْ بى إلى الحَمّامِ ، وكسَتْنى وانصرفتُ فلبثْتُ أياما ، ثم دخلتُ على الحجاج ، وبين يديه عهود ، وفيها عهدى على أصبهان . فقال : خذ هذا وامضِ إلى عَمَلِك فأخذته ونهضت ، وعزَلَه بعد ذلك ، وبَلَغَ به ما بَلَغَ من الشَّرِّ ، وضيَّق عليه

---

(١) أغانى أميرى ١٦ : ٤١ .

(٢) فحبسه غير موجودة بالأصل وبها يتسق الكلام (أغانى ١٦/ ٤١) .

فى الحَبْسِ حتى كان يشاب له الماء الذى يشربُه بالرمادِ والمِلْح ، فاشتاق الحجاجُ إلى حديثه يوما . فأرسل إليه فأحضره ، فبينا هو يُحَدِّثُه إذ استَسْقى ماءً فأُتِىَ به . فلما نظر إليه قال: لا ، هاتِ ماءَ السجنِ فأُتِىَ به وقد خُلِطَ بالملح والرمادِ ، فسقيه ، وهربَ من السجنِ ولم يزلْ متواريا حتّى مات الحجاج . وكتب إليه بعضُ أهله أن يَمضى إلى الشام ويستَجيرَ ببعض بنى أُميَّة حتى يَأْمَن ثم يعودَ إلى مِصْرِه كما فعل خالدُ بن عَتَّابٍ الرِّياحِىّ ، استجار بزُفَر بن الحارث الكلابى فأجاره ، فراجعَهُ وراجعه عبدُ الملك فى أمْرِه ثم أجاره فكتب مالكٌ إلى أبيه يسأله أن يَدْخُلَ إلى الحجاج ويسأَلَه فى أمره فقال أسماء فى ذلك :

أبنى فَزارةَ لا تُعَنُّوا شيخكم ... ما لِى وما لزيارةِ الحجّاجِ
شَبَّهْتُه شِبْلًا غداة لَقيتُه ... يُلقِى الرءوسَ شواخِبَ الأوداجِ
تجرى الدماءُ على النطوع كأنها ... راحٌ شمولٌ غيرُ ذات مِزاج
لا تطلبوا حَاجاً إليه فإنه ... بئس المُؤَمَّلُ فى طِلابِ الحاجِ
يا ليت هندا أصْبَحَتْ مرموسةً ... أو لَيْتَها حُبِسَتْ عن الأَزواج

وأما خبرُ خالدِ بنِ عتّابٍ الرياحىِّ فإن الحجاجَ كان استعمله على الرَّىِّ ، وكانت أمُّه أمَّ ولدٍ ، فكتب إليه الحجاجُ يلخَنُ أُمَّه ويقول : يا ابن اللَّخْناءِ ، أنت الذى هَرَبْتَ عن أبيك حتى قُتِلَ ، وقد كان خالدٌ حلف ألا يَسُبَّ أحدٌ أُمَّهُ إلا أجابه كائنا من كان ، فكتب إليه خالدٌ : كتبتَ إلىّ تَلْخَنُنى وتزعُمُ أنى فَرَرْتُ عن أبى حتى قُتِلَ ، ولعَمْرِى فررتُ عنه ولكن بعد أن قُتِل ، ولم أجد له قاتلا ، ولكن أخبرنى عنك يا ابن اللَّخْناءِ المُسْتَفْرِمَةِ بعجمِ زبيبِ الطائفِ حين فَرَرْتَ أنت وأبوك يوم الحَرَّةِ على جمل ، أيكما كان أمام صاحِبِه؟ فقرأ الحجاجُ الكتاب ثم قال : صدق

أنا الذى فررتُ يومَ الحَرَّهْ ... ثم ثَنَيْتُ كَرَّةً بفَرَّهْ
والشيخُ لا يَفِرُّ إلا مَرَّهْ

ثم طَلَبه فهربَ إلى الشام ، وسلم بيتَ المال ، فلم يأْخُذْ منه شيئا ، فكتبَ الحجاج إلى عبدِ الملك بن مروان بما كان منه . وقدم خالدٌ إلى الشام فسأل عن خاصَّةِ عبدِ الملك فقيل له : روحُ بنُ زِنباعٍ فأتاه حين طَلَعَتِ الشمسُ . فقال: إنى جئتُكَ مُستجيرا . فقال : قد أَجَرْتُكَ إلا أن تكونَ خالدا ، قال : فأنا خالدٌ فتغيَّرَ رَوْح . وقال : أنشدُكَ اللهَ إلا خَرَجْتَ عنى فإنى لا آمن عبدَ الملك ، قال : فأنظِرْنى حتى تَغْرُبَ الشمسُ ، فجعل روحٌ يراعِيها حتى غَرَبَتْ ، وخرج خالدٌ فأتى زُفَرَ بنَ الحارث الكلابىّ . فقال : إنى قد جئتك مُسْتجيرا ، قال: إنى قد أجَرْتُك . قال : إنى خالد. قال : وإن كنتَ خالدا ، فلما أصبح دعا ابنَيْنِ له فتهادى بينهما وقد أسَنَّ ، ودخل على عبد الملك بن مروان ، فلما رآه دعا له بكرسىٍّ فوُضِعَ عند فراشه فجلس ثم قال : يا أمير المؤمنين إنِّى قد أجرتُ عليك رجلا فأَجِرْه . قال : قد أجرتُه إلا أن يكونَ خالدا . قال : فهو خالد ، قال : لا ولا كرامة ، فقال زفر لابنيه : انهضا بى ، فلما وَلَّى . قال : يا عبدَ الملك أَمَ واللهِ لو كنتَ تعلمُ أن يَدِى تُطيقُ حَمْلَ القناة ، وردَّ رأسِ الجوادِ لأجرتَ من أجرتُ ، فضحك وقال : يا أبا الهُذَيْل قد أَجَرْناه ، فلا أَرَيَنَّه ، وأرسل إلى خالدٍ بألفَىْ درهم فأخذها ودفع إلى رسولِه أربعةَ آلاف درهم.

رأى عمرُ بن أبى ربيعةَ مالكَ بنَ أسماء ، وهو يطوفُ بالبيت ، وقد بَهَرَ الناسَ جمالُه وكمالُه فسأل فعَرَفَه فعانقَه وسَلَّم عليه ، وقال له : أنت أخى حقًّا فقال له مالك : ومن أنت ؟ قال : أما أنا فستعرِفُنى وأما أنت فالذى تقول :

إن لى عند كل نَفْحَةِ بستانٍ ... من الوردِ أو مِن الياسمينا
نظرا والتفاتة أترجَّى ... أن تكونى حَلَلْتِ فيما يَلِينَا

ثم قال له عمر : ما زلت أُحِبُّك منذ سمعتُ هذا الشعرَ فقال له مالك : أنت عمرُ ابن أبى ربيعة قال : نعم .

ومالك بن أسماء هو الذى يقول :

وحديثٌ أَلَذُّه هُوَ مِمَّا ... ينعتُ الناعتون يُوزَنُ وَزْنا

منطقٌ صائبٌ وتَلْحَنُ أَحْيَا ... نًا وخيرُ الحديثِ ما كان لَحْناً

قال يحيي بن على بن يحيي المنجم : قال لى أبى : قلت للجاحظ : إنى قرأتُ فى فصل من كتابك الذى سَمَّيْتَه البيانَ والتبيينَ ، أن مما يُسْتَحْسَنُ من كلام النساءِ اللحنُ واستشهدتَ ببيتَىْ مالكِ بنِ أسماء قال : هو كذاك ، قال : قلت : أماسمعتَ بخبر هندٍ بنت أسماء مع الحجاجِ حين لَحنَتْ فى كلامها فعابَ ذلك عليها فاحتجَّتْ ببيْتَىْ أخيها ، فقال لهـا : إن أخاك أراد أن المرأةَ فَطِنةٌ فهى تَلْحَنُ بالكلامِ إلى غير المعنى فى الظاهر لتَسْتُر معناه وتُورِى عنه وتُفْهِمَه من أرادتْ بالتعريض كما قال الله عزّ وجلّ « ولتَعْرِفنَّهم فى لَحْنِ القولِ » ولم يرد الخطأَ من الكلام ، والخطأُ لا يستحسن ، فوجِمَ الجاحظ ساعةً ثم قال : لو سقط إلىّ هذا الخبرُ لما قلتُ ما تقدّم ، قـال : فقلت له : فأَصْلِحْه . قال : الآن وقد ظهر الكتاب وسار فى الآفاق ! !

عشقَ مالكُ بنُ أسماءَ جاريةً لأخته هِنْد وعشقها أخوه عُيَينةُ بنُ أسماء فعتّبهُ مالكٌ فى حبها وهو لا يعلمُ ما يَجِدُ بها فقال مالك :

أعُيَيْنَ هـلَّا إذْ كَلِفْتَ بها ... كنتَ استغثْتَ بفارغ العَقْلِ

أقبَلْتَ تبغى الغوث من قِبَلى ... والمستغاثُ إليـه فى شُغُلِ

قال أحمد بن داود : ورد على كتابُ المتوكل ، وأنا على سوادالكوفة، أن ابتَـعْ لى تل بَوَنّا[1] بمابلغ فأتيتُهاوهى قريةٌ صغيرةٌ على تَلٍّ ، قد خَرِبَ ما حولَها من الضياع ، فابتعتُها بعشرة آلاف درهم . قال : فظَنَنْتُه حَرّكه على طَلَبِها أنه قد غنى لشعر مالكِ ابن أسماء :

(١) تل بونا ناحية قرب الكوفة (مراصد) .

حبَّذَا لَيْلَتِي بتلٍّ بَوَنَّا حين نُسْقَى شرابنا ونُغَنَّى[1]

إذا رأينا جواريا عطرات وغناء وقَرْقفًا[2] فنزلنا

فسألتُ عن ذلك فعرفتُ أن جاريته مَكْتومَةَ غَنَّتْه هذا الصوت .

دعا الحجاجُ يوما بمالك بن أسماء فعاتَبه عِتابا طويلا ، ثم قال له : أنت كما قال أخو بنى جعدة :

إذا ما سوأة غَرَّاء ماتت أتيت بسوأة أُخرى بهيم

فقال : لست كما قال الجَعْدِي ولكنى كما قلت :

لكل جوادٍ عَثْرَةٌ يستَقيلُها وعثرةُ مِثْلِي لا تقالُ مدى الدهرِ

فهل لى إذا ما تبتُ عندك تَوْبَةٌ تَدارَكُ ما قد فاتَ من سالف العُمْرِ

فقال الحجاج : بَلَى واللهِ لئن تُبْتَ لأقبَلَنَّ توبتَك ولأَعْفُوَنَّ عما كان من ذنبك ، ومن لى بذلك يا مالك ؟ قال : لك باللهِ ، قال : حسبى اللهُ ونعمَ الوكيل ، فانظرْ ما تقول . قال : الحقُّ أصلحك اللهُ ، لا يَخْفَى على أحد . فترك مالكٌ الشرابَ ، ووَفَى له بعَهْدِه ، وأظهرَ النسكَ ، ثم طال عليه تَرْكُ اللذاتِ والشرابِ فقال :

وندمانُ صِدْقٍ قال لى بعد هَجْمَةٍ من الليلِ قم نَشْرَبْ فقلتُ له مَهْلا

فقال أَبُخْلًا يا ابن أسماء هاكها كُمَيْتًا كريحِ المِسْكِ تَزْدَهِفُ[3] العَقْلا

فتابعْتُه فيما أراد ولَمْ أَكُن بخيلا على النَّدْمانِ أو شَكِسًا وَغْلا

ولكننى جَلْدُ القوَى أبذلُ النَّدَى وأَشربُ ما أُعْطَى ولا أقبلُ العَزْلا

ضحوكٌ إذا ما دَبَّتِ الكأسُ فى الفتى وغيَّرَه سُكْرٌ وإن أكْثَرَ الجَهْلا

---

(١) هذا الشطر من البيت والبيت الذى يليه غير واضحين فى الأصل وهما عن الأغانى .

(٢) القرقف : الخمر ــ الماء البارد .

(٣) تزدهف العقل : تذهب به .

وبلغ الحجاجَ أنَّ مالـكا قد راجـعَ الشرابَ ، فقال : لا يأتى مالكٌ بخير ، قاتل الله أيمنَ بنَ خريم حيثُ يقول :

إذا المرء وَفَّى الأربعين ولم يَـكُن ... له دونَ ما يأتى حجابٌ ولا سِتْرُ

[فَدعْه وما يأتِي ولا تَعْذِلَنَّه] ... وإن مدَّ [أسبابَ الحياة له العمرُ][1]

[أخذه] من قوْلِ ابنِ عباس : إذا بَلَغ المرء أربعين سنة ولم يَتُب أَخَذَ إبليسُ بناصِيَتِهِ وقال : حبَّذَا من لا يُفلِحُ أبدا . وأولُ هذه الأبيات :

وصهبـاء جرجانيةٌ لم يَطُفْ بهـا ... حَنيفٌ ولم تَنْغَر بها ساعةً قِدْرُ

ولم يشهد القسُّ المُهَيْمِنُ نارهـا ... طَروقاً ولم يُشْرِفْ على طَبْخِها حَبْرُ

أتانِي بها يَحْـيي وقد نِمْتُ نَوْمَةً ... وقد عَلَتِ الجوزاء وانْحَدَرَ النَّسْرُ

فقلت اصْطَبِحْها أو لِغَيْرِىَ سَقِّها ... فما أنا بعدَ الشَّيْبِ ويحكَ والخمرُ

(١) ما بين الأقواس عن الأغانى وهو غير ظاهر بالأصل .

مساور الوراق(1)

هو مساورُ بن سوّارِ بنِ عبد الحميد ، مولى قيس بن عَيْلان بن مُضر ، وقيل مولى خويلد بن عدوان ، كنيته أبو القاسم ، كوفيٌّ قليلُ الشعرِ من أصحاب الحديثِ ورُواتِه ، رواهُ ورُوِي عنه وهو القائل :

إنى وَهَبْتُ لظالمى ظُلْمِى وغفرتُ ذاكَ له عَلَى عِلْمِ

ما زال يَظْلِمُنى وأرْحَمُه حتى رَثَيْتُ له من الظُّلْمِ

مر مساورٌ الوراقُ بمَقْبُرَةٍ فيها حسينٌ الطوسِىُّ ، وكان صديقا لـه ، فوقف عليه مُسْتَعْبِرا وأنشد :

أبا غـانمٍ أمَّا ذراكَ فواسعٌ وقبرُك معمورُ الجوانبِ مُحْـكَمُ

وما ينفعُ المقبورَ عُمْرانُ قَبْرِه إذا كان فيـه جِسْمُه يتهدَّمُ

كان مساورٌ الورّاقُ وحمادُ عَجْرَد وحَفْصُ بن أبى رده مجتمعين ، فجعل حفصٌ يعيبُ شِعْرَ المُرَقَّش فأقبل عليه مُساورٌ فقال :

لقد كان فى عَيْنَيْكَ ياحفصُ شاغلٌ وأنفٌ كثيلُ العُودِ عما تَتَبَّع

تتبعت لحناً فى كلام مُرَقشٍ ووجْهُك مَبْنِيٌّ على اللَّحْنِ أجْمَعُ

فقام حفصٌ من المجلس خَجِلًا وهاجر مُدّةً .

قَدِمَ جارٌ لمساورِ الوراقِ من سَفَر فجاءه مساورٌ فسلَّمَ عليه ، فقال : يا جاريةُ هاتِ لأبى القاسم غَداء ، فجاءت برغيفٍ فوضَعَتْه على الخوانِ ، فمد يده يأْكُل مع مُساورٍ ، وجعل يقول : يا أبا القاسمِ كل مِنْ هـذا الخبز فما أَكلْتُ قطُّ أطيبَ منه . فقال مساور :

---

(1) أغانى ١٦ : ١٦٧ ـ تهذيب التهذيب ١٠ :١٠٣ .

ما كنتُ أحسبُ أن الخبزَ فاكهةٌ   حتى رأيتك ياوجهَ الطَّبرزنِ
كأن لحيته فى وجهه ذَنَبٌ   أو شعرةٌ فوق بَظْرٍ غيرِ مختونِ

لما سمع مساورٌ الوراقُ ألفاظَ أصحاب أبى حنيفة وصياحهم قال :

كنَّا منَ الدينِ قبلَ اليومِ فى سَعَةٍ   حتى ابتُلينا بأصحابِ المقاييسِ
قومٌ إذا اجتمعوا ضَجُّوا كأنهم   ثعالبُ ضجت بين النواويسِ

فبلغ أبا حنيفةَ وأصحابَه ذلك فشقَّ عليهم وتوعَّدوه فقال أبياتا يُرْضيهم بها :

إذا ما الناسُ يوما قايَسونا   بآبدةٍ من الفُتْيَا ظَريفهْ
أتيتُ لهم بمقياسٍ مصيبٍ   صليب من قِياسِ أبى حَنيفهْ
إذا سَمِعَ الفقيهُ لها وَعَاها   وأثبتَها بحِبْرٍ فى الصحيفهْ

فبلغتَ أبا حنيفة فرَضِيَ عنه . قال مساورٌ : ثم دُعِينا لوليمةٍ فى الكوفةِ فى يوم ٍشديدِ الحرّ فدخلتُ فلم أجد لرِجْلِى مَوْضِعاً من الزِّحَام ، وإذا أبو حنيفةَ فى صدْرِ البيتِ ، فلما رآنى قال : إلَيَّ يا مساورُ ، فجئتُ فإذا مكان واسعٌ باردٌ ، فجلستُ . وقلتُ فى نفسى : نَفَعَتْنِى أبياتى اليومَ ، وكان إذا رآنى بعد ذلك فى مكان يقول لى : هاهُنا هاهُنا ويُوَسِّع لى إلى جانبه ويقول إن هذا من أهْلِ الأدب .

محمد بن مُناذر (١)

هو محمدُ بن مُناذر ، مولى صُبَيْر بنِ يربوع ، وكنيتُه أبو جعفر ، وقيل : أبو عبدِ الله وقيل : أبو ذُريح ، وكان له ابن اسمه ذُريح فمات وهو صغير ، ولعله اكْتَنَى به قبل وفاتِه وفيه يقول :

كأنّك للمنايا يا ذريح اللهُ صَوَّرَكا
فناطَ بوجْهِك الشِّعْرى وبالإكليلِ قلّدَكا

قال الجاحظ : كان محمدُ بن مُناذِر مَوْلى سليمانَ القَهرمانِ ، وكان سليمانُ مولى عُبَيدِ الله بن أبي بَكْرة ، وعبدُ الله بنُ أبي بكرة مولى سيدِنا رسولِ الله ، صلى الله عليه وسلم ، وأبو بَكْرةَ مولىً لثقيف ، ثم ادَّعَى عبيدُ اللهِ بنُ أبي بكرة أنه ثَقَفِيٌّ ، وادعى سليمانُ القهرمانُ أنه تَمِيمِيٌّ ، وادعى ابنُ مُناذِر أنه صلميبةٌ من بني صُبَيْر بن يَربوع ، وابن مناذر مَوْلى مَوْلى مَوْلى ، فهُوَ دَعِيٌّ مولى دَعِيٍّ مولى دَعِيٍّ ، وهذا مما لم يجتمع قطُّ في غيره ممن عرفناه وبلغنا خبره .

وكان محمدُ بنُ مناذر شاعرا فصيحا متقدِّما في العلم وكلامِ العربِ واللغةِ إماما فيهم ، أخذ عنه [أكابر أهلها] (٢) .

وكان في أول أمرِه ناسكا يتألَّه ، ثم عَدَل عن ذلك ، فهجا الناس وتهتّك وخَلِعَ وقَذَفَ أعراضَ أهلِ البصرة حتى نُفِيَ عنها إلى الحجاز . فمات هناك ، فلم يزل محمدُ بن مناذِر ناسكاً ملازما للمَسْجِد جميل الطريقة إلى أن فُتِنَ بعبدِ المجيدِ ابنِ عبد الوهابِ الثقفيِّ فتهتَّك بعد سَتْرِه وفتَكَ بعد نُسْكِه .

---

(١) أغاني (أميرى) ١٧ : ٨ - معجم الأدباء ١٩ / ٥٥ - طبقات القراء ج ٢ .
(٢) عن الأغاني وهي غير واضحة في الأصل .

وكان عبد المجيد محدِّثا جليلا قد رَوَى عنه أكبرُ المحدِّثين وكبراء الرواة ، وكان فى غاية المحبَّةِ لابن مناذرٍ والشغفِ به والمساعدةِ له ، وكان من أحسن الناس وجها وأدبا ولباسا وأكْملهم فى كل حال ، وكان يبلغُ أباه خبرُه على جلالتِه وسِنِّه وموضعِه من العلم فلا ينكرُ ذلك لأنه لم تكن تبلُغُه رِيبةٌ عنه ، وكان ابن مناذرٍ حينئذ جميلَ الأثرِ حسنَ المروءةِ عفيفا .

كان ابن مناذرٍ يجالسُ سفيانَ بنَ عُيَيْنَةَ ، ويسألُه سفيانُ عن معانى حديثِ رسولِ الله ، صلى الله عليه وسلم ، فيخبرُه ابن مُناذر عنها ، ويقول : هذا مأخوذٌ من هذا ، وذا مأخوذٌ من ذا ، فيقول سفيانُ : كلامُ العربِ بعضُه آخذٌ برقابِ بَعْض .

وأدرك ابنُ مناذر المهدىَّ ومَدَحَه ومات فى أيام المأمون .

وكان ابنُ مناذرٍ إذا قيل له : ابنُ مَناذر ، بفتح الميم ، يَغضب ثم يقول أَمَناذِرُ الصُّغْرَى أم مناذرُ الكُبْرَى ؟ وهما كُورتان من كُوَرِ الأهوازِ ، إنما هو مُناذِرُ على وزن مُفاعِل من نَاذَرَ فهو مُناذِر ، مثل ضَارَبَ يضاربُ فهو مُضارِب وقاتل فهو مُقاتل .

ولما فتك ابن مُناذر وعَدَل عما كان عليه من النُّسْكِ والتَّألُّه وعَظَتْه المعتزلةُ فلم يَتَّعِظ وأَوْعَدَتْه بالمكروه فلم يَزْدجر ، ومنعوه دخول المسجد فنابَذهم وطعَنَ عليهم وهَجاهم ، وكان يأخذ المِدادَ بالليل فيَضَعهُ فى مَطاهِرِهم فإذا توضَّوا به تَسْوَدّ وجوهُهم وثيابُهم .

دخل ابن مناذر المسجدَ الجامعَ بالبصرةِ فوقعت عينُه على غُلامٍ مُسْتَنِدٍ إلى ساريةٍ ، فخرج يلتمسُ غلاما ودواةً وورقةً وكتب إليه أبياتا يَمْتَدِحه بها ، وسأل الغلامَ الذى خَرَج يلتَمِسُه أن يُوصلَ الرُّقْعة إلى الفَتى المُسْتَنِدِ إلى السارية ، فذهب بها الغلامُ إليه فلما قرأها قَلَبَها وكتب فى ظهرها :

مثلُ امتداحِك لِي بـلا وَرِقٍ ‏ ‏ مِثْلُ الجدارِ بُنِي عـلى خُصٍّ
وألذُّ عندى من مَديحـكَ لى ‏ ‏ سُـودُ النعالِ ولَيِّنُ القُمْصِ
وإذا حَبَوْتَ مُرامقاً ورقاً ‏ ‏ لم تَخْشَ منـه بوادرَ المُقْصِى
فإذا عزمتَ فَهَىٍّ لى وَرِقاً ‏ ‏ فإذا فعلتَ فلستُ أَسْتَقْصِى

فلما قرأَها ابنُ مناذرٍ قام إليـه ، وقال له : ويلك أنت أبو نواس ، قال : نعم . أفأنت ابن مُناذِر ؟ قال : نعم . فسلَّم عليه وتعانقا ، وكان ذلك أولَ المودةِ بينهما .

قال الأصمعى : حضَرْنا مأدبةً . ومعنا أبو مُحْرِزٍ خلفٌ الأحمر وحضرها ابنُ مناذر ، فقال لخلف : يا أبا مُحْرِز ، إن يكن امرؤ القيس والنابغةُ وزهيرٌ قد ماتوا فهذه أشعارهم باقيةٌ مُخَلَّدَةٌ فقِسْ شِعْرِى إلى شِعْرِهم ، واحكم بالحق ، فغضب خلفٌ وأخذ صَحْفَةً مملوءة مَرَقَةً فرمى بها عليه فمـلأه ، وقام ابنُ مناذرٍ مُغْضَباً وهجاه بعد ذلك .

وكان ابن مناذر ينحو نحو عَدِىِّ بنِ زيد فى شعره ، ويُقدِّمُه ويتَّخِذُه إماما . قال محمـد بن الحجّاج : قلت لابن مناذر : من أشْعَرُ الناس ؟ قال : من كَذَبَ فى شعره . قلت : من ذاك ؟ قال : عَدِىُّ بنُ زيد . وكانت أمُّ عبـدِ المجيدِ بن عبد الوهاب بانَةَ بنتَ أبى العاصى ، وهى مولاة جنانٍ التى يُشبّب بها أبو نُواس فى شِعْره ولمـا ماتت [بانة هذه][1] خرج جواريها إلى قَبْرِها فخرج ابنُ مناذر مَعَهُنّ إلى الجبَّانَةِ بالبصرة ، فقيل له : أين تريد ؟ فقال :

اليومَ يومُ الثُّـلاثا ‏ ‏ ويومُ ثالثِ بانَهْ
اليوم تَـكْثُرُ فيه الظـ ‏ ‏ ـباءُ بالجَبَّانَهْ

---

(١) غير ظاهرة بالأصل وما كتب عن الأغانى ١٧ : ١٢ .

وولدت بانةُ ، من عبد الوهاب [أولاده] : عبدَ المجيد وأبا العاصى وزيادا ، وزياد هو الذى عناه أبو نواس بقوله :

جفنُ عَيْنِى قد كادَ يَسْـ ـقُطُ مما قَـدِ اخْتَلَجْ
وفؤادِى من حَـرِّ حُبِّـ ـكِ قد كادَ أو نَضَجْ
خَبِّرِينِى فَـدَتْكِ رو حِى وأهْلِى متى الفَرَجْ
كان ميعادُنا خرو جَ زيادٍ وقَدْ خَرَجْ

وكان لعبد الوهاب ابنٌ يقال له محمدٌ ، هو أسَنُّ أولادِه ، وكان يتعشق بانةَ امرأةَ أبيه ، ويقال إن زياداً كان مِنْهُ وكان أشبه الناس به .

خرج ابنُ مناذرٍ يوما من صـلاةِ التراويحِ من مَسْجِدِ البصرة ، وخرج عبدُ المجيد بن عبد الوهاب خَلْفَه فـلم يزل يُحَدِّثه إلى الصُّبح ، وهما قائمان ، إذا انصرفَ عبـدُ المجيد شَيَّعَه ابنُ مناذر ، فإذا بلَغَه وانصرفَ ابنُ مناذر شَيَّعَه عبدُ المجيد ، لاتطيب نَفْسُ أحدهما بفراقِ صاحبِـه حتى أصْبَحا ، فقيل لعبد الوهاب: إن ابن مناذرٍ قد أفْسَدَ ابنكَ فقال : أو ما يرضى ابْـنِى أن يَرْضَى به ابنُ مناذِرٍ .

مرض عبدُ المجيد بنُ عبدِ الوهاب مَرَضاً شديدا ، وكان ابن مُناذرٍ ملازما له يُمَرِّضُه ويخدمه ، ولا يتولى غيره أمرَه ، ولا يَـكِلُه إلى أحدٍ ، فحدَّث بعضُ أهله قال : حضرته يوماً وقد أُسْخِنَ له ماءٌ حارٌ ليَشْرَبَه ، واشتدبه الأمرُ ، فجعل يقول: آه بصوتٍ ضعيفٍ فيَغمسُ ابنُ مناذرٍ يَدَه فى الماء ، ويتأوه مع عبد المجيد ، ويَدُه تَحْتَرِقُ حتى كادت تَسْقُط فجَذَبْناها ، وأخرجناها ، وقلنا له : أمجنون أنت ؟ ! أىُّ شىءٍ هذا مما يَنْتَفِـعُ به ذاك ؟ فقال : أُساعِدُه وهذا جَهْدُ المُقِـلِّ ، ثم استَقَلَّ من عِلَّتِه تلك ، وعوفِىَ مُدَّةً طويلة ، ثم تردَّى من سَطْحٍ فمات ، فجَزِعَ عليه جَزَعا شديدا ، حتى كان يَفْضُلُ إخوتَه وأهْلَه فى البكاء والعويل ، وظهر منه من الجزع ما عَجِبَ الناسُ

منه ورثاه بقصيدته المشهورةِ ورَواها أهلُ البصرة و نِيحَ بها على عَبْدِ المجيد ، وكان الناسُ يُعْجَبون بها ويستحسنونها وأولها :

كلُّ حيٍّ لاقى الحِمام فمُودِى   ما لِحَىٍّ مُؤَملٍ من خُلودِ

لا تَهابُ المنونُ شيئا ولا تُبـ   ـقِى على والدٍ ولا مولودِ

وكان سببُ تَردِّيه من السطحِ أنه تزوج امرأةً من أهله ، فأوْلَمَ عليها شَهْرا ، يجتمعُ عنده وجوهُ أهلِ البصرةِ وأدباؤها وشعراؤها ، فصعد يوما إلى السطحِ فرأى طُنُبًامن أطنابِ السِّتارَةِ قد انحَلَّ ، فأكبَّ عليه ليَشُدَّه ، فتردّى على رأسه ومات من سَقْطَتِه ، فما رأيت مصيبةً قطُّ أعظمَ منها ولا أنكأ للقلوب . قال محمد بن عمرو : قال لى محمدُ بن مناذر : ويحك ! ! ترى نساءَ ثقيفٍ يَنُحْنَ على عبد المجيد نياحة عَلَى استواء ، قلت : فما تحب ؟ قال : تخرجُ معى حتى أطارِحَك فطارَحَنِى بقصيدته التى [يقول فيها][1] :

إن عبدَ المجيدِ حين تَوَلَّى   هَدَّ رُكْنًا ما كان بالمهدودِ

هدّ عبدُ المجيد رُكـنِى وقد كُنْـ   ـتُ برُكْنٍ أنوءُ منه شَديدِ

فما زلتُ حتى حَفِظْتُها ، فلما كان فى الليلةِ التى يُناحُ فيها على عبد المجيدِ صَلَّيْنا العشاءَ الآخرةَ فى المسجد ، وخرجنا إلى دارِهم ، وقد صَعِدَ النساءُ إلى السطح يَنُحْنَ عليه فسَكَتْنَ سكتةً لهن ، فاندفعنا أنا وهو نَنوحُ عليه ، فلما سمِعْنَنا أقبلنَ علينا يَلْطِمْنَ ويَصِحْنَ حتى كِدْنَ ينقلبْنَ من السطحِ إلى أسفل ، لشدة تَشَوُّفهن لنا[2] وإعجابِهن بما سَمِعْنه ، وأصبح أهلُ المسجد ليس لهم حديثٌ غيرنا ، وشاع الخبرُ بالبصرة ، وتحدث الناس به . ولما قال ابنُ مناذر فى هذهالقصيدة :

---

(١) أغانى ١٧ : ١٤ .

(٢) تشرفهن علينا (أغانى) ـ وتشوف له وإليه : تطلع .

لأقيمَنَّ مأتمـا كنجوم الـ　　　ـليلِ زهْرًا يلطمْنَ حُرَّ الخدود
موجعاتٍ يَبْكينَ للكبدِ الحرَّى عليه　　　وللفؤادِ العَميدِ

قالت أمُّ عبد المجيد : والله لأبرَّنَّ قسَمَه ، فأقامت عليه مأتما ، وقامت مع أخوات عبد المجيد وجواريه يَنُحْن عليه ويَصِحْنَ : واى ويه واى ويه .

فيقال : إنها أولُ من فعل ذلك وقاله فى الإسلام .

ومما رثاه به ابنُ مناذرٍ قولُه :

يا عَيْنُ حقَّ لكِ البكا　　　ءُ لحادث الرزءِ الجليلِ
فابْكِى على عبدِ المجيـ　　　ـدِ وأَعْوِلِى كلَّ العويلِ
لا يبعدِ اللهُ الفـتى الـ　　　ـفَيّاضَ ذا الباعِ الطويلِ
عجِلَ الحِمامُ به فودّ　　　عَنَا وآذنَ بالرحيلِ
لَهَفِى علـى الشَّعْرِ المُعَـ　　　ـفَّرِ منك والخدِّ الأسيلِ
كُسِفَتْ لفقدك شَمْسُنا　　　والبدرُ آذنَ بالأفوالِ

وكان ابنُ مناذرٍ من أحْضَرِ الناس جوابا ، فقال له رجل ، ذات يوم : ماشانَك بفتح النون ، قال : عِظَمٌ فى أنفى .

دار بين الخليلِ بنِ أحمد وبين ابنِ مُناذر كلامٌ فقال له الخليل : إنما أنتم ، معاشرَ الشعراء ، تَبَعٌ لنا ، ونحن سُكّان السفينةِ إن قرَّظْناكُمْ ورَضِينا قولَكم نَفَقْتُم وإلا كَسَدْتم فقال ابنُ مناذر : والله لأقولنّ فى الخليفة قصيدةً امتَدِحهُ بها ولا أحتاج فيها إليك ولا إلى غيرك ، فقال فى الرشيد قصيدته التى أولها :

ما هَيَّجَ الشَّوْقَ من مُطَوَّقَةٍ　　　أوْفَتْ على بانةٍ تُغَنِّينا

يقول فيها :

ولو سألْنَا بحسنِ وجْهِك يا　　　هارونُ صَوْبَ الغمامِ أُسْقِينا

وأراد أن يُنفِذَها إلى الرشيد فلم يلبثْ أن قَدِمَ الرشيدُ البصرةَ حاجا ليأخذ على طريق النِّباج[١] ، وهو كان الطريقُ قديما ، فدخله وعديلُه إبراهيم الحرَّاني فتحمَّل إليه ابنُ مناذر بعثمانَ بن الحكم الثقفي ، وأبو بكر السُّلَميّ حتى أوصلاه إلى الرشيد، فأنشده إياها فلما بلغ آخرَها كان فيها بيت يفتخِرُ فيه وهو :

قومی تميمٌ عند السماكِ لهم مجدٌ وعزٌّ فما يُنالونا

فلما أنشدَ هذا البيتَ تعصّبَ عليه الجلساء فقال بعضهم : يا جاهلُ أتفخرُ فی قصيدةٍ مدحتَ فيها أميرَ المؤمنين ! ؟ وقال : آخر هذه حماقةٌ بَصْرِيَّة فكفَّهم عنه الرشيدُ ، ووهب له عشرين ألفَ درهم .

كان الرشيدُ قد استسقى فی سنةِ قَحْطٍ فسُقِيَ الناسُ فسرّ بذلك ، وقال لله درُّ ابن مُناذرٍ حيث يقول :

ولو سألْنا بحُسْنِ وجهك يا هارونُ صوبَ الغمام أُسْقِينا

وسأل عنه فأُخْبِرَ أنه بالحجاز فبعث إليه بجائزة .

شهد بكرُ بن بكّار عند عبيدِ الله بن الحسن العنزی بشهادة فتبسّم ثم قال له : يا بكْرُ مالَك ولابن مناذرٍ حيثُ يقول فيك :

أعوذُ بالله من النـــارِ ومنك يا بكْرَ بنَ بكّارِ

فقال : أصلح اللهُ القاضيَ ، ذاك رجل شاعرٌ خليعٌ لا يبالِی ما قال . فقال له : صدقتَ وزاد تبسُّمه وقَبِلَ شهادته ، وقام بكرٌ وقد تَشَوَّرَ وخَجِل وهذه القصيدة يقول ابنُ مناذر فی بكرِ بن بكار وهی :

أعوذُ بالله من النـــارِ ومنك يا بكْرَ بنَ بكارِ

يا رجُلًا ما كان فيما مَضَى لآل حمـــران بزَوّارِ

---

(١) النباج قيل: فی بلاد العرب نباجان ؛ أحدهما على طريق البصرة يقال له نباج بنیعامر وهو بحذاء فيد والآخر نباج بنی سعد بالقريتين .

مامنزلٌ أحْدَثْتَه رابعا ... منتزحا عن عَرْصَةِ الدارِ
ما تبرحُ الدهرَ على سَوْأَةٍ ... تَطْرَحُ حبا للخُشَنْشَارِ
يامعشرالأخدانِ يا وَيْحكُم ... تعوّذوا بالخالقِ البارِى
من حَرْبَةٍ نيطتْ إلى حِقْوهِ ... يسعى بها كالبَطَلِ الشارِى
يوم تمنّى أنّ فى كفه ... أَيْرَ أبى الخضرِ بدينارِ

الخشنشارُ : معاويهُ الزِّيادِيُّ بن محمد بن معاوية المُحدِّث ، ويكنى أبا الخضْرِ وكان جميلَ الوجه والخُشَنْشارُ لَقَبُه .

كان محمدُ بنُ عبدِ الوهاب أخو عبدِ المجيدِ يعادى محمدَ بن مناذرٍ بسبب مَيْله إلى أخيه عبدِ المجيد ، وكان ابنُ مناذر يهجوه ويَسُبُّه ، وكل واحدٍ منهما يَطْلُبُ لصاحبه المكروهَ ، ويسعى عليه ، فلقيه محمدُ بن عبد الوهاب فى مسجدِ البَصْرَة ، ومع ابن مناذر كتابُ العَروضِ بدَوائره ، ولم يكن محمدُ بن عبد الوهاب يعرفُ العروضَ ، فجعل يَلْحَظُ الكتابَ ويقرؤُه ولا يَفْهَمُ ، وابن مناذرٍ يتغافلُ عنه ، ثم قال له محمدُ بن عبد الوهاب: ما فى كتابك هذا ؟ فَخَبَأَهُ فى كُمِّه ، وقال له : أىُّ شىء عليك مما فيه فتَعَلَّقَ به ولَبَّبَه . فقال له ابن مناذر : يا أبا الصَّلْت اللهَ اللهَ فى دَمِى ، فطَمِعَ فيه وصاح: يازنديقُ فى كُمِّك الزَّندَقَةُ ، واجتمع عليه الناسُ فأخْرَجَ الكتابَ من كُمِّه وأراهم إياه ، فعرفوا براءَتَه ووثبوا على محمدِ بن عبدالوهاب فاستَخَفُّوا به ، وانصرف يَجْرى وهجاه ابن مناذر بأبيات أولها :

إذا أنت تعَلَّقْتَ ... بحبلٍ من أبى الصَّلْتِ
تَعَلَّقْتَ بحبل وا ... هنِ القوّةِ مُنْبَتِّ
إذا ما بَلَغَ المجْدَ ... ذوو الأحساب والمت
تقاصرت عن المجد ... [بأمر رائب شخت[١]]

(١) ما بين الأقواس غير واضح فى الأصل وهو عن الأغانى .

فلا تَسْمُ إلى المجـــد فما أصلك بالثبْتِ
ولا فَرْعُك فى العيدا نِ عُودٌ ناضِرُ النَّبْتِ
فها فاسْمَـــعْ قريضًا من رقيقٍ حسنِ النَّعْتِ
يقـــول الحقَّ إن قال ولا يَرْميك بالبُهْتِ
وفى نَعْتٍ لوجْعاءَ قد استَرْخَتْ من الفَتِّ
فعنـــدِى لك يا مـــأبُو نُ مِثْلُ [الفالج البخت]
عتلٌ يعمل الـــكومَ من السبتِ إلى السبتِ
له فَيْشَـــلَةٌ أن أُدْ خِلَتْ واسعةُ الخَرْتِ
وإلا فاطْلُ وَجْعاءَ له بالخَضْخَاضِ والزِّفْتِ
ألم يبلغـــك تَسْـآلى لدى العَلَّامَةِ المَرْتِ
وما يبقى لـكم [يا قـو م من أثلتِـكُم نحتى](١)
وقال الشيخ ما سرجو ه(٢) داء المرء من تَحْتِ
فخذ من ورق الدفلا وخذ من ورق القَتِّ
وخذ من جعد كيسان ومن أظفارِ شبخْت
فغَرْغِرْه به واسعط بِدَا فى دائِه أفْــتِى

شبّخت لقبُ أبى عبيدة وهو اسمٌ من أسماءِ اليهود ، تعريضاً بأن جَدّه كان يهوديا ، وكان أبو عبيدة وَسِخًا طويل الأظفارِ والشَّعْرِ ، وكان يغضب من هذا اللقبِ . قال ابن مناذر :

وقال الشيخ ماسَرْجُو ه داء المرء من تَحْتِ

بلغَ ذلك ما سرْجُويه ، فجاء محمدُ بن عبد الوهاب ، فوقف عليه فى مجلسه وعنده

(١) ما بين الأقواس غير واضح بالأصل وهو من الأغانى .
(٢) فى الأغانى (سرجويه) .

جماعةٌ من أهلِه وإخوانِه وجيرانِه فسلم عليه وكان أعْجَمِيًا لا يُفْصِح وقال له : بركست كمن كفتم أن كتسر مناذر كفت داء المرء من تحت ، فكاد القوم أن يَفْتَضِحُوا من الضحك ، وصاح به محمد: اعزبْ قبحَكَ الله ، فظن أنه لم يَقْبَلْ عُذْرَه فأقبل يحلفُ له مُجْتهدا ماقال ذاكَ ، ومحمدُ يصيحُ به : ويلك اعزب عنى ، وكلما زاده من الصياح إليه زاده فى العُذْرِ والأيْمان فضحك الناس حتى غلبوا وقام محمد خَجِلًا .

قال محمدُ بن إسحاق البَلْخى : دخلتُ يوما على ابن مُناذرٍ وعندَه رجلٌ ضريرٌ جالسٌ عن يمينه ، وآخرُ عن شِماله ساكتٌ لا ينطق ، فقلت : ما خَبَرُكَ؟ فقال :

بين أعْمَى وأخرسَ أخرسَ الله لسانَ الأَعْمَى وأعْمَى البَصيرا [فوثبا من عنده وخرجا يَشْتمانه .

قال حجاجُ بنُ الأعورِ الصوّافُ : خرجت إلى مكةَ ، وكان ابنُ مناذرٍ لى صديقا ألِفًا فلما دخلتُ مكةَ سألتُ عنه فقيل لى : لا يَبْرَحُ من المسجدِ ، فدخلت المسجدَ فالتمسْتُه فوجَدْتُه بفِناءِ زَمْزم ، وعنده أصحابُ الأخبارِ والشعراءِ يكتبون عنه ، فسلمتُ عليه ، وأنا أقدِّرُ أن يكون عنده من الشوق إلىّ مثلُ ما عندى له ، فرفع رأسه فردَّ السلام ردًّا ضعيفا ، ورجع إلى القوم ولم يَحْفِلْ بى ، فقلت فى نفسى : أتراه ذهبتْ عنه مَعْرِفَتِى ، فبينا أنا مفكر إذ طَلَع أبو الصلتِ محمدُ بن عبدِ الوهاب من باب بَنِى شَيْبة داخِلًا إلى المسجدِ فرفعَ رأسه فنظرَ إليه ، ثم أقبل علىّ وقال : أتعرف هذا ؟ فقلت : نعم ، هذا الذى قال فيه من قطع الله لسانه :

إذا أنت تَمَلَّقْتَ بحبلٍ من أَبِى الصلتِ

قال : فتغافلَ عنى وأقبلَ عليهم ، ثم أقبلَ علىّ ، فقال : من أىّ البلاد أنت ؟ قلت: من أهلِ البصرة، قال : وأين تنزِلُ منها ؟ قلت: بحضرةِ بنى عائش الصوّافِين. قال : أفتعرف هناك ابن زانيةٍ يقال له حجاجُ الصوّافُ ؟ قلت : نعم تركتُه فى عافيةٍ ينيك أم ابن زانيةٍ يقال له ابنُ مُناذرٍ فضحك ، ووثبَ إلىّ فعانقنى .

[ولابن مُناذر هجاء فى حجاج الصواف على سبيل العبث وهو قوله] (١)

إنّ أُدعاءَ الحجاجِ فى العرَبِ عند ثَقيفٍ من أعجب العَجَبِ
وهو ابنُ زانٍ لألفِ زانيةٍ وألف علج مُعَلْهج الحسب (٢)
ولو دعاه داعٍ فقال له يا ألأمَ الناس كلِّهم أَجبِ
إذًا لقال الحجاجُ لبيك من داعٍ دعانى بالحقِّ لا الكذبِ
ولو دعاه داع فقال له من المعلى فى [اللؤم قال أبى] (٣)
أبوه زانٍ والأمُّ زانيةٌ بنتُ زُناةٍ مَهْتوكَة الحُجُبِ
تقــــول : عَجِّلْ ادْخِلْ لنائِـكها
اتركه فى اسْتِىَ إن شئْتَ أو رُكَبِى
من نا كنى فيهما فأَوْسَعَـــنِى رَهْزًا دِرا كا أعطيْتُـــه سَلَبِى
هَمُّ حِرِى النَّيْكُ فابتغوا لِحرِى أيْرَ حمارٍ أقضِى به أَرَبِى
أُحِبّ أيْرَ الحمارِ [وابأبِى] فيشةُ أَيْرِ الحمار [وابأبى] (٣)
إذا رأته قالت فَدَيْتك يا قُرَّةَ عَيْنِى ومُنْتَهى طَلَبِى
إذا سمعتُ النهيقَ هاجَ حِرِى شوقًا إليـــه وهاج لى طرَبى
يأْخُذُنى فى أسافِلِى وحِرِى مثلَ اضْطرامِ الحريقِ فى الحطبِ
شَـكَتْ إلى نِسْوَةٍ فقُلْنَ لهـــا وهى تنادِى بالوَيْل والحربِ
كُفِى قليلًا فقالت فـكَيْفَ وَبى فى جَوْفِ صدعى كَحَلَّةِ الجَربِ
أرى أيورَ الرجال من عَصَبٍ ليت أيورَ الرجالِ من خَشَب

---

(١) غير واضح فى الأصل وما كتبناه عن الأغانى .
(٢) ناقص فى الأصل « « «
(٣) ما بين الأقواس عن الأغانى وهو غير واضح بالأصل .

كان ابن مناذر يجلس إلى إسكافٍ بالبصرة ، فلا يزال يهجوه بالأبياتِ فيصيحُ من ذلك ويقول له : أنا صديقُك فاتّقِ اللهَ وأبق على الصداقة ، وابنُ مناذر يُلِحُّ عليه فقال له الإسكاف : فإنى أستعينُ بالله عليك ، وأتعاطَى الشِّعْرَ ، فلما أصبح غدا عليه ابنُ مناذر كما كان يفعلُ ، وأخذ يَعْبَثُ به ويهجوه ، فقال الإسكاف :

كَثُرَتْ أُبوَّتُه وقلَّ عديدُه ... ورَمَى القضاءُ به فراشَ مُناذرِ

عبد الصبيريين لم تكُ شاعرا ... فَلِمَ ادعيتَ اليوم نسبةَ شاعرِ

فشاع البيتان بالبصرة، ورواهما أعداؤه، وجعلوا يتناشدونهما إذا رأوه ، فكانت من بعض أسباب خروجه من البصرة . وقال ابن مناذر ما [مرّ بى] قطُّ شىء أشد على من قول الإسكاف :

كثرتْ أُبوَّتُه وقلَّ عديده ... ورمى القضاءُ به فراشَ مناذرِ

انظر بكم صنف هجانى فى البيت . قبحه الله ، ثم منعنى من مكافأته أنى لم أجد نباهَةً فأغُضَّها ولا شَرَفًا فأَهْدِمَه ولا قَدْرا فأضَعَه .

وكان ابنُ مناذر يقول : إن الشعرَ ليسهلُ علىَّ حتى لو شئتُ الا أتكلم إلا بالشعر لفعلت .

أنشد ابن عائشةَ يوما مَرْثِيَةَ ابنِ مناذرٍ فى عبد المجيد ، فجعل كلّما أنشد بيتا يَسْتَحْسِنُه حتى أتى على قوله :

لأقيمنَّ مأتمًا كنجومِ الـ ... ـليل زُهْرًا يلْطِمْنَ حُرَّ الخدودِ

فقال ابن عائشة : هذا من كلام المُخَنَّثين فلما أنشد هذا البيت :

إنّ عبد المجيـد يوم توَلَّى ... هدّ ركنا ما كان بالمهدودِ

ما درى نعشُـه ولا حاملوه ... ما على النعشِ من عفَافٍ وجودِ

وأرانا كالزَّرْع يَحْصُدُنا الده ... رُ فمن بين قائمٍ وحصيدِ

فقال ابن عائشة : جَعَلنا زَرْعا للدهر ؟ ماهذا من كلام المسلمين ، فقيل : ألا ترى أنه يقول :

يحكُمُ الله ما يشاء ويَمْضى ليس حُكْمُ الإلهِ بالمردود

قال ابنُ مناذر: حجَّ الرشيد بعد إيقاعِه بالبرامكةِ ، وحج معه الفضلُ بن الربيع ، وكنت مُضيَّقاً مُمْلِقاً فهيأت فيه قولا أجدْتُ تنميقَه وتنوّقت فيه فدخلت إليه فى يوم التَّرْوِيَة ، فإذا هو يسألُ عنى ويطلبنى ، فبَدَرَنِى الفضلُ بن الربيع قبلَ أن أتكلم ، فقال : يا أمير المؤمنين هذا شاعر البرامكةِ ومادِحُهم ، وقد كان البشرُ ظهر لى فى وَجْهِه لما دخلت ، فتنَكَّرَ وعَبَس فى وجهى ، فقال له الفضل : يا أمير المؤمنين مُرْه أن يُنشِدَك قولَه فيهم :

* أتانا بنو الأملاكِ من آل برْمكٍ *

فقال لى : أنشدها . فأبيت ، فتوعّدنى وأكْرَهنى فأنشدته :

أتانا بنو الأملاكِ من آل برمكٍ فياطِيبَ أخبارٍ ويا حُسْنَ مَنظَرِ
إذا وردُوا بطحاءَ مكةَ أشْرَقتْ بيَحْيَي وبالفضلِ بن يحيي وجعفرِ
فتُظلِمُ بَغْدادٌ ويجلو لنا الدُّجى بمكةَ ما حجّوا ثلاثةَ أبدرِ
فما صلحتْ إلا لجودٍ أكفُّهُم وأقدامُهُم إلا لأعوادِ منبرِ
إذا راضَ يحيي الأمرَ ذَلَّتْ صِعابُه وحسبُك من راعٍ له ومُدَبِّرِ
ترى الناس إجلالا له وكأنهم غرانيقُ ماءٍ تحت بازٍ مُصَرْصِر

ثم أتبعتُ ذلك بأن قُلْتُ : كانوا أولئك أيامَ مَدَحْتُهم يا أميرَ المؤمنين فى طاعَتِك لم يَلْحَقهم سُخْطُك ، ولم تَحْلُلْ بهم نِقْمَتُك ، ولم أكنْ فى ذلك مُبْتَدِعا ولا خَلاَ أحَدٌ من نُظرائى من مدحهم ، وقد كان أَظَلَّنِى فضلُهم وأغنانى رِفْدُهم فأثنيتُ بما أَوْلَوْا فقال : يا غلام الْطُمْ وَجْهَه ، فلُطِمْتُ والله حتى سَدِرْتُ وأظلمَ ما بينى وبينَ أهلِ المجلس ، ثم قال : اسْحَبُوه على وجهه ، والله لأحْرِمَنَّك

ولا تركتُ أحداً يعطيك شيئا فى هذا العام ، فسُحِبْت حتى أُخرِجْتُ وانصرفت أسوأ الناسِ حالا فى نفسى وحالِى وما جرى عَلَىَّ ، ولا والله ما عندى يومئذ ما يُقيمُ بقوتِ عِيالى لعيدِهم ، فإذا أنا بشابٍّ قد وَقَفَ علىَّ وقال : أعْزِزْ علىّ والله يا كبيرَنا بما جرى عليك ودفعَ إلىّ صُرَّةً وقال : تَبَلَّغْ بما فى هذه فظننْتُها دراهمَ فإذا هى مائةُ دينار ، فقلتُ له : من أنت جعلنى الله فداءك ! ؟ قال : أنا أخوك أبو نواس ، فاسْتَعِن بهذه الدنانير ، واعذرنى ، فقبلتها ، وقلت : وصلك اللهُ يا أخى وأحسنَ جـزاءك .

قال ابنُ مناذر : قال لى جعفرُ بن يحيي : قُلْ فىَّ وفِى الرشيد شِعْرا تصف فيه الأُلْفَةَ بيننا فقلت :

قَدْ تُقْطَعُ الرَّحِمُ القريبُ وتُكْفَرُ النُّـ ... ـعْمَى ولا كتقاربِ القَلْبَيْنِ

يُدْنِى الهوَى هذا ويُدْنِى ذا الهوَى ... فإذا همـــا نَفْسٌ ترى نَفْسَيْنِ

وهذا مأخوذٌ من كلام رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، إنَّ الرحمَ تُقْطَعُ ، وإن النِعَمَ تُكْفَر ، ولم ترَ مثلَ تقاربِ القلوب .

قال ابن مناذر : العذراء البتولُ والبتورُ واحـدٌ وهى المُنْقَطِعُ إلى ربِّها عز وجل .

سئل أبو عبيدةَ عن اليوم الثانى من النَّحْرِ : ما كانت العربُ تُسَمِّيه؟ فقال : ليس عندى من ذلك عِلْم فسئل ابن مناذر فقال : أيَسْقُطُ هذا على مِثْلِ أبى عبيدة ! ! وعجب ، وقال : هى أَرْبَعَةُ ، على حَرْفِ الراء ، يوم النَّحْرِ ويوم القَرِّ ويومُ النَّفْرِ ويوم الصَّدَرِ .

ومما رَوَى ابنُ مناذر من الحديث أنَّ النبي ، صلى الله عليه وسلم ، لما نَظَرَ إلى القتْلَى يومَ بَدْرٍ ، وهم مُصَرَّعُون ، قال لأبى بكر ، رضى الله عنه : لو أنَّ أبا طالب

حَيٌّ لِعِلْمَ أن أسيافَنا قد أخَذَتْ بالأنامل ، يعني قول أبي طالب :

كَذَبْتُم وبيتِ اللهِ إن جدّ ما أرى ... لَتَلْتَبِسَنْ أسيافُنا بالأماثـلِ

وقال في شيرويه الزيادِيّ ، وشيرويه لقبُه ، واسمه أحمدُ ، وكان سَأَلَه حاجة فأبى أن يقضيها [له إلا(1) على] أن يمدحه :

ياسَمِيّ النبيِّ بالعربيـــهْ ... وسَمِيّ الليوثِ بالفارسيَّه

إن غضِبْنا فأنتَ عبدُ ثقيفٍ ... أو رَضينا فأنتَ عبدُ أميّه

فغضب شيروَيْه ، وشاع الشعرُ وكان بعد ذلك إذا قيل لشِيروَيْه : ابنُ مناذرٍ عليك غضبانُ أو راض ؟ يشتمُ من يقول له ذلك .

نظر ابن مناذر إلى غلامٍ حسنِ الوجه في مسجد البصرة فكتب إليه بهـذه الأبيات :

وجدتُ في الآثار في بعض ما ... حدثنـا الأشياخ في المُسْنَدِ

مما رَوَى الأعمشُ عن جابرٍ ... وعامرٍ الشعبيّ والأســـودِ

وما روى شعبةُ عن عـاصمٍ ... وقاله حمـــادُ عن فَرْقدِ

وَصِيَّـــة جاءتْ إلى كل ذي ... خَدّ خـــلا من شَعَرٍ أسْوَدِ

أن تَقْبَلوا الراغبَ في وَصْلِـكم ... فاقْبَـلْ فإني فيـك لم أزْهدِ

نوِّلْ فـكَمْ من جَمْرةٍ ضَمَّها ... قلبي من حُبِّك لم تَـبْردِ

فلما قرأها الفتىَ ضحك وقلب الرُّقْعَـة وكتب في ظهرها: لستُ شاعرا فأجيبَك ولا فاتِـكا فأساعِدَك ، وأنا أعوذ بالله منك ومن شَرِّك .

[لقي أبو العتاهيةِ محمدَ بن مناذر بمـكة ، فجعل يمازِحُه ويضاحِكُه ، ثم دخل على الرشيد فقال : يا أمير المؤمنين هذا ابنُ مناذر شاعرُ البصرة ، يقول قصيدة في سَنَةٍ

---

(١) ما بين القوسين عن الأغاني وهو غير واضح بالأصل .

وأنا أقولُ فى سنةٍ مائَتى قَصيدة ، فقال له الرشيد : أَدْخِلْه فأدخله وقَدَّرَ أن يضع منه عِنده ، فدخل فسَلَّمَ ودعا له ، فقال له الرشيد : ما هذا الذى يَحْكيه عنك أبو العتاهية . فقال : ما هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : يزعم أنك تعملُ قصيدةً فى سنة . وأنه يقول مائتى قصيدةٍ فى سنة . فقال : يا أمير المؤمنين لو كنتُ أقول كما يقول هو :

ألا يا عُتْبَةَ الساعهْ أموتُ الساعةَ الساعه

لقلتُ مثلَه كثيرا ، ولكنى أقول :

إنّ عبد المجيدِ يوم تَوَلّى هَدَّ رُكْنا ما كان بالمهدودِ

ما دَرَى نَعْشُه ولا حامِلوه ماعلى النعش ِمن عَفافٍ وجودِ

فقال له الرشيدُ : هاتِها ، فأنشدها . فقال له الرشيد : ما كان ينبغى أن تكون هذه القصيدةُ إلا لخليفةٍ أو وَلِىِّ عَهْدٍ ، مالها عيبٌ إلا أنها قِيلَتْ فى سُوقَةٍ وأمرَ له بعشرةِ آلافِ دِرْهم ، فقام أبو العتاهية يَجُرُّ رِجْلَيْه وكاد أن يَمُوتَ غَيْظا وأَسَفا .

سئل يحيى بنُ معينٍ عن محمدِ بن مناذرٍ الشاعرِ فقال : لم يكن بثِقَةٍ ولا مأمونٍ، رجلٌ سوقِىٌّ من البصرةِ موصوفٌ بالمجون والخلاعةِ ، فقيل : إنما نَكْتُبُ عنه شِعراً وحكاياتٍ عن الخليل بن أحمد ، فقال : أما هذا فنعم ، وأما الحديثُ فلست أراه مَوْضِعاً له .

قال على بن محمد النَّوْفَلِىُّ : رأيتُ محمدَ بنَ مناذر فى الحج سنة ثمانٍ وتسعين ومائة تقودُه جُوَيْرِيَةٌ حُرَّةٌ وقد كُفَّ بصرهُ ، وهو واقفٌ يشترى قِرْبَةً ، وهو وَسِخُ الثوبِ والبدنِ فلما صرتُ إلى البصرة أتتْنا وفاته فى تلك الأيام .

محمد العمانى (١)

هو محمدُ بن ذُؤَيْب بن محمد بن قدامة الحنظلى الدارمى الراجز .

وقيل له العُمَانِىّ وهو بَصْرِىٌّ ، لأنه كان شديدَ الصُّفْرةِ ، وليس هو ولا أبوه من عُمان ، وإنما أقبَلَ يوما وقد خَرَج من عِلّةٍ ، ووجهه مُصْفَرٌّ فقال له بعض أصحابه : يا أبا عبد الله خَرَجْت من هذه العِلّة كأنك جَمَلٌ عُمانِىٌّ وكانت جمالُ عُمان تحملُ الوَرْسَ من اليمنِ إلى عُمَانَ فتَصْفَرُّ . وهو من بنى تَميم ، ثم من بنى فُقَيْم . وكان شاعرا راجزا مُتَوَسِّطا من شعراء الدولةِ العباسيةِ ليس من نظراءِ الشعراءِ الذين شاهَدَهُم فى عَصْرِه مثل أشْجَع وسَلْم ومَروان ، ولكنه كان لطيفاً مقبولا ، وأفاد بشعره أموالا جليلة . قصد العمانِىُّ عبدَ الملك بنَ صالح الهاشمى متوسلا به إلى الرشيدِ فى الوصولِ إليه مع الشعراء ، ومدح عبدَ الملك بقصيدته التى يقول فيها :

نمَتْه العَرانِين من هاشم ... إلى النَّسَب الأَوضحِ الأَصْرحِ

إلى نَبْعَةٍ فرعُها فى السماءِ ... ومَغْرِسُها سُرَّةُ الأبطح

وأدخلَه عبدُ الملك بنُ صالح إلى الرشيد فأنشده :

يا ناعشَ الجَدِّ إذا الجدُّ عَثَر ... وجابرَ العظمِ إذا العظمُ انكَسرْ

أنت رَبيعِى والربيعُ يُنتَظَرْ ... وخيرُ أنواء الربيع ما بَكَر

فقال الرشيد : إذاً يبكُر عليك رَبِيعُنا ، يا فضلُ أَعْطِه خمسةَ آلافِ دينارٍ . وخمسين ثوبا .

كان المهدىُّ قد أجرى الخيلَ فسبقَها فَرَسٌ يقال له الغَضْبانُ ، وطلب الشعراءَ فلم

---

(١) الأغانى أميرى ١٧ : ٧٨ ـ طبقات الشعراء لابن المعتز .

يَحْضُرْ منهم أحدٌ إلا أبو دُلامةَ ، فقال : قَلِّدْه يازَنْد فلم يَفهَمْ ماأراد فقَلَّدَه عمامته فقال له المهدى : يا ابن اللخناء ، أنا أ كْثَرُ عمامةً منك ، إنما أردتُ أن تُقَلِّدَه شعراً ، ثم قال : يالهفى على العُمَانِيّ فلم يتكلم بها حتى أقبلَ العمانىُّ فقيل له : هذا هو قد أقبلَ الساعة يا أميرَ المؤمنين ، فقال : قَدِّموه فقُدِّم فقال : قَلِّدْ فرسى هذا فقال غير متوقف :

قد غَضِبَ الغضبانُ إذْ جَدَّ الغَضَبْ وجاء يَحْمِى حَسَباً فوق الحَسَبْ

مِنْ إرْثِ عباسِ بنِ عبدِ المُطَّلِبْ وجاءَتِ الخيلُ به تَشْكُو التَّعَبْ

لهُ عليها مالَكُمْ على العَرَبْ النسبُ المعروفُ غيرُ المُؤْتَشَبْ

فقال له المهدى : أحسنت والله ، وأمر له بعشرة آلاف درهم .

مُخـــــارق[1]

هو مخارقُ بن يحيي بن ناوُس الجزارُ ، مولى الرشيد ، وقيل : ناووس لقبُ أبيه يحيي .

وكنية مُخارق أبو المَهنّا ، كناه الرشيدُ بذلك ، وكان قَبْلَه لعاتكةَ بنتِ شُهْدَةَ ، وهى من المغنياتِ المُحْسِناتِ .

ونشأ مخارقٌ بالمدينة ، وقيل بالكوفة ، وكان أبوه جزّارا مملوكاً ، وكان مخارقٌ ، وهو صَبِىٌّ ، يُنادى على اللحمِ الذى يبيعُه أبوه ، فلما بانَ طيبُ صَوْته علّمَتْه مولاتُه طَرَفاً من الغناء ، وأرادت بَيْعَه فاشتراه إبراهيمُ المَوْصِلىّ منها ، وأهداه للفضلِ بنِ يحيي ، فأخذه الرشيدُ ثم أَعْتَقَه ، وكانت مولاتُه قَدِمَتْ به من الكوفةِ فنزلتْ المُخَرِّم[2] . وصار إبراهيمُ إلى الأَصْبَغ بن سِنان المُقَيِّن وشيرينَ ابنِ طرخانَ النخّاس فقالا له : إن ها هنا امرأةً من أهل الكوفة قد قَدِمَتْ ومعها غلامٌ مُغَنٍّ ، ونحبُّ أن تَنْفَعَها فيه فوجهوا بغلامٍ لإحضارِه قال : فوجده مُتمرِّغاً فى رمل الجزيرة التى بإزاء المُخَرِّم ، وهو يلعب ، فحملَه وأتى به إبراهيمَ فغنّى بين يديه ، فقال لها : كم أَمَلُكِ فيه ؟ فقالت : عشرةُ آلافِ دِرْهم . قال : قد أخذتُه بها ، وهو خير منها ، فقالت : أَقِلْنِى . قال : قد فعلتُ ، فكم أملك فيه ؟ قالت : عشرون ألفاً ، قال : قد أخذتُه بها ، وهو خير منها . فقالت : والله وما تطيبُ نفسى أن أَمْنَع كَبِداً رطْبةً عشرينَ ألفَ دِرهم ، فهل لك فى خَصْلَةٍ تعطينى به ثلاثين ألفَ دَرهم ، ولا أستقيلك بعدها ؟ فقال : قد فعلتُ وهو خير منها ، فصَفَقَتْ على يَدِه

---

(١) الأغانى ٢١ : ١٤٣ ومواضع أخرى .

(٢) المخرم : محلة كانت ببغداد بين الرصافة ونهر معلى منسوبة إلى مخرم بن يزيد بن شريح .

وبايعته ، وأحضرَ المال وأمر بزيادة ثلاثةِ آلاف درهم عليه ، وقال : تكون هذه لهَدِية تُهدينها أو كُسْوةٍ تَكْتَسينها ولا تَثْلمين المالَ وراح إلى الفضل بن يحيى ، فقال له : ما خبر غُلامٍ بلغنى أنك اشتريته ؟ فقال : هو ما بَلَغَك قال : فأرنيه ، فأحضره فلما تَغَنَّى بين يدى الفضل ، قال : ما أَرَى فيه الذى رأيت ، قال : أنت تريدُ أن يكونَ فى الغناء مِثْلى فى ساعةٍ واحدةٍ ، ولم يكن مثله فى الدنيا ولا يكونُ أبدا . فقال : بكم تَبيعُه ؟ قال : قد اشتريْتُه بثلاثة وثلاثين ألفَ دِرْهم وهو حُرٌّ لوجهِ الله إن بِعتُه إلا بثلاثةٍ وثلاثين ألفَ دينارٍ ، فغضب الفضل ، وقال : إنما أردْتَ أن تَمْنعَنيه أو أن تجعلَه سببا لأنْ تأخذ منى ثلاثةً وثلاثين ألفَ دينار ، فقال له : أنا أصنع بك خَصْلَةً . أبيعُك نِصْفَه بنصْفِ هذا المالِ ، وأكون شريكك فى نِصْفه ، فإن أعْجَبَك إذا عَلَّمْتُه أتممتَ لى باقى المالِ وإلا بِعْتُه بعدُ وكان الربح بينى وبينك ، فقال له الفضل : إنما أردتَ أن تأخذ منى المالَ الذى قَدَّمْتَ ذِكْره ، فلما لم تَقْدِرَ على ذلك أردتَ أن تأخذ نِصْفَه وغَضِبَ . فقال له إبراهيم : فأنا أهبُهُ لك على أَنه يساوى ثلاثةً وثلاثين ألفَ دينار ، قال : قد قَبِلْتُهُ قال : قد وهَبْتُه لك ، وغدا إبرهيمُ على الرشيد فقال : يا إبراهيم ماغلامٌ بلغنى أنك وَهَبْتَه للفضل ، فقال : يا أمير المؤمنين : غلام لم تَملِكِ العَربُ ولا العجمُ مِثْلَه ، ولا يكون مثلُه أبداً قال : فوَجَّه إلى الفضل يأمُره بإحضارِه ، فوجه به إليه ، فتغنى بين يدَيْه قال إبراهيم : فقال لى : كم يساوى ؟ فقلتُ : يساوى خَراجَ مِصْرَ وضِياعَها ، فقال لى : ويلك أتدْرِى ماتقول ؟ مبلغُ هذا المالِ كذا وكذا ، قلت : وما مقدارُ هذا المال فى شىء لم يَمْلِكْ أحدٌ مِثْلَه قط ، قال : فالتفتَ إلى مسرورٍ الكبير وقال : قد عرفتَ يمينى ألا أسألَ أحدا من البرامكة شيئا بعد قَنْقَنَة ، فقال مسرور : أنا أمضى إلى الفضل فأستوهِبُه منه ، فإذا وَهبه لى وكان عَبْدِى فهو عَبْدك ، فقال له شأنَك فمضى

مسرورٌ إلى الفضلِ فقال له : قد عرفْتُم ما وقمْتُم فيه من أمرٍ قنقنه وإن منعتموه هذا الغلامَ قامت القيامةُ ، واستَوْهَبَهُ منه فوَهَبَه له ، فكان عَلْوِيّةَ إذا غَضِبَ على مُخارِقٍ يقول له حيث يقول : أنت مولى أميرِ المؤمنين ، متى كنتَ كذلك ؟ إنما أنت عبدُ الفضلِ بن يحيى أو مولى مَسرور ، وكان سبب لقبِ أبيه ناووس ، أنه كان بايع رجلا أن يمضى إلى ناووسِ الكوفة فيطبخَ فيه قِدْراً بالليل حتى يَنضَجَ ، فطرح رَهْنَه بذلك ، فدس الرجلُ الذى راهَنه رجلا فألقَى نَفْسَه فى الناووسِ بين المَوْتى فلما فرغ ناووسُ من الطبْخِ مد الرجلُ يده من بين المَوْتى وقال لـه : أطْعِمْنى ، فغرف له مِلْءَ المغرفةِ من المَرَقَةِ وصبَّها فى يد الرجل فأحْرَقها وضرَبها بالمغرفة ، وقال له: اصبرْ حتى نُطْعِمَ الأحياءَ أولا ثم نتفرغ للموتى فلقب ناووس بذلك ، ولما اشتراه الرشيدُ كان يقف بين يديه مع الغلمانِ لا يجلس ويغنى وهـو واقفٌ فغنى له جامعٌ يوما بين يدى الرشيد :

كأن نيرانَنا فى جَنْبِ قَلْعَتِهم مُصَبَّغَاتٌ على أرْسانِ قَصَّارِ
هَوَتْ هِرَقْلَةُ لما أن رأتْ عَجَبا جوائماً تَرْتَمى بالنِّفْطِ والنارِ

فطرب الرشيد واستعاده منه عدةَ مرات ، وهو شعرٌ مدح به لما فتح هِرَقْلَةَ ، وأقبل على ابن جامع دون غيره ، فغمَز مُخارقُ إبراهيمَ بعَيْنه وتقدَّمه إلى الخلاء ، فلما جاءه قال : ما أراكَ منكسرا ؟ قال : أما ترى إقبالَ أمير المؤمنين على ابن جامع بسبب هذا الصوت ، قال : فقد والله أخَذْتُه منه ، فقال : ويحك ، إنه الرشيدُ وابن جامع من تعلمُ ، ولا يمكن معارَضَتُه إلا بما يَزيدُ على غِنائه وإلا فهو الموتُ . قال : دعنى وخَلاكَ ذَمٌّ ، وعَرِّفْه أنى أغَنّى به فإن أحسنتُ فإليك يُنْسب وإن أسأتُ فإلىّ يعودُ . فقال للرشيد : يا أمير المؤمنين أراكَ مُتَعَجِّبا من هذا الصوتِ بغير ما يَسْتَحِقُّه وأكثر ما يستوجبه . فقال : لقد أحسن فيه ابن جامع ما شاء . قال :

ولابن جامع هو ؟ قال : نعم كذا ذكر ، قال : فإنَّ عبدكَ مخارقا يُغَنِّيه فنظر إلى مخارق ، فقال : نعم يا أمير المؤمنين ، فقال : هاته ، فغنَّاه وتحفَّظَ فيه فأتى بالعجائبِ فطَرِبَ الرشيد حتى كاد يطيرُ فرحا ، وشَرِب ثم أقبل على ابن جامع ، فقال : ويلك ، ما هذا ؟ فابتدأ يحلفُ بالطلاقِ وكلِّ مُحْرِجَةٍ أنه لم يُسْمَعْ هذا الصوتُ قط إلّا منه ، ولا صَنَعَه غيرُه ، وأنها حيلةٌ جَرَتْ عليه ، فأقبلَ على إبراهيم وقال : أصدِقْني بحياتي ، فصدق عن قِصَّةِ مخارقٍ . فقال له : أكذلك هو يا مخارق ؟ قال : نعم يا مولاى ، قال : فاجلس إذًا مع أصحابك ، فقد تجاوزتَ مرتبةَ من يقومُ وعَتَقَه ووَصَلَه ثلاثين ألفَ دينار ، وأقطعه ضيعةً وأعطاه منزلا .

قال هارون بن مُخارِق : كان أبى إذا غَنّى هذا الصوت :

يا ربعَ سَلْمَى لقد هيجتَ لى طرباً　　زِدْتَ الفؤادَ على عِلّاتِه وَصَبــا
رَبْعٌ تبــدَّلَ ممن كان يَسْكُنُــه　　عُفْرَ الظباءِ وظُلْمَاناً به عُصَبَــا

يبكى ويقول : أنا مولى هذا الصوت ، فقلت له : وكيف يا أَبَهْ فقال : غنّيتُه مولاىَ الرشيدَ فبكى وشربَ عليه رِطْلا ثم قال: أحسنتَ يا مخارقَ ، فسلني حاجتك ، فقلت : تُعْتِقُني يا أميرَ المؤمنين من الرِّقِّ وتَسْتَرِقّـني بولائِك ، أعتقَك اللهُ من النار ، فقال : أنت حر لوجهِ الله ، أعِدِ الصوتَ فأعَدْتُه فبَكَى وشربَ رِطْلا ، وقال : أحسنت يا مخارقُ فسَلْني حاجتَك ، فقلت : ضيعةٌ تُقيمني غَلَّتُها قال : قد أمرتُ لك بها ، أعِدِ الصوتَ فأعدتُه فبكى ، وقال : سل حاجَتَك فقلتُ يا أمير المومنين : تأمرُ لى بمنزلٍ وما يُصْلِحُه وفَرْشٍ وخادمٍ ، قال : ذلك لك ، أعِدِ الصوتَ فأعدتُه فبكى ، وقال : سل حاجتَك فقبّلتُ الأرض بين يديه وقلت : حاجتى أن يُطيلَ اللهُ بقاءَك ويديمَ عِزك ويجعلَني من كلِّ سوءٍ فداءَك فأنا مولى هذا الصوتِ بعدَ مَولاى .

قال مخارق : اصطبحَ الرشيدُ يوما فقال للمغنين من منكم يُغَنِّي :

* يا ربعَ سلمى لقد هيجت لى طربا *

فقمتُ وقلتُ : أنا يا أميرَ المؤمنين ، فقال : هاته ، فغنيته فطرِبَ وشرِب ثم قال: علىَّ بهرثمة ، فقلت فى نفسى : ما تراه يريد به ، فجاءوا بهرثمة ، فأُدْخِل عليه وهو يجر سيْفَه فقال : ياهَرْثَمة ، مخارقٌ الشارِىالذى قتلناه بنواحى المَوْصِلِ ، ما كانت كنيته؟ فقال : أبو المهنّأ . فقال : انصرفْ فانصرفَ ثم أقبل علىّ فقال : قد كَنَيْتُك أبا المُهنّأ لإحسانِك وأمر لى بمائةِ ألف درهم ، فانصرفتُ بها وبالكُنْية وكان الواثق يقول: خَطأُ إسحاقَ كصواب مخارق وخطأ مخارق كصواب علويّه ، وما غَنَّانى مخارق قط إلا قدّرت أنهمن قَلْبِى خُلِق، ولا غنّانى إسحاقُ إلا ظننتُ أنه زيدَ فى مُلكى مُلْكٌ آخر . وكان يقول : أتريدون أن تنظروا فَضْلَ مخارق على جميع أصحابه ، انظروا إلى هؤلاء الغلمانِ الذين يقفون فى السِّماطِ ، فكانوا يتفقدونهم وهم وقوفٌ ، وكلهم يَسْمَعُ الغناءَ من المغنّين جميعا ، وهو واقف مكانه ضابط لنفسه ، فإذا غنى مخارقٌ خرجوا عن صُوَرِهم فتحركتْ أرجلُهم ومنا كبُهم وبانت أسبابُ الطربِ فيهم ، وازدحموا علىالَحبْل الذين يقفون من ورائِه . قال رجلٌ لأبى العتاهية ، وقد حضرته الوفاةُ : هل فى نفسك شىء تشتهيه ؟ قال : نعم ، يحضر مخارقٌ الساعةَ ويغنى :

ستُعْرِضُعن ذِكْرِى وتَنْسَىمَوَدَّتى ويحدثُ بعدى للخليلِ خليـــلُ
إذا ما انقَضَتْعـنّىمن الدهرُ مُدّتى فإن غنـاءَ البـاكياتِ قليـلُ

كان عبدُ الله بنُ سهل وجماعةٌ وقوفاً بكُناسَةِ الدوابِ ، فى الجانب الغربى ببغداد، يتحدثون ، فأقبل مخارقٌ على حِمارٍ أسودَ ، وعليه قميص رقيقٌ ورداءٌ مُسَهَّم ، فقال : فيم كنتم ؟ فأخبروه ، فقال : دعونى من وَسْواسِكم هذا ، أىُّشىءٍ لى عليكم إنرميتُ بنفسى بين قَبْرين من هذه القبور ، وغطيتُ وجهى وغنيتُ صوتا ، فلم يبق أحدٌ فى الكُناسةِ ولا فى الطريق ، من مشترٍ ولا بائعٍ ولا صادرٍ ولا واردٍ إلا ترك عَمَلَه وقَرُبَ منى واتَّبَعَ صوتِى فقال عبد الله : إنى لأُحِبّ أن أرى هذا ، فقل ما شِئْت.

فقال : فَرَسُك الأشقرُ الذى طَلَبْتُه منك فَمَنَعْتَنِيه قال : هو لك إن فعلتَ ما قلتَ ، ثم دخلها ورمى بنفسه بين قَبْرَين وتغطّى بردائه ثم اندفع يغنى فى شعر أبى العتاهية :

نادتْ بوشكِ رحيلِك الأيامُ أفلست تسمعُ أم بك استِصْمامُ

ومضى أمامَك من رأيت وأنت للـ باقِين حتى يَلْحقوك إمامُ

مالى أراك كأن عيْنَك لا ترى عِبَرًا تمرُّ كأنهن سِهامُ

تمضِى الخطوبُ وأنت مُنْتَبِهٌ لها فإذا مَضَتْ فكأنها أحلامُ

قال : فرأيت الناسَ يَنْفَضون إلى المقبرةِ أرْسالا بين راكبٍ وراجلٍ وصاحب شَوْك وصاحب كِرًى ومارّ الطريق ولم يبق بالطريق أحدٌ ثم قال لنا : من تحت ردائه ، هل بقى أحد ؟ قلنا : لا ، وقد وجبَ الرَّهْنُ فقام فركبَ حِمارَه وعاد الناس إلى صنائِعهم ، وقال لعبد الله : احْضِرْ الفرَس فقال : على أن تُقِيمَ اليومَ عندى ، قال : نعم ، فانصرفوا وسلَّمَ الفرسَ إليه وبرَّه وأحسنَ رِفْده .

[دخل أبو العتاهية يوما إلى صديقٍ له، وعنده جارية تغنى، فقال: يا أبا إسحاق، إن هذه الجارية تغنّى صوتاً حسنا فى شعرٍ لك أفتنبَسِطُ لسماعِه قال : هاته، فغنّته لحنا لعَمْرو ابن بانة فى قوله :

* نادَتْ بوَشْكِ رحيلكَ الأيامُ *

فعبَس وبَسَر ، وقال : لا جزى اللهُ خيْرًا من صنع هذه الصنعةَ فى شِعْرى ، قال : فإنها تُغَنِّى فيه لحنا لُمخارِقٍ قال : فلتغَنِّه فغنّته فأعجبه وطرب طَرَبا شديدا ، حتى بكى . وقال : جزى اللهُ هذا عنّى خيرا .

قال مخارق : رأيت ، وأنا حدَث ، كأن شيخا جالسا على سريرٍ فى روضةٍ حسنةٍ قد دعانى ، فقال : غنّنى يا مخارق ، فقلت : أصوْتا تقترحه أو ما حضرَ ؟ فقال : بل ما حضر ، فغنيته فى هذا الشعر بصنْعَتِى :

دع القلبَ لا يزددْ خَبالا مع الذى به منك أو داوى جَواه المُكَتَّما

وليس بتزويق اللسانِ وصَوْغِه ولكنه قد خالَطَ اللحمَ والدَّما

فقال : أحسنت يا مخارق ، ثم أخذ وترا من أوتار العود فلفَّه على المضراب ودفعه إلىّ فجعل المضرابُ يطولُ ويَغْلُظُ والوتر ينْتَشِرُ ويَعْرُض حتى صار المضرابُ كالرُّمح والوترُ كالعذَبةِ عليه وصار فى يدى عَلَماً ، ثم انتبهتُ فحدثت رؤيایَ إبراهيمَ المَوْصِلِىّ فقال لى : الشيخُ ، بلا شك ، إبليسُ وقد عَقَدَ لك لواء صناعَتِك فأنت ما حييتَ رئيسُ أَهْلِها ، وأظنُّ مادحَ مخارقٍ غَنّى هذا بقوله :

لقد عقدَ الشيخُ الذى غرَّ آدما فأخرجه من جَنَّةٍ وحدائقِ

لواءَىْ فنون للقريض وللغِنَا وأقسمَ لا يُعْطِيهما غيرَ حاذِقِ

كان هارونُ بْنُ أحمدَ بنِ هشام عند مخارقٍ ، فلعب معه بالنَّرْدِ فقَمَره مخارقٌ مائتى رطل باقِلِىّ طرِيًّا : فقال مخارق : وأنتم عِندى أطعِمُكم من لَحْمِ جَزورٍ من الصِّناعة ، يعنى من صناعةِ أبيه ومرَّ بهارونَ بنِ أحمد فصيلٌ ينادَى عليه ، فاشتراه بأربعةِ دنانيرَ ووجَّه به إلى مُخارق : وقال : يكون ما تُطْعِمُنا من هذا الفصيل ، فاجتمعوا وطَبَخ مخارقٌ بيده جُزَارتَه ، وعمل من سنانه وكبده ولَحْمه ضفائرَ وشُويَتْ فى التنورِ ، وعمل من لَحْمِه لونا يشبه الهَرِيسةَ بشعير مُقَشَّرٍ فى نهاية الطِّيب ، فأكلنا وجلسنا نشْرَبُ فإذا بامرأة تَصيحُ من الشَّطِّ : يا أبا المُهَنَّأ ، اللهَ اللهَ فىَّ ، حلف زوجى عَلَىَّ بالطلاقِ الثلاثِ أن يَسْمَعَ غناءَك ويشربَ عليه . فقال : اذهبى فجيئى به ، فجاء فجلس . فقال له : ما حملك على ما صَنَعْت فقال له : يا سيدى كنت سمعتُ صوتا من صَنْعَتِك فطربتُ عليه حتى استخفَّنى الطربُ فحلفت أن أسمَعه منك ثقةً بإيجابك حقَّ زوجتى ، وكانت زوجته دأية هارون من مخارق فقال : وما الصوت؟ فقال شعر لحسين بن مطير :

بَكَرَتْ عليك فهيَّجَتْ وَجْدا هُوجُ الرياحِ وأذْكَرَتْ نَجْدا

أتحِنّ من شوقٍ إذا ذُكِرَتْ نَجْدٌ وأنت تركْتَها عَمْدا

فغناه إياه وسقاه رِطلا ، وأمره بالانصراف ونهاه ألا يعاودَ ، وخرج فلم يلبث أن عادت المرأة تصرخُ ، اللهَ اللهَ يا أبا المهنأ قدأعاد زوجى المشئومُ تلك اليمينَ أنك تغنّيه صوتا آخر ، فقال لها : أحْضريه . فقال له : ويلك مالى ولك، أىُّ شئٍ قضيّتُك فقال : يا سيدى أنا رجلٌ طروبٌ فقد كنت سمعتُ لك صوتا آخر فاستفزّنى الطربُ إلى أن حَلَفْتُ بالطلاق ثلاثا أنّى أسْمَعَه منك قال : وما هو ؟ قال :

أبلغْ سلامةَ أنّ البينَ قد أَفِدَا　　وأن صَحْبَك عنها رائحون غَدا

هذا الفراقُ يقيناً أن صَبرتْ له　　أولا فإنك منها ميّتٌ كَمَدا

لاشكّ أن الذى بى سوف يُهْلِكُنى　　إن كان أَهْلَكَ حبٌّ قبله أحدا

فغناه إياه مخارقٌ وسَقاه رِطْلا وقال له : احذر أن تُعاودَ فانصرفَ ولم تَلْبَثْ أن عاودت الصياحَ، تصرخُ: ياسيدى قد عاودَ اليمين ثلاثة ، اللهَ اللهَ فىّ وفى أولادى، قال : هاتيه فأحضَرَته فقال لها : انصرِفى أنت، فإنَّ هذا كلّما انصرفَ حلف وعاد، فدعِيه يقيمُ يومه وليْلَته ، فتركته وانصرفتْ . فقال له مخارقُ : ما قِصَّتُك أيضا ؟ قال : قد عرّفتك يا سيدى أنّنى رجلٌ طروبٌ وكنت سَمِعْتُك تغنى صوتا من صَنْعتك فاستخفّنِى الطربُ إلى أن حلفتُ أن أسْمَعَه منك قال وما هو قال :

أَلِفَ الظبيُ بِعادِى　　ونَفَى عنى رُقادِى

وعدا الهجرُ على الوصْ　　لِ بأسيافٍ حِدادِ

قل لمن زَيَّفَ وُدِّى　　لستَ أهلا لودادِى

فغناه إياه وسقاه رطلا ثم قال : يا غلام ، مقارعُ ، فجِىءَ بها ، وأمَرَ به فبُطِحَ وضرب خمسين مِقْرَعة ، وهو يستغيثُ ولا تُكَلِّمه ثم قال : أحلف بالطلاق ثلاثا أنك لا تذْكُرُنى أبدًا وإلا كان هذا دَأْبَك إلى الليل فحلف بالطلاق ثلاثا على ماأمره به ثم أُقِيمَ وأخرج من الدار فجعلنا نضحك بقية يومنا من حُمْقِه .

خرج مخارقٌ مع بعض إخوانه إلى بعض المُتَنَزَّهاتِ فنظر إلى قَوْسٍ مُذَهَّبَةٍ مع بعض من خرج ، فسأله إياها ، فكان المسئولُ ضَنَّ بها ، وسَنَحتْ ظباءٌ بالقرب منه فقال لصاحب القوسِ : أرأيتَ إن تغنيتُ صوتا فعَطَفتْ علىّ به صدورُ هذه الظباء أتدفعُ إلىّ القوس ؟ قال : نعم ، فاندفع يغنى :

ماذا تقول الظباءُ أفُرْقَةٌ أم لقاءُ
أم عَهْدُها بسُلَيْمَى وفى البيانِ الشفاءُ
مرّت بنا سانحاتٍ وقد بدا الإمساءُ
فما أحارَتْ جوابا وطال فيها العَناءُ

فعطَفَتِ الظباءُ راجعةً إليه حتى وقفتْ بالقرب منه تنظُرُ إليه مُصْغيةً إلى صوتهِ فعجبَ من حضر من رُجوعها ووقوفِها ، وناوله الرجلُ القوسَ ، فأخذها منه وقطعَ الغناء وعاودت الظباءُ نِفارها ومضت راجعة على سَنَنِها .

دخل المتوكل إلى جارية من جواريه وهى تغنى :

أمِنْ قَطْرِ الندى نَظمْـ ـتِ ثَغْرَكَ أم من البَرَدِ
ورِيقُكِ من سلافِ الكَرْ مِ أم من صَفْوَةِ الشُّهُدِ
أيا من قد جرَى منّى كمَجْرى الروحِ فى الجَسَدِ
ضميرُكِ شاهِدى فيما أقاسيهِ من الكَمَدِ

فقال لها : ويحك لمن هذا الغناء ؟ قالت : أخذتُه عن مخارق ، قال : فألقيه على الجوارى جميعا ، ففعلَت ، فلما أخذنه عنها أمر بإخراجهنّ إليه ، ودعا بالنبيذ وأمَرَهن ألا تغنينه غيرَه ثلاثةَ أيام متوالية ، وكان ذلك بعد وفاةِ مخارق .

قال عبدُ الله بنُ إبراهيم بنِ المهدى : غَنَّتْ شاريةُ يوما بحضرة أبى صوتاً فأَحدَّ النظر إليها ، وصبر حتى قَطَعَتْ نَفَسَها ثم قال لها : امْسِكِى فأمسَكَتْ . فقال : قد عرفتُ إلى أين ذهبتِ أردتِ أن تتشبهى بمخارق فى تزايُدِه ، قالت : نعم يا سيدى ،

قال : فإياكِ أن تعودى ، فإن مخارقا خَلَقَه الله وَحْـدَه فى طَبْعِه وخَلْقه وصُورتِه ونَفَسِه يتصرفُ فى ذلك أجمع كيفَ أحبَّ ، ولا يَلْحَقُه أحدٌ ، ولقد أراد غيرُكِ أن يتشبَّه به فى هذه الحالِ فهلَكَ وافتضَح ولم يلحَقْه فـلا أَسْمَعَنّك تتعرّضين لمثل هذا بعد وقتنا هذا .

قال مخارق : دعانى الأمينُ يوما ، وقد اصطبح واقترح على :

استَقْبَلَتْ ورقَ الريحانِ تَلْفِظُه ... وعنبرَ الهندِ والورديةَ الجددا

ألستَ تعرفنى فى الحى جارية ... ولم أخنك ولم أمْدُدْ إليك يدا

فغنيتهُ إياه ، فطرب عليه طَرَبا شديدا ، وشرب عليه أرطالا ، وأمر لى بألفِ دينار وخَلَعَ علىّ جُبّة وَشْىٍ كانت عليـه مُذَهَّبة ودُرّاعةً مِثْلَها ، تـكاد تُعْشِى البصرَ من كثرة الذهب ، فلما لبستُ ذلك ورآه علىّ نَدِم ، وكان كثيرا ما يفعل ذلك ، فقال لبعض الخدَمِ : قل للطبّاخ يأْتِينا بِعَصْلِيَّةٍ[1] معقورةِ الساعةَ فأُتِى بها . فقال لى : كل مَعِى ، وكنت أعْرَفُ الناس به وبكراهيته ذلك ، فامتنعت فحلفَ أن آكل معه ، فحين أدخلت يدى فى الغضارة[2] رفع يده وقال : أفٍّ نَغَّصْتَها ، والله ، علىّ وقذَّرْتَها عِنْدِى بإدخالك يَدَكَ فيهـا ، ثم رَفَسَ القصعةَ رَفْسَةً فإذا هى فى حِجْرِى ، وَوَدَكُها يسيل على الخِلْعَة ، حتى نَفَذَ إلى جِلْدِى فقمتُ مُبادراً فنزَعْتها وبعثتُ بها إلى منزلى ، وعدت وأنا مغمومٌ بها ، وهو يضحك . فلمّا رجعتُ إلى منزلى جمعتُ كل صانعٍ حاذِقٍ فجهدوا فى إخراجِ الأثر منها فلم يَخْرُجْ ولم انتفعُ بها حتى أحْرَقتُها ، فأخذتُ ذَهَبها ، وضربَ الدهرُ ضَرَباتَه فدعانى المأمـون فدخلتُ إليه ، وهو جالس ، وبين يديه مائدةٌ عليها رغيفان ودجاجتان ، فقال لى : تعال وكل ، فامتنعت . فقال لى : ويلك تعال فساعِدْنى فجلستُ فأكلت حتى استوفَى ووضع

---

(١) المصلى : المشوى .

(٢) الغضارة : القصعة الـكبيرة

النبيذ ودعا علويـة فجلس فقال لى : يا مخارق أتغنى :

أقولُ التماسَ العُذْرِ لما ظَلَمْتِنِي وحَمَّلتِنِي ذَنْبا وما كُنت مُذْنبا
هبينى امرأً إمّا بَرِيئا ظَلَمْتِهِ وإما مُسيئا قـــد أنابَ وأَعْتَبا

فقلت : نعم ياسيدى ، فقال : غنه ، فغنيْتُه فعبَس فى وجهى ، وقال : قبحَكَ الله ، أهـكذا يُغَنَّى هذا ثم أقبلَ على علوية ، فقال : تُغَنِّيه ؟ فقال : نعم ياسيدى ، فقال : غنه فغناه ، فو الله ما قارَبَنِي فيـه ، فقال : أحسنتَ والله ، وشرب رِطلا وأمر له بعشْرةِ آلاف دِرْهم واستعاده ثلاثا ، وشرب عليه ثلاثةَ أرطال ، يُعْطيه مع كل رِطْلٍ عشرةَ آلاف درهم ، ثم حَذَف بإصبعه وقال : بَرْقٌ يمان ، وكان إذا أراد قَطْع الشُّرْبِ فعل ذلك فقمْنا ، فعلمت من أين أُتيتُ ، فلما كان بعد أيام دعانى فدخلت إليه ، وهو جالس فى ذلك الموضع بعينه ، يأكلُ فقال لى : تعالَ ، ويلك ، فساعِدْنى ، فقلتُ : الطـلاق لازمٌ لى إن فعلت ، فضحك ، ثم قال : ويلك أتراني بخيلا على الطعام ؟ لا ، والله ، ولـكن أردتُ أن أؤدِّبَـك فإن السادةَ لا ينبغى لعَبيدها أن تؤاكلها أفهمت ؟ فقلت : نعم : قال : الآن إذَنْ فـكُلْ ولك الأمان ، فقلت : أكونُ أولَ من أضاع تأديبَك واستحق العقوبةَ من قَريبٍ ، فضحكَ حتى استغْرَب ، وأمر لى بألفِ دينارٍ ، ومضيت إلى حُجْرَتِي المرسومة لى للخِدْمة فأتِيتُ هناكَ بطعامٍ فأكلتُ ووضع النبيذَ ودعا علوية فلما جلسنا قال يا علوية أتغـنّى :

ألم تقـــولى نَعَمْ قالت أَرَى وَهْماً منى وهَلْ يُؤْخَذُ الإنسانُ بالوَهَمِ
قولى نَعَمْ إنّ لا إنْ قلتِ قاتلتى ما ذا تريدين من قَتْلِى بغيرِ دَمِ

فقال : نعم يا سيدى ، فقال . غنه ، فغناه فعَبَس فى وجهه وبَسَر ، وقال : قبحك الله ، أتُغَنِّى هذا هكذا ! ؟ ثم أقبلَ علىّ فقال : أتغنيه يا مخارق ؟ فقلت : نعم يا سيدى . وعرفت أنه أراد أن يَسْتَقِيدَ لى من علوية ، ويرْفَعَ منى ، وإلا فما أتى

علوية بما يعابُ فيه ، فغنيتُه فطرب وشربَ رِطلا ، وأمر لى بعشرةِ آلافِ درهمٍ ، وفعل ذلك ثلاث مرات ، كما فعل به ثم أمر بالانصرافِ ، وما عاودت بعد ذلك مؤاكلةَ خليفة إلى وقتنا هذا .

غضب المعتصمُ على مخارق فأمر أن يُجعَلَ فى المُؤَذّنين ، ويلزَمهم ، ففعل ذلك ، فأمْهلَ حتى علم أن المعتصمَ جلس للشرابِ وأُذّنَت العصرُ ، فدخل هو إلى السِّترِ حيث يقف المُؤذِّنُ للسلامِ ثم رفعَ صَوْتَه جُهْدَه وقال : السلامُ عليك ياأمير المؤمنين ورحمةُ الله وبركاتُه ، الصلاةَ يرْحَمُك الله ، فبكى حتى جرتْ دموعُه وبكى كلُّ من حَضَره ، ثم قال : أدْخِلوه إلىّ وأقبل علينْا وقال : سمعتم هكذا قط ، هذا الشيطان لا يترك أحداً يَغضَبُ عليه ، فأُدْخِل عليه فقبَّلَ الأرضَ بين يديه ، ودعاه المعتصمُ إليه وأعطاه يده فقبَّلها وأمره بإحضار عُودِه فأحضره وأعادَه إلى مرتبته .

قال أبو يعقوبَ الخرَيْمى : ما رأيت كثلاثةِ رجالٍ كانوا يأ كلون الناسَ أكلاً حتى إذا رأوا ثلاثةَ رجالٍ ذابوا كما يَذوبُ الرَّصاصُ على النـارِ ، كان هشامُ بن الـكلبيُّ علّامةً نسّابةً راويةً للمثالبِ عيَّابةً ، فإذا رأى الهيثمَ بنَ عَدىّ ذابَ كما يذوبُ الرَّصاصُ . وكان عدى بن الهيثم جونقا مفقعانيا[1] صاحب تَقَعُّرٍ يستولى على كل كلام ، ولا يحفـلُ بخطيب ولا شاعرٍ فإذا رأى موسى الضَّبّىَّ ذاب كما يذوبُ الرصاصُ ، وكان علويّـة واحدَ الناس فى الغناء روايةً وحكايةً فإذا رأى مخارقاً ذاب كما يذوب الرصاصُ على النار .

كان مخارق يهوى جاريةً لأم جعفرٍ يقال لها نهارُ ويسترُ ذلك عن أمِّ جعفر حتى بلغها فأقصَتْه ومنعَتْه من المرور بها فمات كلفاً بها ، وقيل : إن مخارقا لما بلغَ

---

(١) من التفقيع وهو التشدق فى الـكلام .

أمَّ جعفرٍ قطَعها إجلالا لها وطَمعا فى السلوِّ عن جاريتها ، وضاق ذَرْعُه بذلك ، فبينا هو ذاتَ ليلة فى زلال وقد انصرفَ من دار المأمونِ ، وأُمُّ جعفرٍ تشرفُ على دجلة إذ حاذَى دارها فرأى الشمعَ يُزْهِرُ فلما صار بمرأى منها ومسمعٍ اندفع يغنى فى شعر العباسِ بنِ الأحنف :

إن يمنعونى تَمرِّى قربَ دارِكُمُ ... فسوف أنظرُ من بُعْدٍ إلى الدارِ
سِيما الهوَى عُرِفَتْ حتى شُهِرتُ بها ... إنى محبٌ وما بالحبِّ من عــارِ
ما ضرَّ جيرانَــكم واللهُ يُصْلِحُهُمْ ... لولا شقائى إقبـالى وإدبارِى
لا يقدرون على مَنْعِى وإن جَهدوا ... إذا مررتُ وتَسْليمى بإضمارى

فقالت أم جعفر : مخارقٌ . والله ، رُدُّوه فصاحوا بمَلَّاحِه فقَدِم فأمَرَه الخدمُ بالصعود فصَعِدَ وأمرت له أم جعفرٍ بكُرْسِىٍّ وصِينيةٍ فيها نبيذٌ فشرب وخَلَعَتْ عليــه وأمرت الجوارى فغنيْن ثم ضَرَبْن عليه فغَنَّى فــكان أولَ ما غنى للعباسِ ابن الأحنف :

أغيبُ عنــك بُودٍ لا يُغيِّرُه ... نأىُ المحلِّ ولا صرفٌ من الزمن
فإن أعِشْ فلعــل الدهرَ يجْمَعنا ... وإن أمتْ فقتيلُ الهمِّ والحزنِ
قد حسَّنَ اللهُ فى عينىَّ ما صَنَعَتْ ... حتى أرى حَسَناً ماليس بالحَسَنِ

قال : فاندفعت نهارُ فغنّتْ كأنها تُبايِنُه[1] ، وأجابَتْه عن معنى ما عرَّض لهــا به :

تعتلُّ بالشُّغْلِ عنــا ما تُلِمُّ بنا ... الشُّغْلُ للقلب ليس الشغلُ للبدنِ

ففطنت أمُ جعفر أنها خاطبَتْه بما فى نفسها ، فضَحِكَتْ وقالت : ما سمعنا بأملح مما صنعتما ووهَبَتْها له .

---

(١) باينه : هاجره .

قال مخارقٌ : كنت عند المأمون يوما فجاءه الخادمُ الحرمىُّ ، فأسرّ إليه شيئا ، فوثبَ فدخل معه ، ثم أبطأ علينا ساعةً وعاد وعيناه تَذْرِفان ، فقال : دخلت الساعة إلى جاريةٍ لى كنت أتحَظّاها فوجدتُها فى الموت ، فسلمتُ عليها فلم تَسْتَطِع رَدَّ السلام إلا إيماءً بأصبعها فقلت هذين البيتين .

سلامٌ على مَنْ لم يُطِقْ عند بَيْنِه سلاما فأوْمَى بالبنانِ المُخَضَّبِ
فما اسْطَعْتُ توديعا له بسِوَى البُكا وذلك جهــدُ المستهامِ المُعَذَّبِ

ثم قال : غَنِّ فيها يا مخارقُ . ففعلت ؛ فما استعادنى ذلك الغناءَ قطُّ إلا بكى .

حج رجــلٌ مع مخارق فلما قضيا الحجَّ وعادا قال له الرجل : بحَـقِّى غَنِّـنى صوتاً فغناه :

رَحَلْنا فشرَّقْنا وراحوا فغرَّبوا وفاضت لروعاتِ الفِراق عيونُ

وتوفى مخارقٌ فى أول خلافةِ المُتَوَكِّـل وقيل فى آخر خلافةِ الواثقِ وكان أكل قنبيطة باردة فقتلته فى يومه .

***

نجز الجزء السابع من مختار الأغـانى بحمد الله تعالى وعونه وتوفيقه. فرغ من تعليقه جامعه عبد الله محمد بن المكرم الأنصارى فى د بعج .

مسلم (١)

هو مسلمُ بنُ الوليد مولى الأنْصَارِ ، ثم مولى أبى أُمامةَ ، سعدِ بن زُرَارَة الَخزْرَجِىّ ولُقِّبَ صريعَ الغوانى ، شاعرٌ متقدمٌ من شعراء الدولةِ العباسيةِ ، ومولدهُ بالكوفةِ ، وهو فيما زعموا أولُ من قال الشِّعْرَ المعروفَ بالبديعِ ، وتبعه فيه جماعة ، وأشهرهم أبو تمام الطائى ، فإنه جعل شِعْرَه كلَّه مَذْهباً واحداً ، وكان مسلم متَفَنِّنا مُتَصَرِّفا فى شعره حَسَنَ النمطِ جَيِّدَ القولِ فى الشرابِ ، وكثيرٌ من الرواة يُقَرِّبه من أبى نواسٍ فى هـذا المعنى ، وهو أولُ من عقـدَ المعانىَ اللطيفةَ واستَخْرَجها ، وكان هو وأخوه مُنْقَطِعَين إلى يزيدَ بنِ مَزْيد ومحمدِ بن منصور بن زِيادٍ ، ثم الفضلِ بنِ سَهْلٍ بعدَ ذلك ، وقلدَه الفضلُ المظالمَ بجُرْجَان فمات بها ، وعلق مُسْلِمٌ جاريةً ذات ذِكْرٍ وشَرَفٍ ، وكان مَنْزِلُها فى مَهَبِّ الشمال من منزله فقال فى ذلك :

أحِبُّ الريحَ ما هبَّت شَمَالاً ... وأحْسُدُها إذا هبَّت جَنُوبا

أهابُكِ أن أبوحَ بذات نفسى ... وأفرَقُ إن سألْتك أن أَجيبا

وأهجرُ صاحبى حُبَّ التَّجَنِّى ... عليـه إذا ما تجنيتُ الذنُوبا

كأنى حين أغْضِى عن سواكم ... أخافُ لـكم على عَيْنى رَقيبا

وكانت له جاريةٌ يُرْسِلُها إليها ويَبُثُّها سِرَّه فتعودُ إليه بأخبارها ورسائلها ، فطال ذلك بينهما حتى أَحَبَّتْها الجاريةُ التى علقها مُسْلِمٌ ، ومالتْ إليها وكانتاهما فى

---

(١) اعتمدنا فى تحقيق هذه الترجمة على ديوان مسلم ومقدمته التى جمعت ما كتب عنه فى كتب الأدب (طبع ليدن) .

نهايةِ الحسْن والكمال ، وكان مسلم يحبُّ جاريتَة محبةً شديدةً ، ولم يكن يهوى تلك ، إنما كان يريد الغزَلَ والأدبَ فلما رأى مودةَ تلك الجاريةِ لجاريتِها هجر جاريته مُنْكِراً لذلك وقطعها عن الذهاب إلى تلك وقال :

تدّعِي الشوقَ إن نأت وتجنّى[1] إذا دَنَتْ
واعدتنا وأخْلَفَتْ فأساءَتْ وأحسَنَتْ
سَرَّني لو صبرتُ عنها فتُجْزَى بما جَنَتْ

وأتى مسلمُ بن الوليد أبا نواس فقال له : ما أعرف لك بيتاً إلّا فيه سَقَطٌ قال : فما تحفظ من ذلك ؟ قال : قل أنتَ ماشئتَ حتى أُريكَ سَقْطَةً فيه ، فقال أبو نواس :

ذكر الصبوحَ بسحْرَةٍ فارْتاحا وأمَلّه ديكُ الصباحِ صِياحا

فقال له مسلم : كيف أمَلَّه ، وهو الذى ذَكَّرَه وبه ارتاح ؟ فقال له أبو نواس : فأنشدنى شيئا من شِعْرِكَ ليس فيه خَلَل فأنشده مسلم :

عاصى الشبابَ فراح غير مُفَنَّد وأقام بين عَزِيمةٍ وتَجَلُّدِ

فقال له أبو نواس : كيف جعلتَه رائحا مقيما فى حال واحدٍ وبيت واحدٍ [فتشاغبا وتَسابَّا] ساعةً ، وكلا البيتين صحيحُ المعنى .

واجتمع أصحاب المأمون عنده يوما فأفاضوا فى ذكر الشعراء فقال له بعضهم : أين أنت يا أميرَ المؤمنين مِنْ مسلمِ بن الوليد؟ قال : حيث ماذا ؟ قال : حيث يقول وقد رثى رجلًا :

أرادوا ليُخْفُوا قَبْرَه عن عَدُوِّه فطيبُ تراب القَبْر دَلَّ على القَبْرِ

وحيث مدح رجلا بالشجاعة فقال :

يجودُ بالنَّفْسِ إذا ضَنَّ الجوادُ بها والجودُ بالنفسِ أقصى غاية الجودِ

---

(١) فى الأصل : تحي .

وهجا رجلا بقُبْحِ الوجه والأخلاق فقال :

قَبُحَتْ مناظرُهم فحين خَبَرْتُهُمْ حَسُنَتْ مناظرهم بقُبْحِ المَخْبَرِ

وتغزل فقال :

هوًى يَجِلّ وحبيبٌ يلعبُ أنتَ لقاً بينهما مُعَـــذَّبُ

فقال المأمون: هذا أشعر من خُضْتُم اليوم فى ذكره .

وحكى يزيدُ بن مَزْيد قال : أرسل إلىَّ الرشيدُ فى ساعةٍ لا يُرْسلُ إلى مِثلى فأتيتهُ وأنا لابسٌ سلاحى مستعدٌ لأمرٍ يريده . فلما رآنى ضحك وقال: يا يزيدُ خبرنى من الذى يقول فيك :

للهِ من [هاشمٍ] (١) فى أَرْضِه جَبَلٌ وأنت [وابنُك] ركنا ذلك الجبلِ

تراه فى الأَمْنِ فى دِرْعٍ مضاعَفَةٍ لا يأمنُ الدهرَ أن يأتى على عَجَلِ

فقلت : لا أعرفه يا أمير المؤمنين ، فقال : سوْءَةٌ لك من سيِّدِ قومٍ ، تُمدَحُ بمثلِ هذا الشعرِ ولا تعرف قائله ! وقد بلغ أمير المؤمنين فرواه ، ووصل قائله ! ! هو مسلمُ بن الوليد ، فانصرفت فدعوتُ به ووصَلْتُه .

وحُكِىَ عنه أنه دخل على الرشيد يوما فقال : يا يزيد من الذى يقول فيك :

لا يَعْبَقُ الطيب خدَّيْهِ ومَفْرِقَهُ ولا يمسِّح عينيـــه من الكُحُـــلِ

قد عود الطيرَ عاداتٍ وَثِقْن بها فهُن يَتْبَعْنه فى كل مُرْتَحَلِ

فقال : لا أعرف قائله يا أمير المؤمنين ، فقال : أيقال فيك مثل هذا الشعر ولا تعرف قائله ! ؟ فخرج من عنده خَجِلًا ، فلما صار إلى منزله دعا بالحاجب ، فقال : من بالباب من الشعراء ؟ قال : مسلمُ بن الوليد ، فقال له : وكيف حَجَبْتَه عنى فلم

---

(١) ما بين القوسين عن الديوان وقد جاء محرفا فى الأصل مع زيادة حرف الجر «فى» قبل (ذلك الجبل) .

تُعلِمْني مكانَه ؟ قال : أخبرتُه أنك مُضَيَّقٌ وأنك ليس فى يديك شىء تُعطيه ، وسألته الإمساكَ والمُقامَ إلى أن تتَّسِعَ ، فأنكر ذلك عليه ، وقال : أدْخِلْه . فأدخله إليه ، فأنشده قولَه فيه :

أجْرِرْتُ حَبْلَ خليعٍ فى الصِّبَى غَزِلٍ وشَمَّرَتْ هِمَمُ العُذَّالِ فى عَذَلى

رد[١] البكاءَ على العينِ الطَّموحِ هوًى

مُفرَّقٌ بين توديعٍ ومُحْتَمَلِ

مما جنت[٢] وإن كانت مُنًى صَدَقَتْ صبابةً خلس التَّسْليم[٣] بالمقلِ

فقال له : قد أمرنا لك بخمسين ألفَ درهم فاقْبِضْها واعْذر ، فخرج ، وخرج الحاجب، فقال لمسلم : قد أمَرَنى أن أرْهَن ضيعةً من ضياعِه على مائةِ ألفِ درهم، خمسون ألفًا منها لك ، وخمسون ألفا لنفقته ، فأعطاه إياها ، وبلغ الخبر الرشيدَ فأمر ليزيد بمائةِ ألفِ درهمٍ وقال: اقبض الخمسين ألف درهم التى أخذَها الشاعر، وزده مِثْلَها ، وخذ مائةَ ألفٍ لنفقتك فافْتَكَّ ضيعته ، وأعطى مسلماً خمسين ألفاً أُخرى ، وحدَّث مُسْلِمٌ قال : كنت جالسا فى دكانِ خياط بإزاء منزلى إذ رأيتُ طارقا ببابى فقمت إليه، فإذا صديق لى من أهل الكوفةِ قد قَدِم من [قم] فسررت به وكأنَّ إنسانا لطَمَ وجهى ، لأنه لم يكن عندى درهمٌ واحدٌ أُنْفِقُه عليه، فقمتُ فسلمت عليه وأدخلته منزلى ، وأخذت خُفَّيْن كانا لى أتجَمَّلُ بهما، فدفعتهما إلى جاريتى ، وكتبتُ معها رقعةً إلى بعض معارفى فى السوق ، أسأله فى بيع الخفين ، ويشترى لحماً وخبزاً بشىء سميته ، فمضت الجاريةُ وعادت إلىّ وقد اشترى لها ما حدَّدْتُه له ، وقد باع الخف بتسعةِ دراهم ، فكأنها إنما جاءتنى بخُفَّيْن جديدين ، فقعدت أنا وضَيْفى نطبخُ وسألت جارا لى أن يَسْقِينا قارورة

---

(١) هاج (ديوانه قصيدة ١) .

(٢) مما جنى لى .

(٣) فى الأصل (بحليس لا التسليم) .

من نبيذ ، فوجّه بها إلىّ فغَلّقْتُ الباب وإذا طارقٌ فقمت إليه ، فإذا قاصد الأمير يزيد بن مَزْيَد قد جاء يطلبنى إليه ، ومعه ثلاثة عَشَرَ ألفَ درهم ، فأخذتُه ودخلتُ إلى منزلى ، والرجلُ معى فأكلنا ذلك الطعامَ وازددتُ منه ومن الشراب ، واشتريت فاكهة ووهبتُ لضيفى من الدراهم ما يُهْدِى به هديةً لعياله ، وأخذت فى الجهازِ ، ثم ما زلت معه حتى صِرْنا بالرقّةِ إلى باب يزيدَ بنِ مَزْيد ، فدخل الرجل فإذا هو أحدُ حُجّابِهِ ، فوجده فى الحمام ، فخرج إلىّ فجلس معى ، ثم خرج الحاجبُ بأنه قد خرج من الحمام فأدخلنى إليه ، فقال لى : أتدرى ما الذى حَدَانى على أنْ وجهتُ إليك ؟ فقلت : لا والله ، قال : كنتُ عند الرشيد منذُ ليالٍ أغمِزُ رجليه إذ قال لى : يا يزيدُ من القائل فيك ؟

سَلَّ الخليفةُ سيفاً من بنى مطرٍ يمضى فيَخْتَرِمُ الأجسامَ والهاما
كالدهر لا ينثنى [عما يهمُّ](١) به قد أوسعَ الناسَ إنعــاما وإرغاما

فقلت : والله لا أدرى ، فقال الرشيد : يا سبحانَ الله ، إنك مقيمٌ على أعرابيتك يقال فيك مِثْلُ هذا الشعرِ ولا تدرى من قائله ! فسألت عن قائله ، فأخبرتُ أنّك هو ، فَقُمْ حتى أُدْخِلَك على أمير المؤمنين ، ثم قام فدخل على الرشيد [فما علمت حتى خرج علىّ الآذن فأذِن فدخلت على الرشيد] فأنشدته ما لى فيه من الشعر ، فأمر لى بمائة ألف درهم ، فلما انصرفت إلى يزيدَ أمر لى بمائةٍ وتسعين ألفَ درهم ، وقال: لا يجوز أن أُعْطِيك مثلَ ما أعطاك أميرُ المؤمنين ، وأقطعَنِى إقطاعاتٍ تبلغُ غَلّتُها مائتى ألفَ دِرهم قال مسلم : ثم أفضَت بىَ الأمور بعد ذلك إلى أن أغْضَبَنِى فهجوته فشكانى إلى الرشيد، فدعانى وقال : أتبيعُنِى عِرْضَ يزيد ؟ فقلت : نعم يا أمير المؤمنين. فقال لى : بكم؟ [فقلت](٢) برغيف. فغضب حتى خفته على نفسى ، وقال : قد كان رأيى

(١) غير واضحة فى الأصل وهى من مقدمة الديوان عن الأغانى .
(٢) ما بين القوسين عن الأغانى وبه ينتظم السياق .

أن أشتريه منك بمالٍ جسيم ، ولست أفعل . ولا كرامة ، فقد عرفت إحسانَه إليك ، وأنا نَفِيٌّ عن أبى ، والله ثم والله والله لئن بلغنى أنك هَجَوْته لأنزعنّ لسانَك من بين فكيك ، فأمسكتُ عنه بعد ذلك وما ذكرتُه بخيرٍ ولا شرّ .

وحدث البيدقُ الراويةُ ، وكان من أهل نصيبين ، قال : دخلت دارَ يزيدَ يوما وفيها الخَلْقُ ، وإذا فتًى جالسٌ فى أَفْناءِ الناس ، ولم يكن يزيدُ عَرَفَه بعد ، وإذا هو مسلمُ بنُ الوليد ، فقال لى : ما فى نفسى أن أقولَ شِعراً أبدا فقلت : ولِمَ ؟ قال : لأنى مدحتُ هذا الرجل بشعرٍ مامُدِحَ بمثلِه قط ، ولست أجدُ من يوصّلُه ، فقلت: أنشدنى بعضه فأنشدنى منه :

مُوفٍ على مُهَجٍ فى يوم[1] ذى رَهَجٍ ... كأنه أجَـلٌ يسعى إلى أَمَـلِ

يَقْرِى السيوفَ نفوسَ النا كثين به[2] ... ويجعل الهامَ تيجانَ القنَا الذُّبلِ

لا يَعْبَق الطيبُ خَدَّيْه ومَفرِقَه ... ولا يُمَسِّحُ عَيْنَيْه من الكُحُلِ

إذا انتضَى سَيْفَه كانت مَسالِكُه ... مسالكَ الموتِ فى الأبدانِ والقُلَلِ

وإن خَلَتْ بحديث النفسِ فِكْرَتُه ... عَاشَ الرجاءُ وماتَ الخوفُ من وَجَلِ

كالليث إن هِجْته فالموتُ [راحته][3] ... لا يستريحُ إلى الأيامِ والدُّوَلِ

لله من هاشمٍ فى أرْضه جَبَلٌ ... وأنت [وابنك ركنا][3] ذلك الجَبَلِ

صَدَّقْتَ ظَنِّى وصَدَّقْتَ الظنونَ به ... وحَلَّ جودُك عَقْدَ الرَّحْلِ عن جَمَلِى

قال: فأخذتُ منها بيتين وقلت له: أنشدنى أيضا مالَك فأنشدنى قصيدةً أخرى ابتداؤها :

---

(١) واليوم ذو رهج (ديوان) .

(٢) يكسو السيوف دماء الناكثين به (ديوان) .

(٣) ما بين الأقواس بياض فى الأصل وهو عن الديوان .

كالدهر لا يَنْثَنِى عَمّا يهم به(١)   وقد أوسعَ الناسَ إنعامًا وإرْغاما(٢)

قال: فأُنْشِدَتِ الأبياتُ ليزيدَ فأمرله بخمسمائه درهم ، وذكر له بالرقّةِ فقلت له : هذا الشاعرُ الذى مَدَحك فبعث إليه بخمسمائة درهم أخرى ، وكان مسلمٌ جالسا بين يدى يزيد فأتاه كتاب فيه مُهِمٌّ له [فقرأه سرًّا ووضعه ثم أعاد قراءته ووضعه](٣) ثم أراد القيام فقال له مسلم :

الحزمُ [تَحْرِيقُه] إن كنتَ ذا حَذرٍ   وإنما الحزمُ ســوء الظَّنِّ بالناسِ

لقد أتاكَ وقد [أدّى] أمانَتَـــه   فاجعل صيانَتَه فى بطن [أرماسِ](٤)

قال: فضحك يزيد وخرّق الكتابَ وأمر بإحراقه.

[وأُهديت إلى يزيد بن مَزْيد جارية ، وهو يأكل، فلما رُفع الطعام من بين يديه وطئها ، فلم ينزل عنها إلا ميتا ، وهو ببردعة ، ودفن بمقابرها](٥) .

[كان داود بن يزيد بن حاتم المهلبى يجلس للشعراء فى السنة مجلسا واحدا فيقصدونه لذلك اليوم وينشدونه فيه . . فدخل على داودَ حاجبُه فقال له : قدم على الأمير شاعر بشعْرٍ ما قيل فيه مثله . فقال : أدخل قائله فأدخله . فقال : هات ، فلما افتتح القصيدة وقال](٦) :

لا تدع بى الشوق إنى غيرُ معمود   نهى النهى عن هوى البيض الرعاديد

استوى جالسا وأطرق حتى أتى الرجلُ على آخر الشعر ثم رفع رأسه إليه فقال:

---

(١) عمن يهم به (ديوان).

(٢) مطلع القصيدة :

طيف الخيال حمدنا منك إلماما   داويت سقما وقد هيجت أسقاما

(٣) ما بين القوسين عن الأغانى وبه ينتظم الكلام .

(٤) ما بين القوسين فى الشعر غير واضح بالأصل .

(٥) ما بين القوسين مضطرب فى الأصل وغير واضح .

(٦) ما بين القوسين غير موجود بالأصل وهو ضرورى لتمام الخبر، ويلاحظ أنه سيرد مرة أخرى بعد قليل .

هذا شِعْرُك ؟ فقال : نعم ، أعزّ الله الأمير ، قال : فى كم قُلْتَه يا فَـتَى ؟ قال : فى أربعةِ أشهر ، قال : ولو قلتَه فى ثمانيةِ أشهُرٍ كنتَ محسنا ، وقد اتَّهمْتُك لِجَوْدَةِ شِعْرك وخُمول ذكرك ، فإن كنت قائلَ هذا الشعرِ فقد أنْظَرْتُك أربعةَ أشهرٍ فى مثله ، وأمرتُ بالإجراءِ عليك ، فإن جئتنا بمثل هذا الشِّعْر وهبتُك مائةَ ألفِ درهم وإلَّا جرَمْتُك(١). فقال : أَوْ الإقالة ، أعز اللهُ الأميرَ ، قال : أقلْتُك قال : الشعرُ لمسلمِ ابن الوليدِ ، وأنا راويَتُه والوافدُ عليك بشِعْرِه فقال : يا ابن حاتم لمَّا افْتَتَحْتَ شعرَه سمعتُ كلامَ مسلمٍ يناديني فأجبتُ نداءَه ، واستويتُ جالسا ثم قال : يا غلامُ أعطه عشرةَ آلافِ درهم واحمِلِ الساعةَ إلى مسلمٍ مائةَ ألفِ درهم .

ودخل مسلمُ بن الوليد على الفضل بنِ سهل لِيُنْشِدَه شعرا فقال : أيها الكهل إنى أُجِلُّكَ عن الشعر فَسَلْ حاجتَك قال : بل [تَسْتَتِمُّ اليدُ](٢) عندى بأن تسمع فأنشد :

دُمُوعها من حِذارِ البَيْنِ تَنْسكبُ ... وقلبُها مُغْرَمٌ مِنْ حبهـا يَجِبُ
جَدَّ الرحيلُ به عنها ففارَقَهـا ... لِبَيْنِه اللهوُ واللذاتُ والطربُ
يَهْوَى المسيرَ إلى مَرْوٍ ويحزُنُه ... فِراقُها فهو ذو نَفْسَيْن يَرْتَقِبُ

فقال له الفضل : إنى أجِلك عن الشعرِ ، قال : فاغْنِنِى بما أحببتَ من عملك فولاه البريد بجُرْجان .

وقيل لمسلم بن الوليد : أىُّ شِعرك أحبُّ إليك؟ قال : إن فى شعرى لبيتا أخذت معناه من التورية وهو قولى :

دَلَّتْ على عَيْبِها الدنيا وصَدَّقَهـا ... ما استرجع الدهرُ مما كان أعطانى

وجاء إلى مُسلمٍ يوما راوِيتُه بعد أن تاب ليعرِضَ عليه شِعْرَه فتغافَلَه مُسْلِمٌ ،

---

(١) جرم الرجل يجرمه وأجرمه : أ كسبه جرما .

(٢) ما بين القوسين غير واضح بالأصل .

ثم أخذ منه الدفترَ الذى فى يده فقذَفَ به فى البحرِ ، فلهذا قَلَّ شِعْرُه ، فليس فى أيدى الناسِ منه إلا ما كان بالعراق وما كان فى أيدى الممدوحين .

وقيل لمسلم : ما معنى قَوْلِك :

* لا تَدْعُ بى الشوقَ إنى غير معمود *

[قال: لاتَدْعُنى صريعَ الغوانى، وكان يكرههذا اللقبَ وكان[1] داودُبن يَزيدبن حاتمٍ المُهَلَّبِي يجلس للشعراء فى السنة مرةً واحدةً فيَقصدونه لذلك اليوم ويُنْشدونه ، فوجَّه إليه مُسْلمٌ براويته فقدم عليه يوم جلوسه للشعراء ، ولحقهم بعقب خروجهم عنه، فتقدم إلى الحاجبِ وحَسَرَ لِثامَه عن وجهه ، ثم قال : استأذنْ لى على الأميرِ قال : ومن أنت؟ قال : شاعر . قال : قد انصرم وقتُك وانصرفَ الشعراء ، وهو على القيام، فقال له: ويحك! قد وفدتُ على الأميرِ بشعرٍ ما قالتِ العربُ مثْلَه ، وكان مع الحاجب أدبٌ يَفهَمُ ما يَسْمع ، فقال : هات حتى أسمع ، فإن كان الأمرُ كما ذكرت أوصلتك إليه، فأنشده بعضَ القصيدةِ فسمعَ شيئًا يقصرُ الوصفُ عنه ، فدخل على داود فقال له: قد قدم على الأمير بشعرٍ ما قيل فيه مِثْلُه فقال : أدْخِلْ قائلَه فأدْخَله فلما مثل بين يديه سَلَّمَ وقال : قدمت على الأمير، أعزه الله تعالى ، بمدح أُسْمِعُه فيعلمُ به تقدمى على غيرى، فقال : هات ، فلما افتتح القصيدة قال :

* لا تدع بى الشوق إنى غير معمود *

خرج دعبلٌ إلى خراسان لما بَلَغَه حظوةَ مسلم بن الوليد عند الفضل بن سهل فصار إلى مَرْو وكتب إلى الفضل بن سهل :

لا تَعْبَأَنْ بابنِ الوليــدِ فإنه	يَرْميك بعد ثلاثةٍ بمَــلَالِ
إن الملولَ وإن تقــادم عَهْدُه	كانت مَوَدَّتُه كَفْىءِ ظِــلَالِ

(١) سبقت رواية هذا الخبر موجزا .

فدفع الفضل إلى مُسلِم الرقعةَ ، وقال له: أنظر يا أبا الوليد إلى رقعةِ دعْبلٍ ، فلما قرأها قال : هل عرف الأمير لقبَ دِعْبِل وهو غلام أمردُ يُفْسَقُ به ؟ فقال : لا ، قال : كان يلقب بميَّاس ، وكتب إليه يقول :

ميَّاسُ قل لى أينَ أنتَ من الورَى　　لا أنت معلومٌ ولا مجهولُ
أمَّا الهجاء فدَقَّ عِرْضُك دونَه　　والمدحُ عنك كما عَلِمْتَ جليلُ
فاذهبْ فأنتَ طليقُ عِرْضِك إنه　　عِرْضٌ عَزَزْتَ به وأنت ذَليلُ

وحدَّث دعبل قال : [بينا] أنا جالس بباب الكرخ إذ مرت بى جاريةٌ لم أر أحسنَ منها وجها ولا قدًّا تنثنى فى مِشْيَتِها وتنظرُ فى أعْطَافِها ، فقلت مُعرِّضًا لها :

دموعُ عَيْنِى بها انبساطُ　　ونَوْمُ عينِى به انقباضُ

فأجابتنى بسُرْعةٍ وقالت :

وذا قليلٌ لمن دَهَتْهُ　　بلَحْظها الأعينُ المِراضُ

فأدهَشَتْنِى وعجبتُ منها فقلت :

فهلْ لمولاى عَطْفُ قَلْبٍ　　وللذى فى الحَشَا انقِراضُ

فأجابتنى غير متوقفة فقالت :

إن كنتَ تهْوَى الودادَ منَّا　　فالود فى ديننا قِراضُ

قال : فما دخل أذنى قطُّ كلامٌ أحلى من كلامِها ، ولا رأيت أنضرَ وجهاً منها فقلت :

أترى الزمانَ يسرُّنا بتلاقٍ　　ويَضُمُّ مشتاقا إلى مشتاقِ

فأجابتنى بسرعة فقالت :

ما للزمانِ وللتَّحَكُّمِ بيننا　　أنت الزمانُ فسُرَّنا بتلاقِ

قال : فمضيت أمَامَها أَؤُمُّ بها دارَ مسلم ، وهى تتبعنى ، فصرت إلى منزله ،

فصادفته على غِرَّةٍ فدفع إلىَّ منديلا وقال : اذْهَبْ فبِعْه، وخذ لنا ما نحتاج إليه، وعُدْ، فمضيتُ مسرعا فلما رجعتُ صادفتُ مسلما قد خلا معها فى سردابٍ ، فلما أحسَّ بى وَثَبَ إلىَّ ، وقال : عرَّفك الله ، يا أبا على ، جميلَ ما فعلت ولقَّاكَ ثوابَه وجعَلَه أحسنَ حسنةٍ لك فغاظنى قولُه وجعلت أفكرُ فى شىء أغمُّه به ، فقال لى : يا أبا على أخبرنى من الذى يقول :

بِتُّ فى دِرْعِها وبات رَفِيقى ... جنب القلبِ طاهرَ الأطْرافِ

فقلت :

من له فى حرامه ألفُ قرْنٍ ... وقد أنافَتْ على عُلُوٍّ مَنَافِ

وجعلت أشتمه وأثِبُ عليه ، فقال لى : يا أحمق ، منزلى دَخَلْتَ ومنديلى بِعْتَ ودراهمى أنفَقْتَ ، على من تَحْرِد وأىُّ شىءٍ سببُ حَرَدِكَ أنت يا قوَّادُ . فقلت : مهما كذبتَ علىَّ فيه من شىء فما كذبتَ فى الُحمقِ والقيادةِ . وكان مسلمُ بن الوليد أستاذَ دِعْبل، وعَنْه أَخَذَ ومن بَحْرِه استقَى . وحدَّث أبو تمامٍ الطائىُّ قال : ما زال دعبلٌ متعصباً لمسلمٍ مائلا إليه معترفاً بأستاذيَّته حتى ورد عليه جرجانَ فجفاه مسلمٌ وهَجَره دعبلٌ فكتب إليه :

أبا مَخْلَدٍ كنا عَقِيدَىْ مَــودَّةٍ ... هَواناَ وقَلْبــانا جميعاً مَعاً مَعاَ

أحُوطُك بالعَتْب الذى أنت حائِطِى ... وأَجزعُ إشفاقا مِنَ انْ يَتَوَجَّعا

فصيَّرْتَنِى بعد انتهابِكَ مُتْهِما ... لنَفْسِى عليها أرْهَبُ الخلقَ أجمَعا

غَشَشْتَ الهوى حتى تداعتْ أصوله ... بنا وابْتَذَلْتَ الوصلَ حتى تَقَطَّعا

وأنزلْتَ من بين الجوانِحِ والحشا ... ذَخيرَةَ ودٍّ طال ما قد تَمَنَّعا

فلا تَلْحَيَنِّى ليس لى مطمع تخر ... قت حتى لم أجد لك مرقعا

فهَبْكَ يمينى اسْتَأْكَلَتْ فقطَعْتُها ... وجشَّمْتُ قلبى صبوةً فتجشّما

قال : ثم تهاجرا بعد ذلك فما التقَيَا حتى ماتا .

وحدَّث دعبلٌ قال: كان أبو دِعْبل قال: كان أبو نواسٍ يسألنى أن أَجْمَعَ بَيْنَه وبين مسلم بن الوليد، وكان مسلمٌ يسأُلنى أن أجمعَ بَيْنَه وبين أبى نواس، فكان أبو نواسٍ إذاحضر تَخَلَّفَ مسلم وإذا حضرَ مسلمٌ تَخَلَّفَ أبو نواس، إلى أن اجتمعا، فأنشد أبو نواس:

أجارَةَ بَيْتَيْنا أبوكِ غيورُ ومَيْسورُ ما يُرْجَى لديكِ عَسيرُ

وأَنشد مسلمٌ:

للهِ من هاشمٍ فى أرْضِه جَبَلٌ وأَنْتَ وابْنُكَ رُكْناذلك الجبلِ

فقلت لأبى نواس: كيف رأيت مسلم؟ فقال: هو أشعرُ الناس بعدى، وسألتُ مسلما عنه فقال هو أشعرُ الناسِ، وأنا بعده.

وحَدَّثَ مسلمٌ قال: وجَّه إلىَّ ذو الرِّياسَتَيْن ُخلِمْتُ إليه، فقال: أنْشِدْنِى قولَك:

بالغَمْرِ من زَيْنَبَ أَطْلالُ مَرَّتْ بها بَعْدَكَ أحوالُ

فأنشدته إيَّاها حتى انتهيت إلى قولِى:

وقائــلٍ لَيْسَتْ له هِمَّــةٌ كلا ولــكِنْ ليس لى مال

وهِمَّةُ المُقْتِرِ أُمْنِيَّةٌ هَمٌّ مع[1] الدهرِ وأَشغالُ

لا حِدَّةٌ تَنْهَضُ عظمى بها[2] والناس سُؤّالٌ وبُخَّالُ

فاقعد[3] مع الدهر إلى دَوْلةٍ ترفع فيها حَالَكَ الحال

فلما أنشدتُه هذا البيتَ قال: هذه الدولةُ التى يُرْفَعُ فيها حَالُك، وأمَرَلى بمالٍ عظيم وقلَّدنى جرجانَ.

---

(١) عون على (الديوان) ص ١٢١.

(٢) لا حدة تنهض فى عزمها (ديوان).

(٣) فاصبر . . . تحمل.

وكان يزيدُ بنُ مَزيد قد أَجْرى على مُسْلِمٍ ما يكفيه ويكفى عيَالَه وقال له : ليس هذا بدلًا من جائزةٍ أو ثوابَ مديح ، فلما مات يزيدُ رثاه مُسْلِمُ فقال :

أحقا أنّه أَوْدَى يزيدُ　　[تَبَيَّنْ أيها][1] الناعى المسيد
أتدرِى من نَعيْتَ وكيفَ [فاهَتْ　　به شفتاكَ كأنَّ بها الصعيدُ]
أَحَامِى الَمجْدِ والإسلامِ أَوْدَى　　فما للأرضِ وَيْحَكَ لا تميدُ
تأمّلْ هل ترى الإسلامَ مالَتْ　　دعائمُه وهل شابَ الوليدُ
وهل شِيمَتْ سيوفُ بنى نِزارٍ　　وهل وُضِعَتْ عن الخيلِ اللُّبُودُ
وهل تَسْقِى البلادَ ثِقالُ مُزْنٍ　　[بِدِرَّتِها] وهَلْ يَخْضَرّ عودُ
أما هُدَّتْ لمصْرَعِه نزارٌ　　بلى وتَعَرَّض المجدُ المَشيدُ
وحَلَّ ضَريحَهُ إذ حَلَّ فيه　　طريفُ المجدِ والحسبُ التّليدُ
أما واللهِ لا تَنفَكّ عينٌ　　عليك بدمعها أبدًا تجودُ
فإن تَجْمدْ دموعُ لئيمِ قومٍ　　فليس لدَمْعِ ذى حَسَبٍ جمودُ
أبَعْدَ يزيدَ يَخْتَزِنُ البواكِى　　دموعاً أو يُصانُ لها خُدودُ
لتبكك [قبة] الإسلام لمّا[2]　　وهَتْ أطنابُها ووَهَى العمودُ
ويَبْكِكَ شاعرٌ لم يُبْقِ دَهْرٌ　　له نَشَبًا وقد كَسَدَ القصيدُ
فإن يَهْلِكْ يَزيدُ فكلُّ حَىٍّ　　فريسٌ للمنيَّةِ أو طَريدُ

ودخل مسلمٌ على الفضلِ بن سهلٍ فأنشده قولَه فيه :

لو ينطق الناسُ أو أَثْنَوْا بعلمهمُ　　و نَبأَتْ عن معالى دَهْرِك الكُتُب
لن يبلغوا فيك أدنى ما تَمُتُّ به　　إذا تَفاخَرَت الأملاكُ وانتسبوا

---

(١) تأمل (الديوان) وما بين الأقواس غير واضح فى الأصل وهو عن الديوان .
(٢) جاء هذا الشطر محرفا فى الأصل بحذف وزيادة والتصويب عن الديوان .

فأمر له عن كل بيتٍ من هذه القصيدةِ بألفِ درهم . ثم قُتِلَ الفضلُ فقال يرثيه :

ذُهِلتُ فلم أقنع عليك[1] بِعَبْرَةٍ   وأكبرتُ أن أَلْقَى بيومِك ناعيا

فلمّا بدَا لِي أنه لاعجُ الأَسَى   وأن ليس إلّا الدمعُ للحُزْنِ شافِيا

أقمتُ لك الأنواحَ تَرْتَدُّ بينها   مآتِمُ يَنْدُبْنَ الندَى والمعالِيا

وما كان مَنْعَى الفَضْلِ مَنْعَى وجادةٍ   ولكنّ مَنْعَى الفضلِ كان مَناعِيا

أَلِلْبأسِ أم للجودِ أَمْ لِمُقاوِمٍ   من المُلْكِ يَزْحَمْنَ الجبالَ الرواسِيا

فلم أَرَ إلا قَبْلَ يَوْمِك ضاحِكا   ولم أرَ إلا بعدَ يَوْمِك باكِيا

عَفَتْ بعدكَ الأيامُ لا بل تبدَّلَتْ   وكنّ كأعيادٍ فعدنَ مباكِيا

ووفد مسلمٌ على محمد بن يزيدَ بن مَزْيد بعد وفاة أبيه ، فمدَحه وعزّاه عن أبيه ، وأقام ببابه فلم يَرَ منه ما يُحِبّ فانصرفَ عنه وقال فيه :

لبِسْتُ عزاءً عن لقاءِ مُحَمَّدٍ   وأعرضتُ عنه مُنْصِفا ووَدودَا

وقلت لنفسٍ قادها الشوقُ نَحْوَه   فعَوَّضَها منه اللقاءُ صُدوداً

هَبِيهِ امرأً قد كانَ أَصْفَاكِ [وُدَّهُ][2]   فماتَ وإلا فاحسبيه يزيدا

لعمرى لقدْ ولّى فلم أَلْقَ بعده   وفاءً لذى عهدٍ يُعَدُّ حميدا

دخل مسلمُ بنُ الوليد يوما على الفضلِ بن الربيعِ وهو بمجلس الشُّرْب فأنشده :

أتتْكَ المطايا تَهْتَدِى بمطيةٍ   عليها فتًى كالنصلِ يُؤْنِسُه النَّصْلُ

يقول فيها :

وردت رواقَ الفضل آمُلُ فَضْلَه[3]   فحط الثناءَ الجَزْلَ نائلُهُ الجزلُ

(١) فلم أنقع غليلا (أغانى) .

(٢) ما بين القوسين تصويب للأصل عن الديوان .

(٣) وردن : رواقَ الفضل فضلِ بن جعفر (ديوانه ٢٠٢) .

فتى تَرْتَعِي الآمالُ مُزْنَةَ جُودِه ... وإن كان مَرْعاها الأمانيُّ والبُطْلُ
ألحَّ على الأيامِ يَفْرِي خُطُوبَها ... على مَنْهَجٍ ألفَى أباه بـه قَبْلُ
أنافَ بـه العلياءَ يحيي وخالدٌ(١) ... فليس له مِثْلٌ ولا لهما مِثْلُ
فروعٌ أصابتْ مَغْرِساً فتمكنت ... وأصلاً فطابت حيث وجهها الأصل
بكفِّ أبي العبَّاسِ يُسْتَمْطَرُ النَّدَى ... وتستنزلُ النُّعْمَى ويسترعفُ النَّصْلُ

قال : فطربَ الفضلُ طرباً شديداً ، وأمر أن تُعَدَّ الأبيات فَعُدَّتْ فكانت ثمانين بيتا فأَمَرَ له بثمانين ألفَ دِرْهم ، وقال : لولا أنها أكثر ما وُصِلَ به الشعراء لزِدْتُك وأمره بالجلوس عنده والمُقامِ لمنادَمَتِه ، فأقام عنده وشَرِب معه ، وكانتْ على رأسِ الفضل وصيفةٌ تَسقيه كأنها لؤلؤةٌ ، فلمح الفضلُ مُسْلِماً ينظر إليها فقال : وقد، وحيَاتِي ، يا أبا الفضل ، أعجبتك، فقل فيها أبياتاً حتى أهَبَها لك فقال :

إن كنتِ تَسْقِينَ غيرَ الراحِ فاسْقِينِي ... كأساً ألَذُّ بها من فيك تَشْفِينِي
عيناكِ راحِي ورَيْحانِي حَديثُك لي ... ولونُ خَدَّيْكِ لَوْنُ الوردِ يكفينِي
إذا نهانِيَ عن شربِ الطِّلَا حَرَجٌ ... فخمرُ عينيكِ يُغْنِينِي ويَجْزِينِي

فقال له : خُذْها بُورِكَ لك فيها ، وأمَرَ بتوجيهها مع بَعْضِ خَدَمِها إليه ، وجميع ما كان لها من المال .

وكانت لمسلم بن الوليد زوجةٌ من أهْلِه تَكْفِيه أمْرَه وتَسْتُره عن الناس بمالها فماتت فجَزِع عليها جَزَعاً شديداً وتَنَسَّك مدةً طويلةً وعزم على ملازمةِ ذلك فأقسم عليه بعض إخوانه ذاتَ يومٍ أن يَزورَه ففعلَ فأكلوا وقدَّموا الشراب فامتنع وأباه وأنشأ يقول :

بُكاءٌ وكأسٌ كيف يجتمعان(٢) ... سبيلاهما في القلبِ مُختلفانِ

---

(١) وجعفر (ديوانه٢٠٣)
(٢) يتفقان (أغاني) ديوان .

دعانى وإفراطَ البكاء فإنَّنِى ... أرى اليومَ فيه غير ما تَرَيانِ
غَدَتْ والثَّرَى أولى بها من وَلِيِّها ... إلى مَنْزِلٍ ناءٍ لعَيْنِك دانِ
فلا حُزْنَ حتى تَنْزِفَ العينُ [ماءها ... وتَعْتَرِفَ][1] الأحشاء بالخفقان
وكيفَ بِدَفْعِ اليأس والوَجْدِ بَعْدها ... وهواها فى القلب يعتلجان

وكان مسلمٌ قد هاجى الحكمَ بن قَنْبَرَ المازنىَّ فغلَبَ عليه الحكمُ مُدةً وأخْرَسَه ، ثم عاد مسلم[2] بعد أن أفحمه فهتك ابن قنبر حتى كف عن مناقضته فكان يهرب منه فإذا لَقِيه مُسْلِمٌ أنشده[3] هِجاءُ فيه فيمسكُ عن إجابتِه ثم جاءه ابن قَنْبَرَ إلى منزله واعتذر إليه مما سلف ، وتَحَمَّلَ[4] عليه بابنه وسأله الإمساك عنه فأمسك وتصالحا .

(١) ما بين القوسين غير واضح فى الأصل وهو عن الديوان .

(٢) بعد أن انخزل وأفحم فهتك ابن قنبر (أغانى) .

(٣) قبض عليه وهاجاه وأنشده ما قاله فيه (أغانى) .

(٢) تحمل بفلان عليه فى الشفاعة والحاجة : اعتمد .

محمدُ بن وهيب (١)

هو محمد بن وهيب الحميرى صليبية شاعرٌ من أهل بغدادَ من شعراء الدولة العباسية وأصله من شعراء البَصْرة ، وله أشعار يَذْكرُها فى شِعره ويتشوّقها ، وكان يكتسبُ بالمديح ، وتوسلَ إلى الحسنِ بنِ سهلٍ بالحسنِ بن رجاء بنِ أبى الضحّاك ومدَحَه فأوصله إليه وسمع شعره فأعجبه ، وأوصَلَه إلى المأمونِ فمدحه وشفع له فأسْنَى جائزته ثم لم يزل منقطعاً إليه حتى مات ، وكان يتشيعُ وله مَراثٍ فى أهل البيتِ وهو متوسط من شعراء طَبَقَتِه ، وفى شعره أشياء فاضلة .

اجتمع الشعراء على باب المُعْتَصِم فبعثَ إليهم محمدُ بنُ عبدِ الملك الزيات أن أميرَ المؤمنين يقول لكم : من كان منكم يُحْسِنُ أن يقول مثلَ قوْلِ النُّمَيْرِىّ فى الرشيد :

خليفةَ اللهِ إنّ الجودَ أوْدِيةٌ ... أحلَّكَ اللهُ منها حيثُ تَجْتمِع

من لمْ يكن ببنى العباسِ مُعْتَصِماً ... فليس بالصلواتِ الخمسِ يَنْتَفِع

إن أخلفَ الغيثُ لم تُخْلِفْ مخايلُه ... أو ضاق أمْرٌ ذكرناه فيتّسعُ

فليدخل ، وإلا فلْينْصَرِفْ فقام محمد بن وهيب [فقال فينا من يقول مثلَه قال : وأى شىء قلت ؟ فقال](٢) :

ثلاثة تُشْرِق الدنيا ببهجتهم ... [شمس الضحا وأبو إسحق والقمرُ]

يَحْكِى أفاعيلَه فى كلِّ نائبةٍ ... الغيثُ والليثُ والصمصامةُ الذّكَرُ

فأمر بإدخاله فأنشده وأحْسَنَ جائزته .

---

(١) الأغانى ب ١٧ : ١٤١ ـ المهذب ٧/١٤٤ تاريخ بغداد ١٤/١٤٦ .

(٢) ما بين الأقواس عن الأغانى وهو غير ظاهر بالأصل .

كان محمد بن وهيب لما قَدِمَ المأمونُ من خراسان مُضَاعاً مُطَّرَحاً ، إنما يتَصَدّى للعامَّةِ وأوساطِ الكتّابِ والقوّادِ بالمديح ، ويستَرْفِدهُم فيَحظَى باليسيرِ ، فلما هدأت الأمورُ واستَقَرّتْ جلس أبو محمدٍ الحسنُ بنُ سهل يوماً مُنْفَرِداً بأهله وخاصّتِه وذوى مَوَدَّتِه ومن يقربُ من أُنْسِه ، فتَوَسّل إليه محمد بن وهيب بالحسن بن رجاء حتى أوْصَله مع الشعراء ، فلما انتهى إليه القولُ استأذَنَه فى الإنشاد فأذِنَ له فأنشده من أبيات :

وَدائعُ أسرارٍ طَوَتْها السرائرُ ... وباحَتْ بمكتوماتِهِنَّ النواظرُ
ملَكن[1] إلى طَىِّ الضمير وتَحْتَه ... شَبَا لَوْعَةٍ عَضْبُ الغِرارَيْن باتِرُ
فأَعْجَمَ عنها ناطقٌ وهو مُعْرِبٌ ... وأَعْربت العجمَ الجفونُ العواطرُ

حتى انتهى إلى قوله :

إلى الحسَنِ البانى المعالى[2] سَمَتْ بنا ... عوالِى المُنَى حيث الحيَا المُتَظَاهِرُ
إلى الأملِ المبسوطِ والأجلِ الذى ... بأعدائِه تَكْبُو الجدودُ العواثِرُ
فتًى أنبَتَتْ عينُ المكارم كَفَّه ... فقامتْ مقام القَطْرِ والروضُ داثِرُ
تَعَصَّبَ تاجَ المُلْكِ فى عُنْفوانه ... وأَطَّتْ به عصرَ الشبابِ المآثِرُ
تعظمهُ الأوهامُ قبلَ عِيانِه ... ويصدرُ عنه الطرفُ والطرفُ حاسِرُ
به تُجْتَدَى النُّعْمَى وتُستدركُ المنى ... وتُستكملُ الحسنى وتُرعَى الأواصرُ
قَسَمْتَ صروفَ الدهرِ بأساً ونائلا ... فمالك موتورٌ وسَيْفُك واتِرُ
ولما رأى اللهُ الخلافةَ قد وَهَتْ ... دعائمُها واللهُ بالأمرِ خابِرُ
بنى بك أركاناً عليها مُحيطَةً ... وسقف سماء أنشأتها الحوافرُ[3]

---

(١) ملكت لها (أغانى) .

(٢) العلا حين عمت (أغانى) .

(٣) فأنت لها دون الحوادث ساتر (أغانى) .

له فَلَكٌ فيــه الأسِنّةُ أَنْجُمٌ ... ونَقْعُ المنايا مُسْتَطِيرٌ وثائرُ
أجزتَ قضاءَ الموتِ فى مُهَجِ العدا ... ضُحًى فاستباحَتْها المنايا الغَوادِرُ
لك اللحظاتُ الكالئاتُ قواصدا ... بِنُعْمَى وبالبأساء وَهْى شوازِرُ[1]
ولو لم تكنْ إلا بنَفْسِك فاخرا ... لما انْتَسَبَتْ إلا إليك المفاخرُ

فطرب أبو محمدٍ حتى نزَل عن سريره إلى الأرضِ وقال : أحسنتَ والله وأجْمَلْتَ ، ولو لم تقلْ قطُّ ، ولا تقولُ ، فى باقى عمرِك إلا هذا لما احتجتَ إلى القول ، وأمر له بخمسةِ آلافِ دينار ، واقْتَطَعَه إلى نَفْسه ، فلم يزل فى أصحابه أيام ولايته ، وبعد ذلك إلى أن مات ما تَصَدّى لغيره .

كان محمدُ بن وهَيْب الحِمْيَرِىّ قد مدح علىّ بن هشامٍ ، وتردد إلى بابه دَفَعاتٍ فحَجَبه ، ولقِيَهُ يوماً فعَرَض له فى طريقهِ فسلَّمَ عليه فلم يرْفَعْ إليه طرْفَه ، وكان فيه تِيهٌ شديد ، فكتب إليه رُقْعَةً يعاتبهُ فيها ، فلما وصلت إليه خرَقها وقال : أى شىءٍ يريد هذا الثقيلُ السَّيِّئ الأدب . فقيل له ذلك ، فانصرفَ مُغْضَبا ، وقال : والله ما أردتُ ماله وإنما أردت التوصلَ بجاهِهِ ، وسَيُغْنِينِى اللهُ عز وجل عنه ، أما والله لأذمن فعله وقال يهجوه من أبيات :

لم تَندَ كفك من بَذْلِ النوالِ كما ... لم يَنْدَ سَيْفُك مذ قُلِّدْتَه بدمِ
كنت امرأً رَفَعَتْه فِتْنَةٌ فَعَلا ... أيامها غادرا بالعَهْدِ والذِّمَمِ
حتى إذا انكشَفَتْ عنا غيابَتُها ... ورتب الناسُ بالأحساب والقدمِ
مات التخلقُ فارْتَدَّتْك مُرْتَجِعا ... طبيعةٌ نَذْلَةُ الأخلاقِ والشِّيَمِ
كذاك من كان لا رَأْسا ولا ذَنَبا ... كَزُّ[2] اليدين حديثَ العهدِ بالنِّعَمِ
هيهات ليس بحَمَّالِ الدياتِ ولا ... مُعْطِى الجزيل ولا المرهوبِ فى النِّقَمِ

---

(١) الشوازر : الناظرات نظرة الغضب .
(٢) الكز اليدين : البخيل .

فلما بلغتْ هذه الأبياتُ عليّ بن هشام نَدِم على ما كان منه وجَزِعَ لها ، وقال : لعن الله اللَّجَاجَ فإنه شرٌّ خُلُقٍ تَخَلَّقَهُ الناس ، ثم أقبل على أخيه الخليل بنِ هشام فقال : الله يعلمُ أنى لا أدخل على الخليفةِ ، وعليّ السيف إلا وأنا مُستَحٍ منه اذكرُ قول محمدِ بنِ وُهَيْب فِيّ :

* كما لم يَنْدَ سيفُك مُذْ قُلِّدْتَه بِدَمِ *

كان ابنُ الأعرابى يقول : أهْجَى بيتٍ قاله المُحْدثون قولُ محمد بن وُهَيْب :

لم تندَ كفك من بَذْلِ النوالِ كما ... لم يَنْدَ سيفُك مُذْ قُلِّدْتَه بدمِ

قال محمد بن وهيب : جلست إلى عَطَّارٍ وإذا بأعرابيةٍ سوداءَ قد جاءت فاشْتَرَتْ من العطار خَلُوقاً ، فقلت له : تَجِدُها اشْتَرَتْه لابنتها ، وما ابنَتُها إلا خُنْفُساء . فالتفتَتْ إليّ متضاحِكَةً وقالت : لا والله إلا مَهاةً خبنداة[1] ، إن قامتْ فقَنَاةٌ وإن قَعَدَتْ فحصاةٌ ، وإن مَشَتْ فقَطَاةٌ أسفلها كَثيبٌ وأعلاها قَضيبٌ ، لا كفتياتِكم اللواتى تُسَمِّنونهن بالفُتوتِ ثم انصرفت وهي تقول :

إنّ الفُتُوتَ للفتـاةِ مَضْرَطَه ... يَـكْرُبُها فى البطن حتى تَثْلَطَهْ

ولا أعلم أنى ذَكَرْتُها قط إلا أَضْحكنى ذِكْرُها .

كان محمدُ بن وُهَيْبٍ يتردّد إلى مجلسِ يَزيدَ بن هارون فلزِمَه عدَّةَ مجالسَ يُمْلِى فيها كُلِّها فضائلَ أبى بكر وعمرَ وعثمانَ ، رضى الله عنهم ، ولا يذكر شيئاً من فضائل عليٍّ ، عليه السلام ، فقال فيه محمد بن وهيب :

آتِى يزيدَ بنَ هـارون أُدالِجُهُ ... فى كلِّ يوم ومالى وابنِ هارونِ

فليتَ لى بيزيدَ حينَ أَشْهَدُه ... راحـا وقَصْفاً وندمانا يُسَلِّيـنى

أَغْدُو إلى عُصْبةٍ صُمَّتْ مسامِعُهُمْ ... عن الهُدى بين زِنديقٍ ومأفونِ

---

(١) الخبنداة : يقال : جارية خبنداة : تامة القصب ، أو ممتلئة أو ثقيلة الوركين .

إنى لأعلم أنى لا أحبهم كما هم بيقين لا يحبونى
لا يذكرون عليًّا فى [مشاهدهم ولا بنيه](١) بنى البيض الميامين
لو يستطيعون من ذكرى أبا حسن وفضله قطعونى بالسكاكين
ولست أترك تفضيلى أبا حسن حتى الممات على رغم الملاعين

قال محمدُ بن القاسم بن يوسفَ : كان محمدُ بن وُهَيْبٍ يأتى أبى فقال له يوما : إنك تأتينا وقد عرفتَ مذاهبَنا فنحبّ أن تعرِّفنا مذهبَك فنوافقَك أو نخالفَك فقال : فى غد أبينُ لك أمرى ومذهبى ، فلما كان فى غد كتب إليه :

أيها السائل قد بيـ نتُ إن كنتَ ذكيّا
أحمدُ الله كثيراً بأياديه عَليّا
شاهدا ألّا إله غيرُه ما دمتُ حيّا
وعلى أحمد بالصد قِ رسولا ونبيّا
ومنحتُ الود قُرْبا هُ وواليتُ الوَصيّا
وأتانى خبرٌ مُطَّـ رَحٌ لم يك شيّا
أنْ على غير اجتماعٍ عقدوا الأَمْرَ بَديّا
فوقفت القومَ تيْماً وعَديّا وأُمَيّا(٢)
غيرَ شتَّامٍ ولكـ نّى تواليتُ عَليّا

دخل محمدُ بن وُهَيْب على أحمدَ بن هشام يوما وقد مَدَحَه ، فرأى بين يديه غِلْمانا روقةً مُرْدًا وخَدَما بِيضا فُرِّها فى نهاية الحسن والكمالِ فدُهِشَ لِمَا رأى وبَقِى مُتَبَلِّدًا لا ينطقُ بحرف ، فضحك أحمدُ وقال له : ما لَكَ وَيْحك تكلم بما تريد ، فقال :

---

(١) ما بين القوسين غير واضح فى الأصل وهو عن الأغانى .
(٢) تيم قبيل أبى بكر وعدى قبيل عمر وأمية قبيل عثمان .

قد كانتِ الأصنامُ وهي قديمةٌ كُسِرَتْ وجدَّعَهُنَّ إبراهيمُ
ولَدَيْكَ أصنامٌ سَلِمْنَ من الأذى وصَفَتْ لَهُنَّ غضارةٌ ونعيمُ
وبِنَا إلى صَنَمٍ تلوذُ بِرُكْنِه قَفْرٌ وأنت إذا هُزِزْتَ كريمُ

فقال له: اخترْ ما شئتَ منهم ، فاختار واحدا منهم فأعطاه إياه ، فقال يمدحه :

فَضَلَتْ مكارِمُه على الأقوامِ وعَلا فخَارُ مكارمِ الأيامِ
وعليه أبَّهَــةُ الجمالِ كأنه قمرٌ بدا لك من خِلالِ غمامِ
إنّ الأمير على البَرِيَّــةِ كلِّها بعدَ الخليفة أحمدُ بنُ هشامِ

بلغ ابن وهيبٍ أنّ دعبل الخُزَاعِيّ قال: أنا ابنُ قولى:

لا تَعْجَبِي يا سلمُ من رَجُلٍ ضحك المشيبُ برأسِه فبكى

وأن أبا تمام قال : أنا ابْنُ قولِي :

قَلِّبْ فؤادَكَ حيثُ شِئْتَ من الهوَى ما الحبُّ إلا للحبيبِ الأولِ

فقال محمدُ بن وهيب وأنا ابْنُ قولى :

ما لِمَنْ تَمَّتْ محــاسِنُه أنْ يُعادِي طَرْفَ من رَمَقَا
لك أَنْ تُبْدِي لنا حُسْناً ولنا أَنْ نُعْمِلَ الحدَقَا

وهذا من جيد شعره ونادره، وأول هذه الأبيات:

نم فَقَدْ وكلتَ بى الأرقَا لاهيا بُعْدًا لمن عشقا
إنما أبقيتَ من جســدى شَبَحًا غــيرَ الذى خُلِقَــا
وفــتًى ناداك من كَثَبٍ أُسعِرَت أحشــاؤه حُرقَا
[غرِقَتْ فى الدمــع مقلتُهُ فــدعا إنسانهـــا ، الغَرِقا[1]
إنما عاقبتَ ناظره إذا أعاد الطرفَ مسترقا[2]

(١) تغرى بمن عشقا (الأغانى) .

(٢) هذان البيتان غير ظاهرين فى الأصل وهما عن الأغانى .

ما لِمَنْ تَمَّتْ مَلَاحَتُه أن يعادى طَرْفَ مَنْ رَمَقا
لك أن تُبْدِى لنا حُسْناً ولنا أن نُعْمِلَ الحَدَقا
قَدَحَتْ كفَّاك زَنْدَ هوًى فى سوادِ القلبِ فاحْترَقا

لما قدم المأمونُ ولقِيه الحسنُ بنُ سَهْل دخلا جميعا فعارضهما ابنُ وُهَيْب فقال :

اليوم جُدِّدت النعماء والمِنَنُ فالحمدُ لله حلّ العُقْدَةَ الزمنُ
اليوم أَظهرت الدنيا محاسِنَها للناسِ لما التقى المأمونُ والحسنُ

فلما جلسا سأله المأمون عنه فقال : هذا رجل من حِمْيرَ ، شاعر مطبوع ، اتصلَ بى مُتوسّلا إلى أميرِ المؤمنين ، وطلب الوصولَ إليه مع نُظرائه فأمرَ بإيصالِه مع الشعراء ، فلما وقف بين يديه وأُذِن له فى الإنشادِ أنشد :

طَلَلَانِ طال عليهما الأمدُ دَثَرا فلا عَلَمٌ ولا نَضَدُ
لَبِسَا البِلَى فكأنما وَجَدا بعد الأَحِبَّة مثلَ ما أَجِدُ
حُيِّيتُما طَلَلَيْنِ حالُهما بعد الأَحِبّة غيرُ ما عَهِدُوا
إن ما طواك سَلُوٌّ غانيةٍ فهوَاكَ لا مَلِلٌ ولا فَنِدُ
إن كنتِ صادقةَ الهوى فَرِدِى فى الحبِّ مَنْهَله الذى أَرِدُ
أَدَمِى أَرَقْتِ وأنت آمنةٌ أم ليس لى عَقْلٌ ولا قَوَدُ

منها :

ياخيرَ مُنْتَسِبٍ لمَكْرُمَةٍ فى المجد حيث ينتج العدد
فى كل أنمُلَةٍ لراحته نَوْءٌ يسحُّ وعارضٌ حَشِدُ
وكأنَّ ضَوْءَ جبينِه قمرٌ وكأنه فى صَوْلةٍ أَسَدُ
وكأنه رُوحٌ تُدَبِّرُنا حركاتُه وكأَنَّنا جَسَدُ

فاستحسنَها المأمون ، وقال لأبى محمد: احتَكِمْ له . فقال له : أميرُ المؤمنين أوْلَى

بالحكم ، ولكن إن أذنَ لى فى المسألة سألتَ له ، وأما الحكمُ فلا . فقال : يَلْحَقُه بجوائز مروانَ ابنِ أبى حَفْصَة فقال : ذلك والله أَرَدْتُ ، وأمر أن تُعَدّ الأبياتُ فكانت خَمْسين فأعطاه خمسين ألفَ دِرْهم .

كان المأمون كثيرا ما يُنْشِدُ إذا حزَبَه أمر :

ألا ربما ضاقَ الفضاءُ بأهله   وأمْكَنَ من بينِ الأسنَّةِ مَخْرَجُ

وهذا البيت من قصيدة لمحمدِ بن وُهَيْب وهى :

هل الهَمُّ إلا كُرْبَةٌ تتفرَّجُ   لها معقب تجرى إليه وتزعجُ

وما الدهرُ إلا غابرٌ مثلُ سالفٍ   وما العيشُ إلا جِدةٌ ثم تَنْهَجُ

وكيف أشيمُ البرقَ والبرقُ خُلَّبٌ   ومُطْمِعُنى إنْعامُه المُتَبَلِّجُ

وكيف أديمُ الصَّبرَ لا بى ضَرَاعَةٌ   ولا الرزقُ محظورٌ ولا أنا مُحْرَجُ

ألا ربما كان التَّصَبُّرُ ذلة   وأدنى إلى الحال التى هى أسْمَجُ

وهل يحمل الهم الفتى وهو ضامر   سُرَى الليل رحّال المشيآتِ مدلجُ

أبَى لى إغضاءَ الجفونِ على القذى   يقينى أَلَّا عُسْرَ إلا سيُفْرَجُ

ألَا ربما ضاق الفضاء بأهله   وأمكن من بين الأسِنَّة مَخرَجُ

وقد يُرْكَبُ الخطبُ الذى هو قاتلٌ   إذا لم يكن إلا عليه مُعَرَّجُ

كان محمد بن وهيب تياها شديد الذهاب بنفسه ، فلما قدم الأفشين وقد قتل فاتكا مدحه بقصيدته التى أولها :

* طلول ممانيها نناجيها و نبكيها *

ومنها :

* نعيت الخيل والخير عقد فى نواصيها *

وهى من جيد شعره ، فأنشدها وقال : مالها عيب سوى أنْ لا أخت لها فأمر المعتصم للشعراء الذين مدحوا الأفشين بثلاثمائة ألف درهم يفرقها عليهم ابن أبى داود ،

فأعطى محمد بن وهيب منها ثلاثين ألفا وأعطى أبا تمام عشرة آلاف درهم ، قال ابن أبي كامل : فقلت لعليّ بن يحيي المنجم : ألا تعجب من هذا الحظ . يُعْطَى أبو تمام عشرة آلاف وابن وهيب ثلاثين ألفا وبينهما كما بين السماء والأرض !! فقال : لذلك علة لاتعرفها ؛ ابن وهيب مؤدب الفتح بن خاقان فلذلك وصله على هذه الحال . حدث من دخل إلى محمد بن وهيب يعوده وهو عليل فسأله عن خبره فشكى مابه وقال :

نُراع لذكر الموت ساعة ذكره ونعترض الدنيا ونلهو ونلعب
وآجالنا فى كل يـــوم وليلة إلينا عـــلى غراتنا تتقرب
أأيقن أن الشيب ينعى حياته مدر لأخلاف الخطيئة مذنب
يقين كأن الشك أغلب أمره عليه وعرفان إلى الجهل ينسب
وقد ذمت الدنيـا إلىّ نعيمها وخاطبنى إعجامها وهو معرب
ولـكننى منها خلقت لغيرها وما كنت منه فهو شيءٌ مُحبَّبُ

سأل محمد بن وهيب محمدَ بن عبد الملك الزيات حاجة فأبطأ فيها ، فقال له :

طبع الـكريم على وفائه وعلى التفضل فى إخائـــه
تغـــنى عنايته الصـــديـ ـقَ عن التعرض لاقتضائه
حسب الـكريم حياؤه فـكل الـكريمَ إلى حيائه

فقال له : حسبك . قد أبلغته والحاجة سبقتك إلى منزلك ووفى له بذلك .

مصعب بن الزبير (1)

هو مصعبُ بنُ الزبير بن العوام بن خُوَيْلد بن لبد بن عبد العزى بن قصى ابن كلاب .

لما كانت سَنَةُ اثنتين وسبعين استشار عبدُ الملكِ عبدَ الرحمن بنَ الحـكم فى المسيرِ إلى العراق ، لمحاربةِ مُصْعَبِ بن الزبير ومناجَزته ، فقال : يا أمير المؤمنين قد واليْتَ بين عامين تغْزو فيهما وقد خَسِرْتَ خَيْلَكَ ورجالَك ، وهذا عامٌ حاردٌ فأرح نَفْسَك وجُنْدَك ، ثم تَرَى رأْيَك . قال : إنى أبادرُ ثلاثةَ أشياء ، الشـامَ وهى أرضٌ المالُ بها قليلٌ فأخافُ أن يَنفَدَ ما عِنْدى ، وأشرافُ أهلِ العراقِ قد كاتبونى يَدعوننى إلى أنْفُسِهم ، وثلاثةٌ من أصحابِ رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كبروا ونفدتْ أعمارُهم ، فأنا أبادرهم الموت (2) أحبُّ أن يحضروا معى ، ثم دعا يحيى بنَ الحـكم ، وكان يقول : من أراد أمرا فليُشَاوِرْ يحـَيى بنَ الحـكم ، فإذا أشارَ عليـه بأمْرٍ فليعملْ خلافَه ، فقال : ما ترى فى المسير إلى العراق ؟ فقال : أرى أن تَقْنَع بالشام ، وتُقِيمَ بها ، وتَدَعَ مُصْعبا بالعراق فلَعَنَ اللهُ العراق ـ فضحك عبدُ الملك ودعا عبدَ اللهِ بنَ خالد بن أسيد . فشاوره ، فقال : يا أمير المؤمنين قد غَزَوْت مرّة فنصَرَكَ الله ، وغزوت ثانيةً فزادكَ اللهُ بها عِزًّا فأقِمْ عامَك هذا . فقال لمحمدِ بن مَرْوان : ما ترى ؟ قال : أرجو أن يَنْصُرك الله أقمْتَ أم غَزَوْت ، فشَمِّرْ فإن الله ناصِرُك فأمرَ الناسَ فاستعدُّوا للمسير ، فلما أجْمَعَ عليه ، قالت عاتـكةُ بنتُ يزيدَ زوجتُه : يا أمير المؤمنين وَجِّه الجنودَ وأَقِمْ فليس الرأىُ أن يباشرَ الخليفةُ الحربَ

---

(1) أغانى ١٧ : ١٦١ وأخباره فى ترجمة أبى بكر بن النطاح ـ الطبرى ٧/٦٨٧ـأنساب الأشراف ٥ / ٣٣٢ .

(2) أبادر بهم (أغانى) .

بنفسه ، فقال : لو وجهتُ أهلَ الشام كلَّهم فعلم مصعبٌ أنى لستُ معهم لَيُهْلِكَنَّ الجيشَ كله ثم قدَّم أخاه محمدَ بن مروان ، ومعه عبدُ الله بن خالد بن أسيد ، وبشر ابن مروان أخاه أيضا ونادى مناديه أن أميرَ المؤمنين قد استعمَلَ عليكم سَيِّدَ الناس محمدَ بنَ مروان ، وبلغ مصعبَ بن الزبير سيرُ عبدِ الملك فأراد الخروج فأبى عليه أهلُ البَصْرَة وقالوا : عَدُوُّنا مُطِلٌّ علينا يعنون الخوارجَ فأرْسل إليهم بالمُهَلَّبِ ، وهو عامِلُه بالموصل ؛ فولّاه قتالَ الخوارج وخرجَ مصعبٌ فنزل بدَيْرِ الجاثليق وهو بِمَسْكَن ، ونزل عبدُ الملك الأحوفية فقدَّم عبدُ الملك أخوَيْه محمدا وبشرا كل واحدٍ على جَيْش ، والأميرُ مُحَمَّدٌ . وقدَّمَ مصعبٌ إبراهيمَ ابنَ الأَشْتَر ، وكتب عبدُ الملك إلى أشرافِ الكوفةِ والبصرةِ يدعوهم إلى نَفْسِه ويُمَنِّيهم فأجابوه وشَرَطوا عليه شرُوطاً ، وسألوه ولاياتٍ ، وسأله ولايةَ أصبهان أربعون رَجُلا منهم ، فقال عبدُ الملك لِمَنْ حَضَره : وَيْحَكُمْ ما أصبهان هذه ! ! تَعَجُّباً من كثرة من يَطلُبها . وكتب إلى إبراهيمَ بنِ الأشتر ولايةَ ماسَقَى الفُراتُ إن تبِعْتَنِي فجاء إبراهيمُ بالكتابِ إلى مُصْعَبٍ فقال : هذا كتابُ عبدِ الملك ولم يَخْصُصْنِي بهذا دونَ غيرى من نظرائى فأطِعْنِي فيهم فقال : أصنع ماذا ؟ قال : تدعو بهم فتضربُ أعناقَهم فقال : أقتُلُهم على ظَنٍّ ظننْتَه ، قال : فأوْقِرهم حديداً وابعثْ بهم إلى أرضِ المدائن حتى تَنْقَضِيَ الحربُ . قال : إذاً تَفْسُدُ قلوبُ عشائرهم ، ويقول الناسُ عَبَثَ مصعبٌ بأصحابه ، قال : فإن لم تَفْعَلْ فلا تمُدَّنِي بهم فإنهم كالمومسَةِ تريد كلَّ يومٍ خليلا ، وهم يريدون كل يوم أميرا ، وأرسل عبد الملك رجلا إلى مُصْعَبٍ يدعوه إلى أن يَجْعَلَ الأمرَ شورى فى الخلافةِ ، فأبى مصعبٌ فقدَّمَ عبدُ الملك أخاه محمدا ، وقال : اللهم انصُرْ محمدا ثلاثا ، ثم قال : اللهم انصر أصْلَحَنا وخَيْرَنا لهذه الأُمَّة ،

وقدم مصعبٌ إبراهيمَ بن الأشتر فالتقت المقدّمتان وبين عسكرِ مُصْعبٍ وعسكرِ عبدِ الملك فرسخٌ ، ودنا عبدُ الملك حتى قَرُبَ من عسكر محمد فتناوشوا فقُتِلَ رجلٌ من مقدمةِ محمدٍ يقال له فراس ، وقتل صاحبُ لواء بِشْر ، وكان يقال له أُسَيْد ، فأرسل محمدٌ إلى عبد الملك أن بِشْرا قد ضَيَّعَ لواءه فصيَّرَ عبد الملك الأمرَ كله إلى محمدٍ وكَفَّ الناس وتواقفوا ، وجعل أصحابُ ابن الأشترِ يَهمّون بالحرب ومحمدُ بنُ مروان يَكُفُّ أصحابه ، فأرسل عبدُ الملك إلى محمدٍ ناجِزْهم فأبى ، فرد عليه رسولا آخر وشتَمَه ، فأمر محمدٌ رجلا وقال له : قفْ خلفِى فى ناسٍ من أصحابك ، ولا تدعَنَّ أحداً يأتينى من قِبَلِ عبد الملك ، وكان قد دَبّر تدبيراً سديداً فى تأخيره المناجزة إلى وقتٍ رآه ، فكَرِه أن يُفسِدَ عليه عبدُ الملك تدبيرَه فوجَّهَ إليه عبدُ الملكِ عبدَ الله ابنَ خالد بن أَسيد فلما رأوه أرسلوه إلى محمد ، هذا عبد الله بن خالد ، فقال : ردوه بأشدَّ مما رَدَدْتم من جاء قَبْلَه ، فلما قَرُب المساء أمرَ محمدٌ أصحابه بالحرب ، وقال : حرِّكوهم قليلا ، فتهايج الناسُ ، ووجه مصعبٌ إبراهيمَ ابن عتّاب بن وَرْقاء الرِّياحى يُعجِزُ إبراهيم . فقال : قد قلتُ له لا تُمِدَّنِى بأحد من العِراق ، فلم يَقْبَل فاقتتلوا ، وأرسل إبراهيمُ بنُ الأشترِ إلى أصحابه بحضرةِ الرسولِ لِيُرِيَه خلافَ أهلِ العراقِ عليه فى رأيه ألّا تَنْصرفوا عن الحربِ حتى ينصرفَ أهلُ الشامِ عنكم ، فقالوا : ولم لا ننصرفُ فانصرفوا ، وانهزم الناسُ حتى أتوا مصعباً ، وصبر إبراهيمُ فقاتل حتى قُتِل . فلما أصبحوا أمرَ محمدُ بنُ مروان رجلا فقال : انطلِقْ إلى عسكر مُصْعَبٍ فانظر كيف تراهم بعد قتلِ إبراهيمَ بنِ الأشتر ، فمضى الرجلُ ، ثم رجع إلى محمد فقال : رأيتهم مُنْكَسِرين ، وأصبح مصعبٌ ، ودنا منه محمدُ بنُ مروان حتى الْتَقَوْا ، وترك قومٌ من أصحاب مُصعبٍ مُصعبا ، وأتوا محمد بن مَرْوان ، فدنا محمدُ بن مروان إلى مصعبٍ فناداه : فداكَ أبى وأمى إن القومَ خاذِلُوكَ ولك الأمانُ ، فأبى قبولَ ذلك ، فدعا محمدُ بن مروانَ عيسَى بنَ

مصعبٍ ، فقال له أبوه : انظر ما يريدُ محمد ، فدنا منه فقال له : إنى لكم ناصحٌ إن القومَ خاذلوكم ، ولك ولأبيك الأمانُ وناشَدَه ، فأبى قبولَ ذلك ورجع إلى أبيه فأخبره ، فقال له : يا بنى إنى أظن أن القوم سَيَفُونَ ، فإن أحببتَ أن تأتيهم فأْتِهم . فقال : والله لا تتحدثُ نساء قريشٍ أنى خذلْتك ، ورغبتُ بنفسى عنك ، قال : فتقدمْ حتى أحتَسِبَك ، فتقدم ومعه ناس من أصحابه فقُتِلَ وقُتِلوا ، وترك أهلُ العراقِ مُصعبا حتى بقى فى سبعة . وجاء رجلٌ من أهل الشام ليَحْتَزَّ رأسَ عيسى فشدَّ عليه مصعبٌ فقتله ، وشدّ على الناس فانفرجوا ، ثم رجع فقعَد على مِرْفَقَة[1] ديباج ، ثم جعل يقومُ عنها ويحملُ على أهل الشام ، فيُفرِجُون عنه ثم يرجعُ فيقعدُ على المِرْفَقَةِ ، ففعل ذلك مرارا ، ودعاه عبدُ الله بنُ زياد بن ظَبْيان إلى المبارزة ، فقال : أعزُب يا كابُ وشدَّ عليه مصعبٌ فضربه على البَيْضَةِ فهَشَمها . وجرحه ، فرجع عبيد اللهِ فعصبَ رأسه ، وجاء ابنُ أبى فَرْوَة كاتبُ مصعبٍ فقال له : جعلتُ فداك ، قد تركَكَ الناسُ ، وعندى خَيْلٌ مُضَمَّرَة فاركبها وانْجُ بنفسك ، فدَثَّ[2] فى صدرِه وقال : ليس أخوك بالعبد ، ورجع ابنُ ظبيان إلى مصعب فحمل عليه هو وزَرَقَ زائدة بن قدامة مُصْعَبا[3] ونادى يالثاراتِ المختارِ فصَرَعه . وقال عبيدُ الله لغلام له ديْلَمِىّ : احتز رأسَه، فنزل فاحتز رأسَه فحمله إلى عبد الملك ، فلما وضعه بين يديه سَجَدَ . قال ابن ظبيان : فهممتُ والله أن أقتُلَه فأكون أفْتَكَ العرب ، قتلتُ مَلِكَيْنِ من قريشٍ فى يوم واحدٍ ، ثم وجدتُ نفسى تُنازِعُنى الحياةَ فأمسكت .

وقال يزيدُ بن الرِّقاع العامِلىّ أخو عَدِىّ ويقال : إنها للبَعيث اليَشْكُرِىّ :

ونحن قتلنا ابنَ الحوارِىّ مُصْعَبا   أخا أسدٍ والمذْحِجِىّ اليمانيا

---

(١) المرفقة : المخدة .

(٢) فدفع (أغانى) .

(٣) فى الأصل وزرق بن زائدة بن قدامة ونادى والتصويب عن الأغانى ١٧ : ١٩٣ .

ومَرّتْ عُقابُ الموتِ منا بمُسْلِمٍ   فأهْوَتْ له ظفرا فأصبح ثاويا

مسلمٌ هذا هو مسلمُ بن عمرٍو الباهلى ، وكان على مَيْسَرَةِ ابن الأشْتر ، فطُعِنَ فسقط ، فلما قُتِلَ مصعبٌ أرسل إلى خالدِ بن يزيدَ بنِ معاوية أن يَطْلُبَ الأمانَ من عبد الملك ، فأرسل إليه: ماتصنعُ بالأمانِ وأنت بالموت ؟ فقال : لمالِي ولولدى[1] فحُمِلَ على سرير حتى أُدْخِلَ على عبد الملك ، فقال عبد الملك : هذا أكْفَرُ الناسِ لمعروفٍ ، ويحك أكفرتَ معروفَ يزيدَ بنِ معاويةَ عندك ؟ فقال له خالد : تُؤَمِّنُه يا أمير المؤمنين ، فأمَّنَه ، ثم حُمِلَ فلم يَبْرَح الصحنَ حتى مات .

قال رجلٌ لعبدِ الله بن ظَبْيان : بمـاذا تحتجُّ عندَ الله عزّ وجل ؟ قال : إنْ تُرِكْتُ أحتجّ رجوتُ أن أكون أخطبَ من صعصعةَ بنِ صُوحان .

ولما كان يومَ قُتِلَ مُصْعَب دَخلَ إلى سُكَيْنَة بنتِ الحسين ، فنزع عنه ثيابـه ولبس غُلالَةً وتوشح بثوبٍ واحدٍ وأخـذَ سَيْفَه ، فعلمت سكينةُ أنه لا يريد أن يَرْجِعَ ، فصاحت به من خَلْفِه: واحزناه عليك يامُصْعَب ، فالتفت إليها وقد كانت تُخْفِى مافى قَلْبِها منه ، فقال : أوَكُلّ هـذا لى فى قَلْبِـك! فقالت : إى والله ، وما كنتُ أُخْفِى منه أكثر ، فقال : لو كنت أعلمُ أن هذا كلَّه لِى عِنْدَكِ لـكان لى ولَكِ حال ، ثم خرج ولم يَرْجع . ويقال : إن سُكينةَ لما قَدِمَتْ على مُصْعَبٍ أعطى أخاها علىَّ بن الحسين أربعين ألفَ دينار ، وولدت من مُصْعَبٍ ابنةً سَمَّتْها الرّبَابَ ، ولما دخلت سكينةُ الـكوفةَ بعد قَتْل مصعبٍ خطبها عبدُ الملك . فقالت : لا والله لا يتزوّجُنى بعده قاتِلُه أبداً ، فردَّتْه ، وتزوجت عبدَ الله بنَ عُثمانَ بنِ عبد الله ابن حكيم بن حزام ودخلت بَيْنَها وبينه رملةُ بنتُ الزبير أختُ مُصْعب حتى تزوّجها

(١) ليسلم لى مالى ويأمن ولدى (أغانى) ١٧ : ١٦٤ .

خوفا من أن تَصير إلى عبد الملك فولدتْ منه ابنا فسمته عُثْمان ثم مات عنها عبدُ الله ابن عثمان فتزوَّجها زيدُ بن عمرو بن عثمان بن عفان .

وقال الشعراء فى مصعبٍ كثيرا ، فما رثاه عَدِىّ بنُ الرِّقاع :

لعَمْرِى لقد أَصْحَرَتْ خيلُنا بأكنافِ دِجْلَةَ للمُصْعَبِ
يَهُزُّون كلَّ طويـــلِ القنا ةِ معتدلَ النَّصْلِ والثَّعْلَبِ
فداؤكَ أُمِّى وأبناؤها وإن شئتَ زِدْتُ عليهـا أبى
إذا شئْتُ نازلت مُسْتَقْبلا أزاحمُ كالجملِ الأَجْربِ
فمن يكُ منّا يَبِتْ آمنا ومن يك من غَــيْرِنا يَهْرَبِ

وقال قيس يرثى مُصْعَبا :

لقد أوْرَثَ المصرين خِزْيا وذِلَّةً قتيلٌ بــدير الجاثليقِ مُقــيمُ
فما قاتَلَتْ فى الله بَكْرُ بنُ وائل ولا صَــبَرَتْ عند اللقـاءِ تميمُ
ولـكنَّهُ رام[1] القيامَ ولم يكن بها مُضَرِىٌّ يـــومَ ذاكَ كريمُ

قال الشعبي : دخلت المسجدَ فإذا أنا بمُصْعبِ بن الزبير ، على سريرٍ ، جالسٌ والناسُ عنده ، فسلمتُ ثم ذهبتُ لأنصرف . فقال لى : ادْنُ فدنوتُ حتى وَضَعْتُ يدى على مَرافقِهِ فقال لى : إذا قمتُ فاتبعْـنى ، فجلس قليلا ثم نهض فتوَجَّه نحوَ دار موسى بنِ طلحة ، فتبعته ، فلما طُعِنَ فى الدار التفتَ إلىّ فقال : أدخلْ فدخلتُ فإذا حَجَلَةٌ[2] وأنها لأولُ حَجَلَةٍ رأيتُها لأمير ، فقمت ، ودخلَ الحجلةَ فسمعت حركةً فـكرهتُ الجلوسَ ولم يأمُرْنى بالانصراف ، فإذا جاريةٌ قد خرجَتْ فقالت : ياشَـعبىُّ إن الأمير يأْمُرك بالجلوسِ ، فجلستُ على وسادة ورُفِعَ السّجفُ الآخرُ فإذا بعائشةَ بنتِ طلحة ، فلم أَرَ زَوْجا قطُّ أجملَ منهما ؛ مصعب وعائشة .

---

(١) ضاع الذمام (طبرى ٧ : ٦٨٧) .

(٢) الحجلة : ستر يضرب للعروس فى جوف البيت — بيت يزين لها .

فقال مُصعب : ياشعبيُّ ، هل تعرفُ هذه ؟ فقلت : نعم أصلحَ اللهُ الأميرَ . قال : ومن هى ؟ قلت : سيدةُ نساءِ العالمين عائشةُ بنت طَلْحة . قال : لا ، ولكن هذه لَيْلَى التى يقولُ فيها الشاعر :

ومازِلْتُ من لَيْلَى لَدُنْ طُرَّ شاربى — إلى اليومِ أُخْفِى حُبَّها وأداجنُ
وأحملُ فى لَيْلَى لقـــومٍ ضغينةً — وتحملُ فى لَيْلَى علىَّ الضغائنُ

ثم قال : إذا شئتَ فقم ، فقمت ، فلما كان العشيُّ رحتُ وإذا هو جالسٌ على سريره فى المسجد ، فسلمتُ فلما رآنى قال : ادْنُ فدنوتُ حتى وضَعْتُ يدى على مَرافِقِه وأَصْغَى إلىَّ فقال : هل رأيتَ مثل ذلك الإنسان قط ؟ قلت : لا والله ، قال : أفتَدْرِى لم أدْخَلناك ؟ قلت : لا . قال : لتُحدِّثَ بما رأيت ، ثم التفت إلى عبد اللهِ ابن أبى فَرْوةَ فقال : أعْطِه عشرةَ آلافِ دِرْهم ، وثلاثين ثَوْبا ، فما انصرف واحدٌ يومئذ بمثلِ ما انصرفتُ به ؛ عشرة آلافِ دِرْهم وثلاثين ثَوْبا مِثْل كارةِ[1] القصار وبنظرة من عائشة بنت طلحة .

وكان مصعبٌ لما قَدِمَ الكوفةَ يسألُ عن الحسينِ بنِ علىٍّ ومن قَتَلَه فجعل عروةُ بنُ المغيرة يحدِّثه عن ذلك ، فقال متمثلا بقول سليمانَ (بن قتة) :

إن الأُلى بالطَّفِّ من آل هاشمٍ — تَأَسَّوْا فَسَنُّوا للكرامِ التأسِّيا

قال عروة : فعلمت أن مصعبا لا يَفِرُّ أبداً .

حدث شيخٌ من أهل مكةَ قال : لما أَتَى عبدَ الله بنَ الزبير خبرُ أخيه مُصْعَبٍ أضربَ عن ذِكْرِه أياما حتى تَحَدَّثَ به إماءُ مكة فى الطريق ، ثم صعد المنبرَ فجلس عليه مَلِيّا لا يتكلم ، فنظرتُ إليه والكآبةُ على وجْهِهِ وجَبِينُه يَرْشَحُ عَرَقا ، فقلت لآخرَ إلى جَنْبِى : ماله لا يتكلمُ أتراه يهابُ المَنْطِقَ ؟ فوالله إنه لخطيب ؛

(١) الكارة من الثياب : ما يكوره القصار منها ويحمله فيكون بعضه فوق بعض .

فما تراه يهاب ؟ قال : أراه يريد أن يَذْكُرَ قتلَ أخيه مُصْعَبٍ سيدِ العربِ فهو لفظيع تذكره غير ملوم . فقام فقال : الحمد لله الذى له الخلقُ والأمْرُ ومالكُ الدنيا والآخرةِ ، يُعِزّ من يشاء ويُذِلُّ من يشاء ، أما إنّه واللهِ لا يُذِلُّ اللهُ من كان الحقُّ معه ، وإنْ كان مُفْرَداً ضعيفا ، ولا يُعِزّ اللهُ من كان الباطلُ معه وإن كان فى العُدَّةِ والعَدَدِ كثيرا . ثم قال : إنه قد أتانا خبرٌ من العراقِ بلدِ الغَدْرِ والشقاقِ . فساءنا وسرّنا ، أتانا أن مصعبا قُتِلَ رحمةُ اللهِ عليه ومغفرَتُه ، فأما الذى ساءنا وأحْزَننا فإن لِفراقِ الحميمِ لَذْعَةً يجدُها حميمهُ عند المُصيبةِ ، ثم يَرْعَوى من بَعْدُ ذو الرأىِ والدينِ إلى جميلِ الصَّبْرِ ، وأما الذى سرّنا فإنا علمنا أن قتْلَهُ شهادةٌ له ، وأن الله عزّ وجلّ ، جاعلٌ لنا وله فى ذلك خِيَرَةً إن شاء الله ، عز وجل ، إن أهلَ العراق أسْلَمُوه وباعُوه بأقلِ ثمنٍ كانوا يأخذونه منه ، واحسرتاه أسلموه إسلامَ النَّعَمِ المُحطَّمِ ، فقُتِلَ وأىّ قَتْل ! ! فقد قُتِلَ أبوه وعمُّه وأخوه ، وكانوا الخيارَ الصالحين ، والله ما نموتُ كما يموتُ بنو مروان حَتْفَ أنوفنا ، ما نموت إلا قتْلاً ، قتْلاً قَعْصاً ، قعصا بين قَصَبِ الرماحِ وتحتَ ظلال السيوفِ ، وليس كما يموتُ بنو مروان ، والله ما قُتِلَ رجل منهم فى جاهليةٍ ولا إسلامٍ قطُّ ، وإنما الدنيا عَارِيةٌ من المَلِكِ القهّارِ الذى لا يزولُ سلطانهُ ولا يَبيدُ مُلْكُه ، فإن تُقْبِلِ الدنيا علىّ آخذْها أخْذَ الأَشِرِ البَطِرِ وإن تُدْبِرْ عنى لا أبكِ عليها بكاءَ الخَرِفِ الهَتِرِ ، ثم نزل .

قال عبدُ الملك يوما لجلسائه : من أشجعُ الناس ؟ فأكثروا فى هذا المعنى ، فقال : أشجعُ الناس مصعبُ بن الزُّبَيْرِ جَمَعَ بين عائشةَ بنتِ طَلْحَةَ وسكينةَ بنتِ الحسين وابنة الحُمَيْدِ بنتِ عبد الله بن عاصم وَوَلِيَ العراقين ، وزحَفَ إلى الحَرْبِ فبُذِلَ له الأمانُ والحِباءُ والكرامة والولايةُ والعَفْوُ عما خاص فى يده فأبى قبولَ ذلك واطَّرَحَ ما كان مشغوفا به من ماله وأهْلِه وراءَ ظَهْرِه وأقبل يقاتلُ بسيفه

قَرِماً ولم يبق معه إلا سبعةُ نفر حتى قُتِلَ كريما .

ولما ولى مصعبٌ العراقين أقرّ عبد العزيز بن عبد الله بن عامر على سِجِسْتان وأمده بخيل فقال ابن قيس الرقيات :

ليتَ شعرِى أأولُ الهَرْج هذا	أم زمانٌ من فتْنَةٍ غَيْرِ هَرْج
إنْ يَعِشْ مصعب فنحن بخير	قد أتانا من عيشنا ما نُرَجِّى
أُعْطِىَ النصرَ والمهابةَ فى الأعـ	ـداء حتى أتَوْه من كُلِّ فَجِّ
حيث لم تَأْتِ قبله خيلُ ذى الأكْ	تاف يوجِفْنَ بين قُفٍّ[(١)] ومَرْج
مَلِكٌ يطعِمُ الطعامَ ويَسْقِى	لبن البُخْتِ فى عِسَاسِ الخَلَنْجِ[(٢)]

كان ابن قيسِ الرقياتِ عند عبد الملك بن مروان فأقبل غلمانُ عبدِ الملك معهم عساسُ الخَلَنْج فيها لَبَنُ البُخْتِ فقال عبد الملك : يا ابن قيس ، أين هذه من عساس مُصْعَبٍ التى تقول فيها :

ملكٌ يُطْعِمُ الطعامَ ويَسْقى	لبَنَ البُخْتِ فى عساس الخَلَنْجِ

فقال : لا ، أين يا أميرَ المؤمنين لو طُرِحَتْ هذه فى عُسٍّ من عِساس مُصْعب لوَسِعَتْها وتغلغلتْ فى جَوْفه فضحك عبدُ الملك وقال : قاتل الله ابنَ قيس يأبَى إلا وفاءً وكَرماً .

وقال رجلٌ من بنى أسد بن عبد العزى يَرْثِى مُصْعبا :

لعمركَ إنّ الموتَ منا لَمُولَعٌ	بكل فَتًى رَحْبِ الذراعِ أَريبِ
جميلِ المُحَيّا يوهِنُ القِرْن غَرْبُه	وإنْ عَضَّه دهرٌ فغيرُ هيوبِ
فإن يك أمسى مصعبٌ نال حَتْفَه	لقد كان صُلْبَ العودِ غير رَهُوبِ
أتاه حمامُ الموتِ وَسْط جنوده	فطاروا سلالا واستَقَى بذَنوبِ
ولو صَبَرُوا نالوا حِباً وكرامةً	ولكنهم وَلَّوْا بغير قلوبِ

(١) القف : ما ارتفع من الأرض وصلبت حجارته .

(٢) العس : القدح أو الإناء الكبير والخلنج شجر .

مرج راهط(١)

كان بدء حرب قيْس وكَلْبٍ فى فِتْنةِ ابن الزبيرِ ما كان مِنْ وَقْعَةِ مَرْجِ راهط، وكان سببُ ذلك أن مروانَ بن الحكم قَدِمَ بعد هلاكِ يزيدَ بنِ معاويةَ ، والناسُ يَموجون ، وكان سعيد بن بَحْدَلٍ الكَلْبِىّ على قيس ، فوثَبَ عليه زُفَرُ بن الحارثِ فأخرجه منها وبايعَ لابنِ الزُّبَير ، فلما قعَدَ زُفَرُ على المنبرِ قال : الحمد لله الذى أقْعَدَنِى مَقْعَد الغادرِ الفاجرِ ، وحُصِرَ ، فضحك الناس من قوله ، وكان النعمانُ بنُ بَشير على حِمْص فبايعَ لابنِ الزُّبَيْرِ ، وكان حسانُ بن بَحْدَلٍ على فلسطينَ والأُرْدُنّ فاستَعْمَل على فِلَسْطين رَوْحَ بنَ زنباعٍ الجُذَامِىّ وترك الأُرْدُنّ ، فوثب نائِلُ بن قَيْس الجُذَامِىّ على رَوْح بن زنباعٍ فأخْرَجه من فلسطينَ وبايعَ لابن الزُّبَيْرِ وكان الضحاكُ بنُ قيسٍ الفِهْرِىُّ عاملا ليزيدَ بنِ معاوية على دِمَشْقَ حين هَلَكَ ، فجعل يُقدِّم رجلاً ويُؤَخِّر أُخْرَى ، إذا جاءتْه اليمانيةُ وشِيعَةُ بنى أمية أخبرهم أنَّه أُمَوِىّ ، وإذا جاءته القَيْسِيَّةُ أخبرهُم أنه يدعو إلى ابنِ الزُّبَيْرِ فلما قَدِمَ مروانُ قال له الضحاكُ : هل لك أن تَقْدِمَ على ابن الزُّبَيْرِ بِبَيْعة أهلِ الشام ؟ قال : نعمَ وخرجَ من عنده ، فلقيه عمرُو بنُ سَعيدِ بن العاص ومالك وحصين الكِنْدِيان ، وعبيدُ الله بن زياد ، فسألوه عما قال الضحاكُ فأخْبَرهم ، فقالوا : أنت شيخُ بنى أُمَيَّة ، وأنت عمُّ الخليفة ، هلم نُبَايِعْك ، فلما فشا ذلك أرسلَ الضحاكُ إلى بنى أميـة يَعْتَذِرُ إليهم ويذكر حسنَ بلائه عندهم ، وأنه لم يُرِدْ شيئا يكرهونه ، فاجتمع مروانُ بنُ الحكم وعمرو بن سعيد بن العاص وخالدُ

---

(١) أغانى ١٧ : ١١١ ـ الطبرى ٥ / ٥٣٥ ـ الكامل لابن الأثير ٤ / ٥٨ ـ أنساب الأشراف ١٣٦.

وعبد الله ابنا يزيدَ بنِ معاوية ، فقال لهم : اكتبوا إلى حسان بن بَحْدَلٍ فليَسِرْ من الأُرْدُنِّ حتى ينزل الجابيةَ ، ونسيرُ مَنْ ها هنا حتى نلْقاه فيستخلف رجلا تَرْضَونه ، فكتبوا إلى حَسّانَ فأقبل من الأردنِّ وسار الضّحّاكُ بنُ قيس وبنو أمية فى أَهْلِ دمشق ، فلما استَقَلّتِ الراياتُ من قِبَلِ دمشق ، قالت القيسيّةُ للضحاك : دَعَوْتَنا إلى دعوة ابنِ الزبيرِ ، وهو رجلُ هذه الأُمّةِ ، فلما تابَعْناك خرجتَ تابعا لهذا الأعرابى مع كَلْبٍ تبايع لابن أخيه تابعا له قال : فتقولون : ماذا ؟ قالوا : نقول أن تنصرفَ وتُظْهرَ بيعةَ ابنِ الزبير ونظهرَها معك ، فأجابهم إلى ذلك ، وسار حتى نزل مَرْجَ راهطٍ ، وأقبل حسانُ حتى لَقِيَ مروانَ بن الحكم ، فسار حتى دخل دمشقَ فأتته اليمانيةُ [تشكر بلاء بنى][1] أمية فساروا مع مروانَ حتى نزلوا المرجَ على الضحاكِ ، وهم نحو سبعةُ آلافٍ ، والضحاكُ فى نحو ثلاثةِ آلاف ، فلقُوا الضحاكَ وقُتِلَ الضحاكُ وقُتِلَ معه أشرافٌ من أشراف قَيْس وأقبلَ زفرُ هاربا من وَجْهِه ذلك حتى دخل قَرْقيسيا ، وأقام عميرُ بن الحباب شيئا على طاعةِ بنى أميَّةَ ، ثم أقبل حتى دَخَل قَرْقيسيا على زفر وأقام معه ، وقال زفر يبكى قتلى المرج :

لَعَمْرِى لقد أَبْقَتْ وَقيعةُ راهطٍ ... لمروانَ صَدْعاً بيننا مُتَساوِيَا

أتَذْهبُ كَلْبٌ لم تَنَلْها رِماحُنا[2] ... ويترك قتلى راهطٍ هِىَ ما هِيا

وقد يَنْبُتُ المَرْعى على دِمَنِ الثّرَى ... وتبقى حزازاتُ النفوسِ كما هِيَا

أبَعْدَ ابنِ صَقْر وابنِ عَمْرٍو تتَابعا ... ومَصْرَعِ هَمّامٍ أُمَنّى الأمانيا

فقال ابن المُخَلّاة الكَلْبىّ يجيبه :

لعمرِى لقدْ أبْقَتْ وقيعةُ راهطٍ ... علـى زُفَرٍ داءً من الداء باقِيا

تُبَكِّى على قَتْلَى سُلَيْمٍ وعامرٍ ... وذُبيانَ مَغْرورا وتُبْكِى البواكيا

مع قصائد كثيرة قيلت فى ذلك .

---

(١) غير واضحة فى الأصل وهى عن الأغانى ١٧ : ١١١ .

(٢) هذا الشطر محرف فى الأصل وصحته عن الأغانى ١٧ : ١١١ .

مسكينٌ أبو صَدَقة

هو مسكينُ بنُ صَدَقَةَ من أهل المدينة ، مولىً لقريش مَليحُ الغِناء طيّبُ الصوتِ من أكثرِ النـاسِ نادرةً ، وأخفهم رُوحاً ، وأشدِّهم طَمعا ، وألحِّهم فى مسألة ، وكان خيّاطا حاذقا .

وكان له ابنٌ يقال له صَدَقَة يُغَنِّى ، وابن ابنه أَحْمَدُ بن صَدَقَةَ الطّنْبُورىُّ أحد المحسنين ، وهو أشبهُ الناس بجَدِّه فى المَزْحِ والنوادِر ، وأبو صدقة من المغنّين الذين أقْدَمَهم هارونُ الرشيدُ من الحجازِ فى أيامه . قيل لأبى صدقة : ما أكثرَ سؤالكَ وأشدَّ إلحاحَك !! فقال : وما يمنعنى من ذلك ، واسمى مسكينٌ وكُنْيَتِى أبو صَدَقَة وامرأتى فاقَةُ وابنى صَدَقَة .

قال الرشيد يوما للحارِث بن بسخر : قـد اشتهيتُ أن أرى نُدمائى ، ومن يحضرُ مجلسى من المغنين جميعا فى مجلسٍ واحـــد ، يأكلون ويشربون مُتَبَذِّلين متبسطين على غَيْرِ هَيْبة ولا احتشامٍ ، يفعلون ما يفعلونه مع إخوانهم ونظرائهم وفى منازلهم ، وهذا لا يتم إلا أن يكونوا بحيثُ لا يَرَوْنِى وعن غَيْرِ عِلْمٍ منهم بِرُؤْيتى إياهم ، فأعِدَّ لى مكانا أجلس فيـه أنا وعمّى سليمانُ وإخوتى إبراهيمُ بنُ المهدى وإسماعيلُ بن جعفر . وجعفرُ بن يحيى فإنا مُغَلِّسون إليك غداةَ غَدٍ واسْتَزِرْ أنتَ محمدَ بن خالدٍ بن برمك ، وخالداً أخا مهرويه ، والخضرَ بن جبريل ، وجميعَ المغنين وأجْلِسْهم بحيث نراهم ولا يَرَوْننا ، وأبسط الجميعَ وأظْهِرْ بِرَّهم وأخْلَعْ عليهم ولا تَدَعْ من الإكرامِ شيئا إلا فَعَلْته بهم ، ففعل ذلك الحارثُ وقدّمَ إليهم الطعامَ

---

(١) الأغانى : ٢١ : ١٠٠ .

فأكلوا ، والرشيد ينظرُ إليهم ، ثم دعا لهم بالنبيذِ فشربوا ، وأحضرتِ الخلَع ، وكان ذلك فى يومٍ شديدِ البردِ فخلعَ على ابن جامعٍ جُبَّةَ طارونِيٍّ مبطَّنةً بسمُّورٍ[1] صينىّ ، وخلع على إبراهيمَ الموصلى جُبَّةَ وَشْيٍ مُبطَّنَةً بفنَكٍ[2] ، وخلع على أبى صدَقَةَ دُرّاعةَ مُلْحَمٍ[3] خراسانى محشوة بقزّ ، ثم تغنَّى ابن جامعٍ وتغنَّى بعده إبراهيمُ ، وتلاهما أبو صدَقَة فغنَّى لابن سُرَيْج :

ومن أجل ذاتِ الخالِ أعْمَلْتُ ناقتى ... أُكلِّفُها سيرَ الكَلالِ مع الظَّلع

فأجاده واستعادَه الحارثُ ثلاثا وهو يُعيده ، فقال له : أحسنتَ والله . يا أبا صدَقَة فقال له : هذا غنائِى ، وقد قرصَنِى البردُ ، فكيف تراه فدَيْتُك يكون لو كان تحت دُرّاعتى شعيراتٌ ، يعنى الوبرَ ؟ ، والرشيدُ يسمع ذلك ، فضحِكَ وأمر بأن يُخْلَع عليه دُرّاعةُ مُلْحَمٍ مبطنةٌ بِفنَك ، ففعلوا ذلك ثم تغنَّتِ الجماعةُ وتغنى أبو صدقة لمَعْبَد :

بان الخليطُ ولو طُوّعْتُ ما بانا ... وقطَّعُوا من حبالِ الوصلِ أقرانا

فأقام فيه القيامة ، فطرب الرشيد حتى كاد أن يخرج إلى المجلس طربا ، فقال له الحارثُ أحسنتَ والله يا أبا صدقة وأجملت ، فقال له أبو صدقة : فكيف ترى ، فدَيْتُك ، الخال لو كانتْ على الدُّرّاعةِ نُقَيْطاتٌ ، يعنى الوشى ، فضحك الرشيدُ حتى ظَهَرَ ضحكُه ، وعلموا بموضعِه وأمرَ بإدخالهم إليه ، وأمر أن يُخْلَع على أبى صدقة دُرّاعةٌ أُخْرَى بِوَشْيٍ خُلعت عليه . وكان الرشيد يعبث به كثيرا ، فقال ذات يوم لمسرور : قل لابنِ جامعٍ وإبراهيمَ الموصلىّ والزبير بن دَحْمان ، وزلزلٍ وبرصوم

---

(١) السمور حيوان برى يشبه ابن عرس ومنه لون أحمر مائل إلى السواد يتخذ من جلده فراء ثمينة .

(٢) الفنك : جنس من الثعالب أصفر من الثعلب المعروف وفروته من أحسن الفراء .

(٣) الملحم : جنس من الثياب وهو ما كان سداه إبريسمه (حرير أبيض) ولحمته غير إبريسم .

وعمرو الغزال وسائرِ المغانى : إذا رأيتمونى قد طابتْ نفسى فليسأل كل واحد منكم حاجةً ، مقدارُها مقدارُ صِلَتِه ، وذكَرَ لكل واحد منهم مقدارَ ذلك وأمَرَهم أن يكتُموا أمْرَهم عن أبى صَدَقة ، فقال لهم مسرور ما قال له ، ثم أذِن لأبى صَدَقة قبلَ إذْنِه لهم ، فلما جلس قال : يا أبا صدقة قد أضْجَرْتَنِى بكثرةِ مسائِلك وأنا فى هذا اليوم ضَجِرٌ وقد أحببتُ أن أتفَرّجَ وأفرحَ ، ولستُ آمَنُ أن تنغّصَ علىّ مجْلسى بمسألتك فإمّا ألا تَسَلْنى اليوم حاجةً ، وإلا انصرف فقال له : لستُ أسألُك فى يومى هذا حاجةً إلى شَهْر ، فقال له الرشيد : أما إذ شرطْتَ هذا على نَفْسك فقد اشتريتُ منك حوائِجكَ بخمسمائة دينار ، وها هى تُخذْها طيبةً مُعَجَّلَةً ، فإن سألتنى شيئا بعدها هذا اليوم ، فلا لوم علىّ أن لم أَصِلْك سنةً بشىء ، فقال له : نَعَمْ وسَنتين ، فقال له الرشيد : زِدْنِى فى الوثيقةِ فقال : قد جعلتُ أمر أمِّ صدقة فى يَدِك فطلّقْها إن شئتَ واحدةً أو ألفا إن سألْتُك فى يومى هذا حاجةً وأُشْهِدُ الله ومن حَضَر على ذلك ، ودفع إليه المالَ ثم أذنَ للجلساء والمغنّين ، فدخلوا وشرب القومُ فلما طابت نَفْسه ، قال له ابن جامع : يا أمير المؤمنين قد بلغتُ منك مالم يَبْلُغه غيرى وكَثُر إحسانُك علىّ حتى كبَتَّ أعدائى ، وليس لى دارٌ تشبه حالى فإن رأىَ أميرُ المؤمنين أن يأذنَ لى بمالٍ أبنى به دارا وأَفْرِشُها بباقية لأَفْقَأ عُيون أعدائى وأزهِق نفوسَهم فَعَل ، قال : وكم قدرتَ لذلك قال : أربعةُ آلافِ دينار ، فأمر له بها . ثم قام إبراهيمُ الموصلى فقال : يا أميرَ المؤمنين قد ظهرتْ نعمتُك علىّ وعلى ولدى وفى أكابرهم من أحتاج إلى ظَهْرِه وفى أصاغِرِهِمْ من أحتاج إلى أن أتَّخِذَ لهم خِدْنا فإن رأى أميرُ المؤمنين مَعونتى على ذلك فَعَل ، فأمر له بمثل ما أمرَ به لابن جامعٍ وجعل كلٌّ واحد يقولُ فى الثناء ما يَحْضُره ويسألُ حاجته على قَدْرِ جائزته ، وأبو صدقة ينظر إلى الأموال تُفَرّق يمينا وشمالا فوثَبَ على رجليه قائما وأخرجَ الدنانير من كُمِّه وقال للرشيدِ : أقِلْنِى أقالك الله من عَثْرَتِك يا أمير المؤمنين ، فقال له الرشيد :

لا أَفْعل فجعل يَسْتحْلِفُه ويضطربُ ويُلِحّ والرشيد يضحكُ ويقول : ما إلى ذلك سَبيلٌ ، والشَّرْطُ أمْلَك ، فلما عِيلَ صَبرُه رمى بالدنانيرِ بين يَدى الرشيدِ وقال : ها كَها قد رَدَدْتها عليك وزِدْتُك أمَّ صدقةَ فطَلِّقْها إن شئت واحدةً وإن شئت ألفاً ، وإن لم تلحقنى بجوائزِ القوْمِ فألْحِقْنِى بجائزة هذا البارِدِ عَمْرٍو الغزال ، وكانت جائزته ثلاثة آلافِ دينار ، فضحك الرشيد حتى استلقى ، ثم ردَّ عليه الخمسمائة دينار وأمر له بألف دينار أخرى ، وكان ذلك أكثرَ ما أخذ منه من يوم خَدَمَه إلى أن مات وانصرف بألف وخمسمائة دينار .

قال إسحاقُ : مُطِرْنا ونحن بالرَّقّة مع الرشيد مع الفَجْر ، واتصل ذلك إلى غَدِ ذلك اليومِ ، وعَرفْنا خَبرَ الرشيد أنه مقيمٌ عند أمِّ ولده المسماةِ سَحر ، فتشاغلْنا فى منازلنا ، فلما كان من الغَدِ جاءنا رسولُ الرشيد ، فحضرنا جميعا ، وأقبل يسألُ كلَّ واحدٍ منا عن يومه الماضى وما صنع فيه ، فيُخبره إلى أن انتهى إلى جعفرِ بنِ يحيى فسأله عن خبره فقال : كان عندى أبو زكارٍ الأعمى وأبو صدقةَ فكان أبو زكار كلّما غَنَّى صوتا لم يَفرغْ منه حتى يأخُذَه أبو صدقة ، فإذا انتهى الدورُ إليه أعادَه وحَكَى أبا زكار فيه وفى شمائله وحرَكاته ، ويَفْطِنُ أبو زكار لذلك فيُجَنّ ويموتُ غيظا ويشتمُ أبا صدقة كلَّ شتم حتى يَضْجَر وهو لا يُجيبه ولا يَدَعُ العبث به ، وأنا أضحكُ من ذلك إلى أن توَسَّط الشربُ وسئمنا من عَبَثِه به ، فقلت له : دع هذا عنك وغَنِّ غناءَك فغنَّى رَمَلا ذكر أنّه من صَنعته فطربتُ له يا أمير المؤمنين طرباً ما أذكرُ أنى طربت مثله منذ حين ، وهو :

فَتَنَتْنى بفاحمِ اللونِ جعدٍ وبثغرٍ كأنّه نَظْمُ دُرِّ
وبوَجْهٍ كأنه خِلقةُ البدْ رِ وعينٍ فى طَرْفِها نفثُ سِحْرِ

فقلتُ له : أحسنتَ والله يا أبا صدقة ، فلم أسكتْ من هذه الكلمةِ حتى قال

لى : يا سيدى إنى قد بنيتُ دارا أنفقتُ عليها حَريبتى (١) ، وما أعددتُ لهـا فَرْشًا فافرِشْها لى نَجَّد اللهُ لك فى الجنة ألفَ قصر ، فتغافلتُ عنه ، وعاود الغناءَ فتعمدتُ أن قلتُ له : أحسنتَ ليعاود المسألة وأتغافل عنــه ، فسألنى وتغافلتُ عنه ، فقال : ياسيدى : هذا التغافلُ متى حَدَثَ لك ؟ سألتُك بالله وبحقِّ أبيك عليك إلا أجَبْتَنى عن كلامى ولو بشَتْمٍ ، فأقبلتُ عليـه وقلت له : أنت بغيضٌ فاسكتْ يابغيضُ واكفُفُ عن هذه المسألةِ المُلِحَّةِ فوثب من بين يدىَّ ، وظننتُ أنه خرج لحاجةٍ فإذا هو قد نزَع ثيابَـه وتَجرَّد منها خوفا من أن تَبْتَلّ ، ووقف تحتَ السماء ، لا يواريه منها شىءٌ والمطر يأخُذُه ، ورَفعَ رأسه ، وقال : ياربّ أنت تعلمُ أنِّى مُلهٍ ولستُ نائحا ، وعبدُكَ هذا الذى رَفَعْتَه وأحْوَجْتَنى إلى خِدْمَته يقول لى : أحْسنتَ لا يقول لى : أسَأْتَ ، وأنا منذ جلستُ أقــول له : بَنَيْتُ ، لا أقول له هَدَمْت ، فيحلفُ بك جُرْأَةً عليك أنِّى بغيضٌ ، فاحكمْ بينى وبينَه ، وأنت خيرُ الحاكمين .

فغلبنى الضحكُ وأمرتُ به فتَنَحَّى وجَهِدْتُ بــه أن يُغَنِّىَ فامتنع حتى حَلَفْتُ له بحياتك يا أميرَ المؤمنين أنِّى أفرشُ له دارَه وخَدَعْتُه فلم أُسَمّ له ما أَفْرُشها . فقال الرشيد : طيِّبٌ والله ، لأنْ تمّ لنا به اللهْوُ ، وهــو ذا ، أُدْعُ به فإذا رآكَ فسوف ينتجز منك الفَرْشَ لأنك حلفت له بحياتى ، فهو يَقْتضيك بحَضْرَتى ليكونَ أوثقَ له ، فتقول له : أنا أفرِشُها لك بالبَوارِى (٢) ، وحاكِمْه إلىّ ، ثم دعا به فحضر ، فما استقر فى مَجْلِسه حتى قال لجعفرِ بن يحيى : الفَرْشَ الذى حَلَفْتَ بحياةِ أميرالمؤمنين أنك تفْرِشُ به دارِى تقدَّمْ فيه ، فقال لــه جعفر : اخترْ إن شئتَ فرشتُها لك بالبَوارِى ، وإن شئتَ بالبَرْدِىِّ من الحُصْر ، فصاح واضطرب ، فقال له الرشيدُ : كيف كانت القِصَّةُ ، فأخبَره . فقال له : أخطأت يا أبا صدقة إذ لم تُسَمِّ النوعَ ،

---

(١) حريبة الرجل : ماله الذى يعيش منه .

(٢) البورياء : الحصير المنسوج من القصب : فارسى معرب .

ولم تَحُدَّ القيمةَ ، فإذا فَرَشَها لك بالبَرْدِى أو بما دون ذلك فقد وَفَّى يمينَه وإنما خَدَعَك ولم تَفْطِن أنت ، ولا توَثَّقْتَ وضيّعتَ حقك ، فسَكَتَ وقال : توفّرُ البوارى والبَرْدِىّ أعزّكَ الله ، وغنى المغنّون حتى انتهى الدورُ إليه ، فأخذ يغنى غناء الملّاحين والبنّائين والسقّائين وما يَجرِى مجراه من الغناء فقال له الرشيد : إيشْ هذا الغناء وَيْلك !! فقال من فَرَشَ دارَه البوارى والبَرْدِى فهذا الغناء كثيرٌ منهُ وكثيرٌ أيضا لمن هذه صِلَتُه ، فضحك الرشيدُ وطَرِبَ وصفّقَ وأمر له بألفِ دينارٍ من ماله ، وقال له : افرشْ دارك بهــذه ، فقال له : وحياتِك لا آخُذُها أو تَحْكُمَ لى على جَعْفَر بما وَعَدَنى وإلا متُّ والله أَسَفاً لِفَوْتِ ما حصل فى طَمَعِى ووُعِدتُ به فحكم له على جعفر بخمسمائة دينار فقَبِلها وأمرَ له بها .

محمد بن أبي محمد اليزيدي[1]

هو محمدُ بن أبي محمدٍ ، يحيى بنُ المباركِ اليزيدي ، وسيأتي نَسَبُه تحت تَرْجَمةِ أبيه في حرف الياء .

جاء محمدُ بن أبي محمدٍ إلى بابِ المأمون فاستأذنَ فقال له الحاجب : إنه قد أَخَذَ دواءً وأمرني ألا آذن لأحد ، فقال له محمد : فأمَرَكَ ألا تُوصِّل إليه رُقْعَـةً ؟ قال : لا ، فدفع له رقعة فيها :

هَدِيَّتي التحيةُ للإمامِ | إمامِ العَدْلِ والملكِ الهمامِ
لأني لو بَذَلْتُ له حياتِي | وما أَحْوِي لقَلَّا للإمامِ
أراكَ من الدواءِ اللهُ نَفْعاً | وعافيةً تـكونُ إلى تَمامِ
وأعْقَبَك السلامة منه ربٌّ | يريك سلامةً في كلِّ عامِ
أتأذن في السلامِ بلا كلامٍ | سوى تقبيلِ كفِّكِ والسلامِ

قال : فأوْصَلها وخرج فأذن له فدخل وسلم وحَمَلَ معه أَلْفَيْ دينارٍ .

قال محمد بن أبي محمد: ما سَرَقْتُ من الشعر قطُّ إلا مَعْنيين لمُسْلِمِ بنِ الوليد قال :

ذاكَ ظَبْيٌ تَحَيَّرَ الحسنُ في الأر | كانِ منه وحــلَّ كلَّ مكانِ
عَرَضَتْ دونَه الحجالُ فمـا يلْـ | قاكَ إلا في النومِ أو في الأمانِي

فقلت أنا :

يا بعيدَ الدارِ موصو | لاً بقلبي ولسانِي
ربمـا باعَدَكَ الدهـ | رُ فأدْنَتْكَ الأماني

---

(١) أغاني ١٨ : ٨٥

وقال مسلم أيضا :

متى ما تسمعى بقتيل حُبٍّ (١) أُصِيبَ فإننى ذاكَ القتيلُ

فقلت أنا :

أتيتُك عائذا بـك منـ ـك لما ضَاقَتْ الحِيَلُ

وصَيَّرَنِى هـواكَ وبى لِحَيْنِى يضربُ المثلُ

فإن سَلِمَتْ لـكم نَفْسِى فما لاقَيْتُه جَلَلُ

وإن قتلَ الهـوى رجلا فإنى ذلك الرَّجُلُ

قال أبو سَمِير عبدُ الله بنُ أيوبَ مولى بنى أمية . بات عنـدى ليلةً محمدُ بن أبى محمدٍ اليزيدى فظهر لنا قُنْفُذٌ فقلت له : قل فيه شيئا فأنشأ يقول :

وطارقُ ليلٍ زارنا بعدَ هَجْعةٍ من الليل إلا ما تَحَدَّثَ سامرُ

فقلت لعبد الله ما طـارِقٌ أَتَى فقال : امرؤٌ سِيقتَ إليه المقـادرُ

قريناه صَفوَ الزاد لمـا رَأَيْتَه وقد جاء خَفَّاقَ الحَشَى وهو سَادِرُ

جميلُ المحيـا فى الرِّضا فإذا أبى حَمَتْه من الضَّيْمِ الرماحُ الشواجرُ

ولست تَراه واضعا لسِلاحِـه يد الدهر موتوراً ولا هو واترُ

قال محمدُ بن أبى محمدٍ : دخلتُ على المعتصم ، وهو وَلِىُّ عهدٍ ، وقد طلع القمرُ فتنفَّسَ ، ثم قال لى : يا أبا محمد : قل أبياتاً فى معنى طلوعِ القمرِ ، وإن غاب مدّةً كما غاب مُحِبٌّ عن مَحْبوبه ثم طَلَع فإن جِئْتَ بما أُحِبُّ فلك بكل بيتٍ مائةُ دينار فقلت :

هـذا شبيه الحبيبِ قد طَلَعا غاب كما غـاب ثم قَدْ لَمَعَا

وما أرى غَيْرَه يشاكِلُه فاسْأَلْه بالله عنه ما صَنَعا

فرَّقَ بينى وبينـه قَـدَرٌ هو الذى كان بيننا جَمَعا

---

(١) أرض (أغانى) .

فهل لـه عودةٌ فأرْقُبَـه كما رأينا شِبْهَه رَجَعا

فقال له : أحسنتَ وحياتى ، وأمر لى بأربعمائة دينار ، وأمر علوية فغَـنَّى فيها وأعطاه أيضا أربعمائة دينار .

قال محمدُ بن أبى محمد : شـكوتُ إلى المأمون دينًا علىّ فقال : إن عبدَ الله بن طاهر اليومَ عندى ، وأريد الخلوة معه ، فإذا علمتَ بذلك فاستدْع أن تكون ثالثنا أو إخراجه إليك ، فإنى سأحكمُ عليه بمالٍ ، فلما علمتُ أنهم جلسوا للشرب صرت إلى الدار فـكتبت بهذين البيتين :

ياخيرَ ساداتٍ وأصحابِ هـذا الطفيلىُّ على البابِ

فصَيِّروا لى معكم مَجْلِسا أوأَخرِجوا لى بعضَ أصحابى

وبعث بهما إليه فقال المأمون : لقد صدقَ اكتبوا إليه واسألوه من يختارُ ؟ فـكتب : ما كنتُ لأختار على أبى العباسِ أحداً ، فقال له المأمونُ : قم إلى صديقك فقال : يا أميرَ المؤمنين إن رأيتَ أن تُعْفِيَـنِى من ذلك ، أتُخْرِجُنى عَمّا شَرَّفْـتَـنِى به من منادَمتك وتُبْدِلُنى بها منادمةَ ابن اليزيدى ؟ فقال : لابد من ذلك أو تُرْضِيَه قال : فليحتـكم قال : أخافُ أن يَشْتَطَّ أو تُقَصِّرَ أنت ، ولـكنى أحكمُ فأَعْدِل . قال : قد رضيتُ قال : يُحَملُ إليه ثلاثةُ آلافِ دينار مُعَجَّلة ، قال : قد فعلت ، فأمر صاحب بيتِ المال بحَمْلِها مَعِى وأمر عبد اللهِ بِرَدِّها إلى بيت المال .

المنخَّلُ اليشكرى[1]

هو المنخلُ بن عَمْرو ، وقيل: المنخلُ بن مَسعودٍ بن أفْلت بن كَعْب بن سَوْأة بن غُنْم بن حبيبٍ بن يَشْكر بن بَكْر بن وائل ، شاعرٌ مُقِلٌّ من شُعراء الجاهليةِ ، وكان النعمانُ بنُ المُنْذِرِ اتَّهمَه بامْرأته المُتجرِّدة ، ووَجَدَه معها ، وقيل : بل سَعَى إليه به فى أمْرِها فقتَلَه ، وقيل : حَبَسه ، ثم غَمُضَ خبرُه ، فلم يُعْرَف له حقيقةٌ ، فيقال : دَفَنَه حيًّا ويقال : غرّقه . والعربُ تَضرِبُ به المثلَ كما تَضرِبُ بالقارظِ العَنَزِىّ . قال ذو الرّمة :

تُقارِبُ حتى تُطمعَ التابعَ الصبا وليست بأدْنى من إيابِ المنخَّلِ

وقال النمر بن تواب :

وقولِى إذا ما أطْلقُوا عن بَعيرِهم تُلاقونَه حتى يؤوبَ المنخَّلُ

كانت المتجردةُ امرأةُ النعمانِ فاجرةً وكانت تُتَّهمُ بالمُنَخَّلِ اليَشْكُرِىّ ، وقد ولدت غلامَيْنِ على فراش النعمانِ ، كانا أشبهَ الناسِ بالمُنَخَّلِ ، ويقال : إنهما منه ، وكان المنخلُ جميلا وَسِيماً وكان النعمانُ أحمَرَ أبْرَشَ قصيراً دَميما ، وكان للنعمان يومٌ يرْكَب فيه للصيدِ فيطيلُ المُكْثَ ، وكان المنخلُ من نُدَمائِه لا يفارِقُه ، فكان يأتى المتجردةَ فى ذلك اليوم الذى يرْكَبُ فيه النعمانُ ، فيطيلُ عندها ، حتى إذا جاء النعمانُ آذَنَتْها بمجيئه وليدةٌ لها موكلةٌ بذلك ، فتخرِجُه . فركب النعمانُ ذات يوم فأتاها المنخلُ كما كان يأتيها فلاعبَتْه وأخذت خَلْخالها فجعلَتْه فى رِجْله وأرْسَلَتْ شَعْرها فَشَدّتْ به خَلخالَها إلى خَلخالِه ، وقيل : أخذتْ قيداً فجعلتْ إحدى حلْقتَيْه

---

(١) الأغانى أميرى ١٨ : ١٥٣ . الشعر والشعراء ــ المهذب .

فى رِجلِه والأخرى فى رِجلها ، وغَفلَتِ الوليدةُ عن ترَقُّبِ النعمانِ ، لأن الوقت الذى كان يجىء فيه لم يكن قرُبَ بَعْد ، فأقبل النعمانُ حينئذ ولم يطل فى وِجهَتِه كما كان يفعل ، فدخل إلى المتجردة فوجدها مع المُنَخَّل وقد قيَّدَتْ رِجْلها ورِجْلَه ، فأخذه النعمان فدفَعَه إلى عكبٍّ صاحبِ سِجْنه ليُعَذِّبَه ، وعكبٌّ رجلٌ من لخم ، فعذَّبه حتى قَتَلَه ، واسم المتجردةِ ماوِيّةُ . وقيل : هندٌ بنتُ المنذرِ بن الأسودِ الـكَلْبِىّ ، وكانت عند ابنِ عمٍّ لها يقال له حلمُ ، وهو الأسودُ بنُ المنذر بن حارثة الـكَلْبِىّ ، وكانت أجملَ أهل زمانها ، فرآها الملك المنذرُ بنُ المنذرِ اللخْمِىّ فعَشِقَها ، فجلس ذات يوم على شرابِه ومعه حلمٌ زوْجُ المتجردةِ فقال له المنذر : إنه قبيحٌ بالرَّجُلِ أن يقيم مع المرأةِ حتى لا تَبْقَى فى رأسِه شعرةٌ بيضاء إلا عرَفَتْها فهل لك أن تُطلِّقَ المتجردة ، وأطلِّقَ أنا امرأتِى سَلْمَى ؟ قال : نَعَمْ وأخذ كلٌّ واحد منهما على صاحبه العهودَ ، فطلقَ المنذرُ امرأتَه سَلْمَى وطلق حلمُ امرأتَه المُتَجَرِّدة فتزوجها المنذرُ ولم يُطلِقْ لسلمى أن تتزوج حلما وحَجَبها وهى أمُّ ابنِه النعمانِ بن المُنْذِر ثم مات المنذرُ ابنُ المنذر فتزوجها بعده النعمانُ ابنهُ وكان النابغةُ ممن يجالِسُه ويشربُ معه وكان جميلا عفيفا فأمره النعمان بوَصْفِ المتجردةِ فقال فيها القصيدة التى أولها :

أمِنْ آلِ مَيّةَ رائحٌ أو مُغتَدِى   عجلانَ ذا زادٍ وغيرَ مُزَوَّدِ

ووصفها فأفْحَشَ فقال من هذه القصيدة :

وإذا طَعَنْتَ طَعَنْتَ فى مُسْتَهدَفٍ   رابى المَجَسَّةِ بالعبيرِ مُقَرْمَدِ
وإذا نَزَعْتَ نَزَعتَ مِن مُسْتَحْصَفٍ   نَزْعَ الحَزَوَّرِ بالرشاءِ المُحْصَدِ

فغار المنخلُ من ذلك وقال : هذه صِفَةُ مُعاينٍ ، فهمّ النعمان بقتلِ النابغةِ حتى هَرَبَ منه وخلا المُنَخَّلُ بمجالَستِه ، وهو يَهْوَى المتجردةَ وتَهواه ، فجرى لها معه ماجرى . من تقييدِها رِجْلَها ورِجْله بخلخالها وشَعْرِها من شدةِ إعجابِها بـه ومَحبتِّها له ، ودخول النعمانِ عليهما وقتلِه فقال المُنَخَّلُ عند قتْله :

إن كنتِ عاذلتى فَسِيرِى ... نحـو العراقِ ولا تَحورِى
لا تَسْألِى عن جُـــلِّ ما ... لى واذْكُرِى كَرَمِى وخِيرِى
وإذا الرياحُ تَنَاوَحَتْ ... بجوانبِ البيتِ الـكبيرِ
أَلْفَيْتِنِى هَشَّ النَّدِ ... ىّ بِمَرِّ قدحى أو شَجِيرِى

الشجير : القدحُ الذى لم يَصلحُ حُسنا ويقال : بل هو القَدَح العارِيَـةُ .

منها :

ولقـــد دخلت على الفتا ... ةِ الخِدْرَ فى اليوم المَطِيرِ
الـكاعبِ الْحَسناءِ تَرْ ... فُلُ فى الدِّمَقْسِ وفى الحريرِ
فدفعتُها فتدافَعَتْ ... مَشْىَ القطـاةِ إلى الغـــديرِ
وَلَثمتُهـــا فتنفَّسَتْ ... كتنفُّسِ الظبى البَهِيرِ
ورنت وقالت يامُنَخَّـ ... لُ ما بجسمك من فتور
ما شَفَّ جِسْمِى غيرُ حُبِّـ ... ك فاهْدَئى عـنِّى وسِيرِى
ولقد شربتُ من المدا ... مَةِ بالصغيرِ وبالكبيرِ
وإذا سَكِرْتُ فإنَّـنِى ... ربُّ الْخـوَرْنَقِ والسديرِ
وإذا صحـوتُ فإننى ... ربُّ الشُوَيْهَةِ والبعيرِ
يارب يـوم للمُنَخِّـ ... ـلِ قـد لَهـا فيهِ قَصـيرِ

ومن الناس من يزيد فيها :

وأَحِبُّها وتُحِبّـنِى ... ويُحبُّ نَاقتَها بَعيرِى

محبوبة الشاعرة[1]

مولدةٌ من مولداتِ البَصْرَة ، سريعةُ الخاطرِ ، لا تكاد فَضْلُ الشاعرةُ اليمامِيّةُ أن تتقدَّمها ، وكانت محبوبةُ أجملَ من فَضْلٍ وأعفَّ ، بارعةَ الُحسْنِ والظَّرْفِ والأدبِ ومَلَكَها المتوكلُ ، وهى بِكْرٌ أهداها له عبدُ الله بنُ طاهرٍ فى جملةِ أربعمائةِ جاريةٍ ، وبقيَتْ بعده مدة فما طَمِعَ فيها أحَدٌ ، وكانت تغنى غناءً ليس بالفاخر .

كان علىُّ بنُ الجهم يقرب من أنْسِ المتوكلِ جِدًّا ولا يكْتُمه شيئا من سِرِّه مع حُرَمِه وأحاديثِ خَلَواته ، فقال له يوما : إنى دخلتُ على قَبيحةَ فوجدتُها قد كتبتْ اسمِى على خَدِّها بغاليةٍ ، فلا والله ما رأيت شيئا أحسنَ من سوادِ تلك الغاليةِ على بياضِ ذلك الَخدِّ ، فقُلْ فى هذا شيْئاً ، وكانت محبوبة حاضرةَ الكلام من وراء الستارةِ ، فدعا علىُّ بنُ الجهم بدواةٍ فإلىَ أن أَتَوْه بها وابتدأ يُفكِّرُ قالت محبوبةُ على البديهة ، من غير فِكْرٍ ولا رويّةٍ ولا دواةٍ :

وكاتبةٍ بالمسكِ فى الَخدِّ جعفرا ... بِنَفْسِى مَخَطُّ المسك من حيثُ أَثَّرا
لئن كَتَبَتْ فى الَخدِّ سَطْراً بكفِّها ... لقد أودَعَتْ قلبِى من الُحبِّ أسْطُرا
فيامَنْ لمملوكٍ لِمِلْكِ يمينِهِ ... مطيعٌ له فيما أَسَرَّ وأظْهَرا
ويا من هَواهَا فى السريرةِ جَعْفَرٌ ... سَقَى الله من سُقْيا ثَنايَاكِ جَعْفرا

فبقِىَ علىُّ بن الَجهْمِ واجماً لا ينطق بحرف ، وأمر المتوكلُ عَريباً أن تُغنِّى فى الأبيات ولم يقدرْ علىٌّ بن الجهم على حَرْفٍ واحد يقوله .

---

(1) أغانى أميرى ١٩ : ١٣٢ .

ولما قُتِلَ تفرّقَ جواريه فصار إلى وَصيف عدةٌ منهنّ ، وكانت محبوبةُ فيمن أَخَذَ فاصْطَبَح يوما فأمر بإحضارِ جوارى المتوكِّلِ فأُحضِرْن ، عليهن الثياب الملونةُ والمذهبةُ والحُليُّ وقد تزيّنّ وتعطّرْن إلا محبوبة فإنها جاءَتْ وعليها ثيابٌ بيضٌ غيرُ فاخرةٍ حُزْناً على المتوكلِ فتغَنَّى الجوارى جميعا وشرِبْن فطَرِبَ وصيفٌ وشَرِب ثم قال: يامحبوبةُ غنِّى فأخذتِ العودَ وغنَّتْ وهى تبكى :

أى عيشٍ يطيبُ لى | لا أرى فيه جعفرا
مَلِكاً قد رأتْهُ عيـ | ـنِى قتيلا مُعفَّرا
كلُّ من كان ذا هُيا | مٍ وحُزْنٍ فقدْ برا
غيرَ محبوبةَ التى | لوترَى الموتَ يُشترى
لاشْترَته بملكِها | كلُّ هـذا لتُقْبرَا

فاشتدّ ذلك على وصيف وهم بقتْلِها ، وكان بُغا حاضرا فاستوْهَبها منه فوهَبَها له وأعْتقَها وامر بإخراجها ، وأن تكون بحيثُ تختارُ من البلادِ ، فخرجت من سُرَّ من رأىَ إلى بغدادَ ، وأخملَتْ ذِكْرَها طولَ عُمرِها .

كانت محبوبةُ قد حظيتْ عند المتوكل ، حتى كان يُجْلِسُها خلفَ الستارةِ وراءَ ظَهْرِه إذا جلس للشُّرْبِ ويدخلُ رأسَه إليها ويراها فى كل سَاعةٍ ويُحدِّثُها ، فغاضبَها يوماً وهَجَرها ومنَعَ جوارِيها جميعا من كلامِها ونازَعَتْه نفسُه إليها وأرادَ ذلك فنازعته العِزّةُ عنْها وامتنعتْ منَ ابْتدائِه إدْلالا عليه لمحلِّها منه ، قال علىّ ابنُ الجهم : فبكّرْتُ إليه يوما ، فقال لى : يا علىُّ رأيتُ محبوبةَ البارحةَ فى النومِ كأنى قد صالحتُ محبوبةَ فقلت : أقرّ الله عَيْنَك يا أميرَ المؤمنين وأنامَك على خيرٍ وأيقظك على سُرورٍ ، أرجو أن يكون هذا الصلحُ فى اليقظةِ ، فبينا هو يُحدِّثُنى وأجيبه إذا هو بوصيفةٍ قد جاءتْ إليه فأَسرّتْ إليه شيئا ، فقال : أتدرى ما أسرّت إلىّ هذه ؟ قلت : لا ، قال: حدّثتنى أنها اجتازَتْ محبوبةَ الساعةَ وهى فى حُجرَتها

تُغنى أفلا تَعْجَبُ من هذا ! أنا مغاضبها ، وهى متهاونة بذلك لا تبدؤنى بصُلْح ثم لا ترْضى حتى تُغَنِّى فى حُجْرتها ، قم بنا ياعلىّ حتى نسمع ما تغنى ، ثم قام وتبعتُه حتى انتهى إلى حُجْرَتها فإذا هى تغنى :

أدُورُ فى القصرِ لا أرى أحداً ... أشكُو إليه ولا يُكلِّمُنى
حتى كأنى أتيتُ مَعْصِيةً ... ليستْ لها توبةٌ تُخَلِّصُنى
فهل لنا شافعٌ إلى مَلِكٍ ... قد زارنى فى الكَرَى وصالَحَنى
حتى إذا ما الصباحُ عاد لنا ... عاد إلى هَجْرِه وصارَمَنى

فعجب المتوكل وطَرِبَ وأحَسَّتْ بمكانه فأمرتَ خَدَمها فخرَجُوا إليه وتَنَحينَا وخَرَجَتْ إليه فحدَّثته أنها رأَتْه فى منامها وقد صالحها ، فانتبهَتْ وقالت هذه الأبيات ، وغنَّتْ فيها ، فحدثها هو أيضا برُؤياه واصطلحا ، وبعث كلٌّ منهما إلىّ بجائزةٍ وخِلْعَةٍ . ولما قُتِلَ المتوكلُ تَسَلَّاه جميعُ جواريه غيرَها ، فإنها لم تزل حزينةً هاجرةً لكلِّ لَذَّةٍ حتى ماتَتْ ورَثَته بعدَّةِ مراثٍ .

المؤمّل بن أميل (1)

هو المؤملُ بن أميل بن أُسَيْد المحـاربىُّ ، من محاربِ بن خَصَفَةَ بن قَيْس بن عَيلان بن مُضَر ، شاعرٌ كوفىّ مخضرمٌ شهد دولتى بنى أميـةَ وبنى العباس ، وشُهرَتُه فى العباسيَّةِ أكثرُ ، لأنه من الُجنْد المُرتزِقةِ معهم (2) ، وخدمهم من أول أَمْرِهم ، وانقطع إلى المهدىّ فى حياة أبيه وبعده ، وكان صالحَ المذهبِ فى شعره ، ليس من المُبَرِّزين الفحولِ ولا من المَرْذولين ، وله طَبْعٌ صالح وفى شعرِه لِينٌ .

قال المؤمل : قَدِمْتُ على المهدى ، وهو ولىُّ عهدٍ بالرَّىِّ ، فامتدحتُه بأبياتٍ ، فأمر لى بعشرين ألفَ درهمٍ ، فـكتب بذلك صاحبُ البريد إلى أبى جعفرٍ المنصورِ ، وهو بمدينة السلامِ ، فـكتب أبو جعفر إليه يَعْذِلُه ويَلومه ويقول له : إنما ينبغى أن تعطىَ الشاعرَ بعد أن يُقيمَ ببابك سَنَةً أربعةَ آلافِ دِرهم ، وكتب إلى كاتبِ المَهْدِىّ أن يُوَجِّهَ إليه بالشاعر ، فطُلبَ فلم يَقدِر عليه ، فـكتب إلى المنصور أنه قد تَوَجَّه إلى مدينة السلام ، فأجلسَ قائداً من قوّادِه على جسر النَّهْروانِ ، وأمره أن يتَصَفَّح الناسَ رجلاً رجلاً ، فجعل لا تمرُّ به قافلةٌ إلا تَصَفَّح من فيها ، حتى مرت به القافلةُ التى فيها المؤمّلُ فتصفَّحَهم فلما سأله : من أنت ؟ قال : أنا المؤملُ بن أميلٍ المحاربىّ الشاعر أحدُ زوّارِ الأميرِ المَهْدِىِّ فقال : إياك أريد . قال المؤمل : فـكاد قَلْبِى أن يَنْصدِعَ خوفاً من أبى جَعْفر فقبض علىّ ، وسلمنى إلى الرَّبيعِ فأدْخَلَنى إلى أبى جعفر ، وقال له : هذا الشاعرُ الذى أخذَ من المَهْدِىِّ عشرين ألفَ

---

(1) أغانى أميرى ١٩ : ١٤٧ ـ المهذب ٤ / ١٣٥ ـ تاريخ بغداد ١٣ / ٢٢٥ .

(2) ومن يخصهم ويخدمهم (أغانى .)

دِرْهم قد ظَفِرْنا به ، فأدخِلْتُ عليه فسلمتُ تسليم مُرَوَّع فردّ عليّ السلام ، وقال لى : ليس ها هنا إلّا خَيْرٌ ، أنت المؤملُ بنُ أميلٍ ، قلت : نعم أصلح اللهُ أمير المؤمنين . قال : أتَيْتَ غلاما غِرًّا نَخدَعْتَه فانْخَدع . قلت : نعم أصلح الله أميرَ المؤمنين أتيتُ غلاما غِرًّا كريما نَخدَعْتُه فانْخَدَع ، قال : فكأن ذلك أَعْجَبَه فقال : أنشدنى ما قلتَ فيه فأنشدته :

هو المهدىُّ إلا أن فيه ... مشابهةً من القمرِ المنيرِ
تَشابَهَ ذَا وذَا فهما إذا ما ... أنارا مُشْكلانِ على البَصيرِ
فهذا فى الظلامِ سراجُ لَيْلٍ ... وهذا فى النهارِ ضياءُ نُورِ
ولكنْ فَضَّلَ الرحمنُ هذا ... على ذا بالمنابرِ والسريرِ
وبالمَلكِ العزيزِ فذا أميرٌ ... وماذا بالأميرِ ولا الوزيرِ
ونَقْصُ الشهرِ يَنْقُص ذا وهذا ... منيرٌ عند نُقْصانِ الشهورِ
فيا ابن خليفةِ اللهِ المُصَفَّى ... به تَعلو مفاخرةُ الفَخورِ
لئن فُتَّ الملوكَ وقد توَافَوْا ... إليك من السهولةِ والوعورِ
لقد سبق الملوكَ أبوكَ حتى ... بقوا ما بين كابٍ أو حَسيرِ
وجئتَ مُصَلِّيا تجرى حَثيثا ... وما بك حين تجرى من فُتورِ
فقال الناس ما هذان إلا ... كما بين الخَليق إلى الجديرِ
لئن سبَقَ الكبيرُ فأهلُ سبقٍ ... له فضلُ الكبيرِ على الصغيرِ
وإن بلغ الصغيرُ مدىَ كبيرٍ ... فقد خُلِقَ الصغيرُ من الكبيرِ

فقال : والله لقد أحسنتَ ، ولكن هذا لا يساوى عشرين ألفَ درهم ، فأين المال ؟ قلت : ها هو هذا . قال: ياربيعُ امْضِ معه فأَعْطِه أربعةَ آلافِ دِرْهم ، وخُذْ منه الباق. قال المؤمل: فخرج معى الربيعُ وحَطَّ ثِقْلِى ووزن لى من المال أربعةَ

آلاف درهم وأخَذَ الباق ، فلما وَلِىَ المهدىُّ الخلافةَ ولّى ابن ثَوْبانَ المظالمَ ، فكان يجلس للناس بالرّصافةِ فإذا ملأ كساءه رقاعاً رفعها إلى المهدى ، فدفعْتُ إليه رُقْعَهً . فلما دخل ابنُ ثَوبانَ بالرقاع جعل المهدىُّ ينظر فيها حتى إذا وَصَل إلى رُقْعَتى ضحك ، فقال له ابن ثوبان : أصلح اللهُ أميرَ المؤمنين ما رأيتُك ضحكتَ فى شىء من هذه الرقاعِ إلا من هذه الرُّقْعة فقال هذه رقعة أنا أعرفُ سَبَبها أعطوه عشرين ألفَ دِرْهم فأخذتُها وانصرفت .

قال محمد الطائى : رأيت المؤَمّل شيخا كبيرا مُصْفَرًّا نحيفا أعْمَى فقلت له : لقد صدقت فى قولك :

وقد زعموا لى أنها نَذَرَتْ دمى ... ومالى بحمدِ اللهِ لحمٌ ولا دمُ

فقال : نعم فَدَيْتُك ما كنت لأقول إلا حقًّا .

وأول هذا الشعر :

حلمتُ بكم فى نَوْمَتِى فغضِبْتُمُ ... ولا ذنبَ لى إن كنتُ فى النوم أَحْلُمُ

سأطْرُدُ عنى النومَ كى لا أراكم ... إذا ما أتانى النومُ والناسُ نُوَّمُ

تُصارِمُنى والله يعلمُ أننى ... أَبَرُّ بها من والديها وأرْحَمُ

وقد زعموا لى أنها نَذَرَتْ دمى ... ومالى بحمد اللهِ لَحْمٌ ولا دَمُ

برى حبُّها لَحْمِى ولم يُبْقِ لى دما ... وإن زعموا أنى صَحِيحٌ مسلمُ

فلم أر مثل الحبِّ صحّ سَقيمُه ... ولا مثلَ من لايعرف الحبَّ يَسْقَمُ

ستَقْتُلُ جِلْدا باليًا فوقَ أَعْظُمٍ ... وليس يُبالِى القتلَ جِلْدٌ وأعظمُ

وكان يَهْوَى امرأة من الحيرة يقال لها هِنْد ، فرأى فى نومه قائلا يقول له : أنتَ المُتَأَلِّى على الله ألا يعذبَ المُحِبين حيث يقول :

حَسْبُ المحبين فى الدنيا عذابُهم ... والله لا عَذَّبَتْهم بَعْدَها سَقَرُ

فقال : نعم . قال : كذبت يا عدوَّ الله ثم أدخلَ أصْبُعَه فى عَيْنى وقال : وأنت القائلُ :

شَفَّ المؤملَ يوم الحيرةِ النَّظَرُ ليت المؤملَ لم يُخْلَقْ له بَصَرُ

هذا ما تمنيتَ فأنْتَبَه رُعْباً فإذا هو أعمى .

مالك بن الريب[1]

هو مالكُ بن الرَّيْب بن حُوطِ بن قُرْطِ بن حَسْلِ بن ربيعةَ بن حرقوص بن مازن ابن مالك بن عمرو بن تميم . شاعرٌ فاتكٌ لِصٌّ ، منشؤه فى باديةِ بنى تميمٍ فى البَصْرة ، من شعراء الإسلام أولَ دولة بنى أمية . استعمل معاويةُ بنُ أبى سفيان سعيدَ ابن عثمان بن عفان على خراسان ، فمرَّ سعيدٌ بجُنْدِه على طريق فارس ، فلَقِيَ بها مالكَ ابن الرَّيْب المازنيَّ ، وكان من أجمل الناسِ وَجْها وأحسَنِهم ثيابا ، فلما رآه سعيد أعجبه ، فقال له مالك : ويحك تُفْسِدُ نفسَك بقطعِ الطريق ، وما يدعوكَ إلى ما يَبْلُغنى عنك من العَبَثِ والفساد ، وفيك هذا الفَضْل ، قال : يدعونى إليه العَجْزُ عن المعالِى ومساواةِ ذوى المروآتِ ومكافأةِ الإخوانِ . قال : فإن أنا أَغْنَيْتك واستصْحَبتُك أتـكفُّ عما كنتَ تفعل ؟ قال : أى والله أيها الأمير ، أكفُّ كفًّا لم يكف أحدٌ أحسنَ منه ، فاستصحبه وأجْرَى له فى كل شهرٍ خمسمائة درهم ، وانطلق مالك مع سعيد حتى إذا كانوا فى بعض مَسيرِهم احتاجوا إلى لَبَن ، وطلبوا صاحب إبِلِهم فلم يجدوه ، فقال مالك لغلام من غلمان سعيد : أَدْنِ منى فلانةَ لناقةٍ كانت لسعيدٍ عزيزةٍ ، فأدناها منه فمسَحَهَا وأَبِسَ بها حتى دَرَّتْ ثم حَلَبَها فإذا أَحْسَنُ حَلْبِ حَلَبَه الناسُ وأغْزَرُه دَرَّةً . فقال سعيد لمالك : هل لك أن تقومَ بأَمْرِ إبلى فأجْزِلَ لك الرزقَ إلى ما أرْزُقُك وأضع عنك الغَزْوَ فقال مالك فى ذلك :

وإنى لأسْتَحْـيِي الفوارسَ أن أُرَى ... بأرضِ العِدا بوَّ المخاضِ الروائمِ
وإنى لأسْتَحْـيِي إذا الحَرْبُ شمَّرتْ ... أَن أُرْخِى دونَ الحربِ ثَوْبَ المسالمِ
وما أنا بالنائِى الحفيظةِ فى الوَغَى ... ولا المُتَّقِى فى السِّلْم جَرَّ الجرائمِ

---

(١) أغانى (أميرى) ١٩ : ١٦٣ . مهذب ٥ / ١٠ .

ولا المتأنى العـواقبَ فى الذى أهمُّ به من فاتكاتِ العزائمِ
ولكننى مُستوحدُ العَزْم مُقْدِمٌ على غمراتِ الحادثِ المُتفاقمِ
قليل اختلاف الرأى فى الحَرْب باسلٌ جميعُ الفؤادِ عن حَلِّ العظائمِ

فلما سمع ذلك سعيدٌ منه علم أنه ليس بصاحب إبلٍ وأنه صاحبُ حَرْب فانطلق معه ، وكان السببُ الذى وقع[1] به مالك بن الريب إلى فارسٍ أنَّ مروانَ بنَ الحكم ، عاملَ معاوية على المدينة، طلَبه هو ومن كان يَقْطعُ الطريقَ معه من أصحابه ، فهربوا، فكتب إلى الحارثِ بن حاطبٍ الجُمَحِىّ ، وهو على بنى عمرو بن حَنْظَلة فطلَبهم فهربوا منه ، فبعث الحارثُ رجلا من الأنصار ومعه جماعة ، فأخذوه وأخذوا أبا حَردبة ، بعضَ أصحابِه ، وتخلف الأنصارىُّ مع القوم الذين كان مالكٌ فيهم ، وأمر غلاما له فجعل يَسُومه مالكا ، فغفَلَ غلامُ الأنصارى فعَلاهُ مالكٌ بالسيف فقتله ، وجعل يَقْتُل من كان معه يمينا وشمالا ، ولحق بأبى حَرْدَبة فخلَّصَه وركبا إبلَ الأنصارِىِّ ، وخرجا هاربين حتى أتيا البَحْرَيْن ، واجتمع إليهما أصحابُهما ، ثم قطعوا إلى فارسَ فرارا مما أحْدَثَه مالك ، فلم يزل مالكٌ بفارس حتى جرى له مع سعيد ما جَرَى .

بينما مالك بنُ الرَّيْب ذات ليلةٍ نائما فى بعض مغاراته ، إذ بَيَّتَه ذئبٌ فزجَرَه فلم يَزْدجِرْ فأعادَ فلم يَبْرَحْ فوثبَ إليه بالسيفِ فضربَه فقتَله ، وقال فى ذلك :

أذئبَ الغضا قد صِرْتَ للناس ضُحْكةً تفادى بك الركبانُ شرقاً إلى غَرْبِ
فأنت وإن كنتَ الجرىءَ جَنَانُه مُنيتَ بضرغامٍ من الأُسْدِ الغُلْبِ
بمن لا ينامُ الليلَ إلا وسَيْفُه رَهينةُ أقوامٍ سراعٍ إلى الشَّغْبِ
ألم ترنى يا ذئبُ إذ جئتُ طارقاً تُخاتِلُنى إنى امرؤٌ وافرُ اللُّبِّ
زَجَرْتك مراتٍ فلما غَلَبْتَنى ولم تَنْزَجِرْ نَهْنَهتُ غَرْبَك بالضربِ

(١) يقال : وقع إلى كذا ذهب وانطلق مسرعا .

فصرتَ لقًى لما عَلَاكَ ابنُ حرّةٍ ... بأبيضَ قطاعٍ يُنجّي من الكَرْبِ

ألا رُبَّ يومٍ ريبٍ لو كنت شاهدا ... لهالك ذِكْرِى عند مَعْمعةِ الحربِ

ولست تَرَى إلا كَميًّا مُجَدَّلا ... يداه جميعا تثبتان من التُّرْبِ

وآخَرَ يَهْوِى طائرَ القلبِ هاربًا ... وكنتُ امرأً في الحربِ مُجْتَمِعَ القَلْبِ

أَصولُ بذى الزِّرَّيْن(١) أَمْشِى عُرَضْنةً ... إلى الموت والأقرانُ كالإبلِ الجُرْبِ

أرى الموتَ لا أنحاشُ عنه تكرُّمًا ... ولو شئتُ لم أرْكبْ على المركبِ الصعبِ

ولكن أَبَتْ نفسِي وكانت أَبِيَّةً ... تقاعس أن انصاع يوما من الرُّعْب

ولما خرج مالكُ بن الريب مع سعيدِ بن عثمان تَعلَّقَتْ ابنته بثوْبِه وبَكَتْ وقالت: أخشى أن يطولَ سَفَرُك أو يُفرّقَ الموتُ بيني وبينك فلا نَلْتقى فأنشأ يقول :

ولقد قلتُ لابنتي وهي تكوى ... بدخيل الهموم قَلْبًا كَئيبا

وهي تذرِى من الدموعِ على الخدّ ... ين من لوعةِ الفراقِ غُروبا

عبراتٌ يَكَدْنَ يجْرَحْنَ ما جُزْ ... نَ به أو يَدَعْن فيه نُدوبا

حَذَرَ الحتْفِ أن يُصيبَ أباها ... ويلاقِى فى غير أهلٍ شَعوبَا

اسْكُتِى قد حَزَزْتِ بالدمعِ قَلْبى ... طالما حَزَّ دَمْعُكُنَّ القلوبا

فعسى اللهُ أن يدافعَ عنى ... رَيْبَ ما تحذرين حتى أؤوبا

ليس شيءٌ يشاؤه ذو المعالِى ... بعزيزٍ عليه فادْعِى المُجيبا

ودَعِى أن تَقْطَعى الآنَ قَلْبى ... أو تُريني فى رِحْلتي تعذيبا

أنا فى قبضة الإلهِ إذا كنـ ... تُ بعيداً أو كنتُ منكِ قريبا

كم رأينا امرأً أتى من بعيدٍ ... ومقيماً على الفراشِ أُصيبا

فدعيني من انتحابِك إنى ... لا أُبالى إذا اعتزمتُ النَّحيبا

---

(١) بذى الزرين أى الحدين يقال زر السيف أى حده .

حَسْبِيَ اللهُ ثم قرَّبْتُ للسَّير علاةً أُنْجِبُ بها مَركوبا

وقيل : إن سببَ اكتئابِه مع سعيد وخُروجِه إلى خراسانَ ضرطةٌ ضَرَطَها ، فهرب منها ، وذلك أنه مرّ بلَيْلَى الأخيليةِ ، فجلس إليها وحادَثها طويلا ، وأنشدها فأقبلت عليه وأعجبت به حتى طمع فى وَصْلها ، ثم إذا هو بفَتًى قد جاء إليها كأنه نَصْلُ سَيْفٍ ، فجلس إليها فأعْرَضَتْ عن مالك وتهاوَنَتْ به حتى كان عِنْدَها كأنه عصفورٌ ، وأقبلتْ على صاحِبِها مَلِيًّا من نَهارِها ، فغاظَ مالكا ذلك من فِعْلها ، فأقبل على الرجلِ فقال : من أنت ؟ قال : تَوْبَةُ بن الحُمَيِّر فقال : هل لك فى المصارعَةِ قال : ما دعاكَ إلى ذلك وأنت ضيفُنا وجارنا ؟ فقال : لا بدّ منه . قال : لا تفعل ، فازدَادَ لَجَاجا ، فقام توبةُ فصَرَعَه فلما سَقَط إلى الأرضِ ضَرَطَ ضَرْطَةً هائلةً ، فضحكت ليلى منه ، واستحى مالكٌ وخرج إلى خراسانَ حتى مات وقبره هناك .

اجتمع مالكُ بنُ الرَّيْبِ وأبو حَرْدَبَة وشُظَاظُ يوما فقالوا : تَعالَوْا نتحدثْ بأعجبِ ما عَمِلْنا فى سَرِقاتِنا . فقال أبو حردبة : أعجبُ ما صنعتُ وأعجبُ ما سرقتُ أنى صحبتُ رفْقَةً فيها رجل على رَحْلٍ فأعْجَبَنِى ، فقلتُ لصاحبى والله لأسْرِقَنَّ رَحْلَه ، ثم لا رَضِيتُ به حتى آخُذَ منه جُعالةً ، فرمَقْتُه حتى رأيتُه خَفَقَ برأْسِه فأخذتُ بخُطامِ جَمَلِه فَقُدْتُه وعدلت به عن الطريقِ حتى إذا صَيَّرْتُه فى موضع لا يغاثُ فيه إن استغاثَ أَنَخْتُ البعيرَ وصرعْتُه فأوثقتُ يدَيْه ورِجلَيْه وسقتُ الجملَ فغيَّبْتُه ثم رجعت إلى الرُّفْقَةِ وقد فَقَدُوا صاحِبَهم وهم يَسْتَرْجعون . فقلت : ما لكُم . فقالوا : صاحبٌ لنا فقَدْناه . فقلت : أنا أعلم الناسِ بأَثَرِه ، فجعلوا إلىّ جُعالةً فخرجت بهم أتْبَع الأثَرَ حتى وقفُوا عليه . فقالوا : ما لَكَ ؟ فقال: لا أدرى نَعِستُ فانتبهتُ فإذا بخمسين رَجُلا قد أخذونى فقاتَلْتُهم فغلبونى . قال أبو حَرْدَبة: فجعلت أضحكُ

من كَذِبه ، وأعْطَوْنى جُعالتِى ، وذهبوا بصاحبهم ، (وأعجب ما سرقت)[1] أنه مرَّ بى رجلٌ ومعه ناقةٌ وجَملٌ وهو على الناقةِ فقلتُ لآخذنَّهما جميعا ، فجعلتُ أعارِضُه ، وقد رأيتُه خَفَق برأسِه فدرتُ فأخذتُ الجملَ فحَلَلْتُه وسقتُه وغَيَّبْتُه فى القَصِيمِ ، وهو على الموضع الذى كانوا يَسْرقون فيه فانْتَبَه فلم يرَ جَمَلَه فنزل وعَقَل راحِلَتَه ومضى فى طلب الجمل فدرتُ فحَلَلْتُ عُقالَ الناقةِ وسُقْتُها فقالوا لأبى حَرْدَبة : ويحك فحتّامَ تكونُ هكذا ! ! قال : اسكتوا فكأنَّكُمْ بى قد تُبْتُ واشتريتُ فرساً وخرجتُ مجاهداً ، فبينا أنا واقفٌ إذ جاءنى سَهْمٌ كأنه قِطْعَةُ رشاءٍ فوقع فى نَحْرِى فمتُّ شهيدا ، فكان كذلك تابَ بالبصرةِ واشترى فرساً وغَزا الرومَ فأصابه سهمٌ فى نحره فاسْتُشْهِد . ثم قالوا لشظاظ : أخبرْنا أنت بأعْجَب ما أَخَذْتَ فى لصوصيّتِك فقال : نعم كان رجلٌ من أهل البَصْرة له بنتُ عَمٍّ ذاتُ مالٍ كثيرٍ ، وهو وَلِيُّها ، وكانت له نِسْوَةٌ نخطبها فأبتْ أن تتزَوَّجه ، فحلف ألا يُزَوِّجها من أحد ضرارا لها ، وكان يَخْطُبها رجلٌ غنىٌّ من أهلِ البَصْرةِ فحَرَصَتْ عليه وأبى الآخَرُ أن يُزَوِّجها منه ، ثم إن وَلِىَّ المرأة حج[1] حتى إذا كان بالدَّوِّ على مَرْحَلَةٍ من البَصْرة ماتَ فدُفِنَ على رابيةٍ وشُيِّدَ على قَبْرِه ، فتزوجت الرجلَ الذى كان يَخْطُبها . قال شظاظ : وتخرج رفقةٌ من البَصْرةِ ، ومعهم بُرٌّ ومَتاع فبصرتُ بهم وما معهم وأتبعْتُهم من البصرة حتى نزلوا ، فلما ناموا بَيَّتُّهم وأخذتُ من متاعهم ثم إنَّ القوم أخذونى وضربونى ضَرْباً شديداً وذلك فى ليلةٍ قَرَّةٍ وسلبونى كلَّ قليلٍ وكثيرٍ علىَّ ، وتركونى عُرْيانا ، وتماوتُّ لهم ، وارتحل القومُ فقلت : كيف أصنع وذكرت قبْرَ الرجُلِ فأتيْتُه فنزَعْتُ لَوْحَه واحتفرْتُ فيه سرباً ، ودخلت ثم سَدَدْتُ علىَّ باللوح ، وقلت : لعلى الآنَ أفيقُ فأتْبَعَهم قال : ومر الرجلُ الذى تزوج

---

(١) كذا فى الأغانى بين قوسين وكأنه قال : وقال أبوحردبة .

بالمرأةِ فى الرّفْقةِ فمرّ بالقَبْر الذى أنا فيه ، فوقف عليه ، وقال لرفيقه : والله لأنزِلَنّ إلى قَبْرِ فلانٍ حتى أنظرَ هل يَحْمِى الآن بُضْعَ فلانة ! قال شُظَاظُ : وعرفتُ صَوْتَه فقَلَعْتُ اللوحَ ، ثم خرجتُ عليه بالسيف من القبر وقلت: بلى وربِّ الكعبة لأَحْمِيَنَّها فوقعَ الرجلُ على وجْهِه مَغْشِيًّا عليه ما يتحركُ ولا يَعْقِلُ وسَقَطَ من يده خُطَامُ الراحلةِ ، فأخذت ، وعَهْدِ اللهِ ، بخطامها فجلستُ عليها وعلى كل أداةٍ وثيابٍ ونَقْدٍ كان معه ، ثم وَجَّهْتُها قصد مطلعِ الشَّمْسِ هاربا من الناس ، فنجوت بها ، وكنت بعد ذلك أسْمَعُه يُحَدِّث الناسَ بالبصرة ويحلفُ لهم أن المَيِّتَ الذى كان مَنَعَ من تزويج فلانة خرج عليه مِنْ قبره فسلبَه وكَتَّفَه وبقى يومه ثم هرب منه ، والناس يَعجبون منه فعاَقِلُهم يُكَذِّبُه وأحمَقُهم يُصَدِّقه ، وأنا أعرف القصةَ وأضحكُ منهم كالمُتَعَجِّب . قالوا : فزِدْنا قال : أنا أَزيدُكم ، أعجبُ من هذا ، وأحمقُ من هذا الرجل أنى لأَمْشِى فى الطريق أبْتَغِى شيئاً أسْرِقُه فما وجدتُ شيئا فإذا شجرةٌ ينام تحتها الركبانُ بمكان ليس فيه ظِلٌّ غيرُها وإذا أنا برجل يسيرُ على حمارٍ له فقلت له : أتسمع ؟ قال : نعم . فقلت: إن المَقيلَ الذى تُرِيدُ أن تَقِيلَ فيه يُخْسَفُ فيه بالدوابِّ فاحذَرْه فلم يلتفتْ إلى قولِى فرَمَقْتُه حتى نام ثم أقبلتُ إلى حماره فاستقْتُه حتى إذا بَرَزْتُ به قطعتُ طَرَف ذَنَبِه وأُذُنَيْه ورجعتُ إلى مَوْضِعه فغرستُ طرفَ ذَنبه فى الأرض ، ثم تجاوزْتُه مقدار مابين ذنبه وأُذُنَيْه ثم غَرَسْتُ أُذُنَيْه وأخذتُ الحمارَ وخَبَأْتُه وأبصرتُه حتى استيقظ من نومه ، فقام ليطلبَ الحمارَ ويقفو أثرَه فبينا هو كذلك إذ نَظَر إلى طَرَفِ أذنيه وذَنَبه فقال : لعمرى لقد حُذِّرْت لو نَفَعَنِى الحَذَر ، واستمرّ هاربا خوفا من أن يُخْسَفَ به ، وأخذتُ جميع ما بقى من رَحْله ، فحملته على الحمار ، واستمرُّ فألْحَق بأهْلِى .

صلبَ الحجاجُ رجلا من الشّراةِ بالبَصْرةِ وراح عَشِيًّا لينظر إليه ، وإذا برجل واقفٍ بإزائِه مقبلٍ عليه بوَجْهِهِ ، فدنا منه فسمعه يقول للمصلوبِ طال ما رَكِبْتَ

فأَعْقِبْ، فقال الحجاج: من هذا ؟ فقالوا : شظاظٌ اللصُ، فقال : لاجرم والله ليُعْقِبَنَّك ثم أمرَ بالمصلوب فأُنْزِلُ وصُلِبَ شظاظٌ مكانه .

ولما توجه مالكُ بن الريب مع سعيدٍ إلى خراسانَ مرِضَ فى طريقه ، فلما أشرف على الموتِ تخلف عليه امرأة ورجل من تميم وهما اللذان يقول فيهما هذه الأبيات :

أيا صاحِبَىْ رحلى دنا الموت فانْزِلا ... برابيــةٍ إنى مقيمٌ ليالِيَا

وخُطّا بأطراف الأسِنَّةِ مَضْجَعِى ... ورُدّا على عينىَّ فَضْــلَ ردائيا

ولا تَحْسداني بارك اللهُ فيكما ... على الأرض ذات العَرْضِ أن تُوسِعا لِيا

يقولون لا تَبْعَدْ وهم يَدفنــونى ... وأين مكانُ البُعْدِ إلا مَكانا

لعمرى لَئِنْ غالتْ خراسانَ هامَتِى ... لقد كنتُ عن بابَىْ خراسان نائيا

فياليتَ شِعْرى هــل أبيتنّ ليلة ... بوادى الغَضا أُزْجى القلوصَ النواجيا

أخبار مجنون بنى عامر ونسبه(١)

[هو على ما يقوله من صحّح نسبَه وحديثَه ـ قيسٌ ، وقيل : مَهدىّ .

والصحيح أنه قيسُ بن الملوّح بن مُزاحِم بن عُدَسَ بن ربيعةَ بن جعدةَ بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صَعْصَعَةَ .

ومن الدليل على أن اسمه قيسٌ قولُ لَيْلَى صاحبتِه فيه :

ألا ليت شعرى والخطوبُ كثيرة متى رَحْلُ قيس مستَقِلٌّ فراجع

وأخبرنى الحسن بن علىّ قال حدثنا أحمد بن زهير قال : سمعتُ من لا أُحْصِى يقول : اسم المجنون قيسُ بن الملوّح](١) .

[عن أبى الحسن البَبَّغاء قال :

بينا أنا وصديق لى من قريش نمشى بالبلاط ليلا ، إذا بِظلّ نسوةٍ فى القمر ، فسمعت إحداهن تقول أهُو هو ؟ فقالت لها أخرى معها : إى والله إنه لهو هو ! ! فدنت منى ثم قالت : يا كهلُ ، قل لهذا الذى معك :

ليست لياليكَ فى خاخٍ بعائدة كما عهدتَ ولا أيامُ ذى سَلَمِ

فقلت : أَجِبْ فقد سمعت . فقال : قد والله قُطِعَ لى وأُرْتِجَ علىّ ، فأجب عنى ، فقلت :

فقلت لهــا يا عَزّ كل مصيبة إذا وطِّنَتْ [يوما] لها النفس ذلَّت

ثم مضينا حتى إذا كنا بمفترق الطريقين مضى الفتى إلى منزله ومضيت إلى منزلى

---

(١) جاءت ترجمة المجنون مبتورة من أولها فى المخطوط فرأينا أن ننقل نسبه من الأغانى (ج٢ص١ الأغانى دار الكتب) وهو ما بين القوسين . .

كذلك بدأنا الخبر الناقص من أوله نقلا عن الأغانى ج ٢ ص ٥٨ وهو ما بين القوسين التاليين.

(٢) والترجمة فى مهذب الأغانى ٤ / ٢٠٢ ـ والتجريد ١٥٢ .

فإذا أنا بجورية تجذب ردائى فالتفتّ ، فقالت لى : المرأة التى كلّمتها تدعوك فمضيت معها حتى دخلت دارا] واسعة ، ثم صرتُ إلى بيت فيه حصيرٌ ، وثُنِيَتْ لى وسادةٌ فجلست عليها ، ثم جاءت الجاريــةُ بوسادةٍ مَثْنية فطرَحتْها ، ثم جاءت المرأة فجلست عليها ، فقالت لى : أنت المجيبُ ؟ قلت : نعم . قالت : ما كان أفظَّ جوابَك وأغْلَظَه ، فقلت : ما حَضَرنى غيرُه ، فسكتَتْ ، ثم قالتْ : لا واللهِ ما خلق اللهُ خَلْقا أحبَّ إلىّ من إنسانٍ كان معك ! فقلت : أنا الضامنُ لكِ عنهُ ما تُحبِّين فقالت : هيهات أن يقع بذلك وفاء ، فقلت : أنا الضامن وعلىَّ أن آتيَكِ به الليلةَ القابلةَ ، قال : فانصرفتُ فإذا الفَتَى ببابى ، فقلت : ما جاء بك فقال : ظننتُ أنها سترسلُ إليك ، وسألتُ عنك فلم أعْرِف لك خَبَرا ، فظننت أنك عندها ، فجلستُ أنتظرُك ، فقلت له : قد كان الذى ظَنَنْتَ وقد وَعدْتُها أن أَمْضِى بك إليها فى الليلةِ المقبلة . فلما أصْبَحْنا تهيَّأْنَا ، ولما جاء الليلُ رُحْنا إليها ، فإذا بها منتظرةٌ لنا ، فدخلنا الدارَ فإذا رائحةٌ طيبةٌ ، ومجلسٌ قد أُعِدَّ ونُضِّدَ فجلسنا على وسائد قد ثُنِيَتْ لنا ، وجَلَسَتْ مَلِيًّا ثم أقبلت عليه تُعاتِبُه وقالت :

وأنتَ الذى أخلَفْتَنِى ما وَعدْتنى   وأشمتَّ بى من كان فيك يَلومُ
وأبْرَزْتَنِى للناس حتى تركْتَنِى   لهم غَرَضاً أُرْمَى وأنت سليمُ
فلو كان قولٌ يَكْلُمُ الجسمَ قد بدا   بجِسْمِىَ من قولِ الوشاةِ كُلُومُ

شِعْرُ أُمَيْمَةَ امرأةِ ابنِ الدُّمَيْنَة .

ثم سكَتَتْ وسكتَ الفتى هُنَيْهةً ثم قال :

غَدَرْتِ ولم أَغْدِر وخُنْتِ ولم أخُنْ   وفى بعض هــذا للمحبِّ عَزَاء
جزيتُكِ ضِعْفَ الودِّ ثم صَرَمْتِنِى   فحُبُّكِ من قلبى إليــك أداء

فالتفتَتْ إلىّ فقالت : الا تَسْمعُ ما يقول ! قد أخبرتُك ، فغمزتُه أَنْ كُفَّ فكَفَّ ، ثم أقبَلَتْ عليه وقالت :

تَجَاهَلْتَ وصلى حين لَجَّتْ عَمَايَتِي ... فَهَلَّا صَرَمْتَ الحبلَ إذ أنا أبْصِرُ
ولى من قُوَى الحبلِ الذى قد قطعْتَه ... نصيبٌ وإذ رَأْيِي جميعٌ مُوَفَّرُ
ولكنما آذنتَ بالصَّرْمِ بغتةً ... وليس على مثلِ الذى جئتَ أَقْدِرُ

فقال :

لقد جعلتْ نَفْسِي ـ وأنتِ اجْتَرَمْتِه ... وكنت أعزَّ الناسِ ـ عنكِ تطيبُ

قال : فبكَتْ ثم قالتْ : أو قَدْ طابتْ نَفْسُك ! ! لا والله ، ما فيك بعد هذا خير ثم التفتَتْ إلىّ وقالت : قد علمتُ أنك لا تفى بضمانك ولا يفى به عنك [وهذا البيت الأخير للمجنون وإنما ذكر هـذا الخبر هنا وليس من أخبار المجنون لذكره فيه](1) .

قال الهيثمُ بنُ عَدِىّ : إن رهطَ المجنونِ اجتازوا فى نُجْعَةٍ(2) لهم بحىّ ليلى ، وقد جَمَعَتْهُم نُجْعَةٌ فرأى أبياتَ أهلِها ، ولم يَقْدر(3) على الإلْمام بهم ، وعدل أهلُه إلى جهة أخرى ، فقال المجنون :

لَعمْرُكَ إن البيتَ بالقِبَلِ(4) الذى ... مررتُ ولم أُلْمِمْ عليه لشائِقُ
وبالجِزْعِ من أعلى الجُنَيْنَةِ منزلٌ ... فسيح المدى قلبى به متضايق(5)
لعمركِ إن الحبَّ يا أمَّ مالكٍ ... بقلبى برانى اللهُ منك للاصقُ
يضمُّ علىَّ الليلُ أطرافَ حُبِّكُمْ ... كما ضمَّ أزرار(6) القميصِ البنائقُ

---

(١) ما بين القوسين عن الأغانى وفيه تمام السياق (أغانى ٢ : ٦٠ .
(٢) النجعه : الذهاب فى طلب الكلأ والعشب فى موضعه .
(٣) يقدم (الأغانى ٢ : ٦٠ .
(٤) القبل : الناحية .
(٥) شجاحزن صدرى به متضابق (أغانى).
(٦) أطراف (الأغانى) .

وماذا عسى الواشون أن يَتَحَدَّثوا ... سِوَى أنْ يقولوا إنني لكِ عاشقُ
نَعَمْ صدق الواشون أنتِ حَبيبةٌ ... إلىّ وإن لم تَصْفُ منكِ الخلائقُ

دخَلَتْ ليلى على جارةٍ لها من عُقَيْل ، وفى يدها مِسواكٌ تستاكُ به فتنفَّسَت ثم قالت : سقى اللهُ من أهدى لى هذا المِسْواكَ فقالت لها جارتها : ومَنْ هو ؟ قالت : قيسُ بنُ المُلَوَّح وبكَتْ ثم نزعت ثِيابَها تغتسلُ فقالت : وَيْحَه ، لقد عَلِقَ منى ما أهلكه من غيرِ أن استَحِقّ ذلك ، فنشدْتُكِ اللهَ أصَدَقَ فى صِفَتِى أم كَذب ؟ فقالت لا والله ، بل صدق ، وبلغ المجنونَ ذلك من قولها فبكى وأنشأ يقول :

نُبِّئْتُ لَيْلَى وقد كنا نُبَخِّلُها ... قالت سَقَى المزنُ غيثاً منزلا خَرِبا
وحبَّذا راكبٌ كنا نَهَشُّ له ... يُهدِى لنا من أراكِ الموسمِ القُضُبا
قالت لجارَتِها يوما تُسَائِلُها ... لما استَحَمَّتْ وألقتْ عندها السَّلَبا
يا عَمْرَكِ اللهَ ألَّا قلتِ صادقةً ... أصادقا وصفَ المجنونُ أم كذبا

حدَّث رجلٌ من بنى عامر قال : مُطِرْنا مَطَرًا شديداً فى ربيع ارْتَبَعْناه ، ودام المطرُ ثلاثا ، ثم أصبَحْنا فى اليوم الرابع على صَحْوَةٍ وخرج الناسُ يمشون على الوادى ، فرأيت رجلا جالساً حَجْرَةً وحْدَه ، فقصدتُه فإذا هو المجنون جالسٌ وحده يبكى ، فوعظتُه وكلمتُه طويلا وهوساكت ، ثم رفع رأسه إلىّ فأنشدنى بصوتٍ حزينٍ لا أنساه أبدا وحُرْقته :

جَرى السَّيلُ فاستبكانِىَ السيلُ إذْ جَرَى ... وفاضَتْ له من مُقْلَتَىَّ غُروبُ
وما ذاكَ إلا حين أيقنتُ أنه ... يَمُرُّ بوادٍ أنتِ منه قَريبُ
يكون أجاجاً دونكم فإذا انتهى ... إليكمْ تلقَّى طِيبَكم فيطيبُ
أظَلُّ غريبَ الدارِ فى أرْضِ عامرٍ ... ألا كلُّ مهجورٍ هناكَ غريبُ

وإنَّ الـكثيبَ الفرْدَ من أيمن الحِمَى إلىَّ وإن لم آتِه لحبيبُ
فلَا خيرَ فى الدنيا إذا أنتَ لم تزُر حبيبا ولم يَطْرَبْ إليكَ حبيبُ

وأول القصيدة :

ألا أيهـــا البيتُ الذى لا أَزورُه وهِجرانُه مِـنّى إليه ذُنوبُ
هَجَرْتُك مشتاقا وزُرْتُك خائفــا وفيك علَىَّ الدّهرَ منك رَقيبُ
سأستعطفُ الأيــامَ فيك لعلهــا بيـــوم سُرورٍ فى هواكَ تثيبُ
وأُفْرِدْتُ إفرادَ الطريدِ وباعَدَتْ إلى النفسِ حاجاتٌ وهنَّ قريبُ
لئن حال يأسٌ دونَ ليلى لربَّما أتى اليأسُ دون الأمر وهو قريبُ
ومَنَّيْتِـنِى حتى إذا ما رأَيتِنى على شَرَفٍ للناظرين يُرِيبُ
صدَدْتِ وأشْمَتِّ العدوَّ بصَرْمِنا أثابكِ يا ليلى الجزاءَ مُثيبُ

مر المجنونُ فى بَعْضِ تَوَحُّشِه ، فصادف حىَّ ليلى راحلًا ولَقِيها فَجْأَةً فعرَفَها وعَرَفَتْه . فصُعِقَ وسَقَط على وجهه ، وأقبل فتيانٌ من حَىِّ ليلى ، فأخذوه ومَسَحوا الترابَ عن وَجْهِه وأسْنَدُوه إلى صُدورهم وسألوا ليلى أن تَقِفَ له وَقْفَةً فرَقَّتْ لما به وقالت : أمّا هذا فلا يجوز أن أَفْتَضِح به ، ولـكن يا فلانةُ ودعت أمةً لها فقالتْ لها : اذهبى إلى قَيْس ، فقولى له : ليلى تقرأُ عليك السلامَ وتقول لك : أعزِزْ علىَّ بما أنتَ فيه ، ولو وجدتُ سبيلا إلى شفاء دائِك لوَقَيْتُكَ بنفسى منه ، فمضت الوليدةُ إليه فأخبرَتْه بقَوْلها . فأفاق ، وجلس وقال أَبْلِغيها السلامَ وقولى لها : هيهاتَ ! ! إن دائى ودوائى أنتِ ، وإنّ حياتى ووفاتى فى يديك ، ولقد وكَّلْتِ بى شقاءً لازماً وبلاءً طويلًا ثم بكى وأنشأ يقول :

أقول لأصحابى هى الشمسُ ضوءها قريبٌ ولـكن فى تناوُلهـــا بُعْدُ
لقد عارضَتْـنِى الريحُ منها بنَفْحةٍ[1] على كَبدى من طيب أرْواحها بَرْدُ

---

(١) لقد عارضتنا ريح ليلى بنفحة (أغانى) .

فما زلتُ مَغْشيًّا علىَّ وقد مضتْ أناةٌ[1] وما عندى جوابٌ ولا ردُّ
أُقَلَّبُ بالأيدى وأهْلِى بِعَوْلَةٍ[2] يفدُّونني لو يستطيعون أن يَفْدُوا
ولم يبــق إلا الجلدُ والعظمُ عارياً ولا عَظْمَ لى إن دام ذاكَ ولا جلد[3]
أدنيايَ مالى فى انقطاعى ورَغْبَتِى إليكِ ثوابٌ منك دَيْنٌ ولا نَقْدُ
عِدِينى بنفسى أنتِ وعداً فرُبَّما جلا كُرْبَةَ المكروب عن قَلْبِهِ الوعدُ
وقد يُبْتلَى قومٌ ولا كَبَلِيَّتِى ولا مثلَ جَدِّى فى الشقاءِ بكم جَدُّ
غَزَتْنِى جنودُ الحبِّ من كلِّ جانبٍ إذا حانَ من جُنْدٍ قُفُولٌ أتى جُنْدُ

وقيل: كان سببُ تَوَحُّشِ المجنونِ أنه كان يوما بِضَرِيَّةَ جالسا وحده إذ ناداه منادٍ من الجبل:

كلانا يا أَخِىَّ يُحِبُّ ليــلَى بِفِىَّ وفيكَ من ليلى التُّرابُ
لقد خَبَلَتْ فؤادَكَ ثم ثَنَّتْ بقلــبِى فهو مهمومٌ مُصابُ

قال: فتنفسَ الصُّعَداءَ ثم غُشِىَ عليه، وكان هذا سببَ تَوَحُّشِهِ، فلم يره أحدٌ حتى وَجَدَه نوفلُ بن مُساحِقٍ قال: قدمتُ الباديةَ فسألت عنه فقيل لى: تَوَحَّشَ وما لنا به عَهْدٌ، ولا نَدْرِى إلى أين صار. فخرجت يوما أتصيّدُ الأَرْوَى ومعِى جماعةٌ من أصحابى حتى إذا كنتُ بناصيةِ الحِمَى إذا نحن بأَرَاكَةٍ عظيمةٍ قد بدا منها قطيعٌ من الظباءِ فيها شخصُ إنسانٍ يُرَى من خَلَلِ تلك الأراكةِ فعجبَ أصحابى من ذلك فعَرَفْتُه وأَنَبْتُه، وعلمت أنه المجنونُ الذى أُخْبِرْتُ عنه، فنزلتُ عن دابتى، وتخففتُ من ثيابى، وخرجت أمشى رويداً، حتى أتيت الأراكةَ فارتقيتُ حتى صرتُ

---

(١) الأناة: الانتظار.

(٢) العولة رفع الصوت بالبكاء ومثلها العول.

(٣) إن دام ما بى (أغانى ٢ : ٦٥).

إلى أعلاها وأشرفت عليه وعلى الظباء ، وإذا به وقد تدلّى الشَّعَرُ على وجهه فلم أكد أعْرِفُه إلا بعد تأمُّلٍ شديدٍ وهو يَرْتعى من ثمر تلك الأراكةِ ، فرفع رأسَهُ فتمثلتُ ببيت من شعره :

أَتَبْكِي على ليلَى ونفسُك باعــدتْ مكانَك من ليلى وشعْبا كُما معـا

قال : فنفرَتِ الظباء واندفع فى باقى القصيدة يُنْشِدُها فما أنْسَى نَغْمَتَهُ وحُسْنَ صوتِه يقول :

فما حَسَنٌ أن تأتىَ الأمرَ طائعـــا وتَجْزَعَ أنْ داعى الصبابةِ أسْمَعا

بكتْ عَيْـنِىَ اليُسْرَى فلما زَجَرْتُهَّـا عن الجهلِ بعد الحِلْمِ اسْبَلَتا معاً

وأذكُرُ أيام الِحمَى ثم أنثَــنِى على كَبِدى من خَشْيةٍ أن تَصَدَّعا

فليستْ عشياتُ الِحمَى برواجعٍ إليك ولـكن خَلِّ عينيكَ تَدْمعا

ثم سقط مغشيّا عليه فتمثَّلتُ بقوله :

يا دارَ ليلى بسِقْطِ الحىِّ قد دَرَسَتْ إلا الثُّمَامَ وإلا مَوْقِدَ النَّارِ

ما تفتأ الدهرَ من ليلى تموتُ كذا فى موقف وقفْته أو على دارِ

قال فرفع رأسَه إلىَّ وقال لى: من أنت حيَّاكَ الله ؟ فقلت : أنا نوفلُ بن مُساحقٍ فحيّانى فقلت له : ما أحدَثْتَ بَعْدِى [فى يأسك منها][1] فأنشدنى :

ألا حُجِبَتْ ليلى وآلَى أميرُها علىَّ يمينا جاهدًا لا أزورُها

وأوْعَدَنى فيها رجالٌ أبوهُمُ أبى وأبوها خشَّنَت لى صدورها

على غير جُرمٍ غير أَنِّى أُحِبُّها وأنَّ فؤادِى رهنُها وأسيرُها

ثم سنحت له ظباء فقام يعدو فى أثرها حتى لحقها فمضى معها . ومن شعره فيها :

أَعُدُّ الليالى ليلةً بعد ليلةٍ وقد عشتُ دهراً لا أَعُدُّ اللياليا

---

(١) أغانى ٢ : ٦٧ .

أرانى إذا صَلَّيْتُ يَمَّمْتُ نحوها ... بوجْهِي وإن كان الُمصَلَّى ورائيا

وما بِىَ إشراكٌ ولـكنَّ حُبَّها ... كعود[1] الشجا أعيا الطبيب المدوايا

أحبُّ من الأسماء ما وافق اسْمَهَا ... وأشْبَهَهُ أو كان منه مُدانِيا

وخَبَّرْتمانى أن تَيْماءَ منزلٌ ... لليلى إذا ما الصيفُ ألْقَى المراسيا

فهذى شهورُ الصيفِ عنى قد انقَضَتْ ... فما لِلنَّوَى ترمى بليلى المَراميا

ولو كان واشٍ باليمامةِ بَيْتُه ... وبيتى بأعْلَى حضرموتَ اهتَدَى ليا

وماذا لهم ـ لاأَحْسَنَ اللهُ حِفْظَهُم ـ[2] ... من الحظِّ فى تَصريم ليلى حِباليا

فأنتِ التى[3] إن شئتِ أشقيتِ عِشيتى ... وإن شئتِ بعد اللهِ أنْعمْتِ باليا

أمضروبةٌ ليلى على أن أزُورَها ... ومتَّخَذٌ ذنبا لها أَنْ ترانيا

إذا سرتُ فى الأرض الفضاء رأَيْتُنِى ... أصانعُ رَحْلِى أن يَمِيلَ حياليا

يَمِيناً إذا كانت يَمِيناً وإن تـكُنْ ... شِمالا يُنازِعُنِى الهوى عن شِماليا

هى السحرُ إلا أنّ للسحرِ رُقْيَـةً ... وإنِّىَ لا أَلْـقى لنفسى راقيا[4]

وقال الهَيْثَمُ : مر المجنونُ بوادٍ فى أيام الربيع وحَمامُه يَتجاوبُ فقال :

ألا يا حمامَ الأَيْكِ ما لك باكيا ... أفارقْتَ إلْفاً أم جفاكَ حَبيبُ

دعاكَ الهوَى والشوقُ لما ترنَّمتْ ... هتوفُ الضُّحَى بين الغصون طَروبُ

تُجاوِبُ وُرْقاً قد أَذِنَّ لصَوْتِها ... فـكلٌّ لـكلٍّ مُسْعِدٌ وحبيبُ

وقيل : إن رجلا من بنى جعدة كان أخاً وخِلاًّ للمجنون مَرَّ به وهو جالس

---

(١) كشَل (أغانى) ،

(٢) حالهم (أغانى) .

(٣) فى الأصل : الذى .

(٤) (أغانى) ٢ : ٦٩ ـ وإنى لا ألقى لها الدهر راقيا .

يَخُطُّ فى الأرض . ويعبثُ بالحصى ، فسلَّمَ عليه وجلَس عنده ، فأقبل يخاطِبُه ويعِظُه ويُسَلِّيه ، وهو ينْظُر إليه ويعبثُ بيده كما كان يَعْبَثُ وهو مُفَكِّر قد غمَرَهُ ماهو فيه : فلما طال خِطابُه إيَّاه قال له : يا أخى ما علمتُ أنك تُكَلِّمُنى فاعذِرْنى فإنى كما ترى مذهوبٌ فىَّ مشتركُ اللبِّ وبكى ثم أنشأ يقول :

وشُغِلتُ عن فَهْمِ الحديثِ سوى ... ما كان منكِ فإنه شُغْلِى
وأُدِيمُ لحظَ مُحَدِّثى ليرى ... أنْ قد فهِمتُ وعندَكُم عَقْلِى

كان زوجُ ليلى وأبوها خرجا فى أمْرٍ طَرَقَ الحىَّ إلى مكة ، فأرسلت ليلى أمةً لها إلى المجنون فدَعَتْه لها فأقام عندها ليلةً وأخرجته فى السَّحَر ، وقالت له : صِرْ إلىَّ فى كل ليلةٍ ما دام القومُ سَفْرًا فكان يختلفُ إليها حتى قدِموا وقال فيها فى آخر ليلةٍ لَقِيَها وودَّعته :

تمتعْ بليلى إنما أنتَ هامَةٌ ... من الهامِ يَدْنو كلَّ يومٍ حِمَامُها
تمتعْ إلى أن يرجعَ الركبُ إنهم ... متى يرْجعوا يَحْرُمْ عليك كلامُها

حدث بعض بنى عُقَيْل قال : قيل للمجنون : أىّ شىءٍ رأيته أحبَّ إليك ؟ قال : ليلى . قالوا : دَعْ ليلى فقد عَرَفْنا حالَها عندك ، ولكن سِواها ، قال : والله ما أعجبنى شىءٌ قطُّ فذكرتُ ليلى إلا سَقَطَ من عينى وأذهبَ ذِكْرُها بشاشَتَه عندى ، غير أنى رأيتُ ظبيا مَرَّةً فتأملتُه وذكرتُ ليلى ، فجعل يزدادُ فى عينى ، ثم إنه عارَضَه ذئبٌ وهَرَبَ منه وتبِعَه حتى خَفِيا عَنِّى فوجدتُ الذئبَ قد صَرَعَه وأكلَ بعضه فرَمَيْتُه بسهمٍ فما أخطأتُ قَتْلَه وبَقَرْتُ بطنَه فأخرجتُ ما أكلَ منه ، ثم جمعته إلى بَقِيَّةِ شِلْوِهِ[1] فدفَنْتُه وأحرقتُ الذئبَ وقلت فى ذلك :

أَبَى اللهُ أن تَبْقَى لحَىٍّ بشاشةٌ ... فصبرًا على ما شاءه اللهُ لِى صَبْرا

---

(١) الشلو : العضو من أعضاء اللحم — كل مسلوخ أكل منه شىء وبقيت منه بقية .

رأيتُ غزالا يَرْتَعِي وَسْطَ روضةٍ فقلتُ أرى ليلَى تراءتْ لنا ظُهْرَا

فيا ظَبْيُ كُلْ رَغْداً هنيئا ولا تَخَفْ فإنك لى جارٌ ولا تَرْهَب الدَّهْرا

فما راعـــنى إلا وذئبٌ قد انْتَحَى فأعْلَقَ فى أحشائه النابَ والظُّفْرا

فبوَّأتُ[1] سَهْمِى فى كَتُومٍ[2] غمزتُها فخالطَ سَهْمِى مُهْجَةَ القلبِ والسَّحْرا[3]

فأذْهَبَ غَيْظِى قَتْلُه وشَفَى الجوَى بقلْبِى إنَّ الحرَّ قد يُدْرِكُ الوِتْرا

وبلغ المجنونَ قبل تَوَحُّشِه أن زوجَ ليلى ذكره وسَبَّه وقال : أو بَلَغَ عن قَدْرِ قيسِ بن الملوّحِ أن يَدَّعى محبةَ ليلى ويُنَوِّه باسمها ! ! فقال ليغيظه بذلك :

فإن كان فيـــكم بعلُ ليلى فإنّنى وذى العرش قد قَبَّلْتُ ليلَى ثمانيا

وأشهدُ عند الله أنّى رأيتُهـــا وعشرين منها أصبعاً من ورائيا

أليس من البلوى التى لاشَوَى لها[4] بأن زُوِّجَتْ كلباً وما بُذِلَتْ لِيا

خرج المجنون فى عِدَّةٍ من قومه يريدون سَفَرا فمروا فى طريق يَتَشَعَّبُ وجهتين ؛ إحداهما يَنْزِلُها رهط ليلى وفيها زيادة مَرْحَلَة ، فسألهم أن يَعْدِلوا معه إلى تلك الوجهة فأبوا فمضى وحده وقال :

أأتركُ ليلى ليس بينى وبينهـــا سوى ليلةٍ إنى إذًا لصبورُ

هَبونِى امْرَأً منكم أضلَّ بعيرَه له ذِمَّةٌ إن الذِّمامَ كبـــيرُ

وللَصَّاحِبُ المتروكُ أعظمُ حُرْمَةً على صاحبٍ من أن يَضِلَّ بعيرُ

عفا اللهُ عن ليلَى الغداةَ فإنها إذا وَلِيتْ حُـكماً علىَّ تَجُورُ

مر نفرٌ من أهلِ اليمنِ بالمجنونِ ، فوقفوا ينظرون إليه ، فأنشأ يقول :

---

(١) ففوقت سهمى (أغانى) .

(٢) الـكتوم من القسى التى لا ترن إذا أنبضت .

(٣) مهجة الذئب والنحرا (أغانى) . ــ والسحر : الرئة والـكبد وسواد القلب ونواحيه.

(٤) لا شوى لها : لا بقيا لها .

ألا أيها الركبُ اليمــانونَ عرِّجوا علينا فقد أمْسَى هوَانَا يمانيَا
أسائلُكم هل سال نعمانُ بعدنا وحُبَّ إلينا بطنُ نعمانَ واديا
ألا يا حَمَامَىْ قصْرِ وَدَّانَ هِجتما علىَّ الهوَى لما تَغَنَّيْتما ليا
وأبكيتمانى وَسْط أهْلى ولم أكن أبالى دموعَ العينِ لو كنتُ خاليا
فوالله إنّى لا أُحِبُّ لغيرِ أنْ تَحُلَّ بها ليلى البراقَ الأعاليا
ألا يا خليلى حُبُّ ليلى مُجشِّمى حياضَ المنايا أو مُقيدى[1] الأعاديا
ويا أيها القُمْريّتان تجاوَبا بِلَحْنيكما ثم اسجَعَا عَلَلانيَا
فإن أنتما استَطْرَبْتما [وأردتمــا لحاقا بأطراف الغضى فاتبعــانيا][2]

كان المجنونُ ذاتَ ليلة جالسا مع أصحابٍ له من بنى عَمِّه وهو وَالِهٌ يَتَلَظَّى ويَتَمَلْمَلُ ، وهم يعظونه ويُحادثونه ، إذ هَتَفَتْ حمامةٌ فى سَرْحَةٍ[3] كانت بإزائهم فوَثَب قائما وقال :

لقد غرَّدَتْ فى جِنحِ ليل حمامــةٌ على إلْفِها تبـكِى وإنى لنائمُ
كذبتُ وبيتِ الله لو كنت عاشقا لما سَبَقَتْنى بالبـكاء الحمائمُ

ثم بكى حتى سقط على وجْهِه مَغْشِيًّا عليه ، فما أفاق حتى حَمِيَتْ عليه الشمسُ من غَد .

لما أراد زوجُ ليلى الرحيلَ بليلى إلى بلدِه بلغَ المجنونَ أنه غادٍ بها فقال :

أمزمعةٌ للبَيْنِ ليلى ولم تَمُتْ كأنك عما قد أظَلَّكَ غافلُ
ستعلمُ إن شطَّتْ بهم غُرْبةُ النّوَى وزالوا بليلَى أنّ لبّك زائلُ

---

(١) مقيدى الأعاديا : يجعل قيادى فى يدهم .
(٢) ما بين القوسين غير ظاهر فى الأصل وهو عن الأغانى ٢ : ٧٩
(٣) السرحة : كل شجر لا شوك فيه . وقيل : كل شجر طال .

وإنك ممنوع التصبر والقرى ... إذا بَعُدَتْ ممن تُحِبّ المنازل

ذكر ابنُ الأعرابى أن نسوةً جَلَسْن إلى المجنون فقُلْنَ له : ما الذى دعاك إلى أن أحَلَلْتَ بنفسك ما ترى فى هوَى ليلى ؟ فإنما هى امرأةٌ من النساء ، هل لك فى أن تَصْرِف هواك عنها إلى إحْدانا فنُسَاعِفُك ونَجْزِيكَ بهواك ويرْجع إليك ما عَزَبَ من عقلِك وجسمِك ؟ فقال لهن : لو قَدَرْتُ على صَرْفِ الهوى عنها إليكُنّ لصرَفْتُه عنها وعن كل أحدٍ بعدها ، وعشت فى الناس سويًّا مُسْتريحا ، فقلن له : فما أعْجَبَك منها ؟ قال : كلُّ شىء رأيته وشاهدتُه وسمعتُه منها أعْجَبَنى ، والله ما رأيتُ منها شيئا قطُّ إلا كان فى عينى حسناً وبِقَلْبِى عَلِقاً ، ولقد جهدت أن يَقْبُح منها عندى شىء أو يسْمُجَ أو يُعابَ لأسْلُوَ بِهِ عنها ، فلم أجد . فقلن فصِفْها لنا فقال :

بيضاء خالصةُ البياض كأنها ... قمرٌ توَسَّط جُنْحَ ليلٍ مُبْرَدِ
موسومةٌ بالحسنِ ذاتُ حواسدٍ ... إنَّ الجمال مَظِنَّةٌ للحُسَّدِ
وتُرى مدامعُها ترَقْرُقَ مُقْلةٍ ... سوداءَ ترغبُ عن سَوادِ الإثْمدِ

قال رجل من عَشيرة المجنون : إنى أريدُ الإلمامَ بحىِّ ليلى ، فهل تُودِعُنى إليها شيئا ؟ قال نعم : قف بحيث تَسْمَعُك ثم قل :

اللهُ يعلمُ أن النفسَ قد هَلَكَتْ ... باليأسِ منكِ ولكنِّى أُعَنِّيها
مَنَّيْتُكِ النفسَ حتى قد أضرَّ بها ... واستيقنت خُلُفاً مما أُمنِّيها
وساعةٌ منكِ ألْهُوها وإن قَصُرَتْ ... أشْهَى إلىَّ من الدنيا وما فيها

فمضى الرجلُ ولم يزل يرقبُ خلوةً حتى وجدها ، فوقف عليها ثم قال : يا ليلى لقد أحسنَ الذى يقول :

الله يعلم أن النَّفْسَ قد هَلَكَتْ ... باليأسِ منك ولكنى أمنِّيها

وأنشدها الأبيات فبكَتْ بكاءً طويلا ثم قالت : أبْلغْه السلام وقل له :

نفسى فداؤكَ لو نفسى ملكتُ إذاً ما كان غيرُكَ يجزيها ويُرضيها
صبراً على ما قضاه الله فيكَ على مرارةٍ فى اصطبارى عنك أُخْفِيها

فأبلغه الفتى البيتين وأخبره بحالِها ، فبكى حتى سَقَط على وجهه مَغْشِيًّا [عليه] ثم أفاق وهو يقول :

عَجِبتُ لعُروَةَ العُذْرِيِّ أضحى أحاديثا لقومٍ بَعْدَ قومِ
وعروةُ مات مَوْتا مستريحا وها أنا ميِّتٌ فى كل يَوْمِ

سأل المُلَوّح أبو المجنونِ رجلًا قَدِمَ من الطائفِ أن يَمُرَّ بالمجنون ويجلس إليه ويُخبِرَه أنه لقى ليلى وجلس إليها ، ووصفَ له صفاتٍ منها ومن كلامِها ، يَعرِفُها المجنون ، وقال له : حَدِّثه بها فإذا رأيتَه قد اشرأَبَّ لحديثك واشتهاك فعَرِّفْه أنك ذَكَرْتَه لها ووصَفْتَ ما به فشَتَمَتْه وسبَّته وقالت : إنه يَكْذِبُ عليها ويُشَهِّرُها بفِعْلِه ، وأنها ما اجتمعت معه قط كما يصف ، ففعل الرجلُ ذلك ، وجاءه وأخبره بلقائها ، فأقبل عليه يسائله عنها فأخبره ، وهو يزداد نشاطا ويثوب إلى عقله إلى أن أخْبره بسبِّها إياه وشتمِها له ، فقال وهو غيرُ مكترثٍ لما حكاه عنها :

تمر الصَّبا صفحاً بساكنِ ذى الغَضَى ويَصْدَع قلبى أن يَهُبَّ هُبُوبُها
إذا هبَّتِ الريح الشَّمالُ فإنَّما جَوايَ بما يُهدِى إلى جَنُوبُها
قريبةُ عهدٍ بالحبيبِ وإنما هوى كلِّ نفسٍ حيث حَلَّ حبيبها
وحَسْبُ الليالى إن طَرَحْنكَ مَطرَحا بدار قِلًى تُمْسِي وأنت غَرِيبُها
حلالٌ لليلى شَتْمُنا وانتقاصنا هنيئا ومغفورا لليلى ذُنُوبها

وقال المجنون :

كأن لم تكن ليلى تَزارُ بذى الأَثْلِ وبالسّدر[1] من أجزاع ودَّانَ والنخلِ

---

(١) وبالجزع (أغانى) والجزع : منقطع الوادى .

صديقٌ لنا فيما نرى غـير أنها ترى أن حُبّي قد أحلّ لها قتلى

خرج رجلٌ إلى ناحيةِ الشام والحجازِ وما يلي تيماءَ والسَّراةَ وأرضَ نجد فى طَلَبِ بُغْيَةٍ له ، وإذا هو بخَيْمَةٍ قد رُفِعَتْ له ، وقد أصابه المطرُ ، فعدَلَ إليها وتنحنح ، وإذا امرأة قد كلَّمَتْه وقالت له : انزلْ فنزَلَ وراحتْ إبلُهم وغنَمُهم فإذا أمرٌ عظيمٌ فقالت : سلوا هذا الرجلَ من أين أقبل؟ قال : فقلتُ : من ناحيةِ نَجْد وتِهامة فقالت : أدخُلْ أيها الرجلُ ، فدخلتُ إلى ناحية من الخيمة فأرْخَتْ بيني وبينها سترًا ؛ ثم قالت لى : يا عبدَ الله أيَّ بلاد نجدٍ وَطِئْت ؟ فقلت : كُلَّها قالت : فبمن نزلت هناك ؟ قلت : ببني عامرٍ فتنفسَّتِ الصُّعَدَاءَ ثم قالت : فبأيِّ بني عامر نزلت ؟ قلت : ببني الحرِيش ، فاستعبرت ثم قالت: هل سمعتَ بذكرِ فـتًى منهم يقال له قَيْسُ بنُ المُلَوّح ويلقبُ بالمجنون ؟ فقلت : بلى والله ، وعلى أبيه نزلت ، ولقد نظرت إليه يَهيم فى تلك الفيافى ، ويكون مع الوَحْشِ لا يَعْقِلُ ولا يَفْهَم إلا أن تُذْكَرَ امرأةٌ يقال لها ليلى . فيبكى ، ويُنْشِد أشعارا فيها ، قال : فرفَعَتِ الستر بيني وبينها فإذا فِلْقَةُ قمر لم ترَ عيني مِثْلَها ، فبكت حتى ظننت أن قلبها قد انصدع ، فقلت : أيتها المرأة اتقِي الله ، فما قلتُ بأسا ، فمكثت طويلا على تلك الحال من البكاء ثم قالت :

ألا ليتَ شعرى والخطوبُ كثيرةٌ متى رَحْلُ قَيْسٍ مُسْتَقِلٌّ فراجـعُ

بنفسيَ من لا يَسْتَقِـلُّ برحْله ومن هو إن لم يَحْفَظِ اللهُ ضائـع

ثم بكت حتى سقَطَتْ مغشيا عليها ، فقلت لها : من أنت يا أمة الله ؟ وما قصتك؟ قالت أنا ليلى صاحِبَتُه المشئومةُ عليه ، غيرُ المواسيةِ له ، فما رأيت مِثْلَ حُزْنِها ووَجْدِها عليه .

رُوِيَ أن شيخا من بنى مُرَّة قال : خرجتُ إلى أرض بنى عامر لألْقَى المجنون فدَلُّونى على فـتًى من الحى صديقِ المجنونِ وقالوا : إنه لا يأْنَس إلا به ، ولا يأخذ أشعارَه عنه غَيْرُه فأتيتُه فسألته أن يَدُلَّنِي عليه ، فقال : إن كنت تريد شِعْرَه فكلُّ

شِعْرٍ قاله إلَى أمسِ عندى ، وأنا ذاهبٌ عليه غدا ، فإن كان قال شيئا أتيْتُك به ، فقلت : بل تدُلنى عليه . فقال : أطلبْه فى هذه الصحارى ، فإذا رأيته فادن منه مستأْنِسًا ولا تُرِه أنك تهابُه فإنه يتَهَدَّدُك ويتوعّدُك أنه يرميك بشىء فلا يروعنك واجلس صارفا بَصَرَك عنه والْحَظْه أحيانا فإذا رأيتَه قد سكن من نِفاره ، فأنشده شعراً غزِلًا فإن كنت تروى شيئًا من شعر قيس بن ذَرِيح فأنشده إياه ، فإنه مُعْجَبٌ به . فطلبْتُه يوْمِى إلى العصر فوجدته جالسا على رَمْلٍ ، قد خَطّ فيه بأصبعه خطوطا، فدنوت منه غيرَ مُنْقَبِض ، فنفر منى نفورَ الوحش من الإنْسِ وإلى جانبه أحجارٌ فتناول حَجَرًا واعْرضْتُ عنه فمكثَ ساعةً كأنه نافرٌ يريد القيامَ ، فلما طال جُلُوسِى سَكَن وأقْبلَ يخطُّ بأصبعه ، فأقبلت عليه وقلت له : أحسن قَيْسُ بن ذَرِيح حيث يقول :

ألا يا غراب البين ويْحَكَ نبنى … بعلمك فى لبنى فأنت خبيرُ
فإن كنت لم تُخبر بشىءٍ عَلِمْتَه … فلا طِرْتَ إلا والجناحُ كسيرُ
ودُرْتَ بأعداءِ حبيبُك فيهم … كما قد ترانى بالحبيب أدُورُ

فأقبل علىّ وهو يبكى وقال : أحسنَ واللهِ ، وأنا أحسنُ منه قولًا حيث أقول :

كأن القلبَ ليلةَ قيل يُغْدَى … بليلَى العامريَّةِ أو يُراحُ
قطاة عَزَّهَا شركٌ فباتت … تُجاذِبُه وقد عَلِقَ الجناحُ
فلا بالليل نالت ما تمنت … ولا فى الصبح كان لها بَراحُ

قال : فأمسكتُ عنه هُنيهةً ثم أقبلت عليه ، فقلت : أحسن قيُس بن ذَرِيح حيث يقول :

وإنى لمُغْنٍ دَمْعَ عينىَ بالبكا … حِذاراً لِماَ قد كان أوْ هو كائنُ
وقالوا غداً أو بعد ذاك بليلةٍ … فراقُ حبيبٍ لم يَبِنْ وهو بائنُ
وما كنتُ أخشى أن تكون مَنِيَّتى … بكَفَّيْك إلا أن ما حان حائنُ

قال : فبكى حتى ظننت أن نفسه فاضت ورأيت دموعه قد بَلَّت الرملَ الذى بين يديه ثم قال : أحسن لعمرُ الله ، وأنا أشعر منه حيث أقول :

وأَدْنَيْتِنِى حتى إذا ما سَبَيْتِنِى بقولٍ يُحِلُّ العُصْمَ سَهْلَ الأباطحِ
تناءَيْتِ عنّى حين لا لى حِيلةٌ وخَلَّفْتِ ما خلّفتِ بين الجوانح

ثم سَنَحَتْ له ظبيةٌ فوثب يعدو خلفها ، حتى غاب عنّى ، وانصرفتُ وعُدت من غدٍ فطلبْتُه فلم أجده ، وجاءت امرأةٌ كانت تضعُ له الطعامَ فنظرَتْ إلى الطعام فوجدَتْه بحاله ، فلما كان فى اليوم الثالثِ غدوتُ وجاء أهلُه معى فطلبناه يومَنا فلم نَجِدْه وغدَوْنا فى اليوم الرابع نستقرى أثرَه ، فوجدناه فى وادٍ كثيرِ الحجارةِ خَشِنٍ وهو ميِّت بين تلك الحجارة ، فاحتمله أهلُه فغسّلوه وكفنوه ودفنوه ، فلم تبق فتاةٌ فى بنى جَعْدَةَ ولا بنى الحَريشِ إلا خرجَتْ حاسرةً صارخةً عليه تندُبُه ، واجتمع فتيانُ الحىّ يبكون أحَرّ بكاء وينشِجون أشدَّ نَشيج وحضرهم حىُّ ليلى مُعزِّين وأبوها معهم فكان أشدَّ القومِ جزعا وبكاءً عليه ، وجعل يقول : ما علمتُ أن الأمر يبلغ كلَّ هذا ، ولكنى كنت امرأً عربيا أخاف من العار وقُبْحِ الأُحدوثة ما يخافه مِثْلى وزَوَّجْتُها وخرجَتْ عن يَدِى ، ولو علمت أن أمْرَه يجرى على مثل هذا ما أخْرَجْتُها عن يَدِه ولا حتملتُ ما كان علىَّ فى ذلك ، فما رُئِىَ يومٌ كان أكثر باكيا وباكية على مَيِّت منه يومئذ .

وروى أنهم بينا هم يُقلِّبُونه وهو ميت إذ وجدوا خرقة فيها مكتوب :

ألا أيها الشيخُ الذى ما بنا يَرْضَى شَقِيتَ ولا هُنِّيتَ من عَيْشِكَ الخفضا[1]
شَقِيتَ كما أَشْقَيْتَنِى وتركتَنِى أهيمُ مع الهُلّاكِ لا أطْعَمُ الغَمْضا
كأن فؤادى فى مخاليبِ طائرٍ إذا ذُكِرَتْ ليلى تَشُدُّ به قَبْضا

(١) الغضا فى رواية .

كأن فِجاجَ الأرضِ حلقةُ خاتمٍ ... عليّ فما تزدادُ طُولاً ولا عَرْضَا

قال بعض القُشَيْريِّين : مررت بالمجنون وهو مشرف على واد [فى أيام الربيع وذاك قبل أن يختلط][(١)] وهو يتغنى بشعرٍ لم أفهَمْهُ فصحتُ به : يا قيسُ أما تَشْغلك ليلى عن الطرب والغناء فتنفس نفساً ظننت أن حيازيمه [قد انقدَّت ثم قال][(١)] :

وما أُشْرِفُ الأيفاعَ إلا صَبابةً ... ولا أُنْشِدُ الأشعارَ إلا تداويا

وقد يجمعُ اللهُ الشَّتيتَيْنِ بعد ما ... يَظنانِ كلَّ الظنِّ ألا تلاقيا

لحى اللهُ أقواماً يقولون إنّنى ... وجدتُ طوالَ الدَّهرِ للحبِّ شافيا

اجتاز قيسُ بنُ ذَريحٍ بالمجنونِ ، وهو جالس وحده فى نادى قومه ، كان كلٌّ واحد منهما مشتاقا إلى لقاء الآخر ، وكان المجنونُ قبل تَوَحُّشِه لا يجلس إلا منفردا ، ولا يُحَدِّثَ أحداً ، ولا يرد على متكلم جوابا ، ولا على مُسَلِّم سلاما ، فسلَّمَ عليه قيسُ بن ذريح ، فلم يَرُدَّ عليه السلام ، فقال له : يا أخى أنا قيسُ بن ذريح فوثب إليه فعانقه ، وقال : مرحبا بك يا أخى أنا والله مذهوبٌ به مُشْتَرِكُ اللُّبِّ ، فلا تلمنى فتحدثا ساعة وتشاكيا وبكيا ، ثم قال له المجنون : يا أخى إن حىَّ ليلى منا قريب فهل لك أن تمضى إليها وتُبَلِّغها عنى السلام، فقال : أفعل ، فمضى قيسُ بن ذَريح حتى أتى ليلى ، فسلَّمَ وانتسب ، فقالت له : حيَّاكَ الله ، ألَكَ حاجة ؟ قال : نعم ، إن ابنَ عمِّك أرسلنى إليك ، فأطرقت ، وقالت : ما كنتَ أهلا للتحية لو علمتُ أنك جئت رسولَه قل له : عنّى أرأيتَ قولك :

أبت ليلةٌ بالغَيْلِ يا أمَّ مالكٍ ... لكُم غيرَ حُبٍّ صادقٍ ليس يكذبُ

ألا إنما أبقيتِ يا أمَّ مالكٍ ... صدًى أينما تذهبْ به الريحُ يذهَبُ

أخبرنى عن لَيْلَةِ الغَيْل ، أىَّ ليلة هى ؟ وهل خلوت معكَ قطُّ فى الغَيْل أو

---

(١) ما بين الأقواس غير ظاهر بالأصل وهو عن الأغانى .

غيره ليلاً أو نهاراً ؟ فقال لها قيس : يابنةَ عمّ إن الناسَ تأوّلوا قولَه على غير ما أراد فلا تكونى منهم ، إنما أَخْبَرَ أنه رآك ليلة الغَيْلِ ، فذهبَتْ بقلبه لا أنه عَنا السُّوءَ ، قال : فأطرقت طويلاً ودموعها تجرى ، وهى تُكَفْكفها ثم انْتَحَبَتْ حتى قلت : تَقَطَّعَتْ حيازيمها ، ثم قالت : اقرأ ابنَ عمى السلام ، وقل له : بنفسِيَ أنت والله إن وَجْدِي بك لفَوْقَ ما تَجِدُ ، ولكن لا حيلة لى فيك ، فانصرف قيسٌ إليه ليخبره فلم يجده .

مر المجنونُ بعد اختلاطِه بليلى تمشِي فى ظاهرِ البيوتِ بعد فَقْدِها طويل فلما رآها بكى حتى سقط على وجهه مغشيّا عليه ، فانصرفَتْ خوفا من أهلها أن يلقَوْها عنده ، فمكث مليا فلما أفاق قال :

بكى فرحاً بليلى إذْ رآها ‏ ‏ ‏ محبٌّ لا يرى حَسَناً سواها
لقد ظَفِرَتْ يداه ونال مُلكاً ‏ ‏ ‏ لئن كانتْ تراه كما يراها

قيس بن الخطيم [1]

هو قَيْسُ بن الخطيم بن عَدِيّ بن عمرو بن سُود بن ظَفَر ، وكنيته أبو يزيد .

أنشد ابنُ أبي عَتيق قولَ قيس بن الخطيم :

بين شُكُولِ النساءِ خِلْقَتُها حَذْواً [2] فلا جَبْلَةٌ [3] ولا قَضَفُ [4]

فقال : لولا أن أبا يزيد قال : حَذْوًا ما درَى الناسُ كيف يَحْشُون هذا الموضع .

حدَّث أبو عبيدةَ محمدُ بنُ عَمَّارِ بنِ ياسر ، وكان عالما بحديث الأنصارِ قال : كان من حديثِ قيسِ بن الخطيمِ أن جَدَّه عديَّ بن عمرو قتَله رجلٌ من بني عمرو ابن عامرِ بنِ ربيعةَ بنِ عامر بن صَعْصَعةَ . يقالُ له : مالكٌ ، وقتل أباه الخطيمَ بنَ عديّ رجلٌ من بني حارثةَ بنِ الحارثِ بنِ الخزرج يقال له : مالكٌ اغتاله فقتَله وقيل : إن الخطيم قتله رجلٌ من عبدِ القيسِ ممن يَسْكُن هَجَرَ ، وكان قيسٌ يوم قُتِل ، صغيراً ، وقُتِلَ الخطيمُ قبل أن يَثْأَرَ بأبيه عديٍّ فخشيتْ أمُّ قيسٍ على ابنها أن يخرجَ فيطلبَ بثأر أبيه وجدِّه فيَهْلِكَ ، فعمَدت إلى كومِ ترابٍ عند باب دارهم فوضعتْ عليها أحجاراً وقالت لقيس : هذا قبرُ أبيك وجدِّك ، فكان قَيْسٌ لايشكُّ في ذلك ، ونشأ أَيِّداً ، شديدَ الساعدين ، فنازع يوما فتًى من فتيانِ بني ظفرَ فقال له ذلك الفَتَى : لو جعلتَ شدَّةَ ساعديْك على قاتِلَيْ أبيك وجَدِّك لكان خيراً من أن تُخْرِجَهُما عليَّ . قال : ومن قاتلُ أبي وجدّي : قال : سَلْ أمّك تُخْبِرْك ، فأخذ السيفَ فوضع قائمه على الأرض وذُبَابَه بين ثَدْيَيْه وقال : لأمه : أخبريني من

(١) أغاني دار الكتب ٣ : ١ ــ تجريد ٣٠٧ ــ المهذب ١ / ١٢٠

(٢) الحذو : التقدير .

(٣) جبلة (أغاني) والجبلة : الغليظة . وأما الجثلة فهي الضخمة .

(٤) القضف : دقة اللحم .

قَتَلَ أبى وجدّى قالت : ماتا كما يموتُ الناسُ ، وهذان قبراهما بالفِناء . قال : والله لتُخْبِرِينى من قَتَلهما أو لأتحامَلَنَّ على السيف حتى يخرجُ من ظهرى . قالت : أمّا جدّك فقتَله رجل من بنى عمرِو بن عامرِ بن ربيعة ، يقال له : مالك . وأمّا أبوك فقتَله رجلٌ من عبدِ القيسِ ممن يَسْكُن هَجَرَ . فقال : والله لا أنتهى حتى أقتلَ قاتلَ أبى وجدّى . فقالت : يابنىّ إنّ مالكا قاتلَ جدِّك من قوم خِداش بن زهير ، ولأبيك عند خداش نعمةٌ هو لها شاكرٌ فأْتِه فاستَشِرْه فى أمرك واستعِنْه يُعِنْك ، فخرج قيس من ساعته حتى أتى ناضحة ، وهو يسقى نخلَه ، فضرب الجريرَ ، بالسيفِ فقطَعه ، فسقطت الدلْوُ فى البئرِ وأخذ برأس الجمل فحمل عليه غِرارَتين من تمرٍ وقال : من يكفينى هذه العجوز ؟ يعنى أمه ، فإن مِتُّ أنفق عليها من هذا الحائط[1] حتى تموتَ ثم هو له ، وإن عشتُ فمالى عائد إلىّ ، وله منه ما شاء أن يأكلَ من تمرِه ، فقال رجل من قومه : أنا لها ، ومات فى منزلته فدفناه هناك وقبره معروف .

---

(١) الحائط : البستان .

مرّة بن محكان[1]

أحدُ بنى سَعْد بن زيدِ مناةَ بن تميم ، شاعرٌ إسلامِىٌّ مُقِلٌّ من شعراء الدولةِ الأمويةِ فى عصر جريرٍ والفرزدقِ فأخْملا ذِكْرَه لنباهَتِهما ، كان مُرّةُ شريفاً جواداً وهوأحدُ من حُبِسَ فى الفخر والإطعامِ ، وكان أبوالنكراء يوائمه فى الشَّرْفِ وهاجميعا من بنى الربيع ، فأنهبَ مُرّةُ بن محكان مالَه الناس فحبسه زيادٌ ، فقال فى ذلك الأبيردُ :

حَبَسْتَ كريمـاً أن يجودَ بمالِه سَعَى فى ثَأَى من قومِه متفاقمِ

كأنَّ دماءَ القومِ إذ عَلِقوا به على مُكْفَهِرٍّ من ثنايا المخارمِ

فإن أنت عاقبت ابنَ محكانَ فى النَّدَى فعاقِبْ نجاكَ اللّهُ أَعْظُمَ حاتمِ

فأطلقَه زيادُ فذبح أبو النكراء مائةَ شاةٍ فنحَر مُرَّةُ بن محكان مائةَ بعير ، فقال بعض شعراء بنى تميم يمدح مُرَّة :

شَرَى مائـةً فانهبها جَوادٌ وأنت تُناهِبُ الخُذُفَ القِهادَا

الخُذُف : صغار الغنم ، والقِهاد : البيض .

كان الضيف إذا نزل بالعربِ فى الجاهليةِ ضمّوا إليهم رَحْلَه ، وتركوا سِلاحَه معه خوفاً من البيات والغارة ، فقال مرّة بن محكان يخاطب امْرَأَتَه ، ويعرضُ أنَّ ضيفانَه عنده فى أَمْنٍ من البيات والغارة وفى عِزٍّ ، فليسوا ممن يَحتاجُ إلى أن يبيت سلاحُهم معهم فقال :

يا ربةَ القومِ قومى غـيرَ صاغرةٍ ضمِّى إليك رحالَ القـوم والقِرَبا

فى ليـلة من جُمادى ذات أنديةٍ لا يُبْصِرُ الكلبُ من ظَلْمائها الطُّنُبا

لا ينبح الكلبُ فيها غير واحدةٍ حتى يَلُفَّ على خيشومه الذَّنبا

وكان مصعبُ بن الزبير قد حَبَسه ودسَّ إليه من قتَلَه .

---

(١) أغانى ٢٠ : ٩ مهذب ٥/٢٩

محمد بنُ عبدِ الملك الزيات

هو محمدُ بنُ عبد الملك بن أبانَ بن أبى حمزة الزيات ، وكنيته أبو جعفر ، وأصله من حبل جبل[2] . وكان أبوه تاجراً من تُجّارِ الكرخ المياسير ، وكان يحثّه على التجارة وملازمتها فيأبى إلا الكتابةَ ، وطلبها ، وقصدَ المعالىَ حتى بلغَ منها إلى أن وَزَرَ ثلاثَ دفعاتٍ ، وهو أول من تولّى ذلك وتمّ له ، وكان شاعراً مُجيدا ، لا يقاس به أحدٌ من الكتاب ، وإن كان إبراهيمُ بنُ العباسِ مِثْلَه فى ذلك ، فإن إبراهيم مُقِلٌّ وصاحبُ قِصارٍ ومُقَطَّعَاتٍ ، وكان محمدٌ يطيلُ فيجيدُ ويأتى القصارَ فيجيدُ ، وكان بليغا حَسَنَ اللفظِ إذا تكلّمَ وإذا كتبَ .

قال عمرُ بن محمد بن عبد الملك : كان جدّى موسراً من تُجّارِ الكرْخ ، وكان يريد من أبى أن يتعلّقَ بالتجارةِ ويتشاغلَ بها ، فيمتنع من ذلك ويلزم الأدب وطلبه ويخالطُ الكتّابَ ويلازمُ الدواوين ، فقال له ذات يوم : والله ما أرَى ما أنت ملازِمُه ينفعُك وليضرّنّك لأنك تدعُ عاجل المنفعةِ ، وما أنت فيه مَكْفِيٌّ ، ولك ولأبيك فيه جاهٌ ومالٌ ، وتطلب الأجلَ الذى لا تدرى كيف تكونُ فيه ، فقال له محمد : والله لتعلمَنَّ أينا ينتفعُ بما هو فيه أنا أم أنت . ثم شخص إلى الحسنِ بن سهلٍ فامتدحه بقصيدته التى منها :

كأنها حين تناءى شخصها ... أخنسُ مَوشِيُّ الشَوَى يرعى القُلَلْ
إلى الأمير الحسنِ استحدثتها ... أى مرارٍ ومُناخ وَمَحَلْ
سيفُ أمير المؤمنين المُنْتَضَى ... وحِصْنُ ذى الرياستَيْنِ المعتقلْ

(١) الأغانى أميرى ٢٠ : ٤٦ ـ تاريخ بغداد ٢/٣٤٢ ـ وفيات الأعيان ٤/١٨٢

(٢) جبل : بليدة على جانب دجلة من الجانب الشرقى بين النعمانية وواسط (مراصد الاطلاع).

آباؤُكَ الغُرُّ الأُلَى جَدُّهُم   كسرى أنو شروانَ والناسُ هَمَلْ
من كل ذى تاج إذا قال مَضَى   كلُّ الذى قال وإنْ هَمَّ فَعَلْ
فأين لا أيْنَ وأَنَّى مثلُكم   وأنتمُ الأملاكُ والناسُ خَوَلْ

فأمر له بعشرةِ آلافِ دِرْهَمٍ فعاد بها إلى أبيه . فقال له أبوه: لا أَلُومُك بعد هذا على ما أنتَ فيه. وقيل: إنه لما مَدَحه وأجازه مَثَلَ بين يديه وقال له :

لم أمْتَدِحْك رجاء المالِ أطْلُبُه   لكن لتُلْبِسَنى التحْجيلَ والغُرَرَا
وليس ذلك إلا أننى رجلٌ   لا أطلب الورْدَ حتى أعْرِفَ الصدَرا

مرض الواثقُ مرضا شديدا خِيفَ عليه منه ، ودخل إليه الناس على طَبَقاتهم ، فدخل إليه الحسنُ بن سهل عائداً ، ومحمدُ بنُ عبدِ الملك الزياتِ وزيرُه يومئذ ، والحسن بنُ سَهْلٍ مُتَمَطِّلٌ فجعل الحسنُ بن سهل يتكلم فى العِلّةِ وعلاجِها وما يصْلحُ للواثق من الأدوية والعلاجِ والغذاء أحسنَ كلام ، فحسده محمدُ بن عبد الملك الزيات ، وقال له : من أين لك هذا العِلْمُ يا أبا محمد ؟ فقال : إنى كنتُ استَصْحَبْتُ من أهل كل صناعةٍ رؤساءَ أَهْلِها ، وأتَعَلَّمُ منهم ، ثم لا أَرْضَى إلا ببلوغ الغاية ، فقال له محمد ابن عبد الملك ، وكان حسودا : ومتى كان ذلك ؟ فقال له فى زمان قلت فىّ :

فأين لا أَيْنَ وأنى مثلكم   وأنتم الأملاكُ والناسُ خَوَلْ

فأطرق محمدٌ وخَجِلَ وعدَلَ عن الجواب .

قال هارونُ بن محمد بن عبد الملك : جلس أبى يوما المظالم فلما انْفضَّ المجلس رأى رجلا جالسا ، فقال : ألك حاجة ؟ قال : نَعَمْ تُدْنِينى إليك فإنى مظلوم ، فأدناه ، فقال : إنى مظلومٌ وقد أعْوَزَنى الإنصافُ ، قال : ومن ظلمك ؟ قال : أنت ، ولستُ أَصِلُ إليك فأذْكُرُ حاجتى قال : ومن يَحْجُبُك عنى وقد ترى مجلسى مبذولا ؟ قال : حجَبَنى عنك هَيْبَتُك وطولُ لسانِك وفصاحَتُك واطرادُ حُجَّتِك . قال : ففيم

ظلمتك ؟ قال : ضَيْعَتِي الفلانيةُ أخذها وَكيلُك غَصْبا بلا ثمن ، فإذا وجب عليك خراجٌ أدّى باسمى لئلا يَثبُتَ لك اسمٌ فى مِلْكِها فيبطلَ مِلْكِى ، فوكيلك يأخذ غَلّتَها وأنا أؤدى خَراجَها ، وهذا ما لا يُسْمَع فى الظُّلْمِ بمثلِه ، فقال له محمد هذا قولٌ تحتاجُ عليه إلى بَيِّنةٍ وشهودٍ وأشياء. فقال له يؤَمِّنُنِي الوزيرُ من غَضَبه حتى أجيبَ، قال : قد أمنتك. قال: البينةُ إذا شهدوا فليس يحتاجُ معهم إلى شىء ، فما قولك بينةٌ وشهودٌ ، وأما أشياء فايشْ هذه الأشياء إلا العِىُّ والتَّغَطْرُشُ فضحك . وقال : صدقت : والبلاء مُوَكّلٌ بالمنطقِ وإنى لا أرى فيك مُصْطَنَعا ثم وَقَّع له بِردِّ ضَيْعَتِه وصيّره من أصحابه واصطنعه .

لما وثَبَ إبراهيمُ بن المهدىِّ على الخلافةِ اقْترَض من مَياسير الكَرْخ التجارِ مالا وأخذَ من عبدِ الملك الزيات عَشْرةَ آلافِ دينار وقال : أنا أردُّها إليك إذا جاءنى مالٌ ولم يَتمَّ أمره فاسْتَخْفى ، ثم ظَهَر ورَضِى عنه المأمون ، وطالَبَه الناسُ بأموالهم فقال : إنما أخذتُها للمسلمين وأردتُ قضاءها مِن فَيْئِهم ، والأمر فيها الآنَ إلى غيرى ، فعمل وَلَدُه محمدُ بن عبد الملك قصيدةً يخاطب فيها المأمونَ ، ومضى بها إلى إبراهيم ابن المهدى فأراه إياها ، وقال : والله لئن لم تُعْطِنا المالَ الذى اقْتَرَضْتَه من أبى لأوَصِّلَنّ هذه القصيدةَ إلى المأمون ، نخاف أن يقرأها المأمون فيتَدَبَّر ما قاله فيُوقعَ به فقال : خذ منِّى بعضَ المال ونَجِّمْ علىَّ بَعْضَه ، ففعل ذلك بعد أن أحْلَفه إبراهيمُ بأوْكَدِ الأَيْمانِ ألا يُظْهِرَ هذه القصيدةَ فى حياة المأمونِ ، ووفى له بذلك ووفَّاه إبراهيمُ المالَ . والقصيدة طويلة منها :

ألم تر أن الشىءَ للشىءِ عِلّةٌ	يكون له كالنار تُقْدَحُ بالزَّنْدِ
كذلك جَرَّبْتُ الأمورَ وإنما	يَدُلُّك ماقد كانَ قَبلُ على البُعدِ
وظنِّى بإبراهيمَ أنَّ مكانه	سيبعثُ يوماً مثلَ أيامه النَّكْدِ
رأيتَ حُسيْنا حين صار مُحَمَّدٌ	بغير أمانٍ فى يَدَيْه ولا عَقْدِ

ولو كان أمضى السيفَ فيه بضَرْبَةٍ — يصير لها بالقاعِ مُنْعَفِرَ الخدِّ
إذا لم تكن للجند فيه بَقِيَّةٌ — فقد كان ما خُبِّرْتَ من خَبَرِ الجُنْدِ
هم قتلوه بعد أن قتلوا به — ثلاثين ألفًا من كهولٍ ومن مُرْدِ
وما نصروه من يدٍ سَلَفَتْ له — وما قتلوه يوم ذاك على حِقْدِ
ولكنه الغدرُ الصُّراحُ وخِفَّةُ الحلـ — ـوم وبُعْدُ الرأي عن سَنَنِ القَصْدِ
فذلك يومٌ كان للناس عِبْرَةً — سيبقى بقاءَ الوَحْيِ في الحَجَرِ الصَّلْدِ
وما يومُ إبراهيمَ إن طال عُمْرُه — بأبعدَ في المكروه من يومه عندي
تَذَكَّر أمير المؤمنين مَقَامَه — وأيمانَه في الهزلِ منه وفي الجدِّ
إذا هز أعوادَ المنابر باسْتِه — تَغَنَّى بليلى أو بِمَيَّةَ أو هِنْدِ

منها :

وواللهِ ما من تَوْبَةٍ نَزَعَتْ به — إليكَ ولا مَيْلٍ إليك ولا وُدِّ
ولكن إخلاصَ الضمير مُقَرِّبٌ — إلى الله زُلْفَى لا تخيبُ ولا تُكْدِي
أتاك به طَوْعًا إليك بأنفه — على رَغْمِه واستأثر اللهُ بالحَمْدِ
فلا تتركنْ للناسِ موضعَ شُبْهَةٍ — فإنك مَجْزِيٌّ بحَسْبِ الذي تُسْدِي
فقد غَلِطوا للناس في نَصْبِ مِثْلِه — ومن لَيْس للمنصورِ بابنٍ ولا المَهْدِي
فكيف بمن قد بايعَ الناسَ والتقت — ببيعته الركبانُ غَوْرًا إلى نَجْدِ
ومن صَكَّ تسليمُ الخلافةِ سَمْعَه — يُنادَى به بَيْنَ السماطَيْن من بُعْدِ
وأيّ امرئٍ سَمَّى بها قَطُّ نَفْسَه — ففارقها حتى يُغَيَّبَ في اللحْدِ
وتَزْعُمُ هذي النابِتِيَّةُ أنه — إمامٌ لها فيما تُسِرُّ وما تُبْدِي
يقولون سُنِّيٌّ وأيَّةُ سُنَّةٍ — تقوم بجَوْنِ اللونِ صعد القفا جَعْدِ
وقد جعلوا رخْصَ الطعامِ بعَهْدِه — زعيما له باليُمْنِ والكوكبِ السعدِ
إذا ما رَأَوا يومًا غلاءً رَأَيْتَهم — يَحِنُّونَ تحنانًا إلى ذلك العَقْدِ

وإقبالُه فى الجُرْدِ يوجفُ حوله ... وجيفُ الجيادِ واصطكاكُ القنا الجُرْدِ
ورَجَّالَةٌ يمشون بالبيضِ قبْلَه ... وقد تبعوه بالقضيبِ وبالبُرْدِ
فإن قلتُ قد رام الخلافةَ غيرُه ... فلم يُؤْتَ فيما كان حاولَ من جَدِّ
فلم أجزه إذ خيَّبَ اللهُ سَعْيَه ... على خَطأٍ إذ كان منه ولا عَمْدِ
ولم أرضَ بعد العفو حتى رَفَعْتَه ... وللعَمُّ أولَى بالتَّغَمُّدِ والرفد
فليس سواءٌ خارجيٌّ رمى به ... إليك سَفَاهُ الرأى والرأىُ قد يُرْدِى
تعاوت له من كلِّ أوْبٍ عصابةٌ ... متى يُورِدُوا لا يُصْدِروه عن الوِرْدْ
ومن هو فى بيت الخلافةِ تَلْتَقِى ... به وبك الآباءُ فى ذِروةِ المَجْدْ
فَولاكَ مولاهُ وجدكَ جدّه ... وهل يجمع القينُ الحسامَيْن فى غِمْدِ
وقد رابنى من أهل بيتك أننى ... رأيتُ لهم وَجْدا به أيّما وَجْد
يقولون لا تبْعَدْ من ابنِ مُلِمَّةٍ ... صبرت عليها النفس ذى مِرَّةٍ جَلْد
فَدَانَا وهانَتْ نفسهُ دون مُلْكنا ... عليه لذى الحالِ التى قل مَنْ يُفْدى
على حين أعطى الناسَ صَفْوَ أكفهم ... علىّ بنُ موسى بالولايةِ والعهْدِ
فما كان فينا من أَبَى الضَّيْمَ غيرُه ... كريم كَفَى ما فى القبولِ وفى الرَّدِّ
وجرّد إبراهيمُ للموت نَفْسَه ... وأبدى سلاحا فوقَ ذى مَنْعَة نَهْدِ
وأبلى ومن يَبْلُغْ من الأمر جُهْدَه ... فليس بمذمومٍ وإن كان لم يُجْدِ
فهذى أمورٌ قد يخاف ذَوو النُّهى ... مَغَبَّتَها واللهُ يَهْدِيك للرُّشْدِ

كان محمد بنُ عبدِ الملك يقول عن يحيى بن خاقان : هو مهزولُ الألفاظِ عليلُ المعانى ، سخيفُ العقلِ ضعيف العُقْدَةِ واهى العَزْمِ مأفونُ الرأى . ولما ولى محمَّدُ ابنُ عبد الملك الوزارةَ اشترط ألا يلبسَ القباءَ وأن يلبس الدُّرَّاعةَ ويتقلدَ عليها سيفا بحمائل ، فأجيب إلى ذلك . وكان محمد بن عبد الملك يقول : الرحمةُ خَوَرٌ فى الطبيعةِ وضَعْفُ فى المُنَّةِ وما رَحِمْتُ شيئاً قط فكانوا يطعنون عليه فى دِينه بهذا

القول فلما وُضِعَ فى التَّنورِ الحديدِ قال : ارحمونى فقالوا له : وهل رَحِمْتَ شيئا قَطّ فتُرْحَم ؟ هذه شهادَتُك على نَفْسك وحُكْمُك عليها وما رَضيتَ لها ، ألستَ القائل: الرحمةُ خورٌ فى الطبيعةِ وضَعْفٌ فى المُنَّة ؟

جاء ابن دنقش الحاجب برسالة من المُعْتصم إلى محمدِ بن عبد الملك ليَحْضر فدخل ليلبسَ قُمَاشه ورأى ابنُ دنقش الحاجبُ غلمانا له فقال : وهو يظن أنه لا يسمع :

وعَلَى اللُّواطِ فلا تَلُومَنْ كاتبا إن اللواطَ سَجِيَّةُ الكُتَّابِ

فقال له محمد :

وكما اللــواطُ سَجيَّة الـكتابِ فـكذا الخِلاقُ سَجِيَّةُ الحُجَّابِ

فاستحيا ابن دنقش واعتذر إليه ، فقال : إنما يقعُ العُذْر لو لم يقَعْ الاقتصاصُ فأما الآن وقد كافأتُـك فلا .

كان الحسن بن وَهْبٍ تَعجَّبَ من جَوْدة قول محمد بن عبد الملك يرثى سَكْرَانة أم ابنه عمر :

يقولُ لى الخــلَّانُ لو زرتَ قبرها فقلت وهل غيرُ الفؤادِ لهــا قَبْرُ
على حين لم أَحْدُث فأَجْهَل فَقْدَها ولم أبلغ السنّ التى معها الصَّبْرُ

استبطأ عبدُ الله بنُ طاهر محمدَ بن عبد الملك فى بعض أموره ، واتهمه بعدُولِه عن شىء أرادَه إلى سواه ، فـكتب إليه محمد يعتذر عن ذلك وكتب فى آخر كتابه :

أتزعم أننى أهوى خليلاً سواكَ على التدانِى والبِعادِ
جحدتُ إذاً موالاتى عَلِيًّا وقلت بأننى مَوْلَى زيادِ

كان عبدُ الله بنُ الحسن الأَصبهانى يخلفُ عَمْرو بن مَسْعدة على ديوانِ الرسائل ، فـكتب إلى خالد بن يزيد بن مزيد أن المعتصمَ أميرَ المؤمنين يَنفُخُ منك فى غَيْرِ فَحْم ، ويخاطب امْرَأً غيرَ ذى فهم ، فقال محمد بن عبد الملك : هــذا كلام سخيفٌ ساقطٌ

جعلَ أميرَ المؤمنين ينفخُ بالزِّق كأنه حدّاد ، فأبْطَل الـكتاب ، ثم كتب محمدُ بن عبد الملك إلى عبد الله بن طاهر : وأنت تُجْرِى أمْرَكَ على الأرْبح ِ فالأرْبح ِ والأرْجح ِ فالأرْجح ِ فلا تسْمَى بنُقصان ولا تميلُ برُجْحان. فقال عبد الله الأصْبهانى : الحمد لله الذى أظهرَ من سخافةِ اللفظِ مادل على رُجوعِه إلى صناعَتِه من التجارة ، بذِكْر ربح السِّلَع ورُجْحانِ الأوزانِ ونُقصان الـكيلْ والخسرانِ من رأس المال ، فضحك المعتصمُ وقال : ما أسرع ما انْتَصَفَ الأصبهانىُّ من محمد فحقدَها عليه ابنُ الزيات حتى نـكبه :

قال المبرد : نظرَ رجلٌ كان يمادى يونسَ النحوىَّ إليه يتهادَى بين اثنين من الـكِبَر فقال له : يا أبا عبد الرحمن أبلغْتَ ما أرى ؟ فعلم يونس أنه إنما قال ذلك شامِتاً فقال : هذا الذى كنتُ أرجو فلا بلغته فأخذه محمد بن عبد الملك فجعله فى شِعْره فقال :

وعائبٍ عـابنى بشَيْبٍ ... لم يَعْدُ لمـا أَلَمَّ وَقْتَه
فقلت إذ عابنى بشَيْبِى ... يا عائبَ الشَّيْب لا بَلَغْتَه

لما شخص أبو الحسين بن أبى البَغْل إلى بغداد للوزارةِ وصَدَرَ عنها وبطل ذلك قال : لله درُّ محمدِ بن عبد الملك الزيات حيث يقول :

ما أعْجَبَ الشىءَ ترجوه فتُحْرَمه ... قد كنتُ أحسب أنى قد مَلأتُ يدى

والبيت الأول :

مالى إذا غِبْتُ لم أُذْكَرْ بصالحةٍ ... وإن مرضت وطال السُّقْمُ لم أُعَدِ

قال عبد الله بن العباس بن الفضْل الربيعىُّ : وصفنى محمدُ بنُ عبدِ الملك الزيات للمعتصم فقال : ليس له نظير فى مَلاحَةِ الشِّعْرِ والغناء والعِلْمِ بأمور المُلْكِ فلقيته فشـكرته ، وقلت له : جعلتُ فداءك أتصِفُ شعرى وتُقَرِّظُه وأنت القائل :

ألم تعجبْ لمـكتئبٍ حزين ... [خديم صبابة وحليف صبر]
[يقول إذا سألت بـه بخير ... وكيف يكون مهجور بخير] (١)

(١) غير واضحة بالأصل وما بين القوسين عن الأغانى .

قال : فأين هذا من قولك :

يقول لى كيف أصْبَحْ ... تَ كيفَ يُصْبِحُ مِثْلى

ماء ولا كصداء ومَرْعًى ولا كالسعدان .

لقى الكتنجى محمدَ بنَ عبدِ الملك فسلم عليه فلم يُجِبْه فقال :

هــذا وأنت ابنُ زَيّاتٍ تُصَغِّرُنا ... فكيف لو كنتَ ياهذا ابنَ عطّارِ

فبلغ ذلك محمدا فقال : كيف يُنْتَصَفُ من ساقطٍ أحمقَ ، وَضْعُه رَفْعُه وعقابُه ثَوابُه !

قال محمد بن عبد الملك لبعض أصحابه : ما أخّرَكَ عنا ؟ قال : موتُ أخى . قال : بأى عِلّة قال : عضت أصْبَعَه فأرةٌ فضربَتْه الحُمْرَة . فقال محمد : ما يرد القيامةَ شهيدٌ أخس سببا ولا أنذل قاتلا ولا أضيع مِيتةً ولا أظرفُ قِتْلَةً من أخيك .

كان محمدُ بنُ عبد الملك يعادى أحمدَ ابن أبى دواد ويهجوه ، وكان أحمدُ يجمع الشعراء ويحرضهم على هجائه ويَصِلُهم ، ثم قال فيه أحمدُ بيتين كانا أجود ما هَجَا به وهما :

أحْسَنُ من خمسين بيتا سُدًى ... جمْعُــك إياهُنّ فى بَيْتِ

ما أحــوجَ الملك إلى مطرةٍ ... تَغْسِلُ عنه وَضَرَ الزيتِ (١)

وكان ابن أبى دُواد يقول : ليس أحدٌ من العرب إلاوهو يَقْدِر على قولِ الشعرِ، طَبْعٌ رُكِّبَ فيهم قلّ قَوْلُه أو كَثُر .

لما أنشد أبو تمام محمدَ بن عبد الملك قصيدته :

* لهانَ عليها أن نقول وتَفْعَلَا *

فأثابه عليها ووَقّع إليْه :

رأيتك سَهْلَ البيع سَمْحًا وإنّما ... يُغالِى إذا ما ضَنّ بالشىء بائِعُه

(١) ما أحوج الناس . . . تغسل عنهم (أغانى) .

فأما الذى هانَتْ بضائعُ بيْعِــه ... فيوشكُ أن تَبـقَى عليه بَضائِعُه
هو الماء إن أجْمَمْتَه طاب وِرْدُه ... ويفسدُ منــه أن تُباح شرائِعه

فأجابه أبو تمام :

أباجعفرٍ إن كنتُ أصبحتُ شاعرا ... أسامحُ فى بَيْعى له منْ أُبايِعُه
فقد كنتَ قبلى شــاعرا تاجراً به ... تُساهِلُ من عادَتْ عليك منافِعُه
فصرتَ وزيراً والوزارة مَـكْرَعٌ ... يَغَصُّ بـــه بعد اللذاذةِ كارِعه
وكم من وزيرٍ قد رأينـا مُسَلَّطٍ ... فعاد وقد سُدَّتْ عليـه مَطالِعُه
ولله قـــوسٌ لا تطيشُ سِهامُها ... ولله سيفٌ لا تُفَــلُّ مقاطِعُه

اجتاز بديعٌ غلامُ عُمَرَ المأمونىِّ بمحمدِ بن عبد الملك الزيات ، وكان أحسنَ خَلْقِ الله وجْهًا ، وكان محمد يُجَنُّ به جنونا ، فقال فيه محمد بن عبد الملك :

راح علينــا راكبا طِرْفَه ... أغيدُ مثــلُ الرَّشَأِ الآنسِ
قد لبس القَرْطَقَ واستمسكت ... كفَّاه من ذى يَزَنٍ يابسِ
وقلد السيفَ على غُنْجِه ... كأنــه فى وَقْعَةِ الداحسِ
أقول لمــا أن بــدا مُقبِــلًا ... ياليتنى فارسُ ذا الفارسِ

استسقى الحسنُ بن وهب من محمد بن عبدِ الملك نبيذا ببلدِ الرومِ مع المعتصمِ فسقاه وكتب إليه :

لم تلق مثلى صاحباً ... أندى يــداً وأعمّ جودا
يَسْقِى النديمَ بقَفْرَةٍ ... لم يَسْقِ فيها المــاءَ عُودا
صفراءَ صافيةً كــأنَّ ... بكأسها دُرًّا نَضيدا
وأجودُ حــين أجودُ لا ... حَصِرًا بذاك ولا بَليدا
فإذا استقَلَّ بِشُرْبِهــا ... أوجبتُ بالشــكر المزيدا
خذها إليك كأنمــا ... كُسِيَت زجاجتُها عقودا

واجمل عليـك بأن تقو م بشكرها أبدا عهودا

دعا محمد بن عبد الملك الزيات قبل وزارته الحسنَ بن وهب فى آخِر أيام المأمون فجاءه ودخل خِمًّا له[1] وأقاما على لهوهما ثم طلب الحسن بن وهب لعمل احتيج إليه فمضى فبطل يومهم فكتب إليه الحسن :

سقياً لنضرِ الوَجْه بَسَّامَهْ مُهَذَّبِ الأخْلَاقِ قَمقَامَه[2]

تكسبه الشكر على أنها مطبقةُ السِّنِّ لوَّامَه

زُرناهُ فى يَوْم علا قَدْرُه عن سائر الأيام فى عامه

أسعده اللهُ وأحْظَى بـه وجاده الغيثُ بإرْهامه[3]

فكان مسرورا بنا باذِلا لرحْلِه الرَّحبِ وحمامِه

يخـدِّم وهو لنـا خادِم بفَضْله من دون خُدَّامِه

ثم سقـانا قهوة لم تدع أطيب منها لقرى شامه

صهبـاء دلتْنا على دِينه وحَدَّثَتْ عن ضعف إسلامه

فأجابه محمد بن عبد الملك :

يا زائرا لَذَّ لَنَا يَوْمُه لو ساعد الدهر بإتْمَامِهْ

ماذا لقينا من دَواوِينِه وخَطِّهِ فيها بأقْلَامِه

أسَرَّ ما كنا فمن مازجٍ أوشارب قد عَبَّ فى جَامِهْ

فارقنا والعينُ مطروفةٌ بواكفِ الدَّمْعِ وتَسْجَامِهْ

وجاد بالمدحِ لنا مُنْعِما بـه إلى سالفِ إنعامِه

يشكر ما نال على أنه لا يشكر الحرّ لحمامه

---

(١) الخم : البستان لا أشجار فيه ولا ثمار .

(٢) القمقام : السيد الجامع للسيادة العظيم الخير .

(٣) يقال أرهمت السماء : أمطرت مطرا خفيفا دائما .

ليت وأنَّ لى بهـا مُنيَةً ... لو كنت فيه بعضَ قُوامِه

أمسحه فيه وأدْنو له ... من خلفه طوراً وقدامه

جعلت نفسي جنة للصبا ... وبعت إسلامى بإسلامه

فصار ما يشرب حِلّا له ... وصرت مأخوذا بآثامه

قال محمدٌ الأحولُ : لما قُبِضَ على محمدِ بنِ عبد الملك الزياتِ تلَطَّفْتُ فى الوصول إليه فرأيته فى حديد مُثقل . فقلت أعزز علىّ بما أرى فقال :

سل ديارَ الحىِّ ما غيرها ... ومحاها ومحا مَنْظرهـا

وهى الدنيـــا إذا ما انقلبت ... صيرت معروفهـــا مُنْـكرَها

إنما الدنيا كظل زائل ... نحمد الله كذا قدّرها

كان الواثقُ قد أصلحَ بين محمدِ بنِ عبد الملك الزيات وبين أحمد بن أبى دؤاد ، وجعل ابنُ أبى دؤاد يخْلُو بالواثق ويُغْريه به حتى قبَضَ عليه ، وكان فيما بَلَغَه عنه أنه يريد الفتْكَ به والتدبير عليه فقبضَ عليه الواثقُ ثم أطلقَه بعد مدة ، ثم وَرَدَ المتوكل وكان محمدُ بنُ عبد الملك أشادَ بابن الواثق وأشاد ابن أبى دؤاد بالمتوكل ، وقام وقعد فى أمرِه حتى وَلِى وعمَّمَه بيدِه وألبسَه البُرْدَةَ وقبَّلَ بين عَيْنَيْه . وكان المتوكل قبل ذلك يدخل إلى محمد بن عبد الملك فى حياة الواثق فيشكو إليه جفاء الواثق فيتجهمه[1] محمد ويغلظ له الرَّدَّ ، إلى أن قال له يوما مواجهةً : الا تعجبون لهذا العاصِّ كذا وكذا يعادِى أميرَ المؤمنين ثم يسألنى أن أُصْلِح له قَلْبَه ، اذْهَبْ ويلك فاصْطَنِعْ نفْسَك له حتى يُصْلِحَ ذلك قَلْبَه ، وكان موضع ذلك يحسن عند الواثِق ، ودخل عليه يوما وقد كان محمدٌ قال للواثق : إن جعفرا يدخل إلىّ وله

(١) تجهمه مثل جهمه : استقبله بوجه كريه .

شَعْرٌ وطُرَّةٌ مثلُ النساءِ ، وقد فضَحَك فأمره بأن يَحْلِقَها و يَضْرِبَ بشَعْرِها وجْهَه ، فلما دخل المتوكل على محمد بن عبد الملك فعل به ذلك فلما وَلِيَ الخلافة خشى أن يكن عاجلا أن يستر أسبابه فاستوزره وخلع عليه ، ودخل ابن أبى دؤادٍ يغريه به و يَجِدُ عنده لذلك موضعا واستماعا ، حتى قبض عليه وقتله ولم يجد له من أملاكه كلها من عَيْنٍ[1] وورق وأثاث وضيعة إلا ما قيمتُه نحو مائةِ ألف دينار ، فندم لذلك ولم يجد منه عِوَضاً ، وكان أمرُه مما يعتَدُّ به على أحمدَ بنِ أبى دؤادٍ . ويقول : أطمعتنى فى باطل ، وحَمَلْتَنِي على أمرٍ لم آخُذْ منه عِوَضاً ، ولما قبض عليه المتوكلُ اسْتُعْمِل له تَنُّور حديد ، وجُعِلَ فيه مساميرُ لا يَقْدِر معها أن يتَحرَّك إلا دَخَلَتْ فى جسده ، ثم أحماه له وجعله فيه فكان يقول : ارحمونى ، فيقال له : أنت كنت تقولُ : مارحمتُ أحداً قط ، والرحمة خَوَرٌ فى الطبيعة ، وضَعفٌ فى المُنَّةِ ، فاصبر على حُكْمِك ، واطَّلَعَ عليه عُبادةُ المُخَنَّث ، فقال له : أردتَ أن تَشْوِيَنِى فشَوَوْك ، وكان المتوكل أمَرَ عُبادة أن يدخل إليه ويُكايِدَه ، فجاءه فوقف بإزائِه وقال : اسمعْ يا محمدُ ، كان فى جيراننا حَفَّارٌ يحفر القبورَ فمرضَتْ مُخنثةٌ من جيرانِه ، وكانت صاحبتى ، فبادر فحفر قبرا طمعا فى الدراهم فبَرَأَتْ هى ومرض هو ، فدخلَت عليه صاحِبَتِي وهو فى النَّزْع فقالت : هِيهِ يا فلانُ ، حفرتَ لى قَبْرا وأنا فى عافيةٍ ، أو ما علمتَ أن من حَفَر بئْرَ سُوءٍ وقع فيها ، فوحياتِك يا محمدُ لقد دَفَنَّاه فى ذلك القَبْرِ ، والعُقْبى لك إن شاء الله عَزّ وجَلّ ، ولم يَبْرَحْ يُؤْذِيه ويُكايدُه إلى أن مات .

وقال الحسنُ بنُ سهل يرثِى محمدبن عبدالملك ، وكان يَجْحَدُها فى حياته وينتفى منها ثم شاعت بعده ووجدت بخطه :

يكادُ القلبُ من جَزَعٍ يطير إذا ما قيل قد قُتِلَ الوزيرُ

---

(١) العين : ما ضرب نقدا من الدنانير — والورق : الفضة مضروبة كانت أو غير مضروبة.

أميرَ المؤمنين هَدَمْت رُكْناً ... عليـــه رحا كُم كانت تَدورُ
سيبكِى الملك من جَزَعٍ عليه ... ويَحْزَن ُحين تضطربُ الأمورُ
فمَهْلًا يا بنى العباسِ مَهْـلًا ... فقد كُـوِيتْ بفعلـكمُ الصدورُ
إلى كم تفـكِبُونَ الناسَ ظُلْما ... لـكم فى كل مَلْحَمَةٍ عقيرُ
جزيتمْ ناصرا لـكمُ المنايا ... وليس كذلـكمُ يُجْزَى النصيرُ
قتلتُمْ سائقَ الدنيـا إليـكم ... وذلك من فعالـكمُ شَهيرُ
وكان صلاحكم لو سستموه ... قريبا لا يحار له البصير
كأن الله صيركم ملوكا ... لئلا تعدلوا ولأن تجوروا[1]

(١) يوجد هامش على جانب الصفحة يقع فى سطرين مطموسين لم نتبين منهما ما يمكن معه الرجوع إلى أصلهما .

مُحَمَّدٌ العَطَوِىّ(١)

هو محمد بنُ عبدِ الرحمن بن أبى عَطِيّة ، مولى بنى لَيْث بن بكرِ بن عبدِ مناة ابن كِنانةَ ، كنيته أبو عبد الرحمن ، بَصْرِىّ المولدِ والمَنْشأ .

كان شاعرا من شعراء الدّوْلة العباسية ، واتصل بأحمد بن أبى دؤاد ، وتقَرَّبَ إليه بمذهَبِه وتقدّمه فيه بقُوّة جدَلِه عليه فلماتُوُفِّىَ أحمدُ نقَصَتْ حالُه ، وله فيه مدائحُ يسيرة ومراثٍ كثيرة منها ما روى عن كَوْثرة أخى العَطَوِىّ :

أحَنَّطْتَهُ يا نَصْرُ بالكافورِ ... وزَفَفْتَه للمنزلِ المهجورِ

هلّا ببعضِ خِصاله حَنَّطْتَه ... فيضوعُ أُفْقُ منازلٍ وقُبورِ

تالله لو بشريف أخلاقٍ له ... تُعْزَى إلى التقديس والتطهيرِ

حَنَّطْتَ من سكن الثرى وعلا الرُّبا ... لتزَوّدوه عِدَّةً لنُشورِ

فاذهبْ كما ذَهَبَ الوفاء فإنه ... ذَهَبَتْ به رِيحا صَباً ودبورِ

واذهب كما ذهب الشبابُ فإنه ... قد كان خيرَ مصاحبٍ وعَشيرِ

والله ما أبَّنته لأزيدَه ... شَرَفاً ولكن نَفْثَةُ المصدورِ

ومن مراثيه فيه :

وليس صريرُ النَّعْشِ ما تسمعونَه ... ولكنه أصلابُ قَوْمٍ تقصّفُ

وليس نسيمُ المسك رَيّا حنوطه ... ولكنه ذاك الثناء المُخلّفُ

ذكر محمدُ بن داود فى كتاب الشعراء فقال : كان له فَنٌّ من الشِّعْرِ لم يُسْبَقَ فيه ذهب فيه إلى مَذْهبِ أصحاب الكلامِ ففاق جميعَ نُظرائِه ، وخفَّ شِعْرُه على كل لسان ورُوِى واستَعْمَلَه الكتابُ واحتَذَوا معانِيَه وجعلوه إماما .

---

(١) أغانى أميرى ٢٠/٥٨ .

سمع المَطِوِى رجلا يُحَدِّثُ أن رجلا قال لعمرَ بن الخطاب رضى الله عنه : أن فلانا قد جمعَ مالًا ، فقال عمر : فهل جَمع لهُ أياما ، فأخذ المطوى المعنى فقال :

إنَّ الذى قَسَّم الأرزاقَ يرْزُقُهُ ... أرْفِهْ بعَيْنِ الفتَى يَغدُو على ثِقَةٍ
والوجه منه حديدٌ ليس يُخْلِقُه ... فالعِرْضُ منه مَصونٌ لا يُدَنِّسُه
يا جامِعَ المال أياما تُفَرِّقه ... جمعتَ مالا ففكِّرْ هل جمعت له
ما المالُ مالكُ إلا حينَ تُنْفِقُه ... المالُ عندكَ مخزونٌ لوارِثِه

ومن شعره :

وكم قالوا تَمَنَّ فقلت كأساً ... يطوفُ بها قضيبٌ فى كثيبِ
وندماناً تُساقِطُنى حَديثا ... كلَحْظِ الحبِّ أو غَضِّ الرقيبِ

قال إسحاقُ بنُ الضحّاك بنِ الخصيب : جاءنى يوما أبو عبدِ الرحمن العَطِوِىُّ بعد وفاةِ عمى أحمدَ بنِ الخصيبِ بسنتين ، وكان صديقَه وصنيعتَه ، فجلس عندى يحادِثُنى حديثَه ويبكى ساعةً طويلةً ثم تغَيَّمَتِ السماء وهَطَلَتْ فسألتُه أن يُقيم عندى ، فحلف ألا يفعلَ إلا بعد أن أُحْضِره ما راج[1] من الطعام ، ولا أتكلفُ له شيئا ففعلتُ ، وجئته بما حضر ، فقال لى : ما فعلَتْ عقد فقلتُ : باقيةٌ ، وهى فى يومنا هذا عندى ، والساعةَ تسمعُ غِناءها فقال لى : عَجِّل فإنَّ النهار قصيرٌ ثم أنشأ يقول :

أدِرِ الكأسَ قد تعالَى النهارُ ... ما يميتُ الهمومَ إلا العُقارُ
صاحِ هذا الشتاء فاغْدُ علينا ... إنّ أيامَه لذاذٌ قِصارُ
أىُّ شىء ألذّ من يوم دَجْنٍ ... فيه كأسٌ على الندامَى تُدارُ
وقيانٌ كأنَّهُنَّ ظباءٌ ... وإذا قُلْنَ قالتِ الأوتارُ

ومن شعره :

الراح والندْمانُ أحسنُ مَنْظَرا ... من كل مُلتفِّ الحدائِق رائقِ
فإذا جَمَعْتَ صفاءه وصفاءها ... فارْجُم بكلّ مُلِمَّةٍ من خالقِ

(١) ما راج من الطعام : ما تيسر وتهيأ .

مانى الموسوس (١)

هو محمدُ بنُ القاسمِ ، وكُنيتُه أبو الحسين ، ومانى لقب غَلَب عليه ، قدم مدينة السلامِ ، شاعرٌ لَيِّنُ الشعرِ رقيقُه ليس له إلا الغزَل وكان يُنشِدُ الشيءَ ثم يخالطُ فيقْطَعه .

عزم محمد بنُ عبدِ الله بن طاهر على الصَّبوحِ وعنده الحسَنُ بنُ محمدِ بن طالوتَ فقال له محمد : كنا نحتاجُ إلى أن يكون معنا ثالثٌ نأْنَسُ به ونَلَذُّ بمجاذبته فمن ترى أن يكون ؟ فقال ابن طالوتَ : قد خَطَرَ ببالى رجلٌ ليس علينا فى مجالَستِه ثقَلٌ ، قد خلا من إبرام المُجالِسين وبرِئَ من ثِقَلِ المؤانسين ، خفيفُ الوطأةِ إذا أدْنَيْتَه ، سريعُ الوَثْبَةِ إذا أَمَرْتَه ، فقال : من هو ؟ قال : مانى الموسْوَسُ فقال له محمد : ما أسأتَ الاختيارَ ثم تقدّمَ إلى صاحب الشُّرْطَةِ بطلبه وإحضارِه ، فما كان بأسرع من أن قبَض عليه صاحبُ رَبْع الكَرْخ فوافى به بابَ محمدِ بنِ عبدِ الله فأُدْخِلَ ونُظِّف وأخذَ من شَعْره وأُلْبِسَ ثيابا نِظافا وأُطْعِمَ شيئا ، وأدخل على محمد ابن عبد الله ، فلما مثلَ بين يديه سَلَّمَ فردّ عليه وقال له ، أما آنَ لك أن تزورَنا مع شَوْقِنا إليك ؟ فقال له مانى : أعزّ اللهُ الأميرَ ، الشوقُ شديدٌ والودُّ عتيدٌ ، والحجابُ صَعْبٌ والبوابُ فَظٌّ ، ولو سَهُلَ لنا الإذْنُ لسَهُلَتْ الزيارةُ علَيْنا . فقال محمد : لقد لَطُفْتَ فى الاستئذانِ وأمَرَه بالجلوس فجلسَ وأتى محمدٌ بجاريةٍ لإحدى بناتِ المَهْدِىّ يقال لها منوسة كان يحبُّ السماعَ منها ، وكانت تُكْثِرُ عندَه فكان أوّلَ ما غنته :

ولست بناسٍ إذ غدَوْا فتحمّلوا دموعى على الخدّين من شدةِ الوَجْدِ

---

(١) أغانى ٢٠ : ٨٤ ـ معجم الشعراء ٢/٣٨٧ ـ تاريخ بغداد .

وقولى وقد زَالَتْ بعيْنِى حُمولُهم   بوا كِرَ تُحْدَى لا يكُنْ آخرَ العهدِ

فقال مانى : أيأذنُ الأمير قال : فيماذا ؟ قال : فى استحسان ما أسمعُ قال : نعم قال : أحسنتِ والله ، فإن رأيت أن تزيدى مع الشعرِ هذين البَيْتين :

وقتُ أناجى القلبَ والدمعُ حائرٌ   بمقلةِ مَوقوفٍ على الضُّرِّ والَجهْدِ

ولم يُعْدِنى هـذا الأميرُ بعَدْلِه   على ظالمٍ قد لَجَّ فى الهجرِ والصَّدِّ

فقال له محمدٌ : من أىّ شيء استعديتَ يا مانى ؟ فاستحيا ، وقال : لا من ظالمٍ أيها الأمير ولكنّ الطربَ حركَ شَوْقا كان كامنا فظَهَرَ ثم غنت :

حَجبوهـا عن الرياحِ لأَنِّى   قلتُ ياريحُ بَلِّغِيها السلاما

لورَضُوا بالحجابِ هَانَ ولكنْ   مَنَعُوها يومَ الوداعِ الكلاما

فطَرِبَ محمد ودعا بِرطْلٍ فقال مانى : ما كان على قائلِ هذين البيتين لو أضاف إليهما هذين البيتين :

فتنفَّسْتُ ثم قلتُ لطيفى   وَيْكَ إن زُرْتَ طيفها إلماما

حَيِّها بالسلام سِرًّا وإلا   مَنعوهـا لشِقْوَتِى أن تناما

فقال محمد أحسنتَ يا مانى ثم غنت :

يا خليلىّ ساعةً لا تَرِيما   وعلى ذى صَبابة فأَقِيما

ما مَرَرْنا بقَصْرِ زينب إلا   فَضَحَ الدمعُ سِرّنا المكتوما

فقال مانى : لولا هيبةُ الأميرِ لأضَفْتُ إلى هذين البيتين بيتين لا يَرِدانَ على سَمْعِ ذى لُبّ فيَصْدُران إلا عَنِ استحسان . فقال محمد : الرغبةُ فى حسن ما تأْتِى به حائلةٌ عن كلِّ رَهْبة فهات ما عندك فقال :

ظبيةٌ كالهلالِ لو تَلْحَظُ الصخـ   ـرَ بطرفٍ لغادَرَتْه هَشِيما

وإذا ما تبَسَّمَتْ خِلْتَ ما يبـ   ـدُو من الثغرِ لؤلؤا منظوما

فقال له محمد : إن أحسنَ الشعرِ ، ما دام الإنسانِ يَشْرب ، ما كان مَكْسُوًّا لحناً حسناً تُغَنِّى فيه مَنُوسةُ وأشباهُها فإن كَسَتْ منوسةُ شِعْرَكَ من الألحان مِثْلما غَنَّتْ قَبْلَه طابَ ، قال : ذلك إليها ، فقال له ابن طالوت : يا أبا الحسين كيف هى عندكَ فى حُسْنِها وجمالِها وغنائها وأدبها ، فقال : هى غايةٌ ينتهى إليها الوَصْفُ ثم يقفُ قال : قل فى ذلك شعرا قال :

وكيف صَبْرُ النفسِ عن غادةٍ ... تَظْلِمُها إن قلتَ طاووسَهْ

وجُرْتَ إن شَبَّهْتَها بانـــةً ... فى جنَّةِ الفردوسِ مَغْروسه

وغيرُ عـــدلٍ إن عَدَلْنا بها ... لؤلؤةً فى البحر مَنْفُوسَه

جَلَّتْ عن الوصْفِ فما فِكْرَةٌ ... تلحقُها بالوصْـفِ مَحْسوسَه

فقال له ابنُ طالوت : قد وجب شُـكْرُكَ يا مانى فساعدَكَ دَهْرُكَ . وعَطَفَ عليك إلْفك ونِلْتَ سرُورَكَ وفارقتَ مَحْذورَكَ ، والله يديمُ لنا ولك بقاءً من بقائِه ، اجتمعَ شملُنا وطابَ يومُنا فقال مانى وقد نَهَضَ للانصراف :

مُدْمِنُ التخفيفِ موصولُ ... ومطيلُ اللُّبْثِ مَمْلول

وأنا أستودِعُــكم اللهَ ، ثم قام وانصرف ، فأمر له محمدُ بن عبد الله بصِلَةٍ ثم كان كثيرا ما يبعثُ يطْلُبُـه إذا شَرِبَ فيَبَرّه ويَصِلُه ويقيمُ عنده .

قال بعضُ الـكتاب : كان مانى يَلْزَمُنى ويكثر عندى . قال : فلقِيَنى مانِى يَوْما بعد انقطاعِه عَنِّى ، فقال : ما قَطَعَنِى عنك إلا أنِّى هائمٌ ، قلت : بمن ؟ قال : بمن إن شئتَ أن تراه الساعةَ رأيْتَه وعَذَرْتَنى ، قلت : فأنا معك ، فمضى معى حتى وافَى باب الطاقِ فأرانى غُلاماً جميلَ الوجهِ بين يدى بَزّارٍ فى حانوتِه فلما رآه الغلام عدا فدَخَلَ الحانوتَ ووقف مانى طويلا ينتظره فلم يخرج فأنشأ يقول :

ذنبِى إليه خُضوعى حينَ أُبْصِره ... وطولُ شَوْقى إليه حين أَذْكُرُه

وما جَرَحْتُ بلحظِ العينِ وَجْنَتَه إلا ومِنْ كَبِدِى يقتص محجَرُه
نَفْسِى على بُخْلِه تَفْدِيه من قمرٍ وإن رمانى بذَنْب ليس يَغْفِرُه
وعاذلٍ باصطبارِ القلْبِ يأمرنى فقلتُ من أين لى صبر فأَهْجُره

ومضى يعدو ويصيح: الموتُ مخبوٌّ فى البيت .

محمد أبو العبر (٢)

هـو أبو العباس محمدُ بن أحمدَ ، ويُلقَّبُ حَمْدون الحامضُ بن عبدِ الله بن عبدِ الصمد بن على بن عبدِ الله بن العباس بن عبد المطلب ، صالحُ الشِّعْرِ مطبوعٌ يقول الشعرَ الجيدَ فى أول عُمْرِه ، منذُ أيام الأمينِ وهو غلام إلى أن وَلِيَ المتوكلُ الخلافةَ ، وترك الجيِّدَ المُستَوى ، وعدل إلى الُحمْقِ ، وقد نيف على الخمسين ، ورأى أن شِعْره مع تَوَسُّطِه لا يتفقُ مع مُشاهَدَتِه أبا تمامٍ والبحتريَّ وابنَ أبى حَفْصة ونظراءَهم . وغيّر كُنْيَتَه بعد أبى العباس فجعلَها أبا العِبَر ، ثم كان يزيد فيها فى كل سنةٍ حَرْفاً فمات وهى أبا العبر طرد طبيل طلبرى يك يك يك ، قال حمدونُ الحامضُ إن ابنَه أبا العبر ولِدَ بعد خمس سنين خَلَتْ من خلافةِ الرشيدِ ، وعُمِّرَ إلى خلافةِ المتوكل ، فـكسبَ بالُحمْقِ أضعافَ ما كَسَبه كلُّ شاعرٍ كان فى عصره بالجيِّد الجد ونَفَق نفاقا عظيما ، وله فى المتوكل مدائحُ مدَحَه بها ووصَفَ قَصْرَه وبُرْجَ حمامٍ وهى كثيرةُ المُحالِ مُفْرِطةُ السقوطِ لا معـنَى لها(٢) بين مشهوره . قال الزبيرُ بن بـكّار : قال لى عمى : ألا يأنفُ الخليفةُ لابنِ عَمِّه هذا الجاهلِ مما قد شهَرَ به نَفْسَه وفَضَح عشيرتَه ، والله إنه ليمرُّ بنى آدم جميعا فضلا عن أهْلِه الأدْنَيْن ، فقلت له : إنه ليس بجاهل كما تقدر وإنما يتجاهل، وإن له لأدَباً صالحا وشِعْرا طَيِّباً ثم أنشدته قولـه :

لا أقول اللهُ يَظْلِمُـــنى ... كيف أشْكُو غيرَ مُتَّهَمِ
وإذا ما الدهرُ ضَعْضَعَـنِى ... لم تجِـــدْنِى كافرَ النِّعَمِ

---

(١) الأغانى أميرى ٢٠ : ٨٩

(٢) لا معنى لذكرها سيا وقد شهرت بين الناس (أغانى) ٢٠/٩٠ .

قنِعَتْ رُوحى بما رُزِقَتْ　　وتناهَتْ فى العُلا هِمَمِى
ليس لى مالٌ سوى كَرَمِى　　وبه أَمْنِى من العَــدَمِ

فقال لى : ويحك : ولم لا يلزمُ هذا وشِبْهَه ؟ فقلت : لو رأيت ما يصل إليه من هذه الحماقات لعَذَرْتَه ، وإن ما استملحتَه له لم ينفُق به . فقال ، وقد غضِبَ : أنا لا أعذِرُه فى هذا ، ولو حازَ به الدنيا بأسرها ، لا عذَرَنى الله إن عذَرْتُه .

قال أبو العنبس الصَّيْمَرِىّ : قلت لأبى العبر ، ونحن فى دارِ المتوكل : ويحك ما حَمَلكَ على هذا السُّخْفِ الذى قد ملأتَ به الأرضَ شِعْراً وقِصَصاً وخُطَباً ، وأنت أديبٌ ظريفٌ مليحُ الشِّعْرِ فقال لى : يا كُشْخانُ أتريد أن أَكْسَدَ أنا وتَنْفُقَ أنت ، أنت أيضا شاعرٌ فَهِمٌ متكلمٌ قد تركت العِلْمَ وصنعتَ فى الرَّقاعةِ نيفا وثلاثين كتابا ، أحبُّ أن تخبرنى لو نَفَقَ العقلُ أكنتَ تُقَدَّمُ على البحترىِّ ، وقد قال فى الخليفة بالأمس :

عــــن أىِّ ثغرٍ تبتَسِم　　وبأى طَرْفٍ تحتَــكِمْ

فلما خرجت أنت عليه وقلت :

فى أىِّ سَلْحٍ ترْتَطِمْ　　وبأى كَفٍّ تَلْتَطِمْ
أدخلتَ رأسَكَ فى الرحِمْ　　وعلمتَ أنك تنهزِمْ

فأُعْطِيتَ الجائزةَ وحُرِمَ هو وقُرِّبْتَ وأُبْعِدَ ، فى حِرِ أمِّك وحِرِ أمِّ كلِّ عاقلٍ معك فتركتُه وانصرفت .

قال مُدْرِك : قال لى أبو العنبس : قد بلغنى أنك تقول الشعرَ فإن قدَرْتَ أن تقولَ جيدا جيدا ، وإلا فليَكُنْ بارداً بارداً مثلَ شِعْرِ أبى العبر ، وإياكَ الفاتِرَ فإنه صَفْعٌ كلُّه . قال أبو العيناء : أنشدت أبا العبر قولَ المأمون :

ما الحبُّ إلا قُبلَةٌ　　وغَمْزُ كَفٍّ وعَضُــدْ
أو كتبٌ فيهــا رُقًى　　أنفَذُ من نَفْثِ العُقَــدْ

من لم يــكن ذا حُبُّه فإنمـا يبغى الوَلَدْ
ما الحبُّ إلا هكذا إن نُـكِـحَ الحبُّ فَسَد

فقال: كذب المأمونُ وأكل من خَراىَ رَطْلَيْنِ ورُبْما بالميزان، وقد أخْطَأَوأساء. ألا قال كما قلت :

باضَ الحبُّ فى قَلْبِى فوا وَيْلِى إذا فَرَّخْ
وما يَنفَعُـنِى حُبِّى إذا لم أكْنُسِ البَرْبَخْ
وإن لم يَطْرَحِ الأصْلـ ـعُ خُرْجيه على المَطْبخ

ثم قال : كيفَ رأيتَ ؟ قلت : عجبا من العَجَبِ : فقال : ظننتُ أنك تقولُ لا . فأبلّ يَدِى وأرفعها، ثم سكَتَ فبادرتُ وانصرفتُ خوفا من شَرِّه .

وكان يجلس بسُرَّ من رأى فى مَجْلِسٍ له يجتمعُ إليه المُجّانُ يكتبون عنه وكان يَقْعُدُ على سُلَّمٍ ، وبين يديه بَلَّاعةٌ فيها ماء وحَمْأَةٌ وقد سَدّ مَجْراها وبيده قصبةٌ طويلةٌ وعلى رأسه خُفٌّ وفى رِجليه قَلَنسيتانِ ومُسْتَمْليهِ فى جَوْفِ بِئْرٍ ، وحوله ثلاثةُ نَفَرٍ يَدُقُّون بالهواوينِ حتى تَـكْثُرَ الجلبةُ ويقلَّ السماعُ ، وإن ضحكَ أحدٌ ممن حضر صَبُّوا على رأسه من ماءِ البَلّاعةِ إن كان وَضِيعاً وإن كان ذا مرُوءة رُشَّ عليه بالقصبةِ من مائِها .

وكان أبوه شيخا صالحاً ، وكان لا يُـكَلِّمه فقال له بعض إخْوانِهِ لِمَ هَجَرْتَ ابنَك؟ قال : قد فَضَحَـنِى كما تعلمون من أَمْرِهِ بما يَعْمَله بنفسه ، ثم لا يَرْضَى بذلك حتى يُهَجِّنَـنِى ويُؤْذِينى ويُضْحِكَ الناسَ مِنِّى، فقالوا له : بماذا هَجَّنَك؟ قال : اجتازَ علىَّ منذُ أيام ومعه سُلَّم . فقلت له : ما هذا مَعَك؟ فقال : لا أقول لك، فأخجلنى وأضحكَ بِى من كان عِندى ، فلما كان بعد أيام اجتاز ومعه سَمَـكَة ، فقلت له ما تصنع بهذه فقال أنيـكُها، فحلفتُ لا أكلِّمُه أبدًا .

سأل رجلٌ أبا العبر عن المُحالاتِ التي يتكلَّمُ بها ، أيُّ شيء أصْلُها ؟ قال : أبكِّر فأجلسُ على الجسْرِ ومعي دَواةٌ ودَرْجٌ فأكتب كل شيء أسْمَعُه من كلام اللّاحين والمُكارِين والذاهبِ والجائي حتى أملأ الدَّرْجَ من الوَجهين ثم أقطعه عَرْضا وألصِقه مُخالِفاً فيجيء منه كلام ليس في الدنيا أحمقُ منه .

قال أبو الفرج : قال عمِّي رأيتُ أبا العبر واقفا على بَعْضِ الآجامِ بسُرَّ من رأى وبيده اليُسْرى قوسٌ جلاهقُ[1] وعلى يده اليمنى باشقٌ وعلى رأسه قِطْعَةٌ رئَة في حبلٍ مشدود بأنشوطَةٍ وهو عريانُ وفي أيره شَعْرٌ مفتولٌ مشدودٌ فيه شِصٌّ قد ألقاه في الماء للسَمَكِ وعلى شَفَتَيْه دوشاب مُلَطَّخ فقلت له : خَرَّبَ الله بيتك ، ما هذا ؟ قال : أصطادُ يا كشخانُ يا أحمقُ ، بجميعِ جوارحِي ، إذا مرَّ بي طائرٌ رَمَيْته عن القوْس ، وإن سَقَط قريبا مني ألقيْتُ عليه الباشقَ ، والرئة التي على رأْسِي تجيءُ الحدأ لتأخُذَها فتقعُ في الوَهَقِ[2] والدوشابُ أصطاد به الذبابَ وأجعله في الشصِّ فيطلبهُ السمك فيقعُ فيه ، والشصُّ في أيْرِي فإذا مَدَّته السمكةُ أحْسَسْتُ بها فآخذها .

وكان المتوكل يرمى به في المنجنيقِ إلى الماء ، وعليه قميصُ حرِيرٍ فإذا علا في الهواء قال : الطريقَ الطريقَ ثم يقعُ في الماء فيخرِجُه السَّبَّاح ، وكان يجلِسُه على زَلَّاقَةٍ فينحدرُ به حتى يقعَ في البِرْكَة ثم يَطْرَحُ الشبكة فيُخْرِجُه كما يُخْرِجُ السمك .

قدم أبو العبر بغدادَ في أيام المستعينِ ، وجلس للناس فبعث إسحاقُ بن إبراهيم فأخذه وحَبَسَه فصاح في السجن : نصيحةٌ فأخْرِج ودَعا به إسحاق فقال : هات

---

(١) الجلاهق : جسم صغير كروى من طين أو رصاص يرمى به. وقيل هى القوس التى يرمى بها البندق .

(٢) الوهق : حبل فى وسطه أنشوطة يطرح فى عنق الدابة حتى تؤخذ .

نصيحتَك. فقال: على أن تُؤَمِّنني ؟ قال : قد أمنتك. قال : الـكِشْـكِيَّةُ أصلحكَ الله لا تطيب إلا بالـكِشْكِ ، فضحكَ إسحاقُ وقال : هو فيما أرى مجنونٌ . فقـال : لا هوا متخط حوت فقال له : ما هوا متخط حوت ؟ قال : زعمت أنى مججت نُونا وما قَطَّبَ فعَلِم ما قال . وتبَسَّم ثم قال : أظن أنى فيك مأثوم فقال : لا ولـكنك فى ماء بصل : فقال أخرجوه عنى إلى لمنة الله ، ولا يقيمُ فى بغداد فأَرُدَّه إلى الحبس فعاد إلى سرّ من رأى .

وكان أبو العبر شديدَ البُغض لعلىٍّ بن أبى طالب عليه السلام ، وله فى العلويين هجاءٌ قبيحٌ .

وكان سبب مَوْتِه أنه خَرَج إلى الـكوفة ليَرْمِىَ بالبُنْدُقِ مع رماة من أهْلِها فى آجامِهم فسمعه بعض الـكوفيين يقول فى على بن أبى طالب ، رضى الله عنه ، قولًا قبيحا ، استحلّ به دَمَه ، فقتلَه فى بعضِ الآجامِ وغرَّقه .

كان أبو العبر يقول : إذا حدَّثك إنسان بحديث لا تشْتَهِى أنْ تسمعه فاشتَغِلْ عنه بنَتْفِ إبطِك حتى يكونَ هو فى عملٍ وأنتَ فى عَمَـل .

ومن شعره .

أبكى إذا غَضِبَتْ حتى إذا رَضِيتْ	بكيتُ عند الرضا خوفاً من الغَضَبِ
فالويلُ إنْ غَضِبَتْ والعَوْلُ إنْ رَضِيَتْ	إنْ لم يَتِمّ الرضَا فالقَلْبُ فى تَعَبِ

نُصَيْب[1]

هو نُصَيْبُ بن رَبَاح مَوْلى عبدِ العزيز بنِ مَرْوان ، وكان لبعض العَرَبِ من بني كِنانَةَ الساكنين بوَدَّان ، فاشتراه عبدُ العزيز بنُ مروان منهم . وقيل : بل كانوا أَعْتقوه ، فاشترى عبد العزيز ولاءه منهم ، وقيل : بل كاتَبَ مَوالِيَه فأدَّى عنه مُكاتَبَتَه ، وقيل : كان من قضاعة ثُمَّ من بَلِيّ وكانت أُمُّه أَمَةً سوداءَ ، فوقع عليها سيدُها فجاءت بنُصَيْب ، فوثب عليه عمُّه عمرٌو بعد وَفَاةِ أبيه ، فباعه من عبدِ العزيز بن مَرْوان . وقيل : كان أبوه من كِنانَةَ من بني ضَمْرَة ، وكان نصيبٌ شاعرا فَحْلا فصيحاً مُقَدَّما فى النَّسِيبِ والمديح ، ولم يكن له حَظٌّ فى الهجاء ، وكان عفيفا ، يقال: إنه لم يَنْسُبْ قَطُّ إلا بامرأته .

وذكر عبدُ العزيزِ بنُ مِحْجَن بنِ نُصَيْب عن عمَّتِهِ عَوْضَةَ[2] بنتِ نُصَيْبٍ أن نُصَيْباً كان ابنَ نُوبِيَّيْنِ سَبِيَّيْنِ كانا لخزاعة ثم إن سَلَامَةَ أمَّ نُصَيْب اشْتَرَتْها امرأةٌ من خُزَاعَةَ ضَمْرِيَّةٌ حامِلاً بنُصَيْب فأعتقتْ مافى بَطْنِها . وقيل : كان نُصَيْب من أهل وَدَّان عبداً لرجل من كِنانَةَ هو وأهلُ بَيْتِه . وكان أهلُ الباديةِ يَدْعُونَه النُّصَيْبَ تَفْخيماً له ، ويَرْوُون شِعْرَه .

قال نُصَيْب : قلت الشِّعْرَ وأنا شابٌّ ، فأعجبني قَوْلى فجَعَلْتُ آتى مَشْيَخَةً من بني ضَمْرَةَ فأُنْشِدُهم القصيدةَ من شِعْرى ثم أَنْسُبُها إلى بعض شُعَرائهم الماضِينَ ، فيقولون : أحْسَنَ والله ، هكذا الكَلَامُ ، هكذا الشِّعْرُ ، فلما سمعتُ ذلك منهم

(١) أغانى دار الكتب ١ : ٣٢٤ ــ مهذب ٧/٩٢ تجريد ١٠٨

(٢) غرضة (أغانى : ٣٢٤) .

عَلِمْتُ أَنِّى مُحْسِنٌ ، فأجمعوا وأجمعت[1] الْخروجَ إلى عبدِ العزيز بن مروان ، وهو يَوْمئذٍ بمصر . فقلت لأُختى أُمَامَةَ ، وكانت عاقلةً جَلْدَةً : أى أُخَيَّة إنى قلتُ الشعرَ ، وأنا أريدُ بِهِ عبدَ العزيزِ بنَ مَرْوان ، وأرجو أن يُعْتِقَكِ اللهُ عزّ وجلّ به وأُمَّكِ ومَنْ كان مَرْقُوقاً من أهلِ قرابتى قالت : إنا لله وإنا إليه راجعون ، يابن أُمّ أتجْمَع عليك الخصْلتين السَّوادُ وأن تكون ضُحْكَةً[2] للناس !! قلت : فاسمعِى ، فأنشدْتُها فسَمِعَتْ ، فقالت : بأَبى أنت : أحسنْتَ واللهِ ، فى هذا ، واللهِ ، رَجاءٌ عظيمٌ ، فاخْرُجْ على بَرَكَةِ الله ، فخرجتُ على قَعُودٍ لى ، حتى قدِمْتُ المدينةَ فوجدتُ بِها الفرَزْدقَ فى مَسجدِ رسولِ الله ، صلَّى الله عليه وسلَّم ، فعرجْتُ إليه ، فقلت : أُنْشِدُهُ وأسْتَنْشِدُهُ وأعرِضُ عليه شِعْرِى ، فأنشدته . فقال لى : وَيْلَكَ أهذا شِعْرُكَ الذى تَطْلُبُ به الملوكَ !! قلتُ : نعَمْ قال : فلستَ فى شَىْءٍ ، إن استطعتَ أن تَكْتُمَ على نَفْسِك فافعَلْ . قال : فانفَضَجْت عرَقاً[3] فحصَبنى[4] رَجُلٌ من قُرَيْش كان قريباً من الفرَزْدقِ وقد سَمِع إنْشادِى وسَمِعَ ما قال لى الفرَزْدَقُ ، فأوْمأ إلىّ فقُمْتُ إليه . فقال لى : وَيْحَكَ أهـذا شِعْرُكَ الذى أنْشَدْته للفرزدق ؟ قلت : نعم . قال : قد والله أحْسَنْتَ ، لئن كان الفرزدقُ شاعراً إنَّا لنعرِفُ محاسِنَ الشِّعْرِ وقدْ ، والله ، حَسَدَكَ فامْضِ لوَجْهِك ولا يَكْسِرَنَّك قال : فسرَّنِى قولُه وعَلِمْتُ أنـه صدَقنى فيما قال ، فاعتزَمْت على المُضِىِّ ، قال : فمضيتُ فقدِمْتُ مِصْرَ عَلَى عبدِ العزيزِ بنِ مَرْوانَ ، فحضرت بابَه مع الناس ، فنُحِّيتُ عن مجلس الوجوهِ فكنتُ وَرَاءَهم ، ورأيتُ رجلا على بغلةٍ حسن المدخل[5] يُؤْذَنُ له إذا جاء

(١) أغانى : فأزمعوا وأزمعت ١/٣٢٥

(٢) الضحكة ، بضم فسكون : من يضحك منه .

(٣) انفضج الرجل عرقا وتفضج : عرقت أصول شعره ولم يبتل .

(٤) حصبنى : رمانى بالحصباء .

(٥) حسن الشارة : سهل المدخل (أغانى ١ : ٣٢٦) .

فانصرفَ إلى مَنْزِله وانْصَرَفْتُ معه أماشى بَغْلَتَه ، فلما رآنى قال : أَلَكَ حاجةٌ ؟ قلتُ : نعم ، أنا رجلٌ من أهلِ الحجازِ شاعِرٌ ، وقد مدحتُ الأميرَ وخرجتُ راجياً لَمعْرُوفِه ، وقد ازْدُرِيتُ من الباب ونُحِّيتُ ، قال : فأنْشِدْنى . فأنْشَدْتُه وأَعْجَبه شِعْرِى فقال : وَيْحَك ! ! أهذا شِعْرُك ! إياك وأن تَنْتَحِل ، فإنَّ الأَميرَ راوِيَةٌ عالمٌ بالشِّعر ، وعنده رُواةٌ فلا تَفْضَحْنِى ونَفْسَك ، فقلتُ : والله ماهو إلا شِعْرِى . قال : ويحك ! ! فقُلْ أبياتاً تذكر فيها حَوْفَ مِصْرَ وفَضْلَها على غَيْرِها والْقَنِى بها غداً ، فغدوت عليه من غدٍ فأنْشَدْته قولى :

سَرَى الهَمُّ حتى يثنينى طَلائِعُه(١) … بمِصْرَ وبالحَوْفِ اعْتَرَتْنِى رَوائِعُه
وباتَ وِسادِى ساعِدٌ قَلَّ لَحْمُه … عَنِ العَظْمِ حتى كادَ تَبْدُو أشاجِعُه

وذكر فيها الغيث فقال :

وكَمْ دُونَ ذاكَ العارضِ البارقِ الذى … لهاشْتَقْتُ من وَجْهٍ أَسِيلَ مَدامِعُه
تَمَشَّى به أكناف بَكْرٍ وَمَذْحِجٍ … وأَفْناء عَمْروٍ وهو خِصْبٌ مَرابِعُه
فكلُّ مسيلٍ من تِهامَةَ طَيِّبٌ … دَمِيثُ الرُّبا تَسْقِى النِّجادَ دَوافِعُه
أعِنِّى على بَرْقٍ أُرِيكَ وَمِيضَه … تُضِىءُ دُجُنَّاتِ الظَّلامِ لوامِعُه
إذا اكْتَحَلَتْ عَيْنا مُحِبٍّ بِضَوْئِه … تجافَتْ به حتى الصَّباحِ مَضاجِعُه
هنيئاً لِأُمِّ البَخْتَرِىِّ الروى بِه … وإن أنْهَجَ الحَبْلَ الذى أنا قاطِعُه
ومازِلْتُ حتى قلتُ إنِّى لخالِعٌ … ولائِىَ من مَوْلًى نَمَتْنِى قوارِعُه
ومانِحُ قَومٍ أنتَ منهم مَوَدَّتِى … ومتخذٌ مَوْلاكَ مولًى فتابِعُه

فقال : أنت والله شاعر ! أحضُرْ بالباب فإنِّى ذاكِرُك . قال : فجلستُ على

---

(١) سرى الهم تثنينى إليك طلائعه (أغانى ١ /٣٢٧) .

الباب ودَخَل فما ظننتُ أنَّه أمكنَهُ أن يَذْكُرَنى حتى دُعِىَ بى فدخلتُ فسلمتُ على عبدِ العزيزِ بنِ مَرْوَانَ فَصَعَّدَ فِىَّ بَصَرَه وصوَّبه ثم قال : أشاعِرٌ ! ويلك ! ! قلت : نعم ، أيها الأمير . قال : فأنْشِدْنِى فأنشدتُه فأَعْجَبَه ، وجاء الحاجب فقال : أيها الأمير هذا أَيْمَنُ بنُ خُرَيْمٍ الأسَدِىّ بالباب ، قال : فائْذَنْ له ، فدخل واطْمَأَنَّ ، فقال له : يا أَيْمَن كم تَرَى ثَمَنَ هذا العَبْدِ ، فنظرَ إلىَّ وقال : والله لَنِعْمَ الغَادِى فى أَثَرِ المخاضِ ، هذا أرى ثَمَنَه مائةَ دِينارٍ ، قال : فإنَّ له شِعْرًا وفصاحةً فقال أيمن : أتقولُ الشِّعْر ؟ قلت : نعم ، قال : قيمته ثلاثون دينارا ، قال : يا أَيْمَنُ أَرْفَعُه وتَخْفِضُه أنت ! ! فقال : نعم ، لكونه أحمق أيها الأَميرُ ، ما لهذا ولِلشِّعْرِ ! ! أَمِثلُ هذا يقولُ الشِّعْرَ ويُحسِنُه ! ! ؟ فقال : أَنْشِدْه يا نُصَيْبُ فأَنْشَدْتُه . فقال له عبدُ العزيز : كيف تَسْمَعُ يا أَيْمَن ؟ قال : شِعْرُ أَسْوَدَ هو أَشْعَرُ أَهْلِ جِلْدَتِه . فقال : هو والله أشْعَرُ منك قال : أَمِنِّى أيها الأمير ! ! قال : إى واللهِ مِنْك . قال : والله أيها الأَميرُ إنك لَمَلولٌ طرف . قال : كَذَبْتَ والله ما أَنَا كذلك ! ولو كنتُ كذلك ما صَبَرْتُ عليك ، تُنَازِعُنِى التَّحِيَّةَ وتُوَاكِلُنى الطعامَ وتَتَّكِئُ على وسائِدى وفُرُشِى ، وبِكَ الذى بِكَ ! ! يعنى وَضَحا كان بأَيْمَن . قال : ائْذَنْ لى أَخْرُجْ إلى بِشْرٍ بالعراقِ واحْمِلنى على البَرِيد . قال : أَذِنْتُ لك ، وأَمَرَ به يُحْمَلَ على البَرِيد إلى بِشْرِ بنِ مَرْوان . فقال : أيْمَنُ بنُ خُرَيْم أَبْيَاتَه المذكورةَ فى ترجمته :

رَكِبْتُ من المُقَطَّمِ فى جُمَادَى　　　إلى بِشْرِ بنِ مروانَ البريدا

فأعطاه بشرٌ مائةَ ألفِ دِرْهَم .

ولما تَوَجَّهَ إلى بِشْرِ بنِ مروان جازَ فى طَرِيقِهِ بِعَبْدِ الملكِ بنِ مَرْوان ، فقالَ له : أينَ تُرِيد ؟ قال : أُريدُ أخاكَ بِشْرًا يا أميرَ المؤمنين : قال : أتجوزُنى ! !

قال : إِى والله أُجُوزُكَ إلى من قَدِمَ إلىَّ وطَلَبَنِى قال : فلِمَ فارقْتَ صاحِبَكم(١) قال : أراكم يابنى أُمَيَّةَ تَتَّخِذون لِلفَتَى من فِتْيانكم مُؤَدِّبا وشَيْخُكُمْ والله مُحْتَاجٌ إلى خَمْسة مؤدِّبين ، فسَرَّ ذلك عبدَ الملك ، وكان عازما على أن يَخْدَمه و يَعْقِدَ لابْنِه الوليدِ .

وقيل : كان نصيبٌ حَبَشِيًّا يرعى إبلا لمَوَالِيه فأَضَلَّ منها بعيرا ، فخرج فى طلبه حتى بَلَغَ الفُسْطاطَ وبه عبدُ العزيزِ بنِ مَرْوان ، وهو وَلِىُّ عَهْدِ أخيه عبدِ المَلِكِ فقال نصيب : ما بَعْدَ عبدِ العزيز أحدٌ أعْتَمِدُه لحاجَتِى ! ! فأتى الحاجِبَ فقال : استأْذِنْ لِى على الأميرِ ، فإنى قد هَيَّأْتُ له مَديحا ، فدخل الحاجبُ فقال : أصلحَ اللهُ الأميرَ بالباب رجلٌ أسودُ يَسْتأذنُ عليك بمَدِيحٍ قد هَيَّأَه لك ، وظنَّ عبدُ العزيز أَنَّه يهزأُ به ويُضْحِكُهُم ، فقال : مُرْه بالحضورِ ليومِ حاجَتِنا إليه ، فغَدَا نُصَيْبٌ وراحَ إلى بابِ عبدِ العزيز أربعةَ أَشْهُر ، فأتاه آتٍ من عَبْدِ المَلِكِ بما يَسُرُّه فأمرَ بالسَّرِيرِ فأُبْرِزَ للناس ، وقال : عَلَىَّ بالأسْودِ ، وهو يريدُ أن يُضْحِكَ الناسَ منه فدَخَلَ فلما كان حيثُ يَسْمَعُ كَلامَه قال :

لعبد العزيز عــلى قَوْمِهِ	وغَيْرِهُمُ نِعَمٌ غـامِرَهْ
فبابُـك أَلْيَنُ أبوابِهم	ودارُك مَأْهُولَةٌ عامِرَهْ
وكلبُكَ آنسُ بالمُعْتَفِينَ	من الأُمِّ بابْنَتِها الزائِرَهْ
وكَفُّكَ حِينَ ترى السائلين	نَ أَنْدَى من الليلةِ الماطِرَهْ
فمنك العطاءُ ومِنِّى الثناءُ	بكل مُحَبَّرَةٍ سـائِرَهْ

فقال : أَعْطُوه ألفَ دينار . قال : إِنِّى مَمْلوك ، فدعا الحاجبَ فقال : اخْرُجْ فأَبْلِغْ فى قيمتِه ، فدعا المُقَوِّمِين ، فقال : قوِّموا غلاماً أسْوَدَ ليس به عَيْب . فقالوا : مائةُ دينار . فقال : إنه راعٍ للإبل ، يُحْسِن القِيامَ عليها . قالوا : مائتا

(١) صاحبك (أغانى) ١ / ٢٣١ .

دِينار . قال : إنه يَبْرِى القِسِىَّ ويُثقِّفُها ويَرْمى النَّبْلَ ويَرِيشُها قالوا : أربعُمائةِ دِينار . قال : إنه رَاوِيةٌ للشِّعْرِ بَصيرٌ به قالوا : ستُّمائة دينار . قال : إنَّه شاعرٌ لايلحن حرفا[1] ، قالوا : ألفُ دينار . فقال عبدُ العزيز : ادْفَعوها إليه ، قال: أصْلحَ الله الأميرَ ، ثمنُ بَعيرى الذى أَضْلَلْتُ : قال : وكَم ثمَنُه ؟ قال : خمسةٌ وعشرون دينارا . قال : ادفَعوها إليه . قال : أصلح اللهُ الأميرَ ، جائزَتِى لنفْسِى عن مَديحى إيَّاكَ . قال : اشْتَرِ نفْسَكَ ثم عُدْ إلينا ، فأتى الكوفةَ ، وبها بشرُ بنُ مروانَ فاستأذَنَ عليه فاستَصعبَ الدخولَ عليه ، وخرج بِشْرُ بن مروان . فعارَضَه فلما نكبه[2] ـ أى صار حِذاء مَنْكِبه ـ ناداه :

يا بِشرُ يا بنَ الجعفريَّةِ ما خَلَقَ الإلهُ يَدَيْكَ للبُخْلِ
جاءتْ به عُجُزٌ مَقَابَلَةٌ[3] ما هن من جَرْمٍ ولا عُكْلِ

قال: فأَمَرَ له بعَشَرةِ آلافِ دِرْهم . والجعفريةُ التى عناها نُصَيْبٌ هى أمُّ بِشْرِ ابن مَروانَ ، وهى قُطَيَّةُ بنتُ بِشْرِ بن عامرِ بن مُلاعِبِ الأَسِنَّة بن مالك بنِ جعفر ابنِ كِلاب .

مر مروانُ بنُ الحكمِ ببادِيَةِ بنى جَعْفر فرأى قُطَيَّةَ بنتَ بشر تَنْزِعُ بِدَلْوٍ على إبلٍ لها وتقول :

ليس بنا فقرٌ إلى التَّشَكِّى جَرَبَّةٌ[4] كحُمُرِ الأَبَكِّ
* لاضَرَعٌ فيها ولا مُذَكِّى *

فخطَبها مروانُ فتزوجها وحَمَلَتْ فولدتْ له بشرَ بنَ مَرْوان .

---

(١) لا يلحق حذقا (أغانى ١ : ٤٣٣ .
(٢) ناكبه (أغانى) ٣٣٦ .
(٣) عجز : جمع عجوز ـ والمقابلة : الكريمة النسب من قبل أبويها .
(٤) الجربة : الجماعة الغلاظ الأشداء من الناس وغيرهم.

روى العُتْبِيُّ قال : دعا النصيب موالِيه أن يَسْتَلْحِقُوه فأَبَى ، وقال : والله لأن أكُونَ مولًى آبقا(١) أَحَبُّ إلىَّ من أن أكون دَعِيًّا لاحقا ، ولقد علمتُ أنكم إنما تريدون بذلك مالى ، ووالله لا أَكْسِبُ شيئا أبدا إلّا كنتُ فيه أنا وأنتم سواءً كأحدِكم لا أستأثِرُ منه عليكم بشَىْءٍ ، وكان كذلك معهم حتى مات ، إذا أصابَ شيئا قسَمه بينه وبينهم ، وكان فيه كأحدهم .

دخل النصيبُ على سليمانَ بنِ عبدِ الملك ، وعنده الفرزدقُ ، وقد استَنْشَده وهو يَرى أنه سيُنْشِدُه مديحا قيل فيه ، فأنشده قولَه يَفْتَخِر :

وركْبٍ كأنَّ الرِّيحَ تطلبُ مِنْهمُ ... لها تِرَةً من جَذْبِها بالعَصائبِ
سَرَوْا يركبون الريحَ وهى تَلُفُّهم ... على شُعَبِ الأكوارِ ذاتِ الحقائبِ
إذا استَوْضَحوا نارا يقولون ليتَها ... وقد خَصِرَتْ أيديهمُ نارُ غالبِ

قال : وعمامَتُه على رأسِه مثلُ المِنْسف(٢) ، فغاظَ سليمانَ وكَلَحَ فى وجهه وقال لنُصَيْب : قم فأَنْشِدْ مولاكَ ويلك ! فقام نصيبٌ فأنشده قولَه :

أقولُ لِركْبٍ صادرين لَقِيتُهمْ ... على ذات أوْشالٍ ومولاكَ قاربُ
قِفوا خَبِّرونى عن سليمانَ إننى ... لِمَعْرُوفِه من آل وَدَّانَ طالبُ
فعاجوا فأَثْنَوْا بالذى أنت أهلُه ... ولو سكتوا أَثْنَتْ عليك الحقائبُ
وقالوا عهدناه وكُلَّ عَشِيَّةٍ ... بأبوابه من طالبِ العُرْفِ راكبُ
هو البدرُ والناسُ الكواكبُ حَوْلَه ... ولا تُشْبِه البدرَ المنيرَ الكواكبُ

فقال له سليمان : أحسنتَ يانُصَيب ، وأمَرَ له بجائزة ، ولم يَصْنَعْ ذلك بالفرزدق فقال الفرزدق [وقد خرج من عنده](٣) :

---

(١) لائقا (أغانى) .

(٢) المنسف : الغربال الكبير .

(٣) ما بين القوسين عن الأغانى (١ : ٣٣٨) .

وخَيْرُ الشِّعْرِ أكْرَمُه رجالا   وشَرُّ الشعرِ ما قال العبيدُ

حمل عبدُ العزيز بن مروان النصيبَ بِمُقَطَّمِ مصر على بُخْتِيٍّ قد رَحَلَه بِقَبيطٍ فَوْقَه وألْبَسَه مُقَطَّعَاتِ وَشْيٍ ، وأمَرَه أن يُنْشِدَ فاجتمع حوله السُّودانُ وفرحوا به فقال : أسَرَرْتُكم ؟ قالوا : إى والله ، قال : والله لما يَسُوءكم من أهل جِلْدَتِكم أكثر .

مر جريرٌ بنُصَيْب وهو يُنْشد فقال له : اذهَبْ فأنت أشعرُ أهل جِلْدَتِك فقال: وجِلْدَتِك ياأبا حَزْرَة .

كان النصيبُ إذا قَدِمَ على هشامِ بنِ عبد الملك أخْلَى مجلسه له ، واستنشده مَرَاثِيَ بنى أمية ، فإذا أنْشَدَه بكَى وبكى معه ، فأنشده يوما قصيدةً مَدَحَه بها يقول فيها :

إذا استبق الناسُ العلا سَبَقْتَهُم   يمينُك عَفْوًا ثم صَلَّتْ[(١)] شِمَالُها

فقال له هشام: ياأسودُ بلغتَ غاية المديح فسَلْنى ، فقال له : يَدُك بالعطية أجودُ وأبْسَطُ من لسانى بمساءَلَتِك فقال : وهذا والله أحسنُ من الشِّعر وحباه وأحسنَ جائزَتَه .

أصابَ نصيبٌ من عبدِ العزيزِ بن مروان معروفا فكَتَمَه ورجع إلى المدينة فى هيئة بَذَّة[(٢)] . فقالوا : لم يُصِب بمَدْحِه شيئا فمكث مدّةً ثم ساوَمَ بأُمِّه فابتاعها وأعتقَهَا وجاءه ابنُ خالةٍ له اسمه سُحَيْمٌ فسأله أن يُعْتِقَه فقال : مامعى شىء ، ولكنى إذا خرجتُ أخْرَجْتُك معى ولعل الله يُعْتِقك فلما أرادَ الخروجَ دفَعَ غلاما له إلى مولى سُحَيْم يرعَى إبلَه وأخرجه معه فسأل فى ثَمَنِه وأعتقه ، فمرّ به يوما يَزْفِنُ[(٣)]

---

(١) صلت شمالها ، من قولهم : صلى الفرس : إذا جاء ثانيا فى الحلبة فهو مصل . والمقصود تبعتها شمالها .

(٢) البذة : الهيئة الرثة .

(٣) يزفن : يرقص .

ويَزْمُرُ مع السودان فأنكر ذلك عليه وزَجَره فقال له سُحَيم : إن كنتَ أعتقتَني لتصلَ رحمى وتقْضِيَ حقى فهذا الذى أفعلُه هو الذى أريده ، أزْفِنُ وأزْمُر وأفعلُ ما شئتُ فانصرف نصيب وهو يقول :

إنى أرانى لسُحَيْمٍ قائلا إن سُحَيْمًا لم يُثِبْنِى طائلا
نَسِيتَ إعمالِى لك الرواحلا وضَرْبِىَ الأبوابَ فيك سائلا
عندَ الملوكِ أستثيبُ النائلا حتى إذا آنَسْتُ عِتْقًا باتلا[1]
ولَّيْتَنى منك القفا والكاهلا أخُلُقًا شَكْسًا ولونًا حائلا

قال إسحاق : وأبطأتْ جائزةُ النصيبِ عند عبدِ العزيز فقال :

وإنّ وراءَ ظَهْرِى يابن لَيْلَى أناسا يَنْظُرون متى أَؤُوبُ
أُمَامةُ منهم ولِأُقِيمَهَا غداةَ البَيْنِ فى أثَرى غُرُوبُ[2]
تركتُ بلادَها ونأيتُ عنها فأشبهُ ما رأيتُ بها السَّلوبُ[3]
فأتْبِعْ بَعْضَنا بعضًا فلَسْنا نُثِيبُك لكنِ اللهُ المُثِيبُ

فعجَّل جائزتَه وسَرَّحه . قال ابن كُنَاسَة : ليلَى أمُّ عبد العزيز كَلْبِيَّةٌ ، وبلغنى عنه أنه قال : لا أُعْطِى شاعراً شيئا حتى يَذْكرها فى مدحى لشَرَفِها فكان الشعراء يذكرونها باسمها فى أشعارهم.

قال المدائنى : دخل نصيبٌ على عبدِ الملك فتغدَّى معه ، ثم قال له : هل لك فيما نتنادَمُ عليه قال : تأمَّلْنِى ففعل ، وقال : قد فعلْتُ قال : لونى حائلٌ وشَعْرِى مُفَلْفَلٌ ، وخِلقَتِى مُشوَّهَة ، ولم أَبْلُغْ ما بلغتُ من إكرامك لى لشرفِ أبٍ أو أمٍّ

(١) باتلا : باتا — وفى رواية : عاجلا .
(٢) الغروب : الدموع حين تخرج من العين .
(٣) السلوب : التى فقدت ولدها .

ولا غيرهما ، وإنما بلغته بعقلي ولساني فأنشدك اللهَ يا أميرَ المؤمنين أن تحولَ بيني وبين ما بلغتُ به هذه المنزلةَ منك فأعفاه .

خطب ابنُ النصيبِ بعد وفاة سيِّده الذى أعتقه ابنةً له من أخيه فأجابه إلى ذلك، وعرف أباه فقال : اجمعْ وجوهَ هذا الحيِّ لهذه الحالِ ، ثم قال له : أزوَّجتَ ابنى هذا من ابنة أخيك ؟ قال : نعم . فقال لعبيدٍ له سود : خذوا برجلِ ابنى فجرُّوه ، ففعلوا وضربوه ضرباً مبرِّحا، وقال لأخى سيِّده: لولا أنى أكره [أذاكِ][1] لألحقتك به ، ثم نظر إلى شاب من أشراف الحى فقال له : زوِّجْ هذا ابنةَ أخيك وعلىَّ ما يصلحها من مالى ففعل .

قال أبو بكر بن مزيد : لقيتُ النُّصيبَ يوما بباب هشام فقلت له : يا أبا محجَن لم سُمِّيتَ نُصَيْبا ؟ ألقولك فى شعرك عاينها النُّصَيْبُ ؟ قال : لا ، ولكنى وُلِدْتُ عند أهل بيتٍ من ودّان ، فقال سيدى : إيتونا بمولودنا هذا ننظُرْ إليه ، فلما أُتِيَ بى قال : إنه لمُنَصَّبُ[2] الخلْق قال: فسميتُ النُّصَيْبِ ، ثم اشترانى عبدُ العزيز بنُ مروان فأعتقنى .

وكان أبو عبد الله بنُ أبى إسحاق البَصْرِىّ يقول : لو وَلِيتُ العراقَ لاستكتبت نُصَيْبا لفصاحته وتخلُّصِه إلى جيِّد الكلام .

وكان نصيب أسود خفيف العارضين ناتِئَ الحنجرة .

قال نصيب دخلت على عبدِ العزيز بنِ مروان فقال لى : أنشِدْنى قولَك :

إذا لم يكن بين الخليلين رِدَّةٌ[3]
ولا[4] ذِكْرُ شىءٍ قد مضى دَرَسَ الذِّكْرُ

---

(١) ما بين القوسين عن الأغانى ١ : ٣٤١ .

(٢) منصب الخلق : مسواه مستقيمه .

(٣) الردة : البقية .

(٤) سوى ذكر (أغانى) .

فقلت: ليس هذا لى ، هذا لأبى صخر الهُذَلِىّ ولكنى الذى أقول :

وقَفْتُ بذى وَدَّانَ(١) أنشُد ناقتِى وما إنْ بهالى مِنْ قَلُوصٍ ولا بَكْرِ

فقال عبدُ العزيز : لك جائزةٌ على صِدْقِ حديثِك وجائزةٌ على شِعْرِك ، فأعطانى على صدق أَلْفَ دينارٍ وعلى شعرى أَلْفَ دينار .

قال مُسْلِم : رأيت رجلا أسودَ ومعه امرأةٌ بيضاء فجعلتُ أعْجَبُ من سوادِه وبياضِها فدنوتُ منه فقلت: من أنت؟ فقال: الذى يقول:

ألا ليت شعرى ما الذى تحدثين بى غدا غُربةُ النأى المُفَرِّقِ والبُعْدِ

لدى أم بَكْرٍ حين تَقْتَربُ النوى بنا ثم يَخْلُو الكاشحون بها بَعْدِى

أتَصْرِمُنى عند الأُلَى هم لنا العِدَا فتُشْمِتَهُم بى أم تدومُ على العهد

قال : فصاحت : بل تَدومُ على العَهْدِ فسألت عنهما فقيل: هذا نصيبٌ وهذه أمُّ بكر .

قال جويرية : أتى النصيبُ عبدَ الله بنَ جَعْفرٍ فحَمَله وأعطاه وكساه فقال له قائل : يا أبا جعفر، أعْطَيْتَ لهذا العبدِ الأسودِ هذه المطايا فقال: والله لئن كان أسودَ إنّ ثناءه لأبيضُ وإن شِعْرَه لَعَرَبِىّ ولقد استحَقّ بما قال أكثرَ مما نال ، ثم قال : وما هى ! ؟ إنما هى رواحلُ تُنْضَى(٢) وثيابٌ تَبْلَى ودراهمُ تَفْنَى وثناءٌ يَبْقَى ومَدِيحٌ يُرْوَى .

قال المدائِنىُّ : قيل لنُصَيْب : إن هاهنا نسوةً يُرِدْنَ أن يَنْظُرْنَ إليك ويَسْمَعْنَ شعرَكَ قال : وما يصنَعْنَ بى ؟ يَرَيْنَ جلدةً سوداءَ وشعراً أبيضَ ولكن لِيَسْمَعْنَ شِعْرِى وَرَاء(٣) وراء .

---

(١) دوران فى رواية للأغانى ١ ٣٤٢ .

(٢) تنضى : تبلى .

(٣) من وراء ستر (أغانى ١ : ٣٤٤ .

قال عثمانُ بن الضحَّاكِ : خرجت على بعير لى أريدُ الحجَّ فنزلتُ فى فناء خيمةٍ بالأبواء وإذا بجاريةٍ خرجَتْ من الخيمةِ لم أرَ مثلَها حُسْنا فتمثَّلتُ قولَ نُصَيْب :

* بزينبَ أَلْمِمْ قبلَ أن يَرْحلَ الركبُ *

فقالت: أتعرفُ قائلَ هذا الشعر ؟ قلت: نعم ، قالت: ذاك نُصَيْب، ثم قالت: أتعرفُ زينب ؟ قلت : لا . قالت : فأنا زينبُ ، وهذا اليوم الذى وَعدَنِى ، ولعلك لا ترْحَلُ حتى تراه فوقفتُ ساعةً وإذا براكب طَلَع فجاء حتى أناخ قريبا منها ، فنزَلَ وسلَّمَ عليهــا وسَلَّمَتْ عليه ، فقلت : عاشقان التقَيا ، ولا بد لهما من حاجةٍ فقمت إلى راحلتى فشَدَدْتُها . فقال : على رِسْلِك ، أنا معك ، فلبثتُ ساعةً وقام معِى ورَحَلْنا فقال : كأنك قلتَ فى نفسِك كذا وكذا ، فقلت : قد كان ذلك قال : لا وَرَبِّ الكعبةِ المستورةِ ما جلستُ معها قط مجلسا أقربَ من هذا .

دخل نصيبٌ مسجدَ النبى ، صلى الله عليه وسلم ، وعمرُ بن عبد العزيز يومئذ أميرُ المدينة ، وهو جالسٌ بين قَبْرِ النبى ، صلى الله عليه وسلم ، ومِنْبَرِه فقال : أيها الأمير ؛ ائذَنْ لى أُنْشِدْك مراثِىَ عبدِ العزيز فقال : لاتفعل فتحْزُنِنى ولكن أنْشِدْنى قولَك « قفا أَخَوَىَّ » فإن شيطانَك كان لك فيها ناصحاً حين لقَّنَك إياها فأنشده :

قفــا أخَوَىَّ إن الدارَ ليست ... كما كانت بعَهْدِكما تــكونُ

فعُوجا فانظرا أَتُبِيــنُ عمَّا ... سألْنَاها به أم لا تُبِينُ

فظلَّا واقِفَيْن وظلَّ دَمْعِى ... على خَدِّى تجود به الشئونُ

كان نصيبٌ ينزل على عجوزٍ بالجحفةِ إذا قَدِمَ من الشام ، وكان لها بُنَيَّةٌ صفراء وكان يَسْتَحْلِيها ، فلما قَدِمَ وهبَ لها دراهمَ وثيابا وغير ذلك ، فقدم عليهما قدْمَةً وبات بهما فلم يَشْعُرْ إلا بفتًى قد جاءها ليلا فرَكَضها برجله ، فقامت معه وأَبْطَأَ ثم عادتْ وعاد إليها بعدَ ساعة فرَكَلَها فقامت معه ، فأبطأ ، ثم عادَتْ فلما أصبح

نصيبٌ رأى أَثرَ مُعْتَرَكِهما ومُغْتَسَلِهِما فلما أراد أن يَرْحلَ قالت له العجوزُ وبنتُها : بأَبِي أَنْتَ عادَتَكَ فقال لها :

أراكِ طموحَ العَيْنِ مَيَّالَةَ الهَوَى ... لهذا وهذا منك وُدٌّ ملاطفُ

فإن تَحْمِلِى رِدْفَيْن لا أَكُ منهما ... فحبىَ فَرْدٌ لست ممن أرادفُ

ولم يعطها شيئًا ورحل .

ودخل النصيبُ على عمرَ بن عبدِ العزيز بعد ما وَلِيَ الخلافةَ فقال له : إيه يا أسود ! أنتَ الذى تُشَهِّرُ النساءَ بنَسِيبِك فقال : إنى قد تركت ذلك يا أميرَ المؤمنين وعاهدتُ الله عز وجل ألا أقول نَسيبا ، وشَهِدَ له بذلك من حَضَر ، وأثنَوا عليه خَيْرا ، فقال : أمَّا إذا كان الأمرُ هكذا فسَلْ حاجتَك فقال : بُنَيَّاتٌ لى نَفَضْتُ عليهن سَوادى فكَسَوْنَ ، أرغبُ بهن عن السُّودَانِ ويَرْغَبُ عنهنّ البيضانُ ، قال : فتريدُ ماذا ؟ قال : تَفْرِضُ لهنّ . ففعل . قال : ونفقةً لطريقى ، فأعطاه حِلْيَةَ سيفِه وكساه ثَوْبَيْهِ وكانا يساويان ثلاثين درهما .

قال عبد الملك بنُ مروان لنصيبٍ : أنشدنى فأنشده قصيدته التى يقول فيها :

وذو رَوادفَ لا يُلفَى الإزارُ بها ... يُلوَى ولو كان سَبْعاً حينَ يأْتزِرُ

فقال له عبد الملك : يا نصيبُ من هذا ؟ قال : بنتُ عمٍّ لى نُوبِيَّةٌ لو رأيتَها ما شربتَ من يدها الماء ، فقال : لو قلتَ غير هذا لضربتُ الذى فيه عيناك .

ومن شعره فى عبد العزيز :

يقولُ فيحسنُ القولَ ابنُ ليلى ... ويفعلُ فوق أحْسَنِ مايقولُ

فتًى لا يَرْزَأُ الخلّانَ إلاّ ... مودَّتَهمْ ويَرْزَؤُهُ الخليلُ

فبشِّرْ أهلَ مِصْرَ فقد أتاهم ... مع النيلِ الذى فى مِصْرَ نيلُ

وكان نصيبٌ يكنى أبا الحَجْناءِ فهجاه شاعر من أهل الحجازِ فقال :

رأيتُ أبا الحجناءِ فى الناس حائراً ... ولونُ أبى الحجناءِ لونُ البهائمِ

تراه على ما لاحه من سواده وإن كان مظلوماً له وجهُ ظالمِ

فقيل لنصيب : ألا تجيبُه ؟ فقال : لا ، ولو كنت هاجيا أحداً لأجبتُه ولكنَّ اللهَ أوصلني بهذا الشعرِ إلى خيرٍ فجعلتُ على نفسى ألّا أقوله فى شرٍّ وما وصفنى إلا بالسوادِ ، وقد صدقَ ، أفلا أُنْشِدُكم ما وصفْتُ به نفسى ؟ قالوا : بلى ، فأنشدهم قولـه :

ليس السوادُ بناقصِى ما دام لى هـذا اللسانُ إلى فؤادٍ ثابتِ

من كان يرفعه منابتُ أهلِه فبيوتُ أشعارى جُعِلْنَ منابتى

كم بين أسودَ ناطـقٍ ببيانِه ماضِى الجنانِ وبين أبيضَ صامتِ

إنى ليحسُدنى الرفيعُ بناؤُه من فضل ذاكَ وليس بى من شامت

ويروى بناؤه فضْلَ البيانِ وهو أجْود .

قال قائل لنصيب : أيها العبدُ مالَك وللشعرِ ! فقال : أما قولُك عبدٌ فما وُلِدْتُ إلا وأنا حُرٌّ ولكن أهلى ظلمونى فباعونى ، وأما السوادُ فإنى الذى أقول :

فإن أكُ حالِكاً لَوْنى فإنى لعَقْلٍ غـير ذى سَقَطٍ وِعاء

وما نزلتْ بى الحـاجاتُ إلا وفى عِرْضِى من الطَّمَعِ الحياء

قال محمد بن سَلَّام : دخل نصيبٌ على يزيدَ بنِ عبد الملك فقال له : حَدِّثْنى يانُصَيْبُ ببعضِ ما مرَّ عليك . قال : نعم يا أميرَ المؤمنين ، عُلِّقْتُ جاريةً حمراءَ فمكثتُ زمانا تُمَنِّينى بالأباطيلِ ، فلما ألححتُ عليها قالت : إليك عنى ، فو الله لكأنك من طوارق الليل ، فقلتُ لها : وأنتِ ، والله ، كأنكِ من طوارقِ النهار . فقالت : ما أظرَفَكَ يا أسود !! فغاظنى قولُها ، فقلت لها : هل تدرين ما الظَّرْف ؟ إنما الظرفُ العقل ثم قالت لى : أنصرفْ حتى أنظرَ فى أمرِك ، فأرسلتُ إليها بهذه الأبيات :

فإن أكُ حالِكاً فالمسكُ أحْوَى ومَالِسَوادِ جِلْدِى من دَواءِ

ولى كَرَمٌ عن الفحشاءِ نابٍ[1] كبُعْدِ الأرضِ من جَوِّ السماءِ
ومثـــلى فى رجالِـكُمُ قليلٌ ومثلُكِ ليس يُعْدَمُ فى النساءِ
فإن تَرْضَىْ فَرُدِّى قولَ راضٍ وإن تَأْبَىْ فنحن على السَّوَاءِ

فلما قرأت الشعرَ قالت : المالُ والعقلُ[2] يأتيان على غيرهما وتزَوَّجَتْنى .

كان الأصمعى يُنْشِد هـذه الأبيات ويَسْتَجِيدها ويقول : قاتل اللهُ النصيبَ ما أشعره :

وإنْ يكُ من لونى السوادُ فإننى لَـكالمسك لا يَرْوَى من المسكِ ذائقُه
إذا المرءُ لم يَبْذُل من الودِّ مثل ما بَذلْتُ لـه فاعْلَمْ بأنى مُفارِقُه
وما ضَرَّ أثوابى سوادى وتحتهـا لبـــاسٌ من العلياء بيضٌ بنائقُه

جاء رجلٌ إلى أبى نعيم ، الفضل بن دُكَيْن ، فقال : يا أبا نعيم ، الناسُ يزعمون أنك رافِضِىّ ، قال : فأطرقَ ساعة ثم رفَعَ رأسه وهو يبكى وقال : ياهذا أصبحتُ فيكم كما قال نصيب :

ومازال بى الـكتمانُ حتى كأنَّـنِى برَدِّ جواب السائلِى عنك أعْجمُ
لأسْلَمَ من قولِ الوشاةِ وتَسْلَمِى سَلِمْتِ وهل حَىٌّ من الناس يَسْلَمُ

قال محمد بن عبدربه: دخلتُ مسجد الـكوفة فرأيتُ رجلا لم أَرَ قطُّ أشدَّ سواداً منه ، ولا أَنْقَى ثيابا ، ولا أحسن زِيًّا فسألت عنه فقيل لى : هذا نُصَيْب فدنوت منه فحادثتُه ثم قلت له : أخْبِرنى عنك وعن أصْحابِك . فقال : جميلٌ إمامُنا ، وعمرُ ابن أبى ربيعة أوصفُنَا لربَّاتِ الحجالِ ، وكُثَيِّرٌ أبْكَانَا على الـدِّمَنِ وأمدحُنا للملوكِ ، وأما أنا فقد قلتُ ما سمِعْتَ فقلت : إن الناسَ يزعمون أنكَ لا تحسنُ أن تَهْجو فضحَك ثم قال : أتراهم يقولون : إنى لا أُحْسِن أن أَمْدَح ؟ فقلت : لا . قال :

---

(١) ناء (أغانى) .

(٢) والشعر (أغانى) .

أفما ترانى أُحْسِنُ أن أجملَ مكان عافاكَ اللهُ خزاكَ الله ؟ قال : قلت : بلى ، قال : إنى رأيتُ الناسَ رَجُلَيْن ، إمَّا رجلٌ لم أَسْأَلَهْ شيئا فلا ينبغى أن أَهْجُوَه فأظلِمَه ، أو رجلٌ سألتُه فمنَعَنِى فنفسِى كانت أحقَّ بالهجاء إذ سَوَّلَتْ لى أن أسأله وأن أطلبَ مالديه .

قال إسماعيل بن المختار مولى آل طلحةَ : خرج النصيبُ أبو مِحْجَنٍ هو وكثيِّرٌ والأحوصُ غِبَّ يوم أمطرتْ فيه السماء ، قال : هل لكم أن نرْكَبَ فنَسيرَ حتى نأتى العَقِيق فنمتّع فيه أبصارنا قالوا : نعم ، فركبوا أفضلَ ما يقدرون عليه من الدوابِّ ، ولبسوا أحسنَ ما يقدرون عليه من الثياب ، وتنكَّروا ثم ساروا إلى العقيق ، فجعلوا يتَصَفحون(١) فيرون بعضَ ما يشتهون حتى رُفِع لهم سوادٌ عظيم فأتوه فإذا وصائفُ ورجالٌ من الموالى ونساءٌ بارزاتٌ فسألنهم أن ينزلوا فاستحيَوْا أن يُجيبوهم من أوَّل وهلة ، فقالوا : لا نستطيع حتى نَمضِى فى حاجةٍ لنا فحلَّفْنَهم أن يرجعوا إليهن ، ففعلوا وأتوهن ، فسألْنَهم النزول فنزلوا ، ودخلت امرأةٌ من النساء فاستأذَنتْ لهم ، فلم تلبث أن جاءت فقالت : أدخلوا فدخلنا على امرأةٍ جميلةٍ برزة على فَرْشٍ لها فرحَّبَتْ وحيَّت وإذا كراسىُّ موضوعة ، فجلسنا جميعا فى صفٍّ واحد ، كلُّ إنسان على كُرْسِىٍّ فقالت : إن أحببتم أن نَدْعو لنا بصبىٍّ فنُصَيِّحَه ونَفرُكَ أذنيه فعلنا ، وإن شئتم بدأنا بالغَدَاء فقلنا : تَدْعِين بالصَّبىِّ ولن يفوتنا الغَدَاء فأومأَتْ بيدها إلى بعضِ الخدَمِ فلم يكن إلا كَلَا ولاَ(٢) حتى جاءت جاريةٌ جميلةٌ قد سُتِرَتْ بمِطْرَفٍ فأمسكوه عليها حتى ذهب بُهْرُها ثم كُشِفَ عنها فإذا جارية ذاتُ جمال قريبةٌ من جمال مولاتها فرحبتْ بهم ثم حيَّتْهم فقالت لها مولاتها : خذى ويحك ، من قولِ النُّصَيْبِ عافَى الله أبا مِحْجَن :

---

(١) تصفح الشيء : نظر إليه ليعرفه .

(٢) تعبير يراد به تقليل مدة فعل الشيء أو ظهور شيء خفى .

ألا هَلْ من البينِ المَفرِّق من بُدٍّ | وهل مثـــلُ أيامٍ بمنقطَع السَّعْدِ
تمنيت أيامِى أولئـــك والمُـنَى | على عهد عادٍ ما تُعيدُ وما تُبْدِى

فغنَّتْه فجاءت به كأحسنِ ما سَمِعْتُه قط بأشْجَى صوتٍ وأحلَى لَفْظٍ ثم قالت لها : خذِى أيضا من قَوْلِ أبى مِحْجَن عافى الله أبا محجن :

أرِقَ المحبُّ وعـــادَه سُهْدُه | لطوارقِ الهمِّ الـــتى تَرِدُهْ
وذكرتُ من رَقَّتْ له كَبِدى | وأَبَى فليس تَرِقُّ لى كَبِـــدُهْ
لا قَوْمُه قَوْمِى ولا بَلدِى | ـ فنكونَ حيناً جيرةً ـ بَلَدُهْ
ووجدتُ وَجْدًا لم يكُنْ أحدٌ | قبلِى من أجْلِ صبابةٍ يَجِدُهْ
إلا ابنُ[1] عَجْلَانَ الذى تبلَتْ | هندٌ ففاتَ بنفسِـــه كَمَدُهْ

قال: فجاءت به أحسنَ من الأولِ وكدتُ أطيرُ سرورا ، قالت لها : خُذِى من قول أبى مِحْجَنٍ أيضا ، عافى الله أبا محجن :

فيالَكَ من ليلٍ تَمتَّعْتُ طُولَه | وهل طائفٌ من نائم مُتَمَتِّعُ
نعم إن ذا شجو متى يَلْقَ شَجْوَه | وهل نائم[2] مستمتع مودع
له حاجة قد طالما قد أَسَرَّهـا | من الناس فى صدرٍ بها يَتَصَدّع
تحمَّلَها طُولَ الزمانِ لعلّهـــا | يكونُ لها يوما من الدهرِ مَنْزَعُ
وقد قُرِعَتْ فى أمِّ عمرٍو لك العصا | قديما كما كانتْ لذى الحِلْمِ تُقْرَعُ

فجاءت بشىء حَيَّرَنِى وأذهَلَنِى طَرَباً لحسن الغناء ، وسرورا باختيارها الغناء من شعرى ، وما سمعتُ من حُسْنِ صنعَتِه وجَوْدَتِها وإحكامِها ثم قالت لها : خذى ويحك أيضا من قولِ أبى مِحْجن ، عافى الله أبا مِحْجن :

يا أيها الركبُ إنِّى غير تابِعِكُم | حتى تُلِمُّوا وأنتمْ بى تُلِمُّونا

---

(١) يريد به عمرو بن العجلان ، أحد بنى كاهل بن الحيان بن هذيل المعروف بعمرو ذى الكلب .
(٢) ولو نائما مستعتب أو مودع (أغانى ١ : ٣٥٨) .

فما أرى مثلكم ركبا كشكلكم يدعوهم ذو هوًى إلا يعودونا[1]

أم خبِّرونى عن دائى بعلمكم وأعلمُ الناس بالداء الأطبُّونا[2]

قال نصيبٌ : فوالله لقد زُهيتُ زَهْوًا خُيِّل إلىَّ أنى من قريش ، وأن الخلافةَ لى ، ثم قالت : حسبك يا بُنَيَّة هاتِ الطعامَ يا غلامُ ، فوثب الأحوصُ وكثيّر وقال : والله لا نَطْعَمُ لك طعاما ولا نَجْلِسُ لك فى مجلسٍ ، فقد أسأتِ عشرتنا واستخففت بنا ، وقدمت شعرَ هذا على أشعارنا ، واستمعت الغناءَ فيه وإن فى أشعارنا لما يَفْضُلُ شِعْرَه وفيها من الغناء ما هو أحسنُ من هذا ، فقالت: على مَعْرِفةٍ كلٌّ ما كان منى ، فأىُّ شِعرِكما أفضلُ من شعره أقولُك يا أحوص :

يَقَرُّ بعينى ما يَقَرُّ بعينها وأحسنُ شىء ما به العينُ قَرَّتِ

أم قولُك يا كُثيِّر فى عزة :

وما حسبَتْ ضَمْرِيَّةٌ عَدَوِيَّةٌ سوى التَّيْسِ ذى القرنين أنَّ لها بَعْلا

أم قولك فيها :

إذا ضَمْرِيَّةٌ عَطَسَتْ فنِكْها فإن عُطاسَها طَرَفُ السِّفادِ

قال: فخرجا مغضبين واحتبستنى وأمرَتْ لى بثلاثمائة دينارٍ وحُلَّتين وطِيبٍ ثم دفعتْ إلىَّ مائة دينار وقالت : ادفعْها إلى صاحِبَيْك فإن قَبِلَاها وإلا فهى لك ، فأتيتهما منازلَهما فأخبرتُهما القصةَ فأما الأحوصُ فقَبِلَها وأما كُثيِّرٌ فلم يَقْبَلْها ، وقال : لعن الله صاحبتَك وجائزتَها ولعنَكَ معها ، فأخذتها وانصرفتُ وسألت نصيبا : مَنِ المرأة ؟ فقال : امرأة من بنى أميةَ ولا أذكُرَ اسمها ما حييتُ لأحد .

كان الطاعونُ قد وقع بمصر فى زمن ولايةِ عبد العزيز بن مروانَ لما نَخرج هاربا منه فنزل بقريةٍ من قُرى الصعيدِ يقال لها سُكَر[3] فقدم عليه حين نزلها رسولٌ

(١) يعوجونا (أغانى ١ : ٣٥٩) .

(٢) الأطب : البارع فى الطب .

(٣) موضع بشرقية الصعيد بينه وبين مصر يوم كان يخرج إليه عبد العزيز بن مروان كثيرا .

لعبدالملك فقال له عبدُ العزيز : ما اسمك ؟ قال: طالبُ بنُ مُدْرِك فقال : أوَّهْ ما أرانى راجعا إلى الفُسْطاط أبدًا ، ومات فى تلك القرية ، فقال نصيب يرثيه :

أُصِبتُ يوم الصَّعيدِ فى سُكَرٍ — مصيبــةً ليس له بها قِبَــلُ
تالله أنْسَى مُصِيبتِى أبداً — ما أسمَعَتْنِى حَنينَها الإبلُ
ولا التَّبَــكِّى عليه أُعْوِلُه — كل المصيباتِ بَعْدَه جَلَلُ
لم يعلم النعشُ ما عليه من الـــ — ـعُرْفِ ولا الحاملون ما حَمَلُوا
حتى أجَنُّوه فى ضريحهم — حين انتهى من خليلك الأملُ

دخل نصيبٌ على عبدِ الملك بنِ مروان فقال له أنشدنى بعض ما رَثَيْتَ به أخى فأنشده قوله :

عرفتُ وجَرَّبْتُ الأمورَ فما أرى — كماض تلاه الغابرُ المتأخرُ
ولــكنَّ أهلَ الفضلِ من أهلِ نِعْمتى — يرون أسلافاً أمامِى وأغْبُرُ
فإن أبْـكِهِمْ أُعْذَر وإن أَغْلِب الأَسَى — بصبرٍ فمثلِى عندما اشْتَدَّ يَصْبِرُ
وكانت ركابى كلما شِئْتُ تَنْتَحِى — إليك فتَقْضِى نَحْبَها وهى ضُمَّرُ
ترى الوِرْدَ يُسْرًا والثواءَ غنيمةً — لديك وتُثْنِى بالرضا حين تَصْدُرُ
فقد عَرِيَتْ بعد ابنِ ليلى فإنمــا — ذُرَاها لمن لاقتْ من الناس مَنْظَرُ
ولو كانَ حيًّا لم يزلْ بدُفُوفِهــا — مَرَادٌ لغربانِ الطريق ومنْقَر
فإن كنَّ قد نِلْنَ ابنَ ليلى فإنه — هو المُصْطَفَى من أهله المتخيَّرُ

فلما سمع عبد الملك قوله :

* فإن أبكهم أُعْذَرْ وإن أَغْلِب الأَسَى *

قال : ويلك أنا كنتُ أحقَّ منك بهذه الصفة فى أخى فهَلّا وصفتنى بها وجعل يبكى .

قال عبدُ الله بنُ إسحاقَ البصرى : لو وَلِيت العراقَ لاستكتبتُ نصيبا فقيل له: لماذا ؟ قال : لفصاحتِه وحسنِ تخلّصِه إلى جيدِ الكلام . ألم تسمع إلى قوله :

فلا النفسُ مَلّتْها ولا العينُ تَنتَهِى ... إليها سوى[1] فى الطَّرْفِ عنهافترْجِعُ

رأتْها فما تَرْتَدُّ عنها سآمةً ... ترى بدلًا منها به النفسُ تقنع

قال ابن أبى عتيق لنُصيب : إنى خارجٌ أفترسلُ إلى سُعْدَى بشىء قال : نعم بيتى شعر قال : قل فقال :

أتصبرُ عن سُعدى وأنت صَبُورُ ... وأنت بحُسْنِ الصبر منك جَدِيرُ

وكدتُ ولم أُخْلَقْ من الطيرِ إن بدا ... لها[2] بارقٌ نحو العراق أطيرُ

فأنشد ابنُ أبى عتيق لسُعْدى البيتين فتنفسَتْ تنفساً شديدا ، فقال ابن أبى عتيق : أوَّهْ أجبْتِه والله بأجودَ من شعره ، ولو سمعك لنَعَق وطار إليك . وقيل إن ابن أبى عتيق لما سمع قوله :

وكدتُ ولم أُخْلَق من الطير إن بدا ... لها بارقٌ نحو العراق أطيرُ

قال له : يا ابن أمّ قُلْ : غاقِ فإنك تطير ، يعنى أنه غراب لسواده .

دخل نصيبٌ على إبراهيمَ بنِ هشام فأنشده مديحا فقال له إبراهيم بن هشام : ما هذا بشىء أين هذا من قول أبى دَهْبَل لصاحبنا ابن الأزرق حيث يقول :

[إنْ تَغْدُ من مَنْقَلَىْ نجران مرتحلا ... يَرْحَلْ من اليمن المعروف والجود

قال : فغضب نصيبٌ ونَزَع عمامته وبرك عليها وقال : لئن تأتونا برجالٍ][3] مثل ابنِ الأزرقِ نأتِكم بمدحٍ مثلِ مدحِ أبى دَهْبَل أو أحسن ، والمديحُ والله إنما يكونُ على قَدْرِ الرجال ، فأطرق ابنُ هشامٍ وعَجِبوا من إقدامِ نُصَيْب عليه ومن حلم ابن هشامٍ عنه ، وهو غيرُ حليم .

---

(١) إليها سوام الطرف (أغانى) .
(٢) سنا (أغانى) .
(٣) غير ظاهرة فى الأصل وما كتب عن الأغانى .

قال عبد الرحمن بن عبد الله الزُّهْرى: كان نصيب ربما قَدِمَ من الشام فيَطْرَح فى حِجْرِ أمِّ بكرٍ الخزاعيةِ أربعمائةِ دينار ، وأن عبدَ الملك ظهرَ على تعلّقِه بها وتَشْبيبه بها فنهاه عنها وتوعَّده حتى كفَّ عن ذلك .

كان نصيبٌ قد أجْدَبَتْ إبلٌ له وحالَتْ[1] ، وكان لرجل من أسْلَم عليه ثمانيةُ آلافِ درهمٍ ، فوقف على عبد العزيز بن مروان ، فقال له : جعلتُ فداءَك إنى حَمَلْتُ دينًا فى إبلٍ ابْتَعْتُها مُجْدِباتٍ حيال[2] وقد قلت فيها شعراً :

فلما حَمَلْتُ الدَّين فيها وأصبحتْ حيالاً مُسِنَّاتِ الهوى كِدْتُ أندَمُ

على حينِ أن رَاثَ[3] الرَّبيعُ ولم يكن لهـا بصعيدٍ من تِهامَةَ مَقْضَمُ

ثمانيةٌ للأَسْلَمِيِّ وما دنا لفُحْشٍ وما يدنو إلى الفحش أسْلَمُ

فقال له عبد العزيز : فما دَيْنُكَ؟ قال : ثمانيةُ آلافِ درهمٍ . قال : قد أمرنا لك بثمانية آلافِ دِرْهم للأَسْلَمِيِّ وثمانيةِ آلافِ درهم لك . فلما رَجَع أنشد الأسلميَّ الشعرَ فترك ماله عليه ، وقال: الثمانية آلافِ درهمٍ لك .

قال أبو النجم : أتيت الحَكَمَ بن المُطَّلِب فمدَحْته وخرج إلى السِّعَايَةِ فخرجنا معه ، ومعنا عِدَّةٌ من الشعراء ، فبينا هو مع أصحابه يوما واقف إذا هـو براكب يُوضِع فى السَّرابِ ، وإذا هو نصيبٌ فتقدم إليه فمدَحه فأمر بإنزاله ، ومكث أياما ثم أتاه ، فقال له : إنى قد خلَّفتُ صبيةً صغاراً وعيالا ضعافا ، فقال : ادخل الحظيرة فخُذْ منها سبعين فريضة فقال له : جعلنى الله فداءك قد أحسنت ومعى ابن أخ لى أخاف أن يثلمها علىّ قال : فادخل الحظيرة فخذ منها سبعين فريضة أخرى فانصرف بمائة وأربعين فريضة[4] :

---

(١) حالت الحائل : الناقة التى حمل عليها ولم تلقح أو التى لم تلقح سنة أو سنتين أو سنوات.

(٢) جمع حائل .

(٣) راث : أبطأ .

(٤) الفريضة : القلوص التى تكون بنت سنة .

قيل لنُصَيبٍ : هَرِمَ شِعْرُكَ . قال : لا والله ما هَرِم ولكنَّ العطاءَ هَرِم ، ومن يُعْطِينى كما أعطانى الحكمُ بنُ المُطَّلِبِ ، خرجتُ إليه وهو ساعٍ على بعضِ صدقاتِ المدينة فلما رأيته قلت :

أبا مروانَ لستَ بخارِجىٍّ ... وليس قديمُ مجدِكَ بانتحالِ

أغرُّ إذا الرِّوَاقُ انجابَ عنه ... بدا مثلَ الهلالِ على المِثالِ

تَراهُ العيونُ كما ترَاءَى ... عَشِيَّةَ فِطْرِها وَضَحَ الهلالِ

قال : فأعطانى أربعمائة ضائنةٍ ومائة لَقْحَة ، وقال : ارفع فراشى فرَفَعْتُه فأخذت مائتى دينار .

قال سعيد بن بشر بن عبد الله بن عَقيلٍ الخارِجىّ : إنى لَمَع أبى عبيدة بن عبدِ الله بن زَمْعَةَ [فى حواء له](١) إذ جاءه كُثَيِّر فحيّاه فاحتفى به ، ودعا بالغداء فشرعنا فيه ، وكثير معنا ، وجاء رجلٌ فسَلَّم فرددنا عليه السلام واستدنيناه ، فإذا هو نُصَيْب فى بِزَّةٍ جميلةٍ قد وافى الحجَّ قادما من الشام ، فأكب على أبى عبيدةَ فعانقه ، ثم دعاه إلى الغداء فأكل مع القوم . فجشع(٢) كثير وأقلع عن الطعام فأقبل عليه أبو عبيدة ، والقومُ جميعا يسألونه أن يأكلَ فأبى ، فتركوه فأقبل كثيرٌ على نُصَيْب فقال : يا أبا محجن إن أثرَ الشامِ عليك جميلٌ ، لقد رجعت هذه الكَرَّةَ ظاهرَ الكِبر قليلَ الحياء ، فقال له نصيب: لكن أثرَ الحجاز عليك يا أبا صَخْر غير جميل وإنك لزائدُ النقصِ قليلُ الحياءِ كثيرُ الحماقةِ . فقال كثير : أنا أشعرُ العرب حيث أقول لمولاتك :

إذا أمْسَيْتُ بَطْنُ مَجاحَ دُونِى ... وعَمْقٌ دون عَزَّةَ فالبقيعُ

فليس بلائمى أحدٌ يصلِّى ... إذا أخذتْ مَجارِيها الدموعُ

---

(١) ما بين القوسين عن الأغانى .

(٢) فرفع كثير يده (أغانى ١/٣٦٧) .

فقال له نصيبٌ : أنا أشعرُ منك حيث أقول لابنة عمك:

خليليّ إن حلَّتْ كُلَيَّة بالرُّبا ... فذا أَمَجٍ فالشِّعْبَ ذا الماء والحَمْضِ
فأصبح من حَوْرانَ رَحْلى بمنزلٍ ... يُبَعِّدُه من دونها نازحُ الأرضِ
وأيأستُما أن تَجمع الدار[1] بيننا ... نخوضا بىَ السمّ المضرّج بالمَحْضِ
فى ذاك من بعض الأمور سلامةٌ ... ولَلْموتُ خيرٌ من حياةٍ على غَمْض

قال : فاقتحم إليه كثيرٌ ، وثبت له النصيبُ ، فلما نالته رِجْلاه رمَحَه نصيبٌ بساقِه رمحةً طاح منها بعيدًا عنه فما زال راقدًا حتى أيقظناه عشيا لرمى الجمار .

دخل نصيب على إبراهيمَ بن هشام ، وهو والٍ على المدينة ، فأنشده مديحا له فقال له إبراهيم : قم إلى تلك الراحلةِ المَرْحولةِ نُخذْها برَحْلِها ، فقام إليها نصيبٌ متباطئاً ، والناس يقولون : ما رأينا عطية أهنأ من هذه ، ولا أكرم ولا أجزل ، فسمع نصيبٌ فأقبل عليهم وقال : إنكم والله قل ما صاحَبْتمُ الكرامَ وما راحلةٌ ورَحْلٌ حتى ترفعوها فوق قدرها .

أتى نصيبٌ مكة فقصد المسجدَ الحرامَ ليلًا ، فبينا هو كذلك إذ طلع عليه ثلاثُ نسوةٍ ، فجلسن قريبا منه ، وجعلن يتحدثن ويتذاكرن الشعر والشعراء ، وإذا هن من أفصح النساء ، فقالت إحداهن : قاتل الله جميلا حيث يقول :

وبين الصَّفا والمرْوَتَيْن ذكرتُكم ... بمختلفٍ من بين ساعٍ ومُوجِفِ
وعند طوافى قد ذكرتُك ذُكْرةً ... هى الموت بل كادتْ على الموتِ تضعف

فقالت الأخرى: قاتل الله كثيِّر عزّة حيث يقول :

طلَعْنَ علينـــا بين مَرْوةَ والصَّفا ... يمُرْنَ على البطحاء مَوْرَ السحائب
وكِدْنَ لعمْرُ الله يُحْدِثْنَ فتنــةً ... لمختَشِعٍ من خشيــةِ الله تــائبِ

---

(١) يجمع الدهر (أغانى ١/٣٦٨) .

فقالت الأخرى : بل قاتل الله ابن الزانية نُصَيبا حيث يقول :

أَلامُ على ليلى ولو أستطيعهُـا　　وحُرْمةِ ما بين البَنِيَّةِ والسِّتْر

لَمِلْتُ على ليلى بنفسىَ مَيْـلةً　　ولو كان فى يوم التَّحَالُقِ والنَّحْرِ

فقام نصيب إليهن فسلم عليهن فرددن عليه السلام وقال لهن : اسمعن فأنشدهن قصيدته التى أوّلها :

ويومَ ذى سَلَمٍ شاقَتْكَ نائحةٌ　　وَرْقاء فى فنن والريحُ تضطربُ

فقلن له : نسألك الله ، وبحقِّ هذا البيت من أنت ؟ فقال : أنا ابن المظلومة المقذوفة بغير جُرْم ، نصيب . فقمن إليه وسَلَّمْنَ عليه واعتذَرَتِ القائلة إليه وقالت : والله ما أردت سوءا ، وإنما حملنى الاستحسانُ لقولك على ما سمعتَ فضحك وجلس إليهن يحادثهن إلى أن انصرفن .

فهرست تراجم الكتاب

(حرف الميم)